

الإيديولوجية الإسلامية

الطبعة الأولى

١٣٩٩ - ١٩٧٩

عبد الحميد اللهيبر


شبكة الفكر
alfeker.net

الأيديولوجية الإسلامية

عبد الحميد المهاجر


جميع الحقوق محفوظة

الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ اِهْدِنا الصِّراطَ
المُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلا الضّالِّينَ .

صدق اللهُ العلي العظيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بحوث اسلامية ، كتبتها في غضون ايام رمضان المبارك ، لتكون نورا ، لمن يريد الخلاص من الظلام .. وهي التجربة الاولى في طريق الكتابة الطويل فمن خلال ممارستي للتبليغ الاسلامي في الخطابة تكونت لدي قناعة كاملة ، بأن للقلم دورا كبيرا ، في المعركة الدائرة ، بين النور والظلام .. بين الحق والباطل — وبين الصلاة والارتداد .. ! .

وليس من المصادفة أن تكون أول سورة في القرآن ، تتحدث عن دور القلم في بناء الانسان ، وزرع الحضارة ، ثم تأخذ من القلم طريقا نحو التكامل العلمي ، والعملي ، في رحلة الانسان في الارض ..

ومن الله استمد التوفيق لاكمال المشوار في طريق الكتابة والتأليف ، والله سبحانه من وراء القصد .

عبد الحميد المهاجر

الكويت في ١٥ رمضان ١٣٩٩



الفصل الأول

التغيير أساس النجاح



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله العظيم ، في كتابه الكريم :

« .. ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » .

الحديث حول هذه الآية المباركة ، ليس للتبرك بقرائتها فحسب ، وانما لانها تضع امامنا قاعدة علمية في الحياة ، تنطبق على الذرة والخلية ، كما تنطبق على النبات والحيوان ، والانسان .

وعندما نتحدث عن القانون الطبيعي الذي تشير اليه الآية المباركة ، وهو قانون التغيير في ما يخص النفس ، فاننا نشعر بعمق المأساة التي يعانيها الانسان في العصر الحديث ، — في عصر تجزءة الذرة ، وانفلاق الخلية ،.. وان كان الاجدر به ان يسمى عصر الجوع والحرمان ، والارهاب ، ! .

ان الحضارة الحديثة ، خلعت على الدنيا ، اجمل ثوب مادي ، واخذت الارض زخرفها ، وازينت ، ، وظن اهلها انهم قادرون عليها .

فالحضارة المادية ، اعطت الانسان عقولا الكترونية عملاقة ، تحل له اعقد المسائل الرياضية العالية ، ولكنها فشلت في حل مشاكل هذا

الانسان نفسه ، ! .

اجل :

فشلت في حل مشاكله ، الاقتصادية ، والسياسية ، والاخلاقية ، والاجتماعية والفكرية ! .

صحيح ان الانسان استطاع ، — في العصر الحديث — ان يصل الى القمر ، ويمشي على تراب القمر .. وان الانسان استطاع ، ان يرسل صورا ملونة ، من المريخ ، والزهرة ، وعطارد ، الى الارض ، . ولكنه لم يستطع أن يأخذ صورا حقيقية لحياته ، ويغير حياته بشكل يتناسب مع دوره في الارض ، ! .

وصحيح أن الانسان استطاع ، ان يغوص في اعماق الطبيعة ،ويسترق سمعها ، ويعرف خلجاتها .. ولكنه لم يتمكن ان يغوص في اعماق نفسه ويدرسها ، ويسمع نبضاتها ، ! .

فالامريكان ، والروس اتفقوا على غزو الفضاء غير انهم لم يتفقوا على اطعام الجائعين ، وانعاش ، المحرومين ! .

انه العلم الخاوي من الايمان .

انها الحضارة الكافرة بالله .

وما قيمة العلم ، اذا لم يكن مسربلا بالايمان ؟ .

ان الرائد : الفضائي (ارمسترونغ) صعد على سطح القمر ، وداس جبين القمر باقدامه ، والتقط صورا زاهية عن القمر ، وجلب معه حفنة من الحجارة القمرية ، . ولكنه ساعة رجوعه الى الارض ، كان اول عمل قام به هو :

انه ضرب زوجته ضربا مبرحا ، ثم طرد اولاده من البيت ، في قصة معروفة ذكرتها الصحف في وقتها ! .

وهذا يعني ان العلم الحديث ، استطاع ان يأخذ الانسان الى القمر ولكنه لم يستطع ان يعطي الانسان اخلاقا يعيش بها مع زوجته واطفاله ، في هدوء ، وسعادة ، ! .

ان العلم تمكن ان يحلق بالانسان في الجو ، ولكنه لم يتمكن ان يوفر رغيف خبز للانسان الجائع ! .

فهذه السنوات العجاف تضغط على عنق البشرية وتلكم الملايين من البشر ، يطاردهم الجوع ، ويطحنهم الفقر ، حتى ذكرت الامم المتحدة ، في اخر تقرير لها : ان في العالم — اليوم — اكثر من الف مليون انسان يعيشون حياة اقل ما يقال عنها ، انها دون مستوى كرامة الانسان ، وذلك : بسبب الفقر والحرمان !.

ناهيك عن الشعوب الفقيرة ، المنهوكة بدولاب الاضطهاد ، والقمع !

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، تعالوا قليلا الى حيث الظلال الحالمة التي تبسطها الاية المباركة في طريقنا .

الآية تقول :

« .. ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » .

في الكون ثلاثة اشياء حية — حسب ما يقول علم الاحياء — وهي : النبات ، الحيوان ، والانسان .

ومن الطبيعي ان هذه الاحياء الثلاثة ، تتعرض للفساد خلال رحلتها

الحياتية ، والفساد يعتريها من الداخل ، والخارج ، ولكل واحد من هــــذه الانواع الثلاثة الحية ، تجاه الفساد أسلوب خاص به !.

فالنبات ـــ مثلا ـــ اسلوبه تجاه الفساد هو : الاستســـلام المطلـــق لانه لا يستطيع ان يغير نفسه ، ولا يقدر ان يغير مكانه . في حين ان الامر يختلف ـــ تماما ـــ بالنسبة للحيوان ، اذ ان الحيوان يستطيع ان يغيـــر مكانه ، ولا يستطيع أن يغير نفسه !، اما الانسان فهو المخلوق الوحيـــد الذي في امكانه أن يغير نفسه ، ومحيطه معا .

ولكي تتضح المسالة اكثر . اضرب لكم المثال التالي :

لنأخذ النبات اولا .

كل شجرة ، وكل نبتة ، تموت بمجرد هجوم الفساد عليها ـــ داخليـــا ـــ كان ـــ او خارجيا !.

فالشجرة لكي تبني نفسها وتعطي الثمر ، لا بد لها من عقد علاقـــة وثيقة ، مع الارض أولا ، ومع السماء ثانيا فهي تأخذ من الارض املاحها، وتمتص بجذورها العناصر الكيمياوية التي تمدها بالبقاء ، والحياة ، مثـــل : الفسفور ، الكبريت ، الكالسيوم ، الصوديوم ، النيتروجـــين ، الجيـــر ، الحديد الى اخر قائمة العناصر الكيمياوية ، حسب سلسلة الاحماضـــــ الأمينة ! في أخذ المقاديـــر من العناصر بدقة متناهية .

ولكن اذا حدث اختلال ، في اخذ تلك المقادير ، بفعل الجراثيـــم ، والطفيليات التي تدخل في النبتة فتنتشر فيها الفساد ، . اذا حدث ذلك . فان النبتة لا تستطيع ان تغير ما في داخلها من فساد وسرعان ما تموت ، بفعل السوس (التسوس) الذي اصابها من الداخل ، !

وكما في الارض ، كذلك في السماء ، لان الشجرة تحتاج الى الهـــواء والشمس ، بمقدار ما تحتاج الى العناصر الكيمياوية ، من الارض .

فلو وضعنا زهرة في نفق مظلم ، ليس فيه منفذ للشمس ، ولا للهواء، فان هذه الزهرة ستموت ولا يمكن ان تستمر في الحياة ،!

لمـــاذا ؟!

لانها تعرضت للفساد الخارجي ، وهي لا تقدر ان تغير مكانها الـــى مكان افضل ، يتوفر فيه الهواء والشمس !.

اذن : فالنبات ليس في مقدوره ان يغير نفسه ولا مكانه ... في حين ان الحيوان في امكانه ان يغير مكانه ولكنه هو الاخر ، ليس في مقدوره أن يغير نفسه ، وهو بهذه القدرة على التغيير الخارجي استحق ان يكـــون ارقى من النبات بدرجة واحدة ،!

واليكم المثال التالي :

عندما نلقي نظرة خاطفة على عالم الحيوانات فاننا نكشف — عـلى الفور — ان الحيوانات في مقاومتها للفساد الخارجي ، تستطيع ان تغـير مكانها فقط ، دون ان يكون في وسعها ان تغير نفسها من الداخل .!

وذلك لانها من الداخل ، مشدودة بغرائزها وتجري في حياتها — وفق ذبذبات الغرائز !.

فالاسد يولد شجاعا ، ولا يستطيع ان يجعل من نفسه جبانا . والفار يولد جبانا وهو لا يقدر ان يخلق من نفسه ، أسدا مغوارا ، . وما ينطبق على الاسد ، والفأر ينطبق على بقية الحيوانات ، — فالذئب — مثـــلا — يولد عدوا للغنم ، ولا يتمكن ان يعيش معها في أمن وسلام . كأن يجعل من نفسه وليا حميما للغنم ، مكان العدو اللدود ،!

ونفس الشيء في الكلب والغزال ، . فالكلب يولد وفيا ولا يستطيـــع

ان يغير نفسه من وفي الى خائن ! وكذلك الغزال ، يولد ذكيا ، وليس في امكانه ان يكون بليدا غبيا ..!.

على ان الحيوان الذي لا يتمكن ان يغير نفسه — لانه مشدود بقيادة الغرائز — يستطيع ان يغير مكانه كأن ينتقل من مكان الى مكان اخر . عندما لا يجد الماء والعشب . وعلى هذه الطريقة جرت هجرة الطيور والاسماك، وبقية الحيوانات البرية الاخرى .

فالطيور المهاجرة ترتحل خلال السنة ، من منطقة الى اخرى ، والاسماك المهاجرة تنتقل من بقعة في البحر الى اخرى .!

اذن : فالحيوان — باعتباره ارقى من النبات يستطيع ان يغير مكانه، على الرغم من انه لا يقدر على تغيير نفسه ، ولا بمقدار ذرة واحدة !.

اما الانسان فهو — وحده — الذي في امكانه ان يغير نفسه ، ويغير مكانه ، بفعل الارادة .

وفي القرآن الكريم ، آيتان ، تشيران الى استطاعة الانسان على التغيير الداخلي ، والخارجي .

والآية التي تشير الى قدرة الانسان على التغيير الداخلي هي هذه الآية : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » .

اما الاية الثانية ، التي تشير الى قدرة الانسان على التغيير الخارجي فهي هذه الآية : « .. الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. » .

اذن : فمن خلال الآيتين ، ندرك ان الانسان يملك القدرة ، والارادة ،

على تغيير نفسه ومكانه !

وللتوضيح اضرب لكم هذين المثلين :

يستطيع الانسان ، ان يغير نفسه بالايحاء ، وهو يتمكن ان يغير مكانه بالهجرة والتخطيط ! كما فعل النبي الرسول الاعظم محمد — صلى الله عليه وآله وسلم — يوم غير مكانه وهاجر من مكة المكرمة ، الى المدينة المنورة ، لانه وجد نفسه في مكة يعيش تحت ضغوط المترفين المشركين ، وارهاب الارستقراطيين امثال : ابي جهل ، وابي لهب ، وابي سفيان الذين كانوا يصبون سياط العذاب على رؤوس المسلمين من أصحاب النبي الغر الميامين .

وقد اشتد تحركهم ضد النبي الاعظم ، بعد موت ابي طالب — عليه السلام — شيخ البطحاء ، وعضد الايمان والدفاع عن الرسول الاعظم ، — عليه افضل الصلاة ، وازكى السلام — .

وكما قام النبي في تغيير المكان ، كذلك فعل اصحابه الكرام ، عندما امرهم بالهجرة الى ارض الحبشة . وقال لهم : « .. اذهبوا الى الحبشة. فان فيها ملكا لا يظلم عنده احد .. » .

وهذا التغيير الخارجي هو الذي اشارت اليه الآية الكريمة : « الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم .... الخ » .

وعندما يصف القرآن الكريم ، الناس المتقاعسين عن العمل ،القابعين تحت ذل الاستعباد ، الرازحين ، تحت سياط الحكام الظالمين ، عندما يصف القرآن هؤلاء بأنهم ظلموا انفسهم فاستحقوا العقاب الشديد في الحياة الدنيا ، واستحقوا العذاب الاليم في الجحيم ، في يوم القيامة ، اقول : عندما يحملهم القرآن مسؤولية اعمالهم ، فانه انما يدلل على ان الانسان

يتمتع بالحرية والارادة ، ولا تستطيع كل الحتميات ان تنال منه شيئا .!

لسبب بسيط وهو :

ان الاسلام يرفض حتمية الخضوع للضغوط الخارجية في المجتمع في الوقت الذي يرفض فيه حتمية الخضوع للضغوط الداخلية في النفس .

وأمام الفكر الاسلامي ، تسقط كل الحتميات .. فلا حتمية لا للغريزة، ولا للاقتصاد ، ولا للتاريخ ، ولا للجنس ..!

انما هو الانسان فحسب .

الانسان بارادته يصنع التاريخ ، وليس التاريخ هو الذي يصنع الانسان .

والانسان ، بارادته يوجه دفة الاقتصاد وبقدرته الجبارة على السيطرة الكاملة على غرائزه يستطيع ان يغير نفسه ، من العاصي الى المطيع ، ومن الجاهل الى العالم ، ومن الجبان ، الى الشجاع . ومن القابع الخامل، الى المتحرك العامل .

وبعد ذلك ، ينتصب في وجهك السؤال التالي : « .. هل انت مستضعف ؟! » .

ـ : اجل .!

ـ : لماذا ؟!

ـ : لان هناك حاكما ظالما مستكبرا ، يصلينا نارا بالظلم والاستبداد، ويدوسنا تحت اقدامه بسياط القمع والارهاب ..! حتى جعلنا من المستضعفين .

ـــ : اذا كان هذا هو منطقك ، فان الاسلام يرفضك ، ولا يرحب بك ،! ويوم القيامة ، تتلقاك الملائكة غاضبة ساخطة عليك ، وتقول لك : «... الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها .. » !؟!

ومن اجل ذلك ، كتب الاسلام علينا ، ان نصرخ في وجه الظالمين ، ـــ من اعماقنا ـــ ونقودها مخطوطة مرحولة ، دامية ، في وجوه الطغـــاة ، والمستكبرين ، حتى لا يظل انسان واحد ، مستضعفا في الارضـــ .. فالقرآن اعطى ضمانات جدية ، ولا يتخلف عنها ابدا .. ضمانات في النصر الساحق لكل المستضعفين في الارض ، والقضاء الكامـــل ، علـــى كل المستكبرين الذين ، يعيثون في الارض فسادا ..!

« كتب الله لا غلبن انا ورسلي .. » .

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقـــوم الاشهاد .. » .

« .. ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

« .. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمـــة ونجعلهم الوارثين .. » .

« .. ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبـــادي الصالحون .. » .

هذا في التغيير الخارجي .. أما التغيير الداخلي النفسي ، فانمـــا يحصل عن طريق الايحاء المستمر وذلك : لان الايحاء له قدرة ساحرة على صنع المعجزات في داخل الانسان ..!

ففي امكان الواحد منا ، ان يغير نفسه ، عن طريق الايحاء الدائـــم

المركز ، كما فعل غاندي محرر الهند .

لقد كان غاندي ، في بداية حياته ، محاميا ، فاشلا ، وصادف ذات يوم ان كان عنده دفاع في قضية في المحكمة العليا في الهند ، وعندما دخل غاندي قاعة المحكمة ، واراد ان يبدأ الكلام ، وجد نفسه عاجزا عن الدفاع بالمرة ، فقد ارتجفت يداه وسقطت الورقة من يده ، ثم خرج من القاعة والفشل يلفه من راسه الى قدميه !.

اضف الى هذا ان غاندي ، كان جبانا يخاف الظلام ويخشاه !.

ولكن . هل ظل غاندي محاميا فاشلا ، وشابا جبانا يخشى الظلام ؟!.

ابدا .. انه لم يستسلم للجبن والضعف .!

لقد قرر غاندي ، ان يكون اشجع انسان ، وانجح واحد في الهند . عن طريق الايحاء المركز الدائم .. فقد أخذ يوحي الى نفسه ، بانه اشجع واحد وانجح انسان ، وان لا داعي للخوف من الظلام ، واستمر في رحلة الايحاء ، حسب طريقة معينة ،!

وبعد أيام حدثت المعجزة !!.

ها هو غاندي يخترق احلك الغابات سوادا واكثفها اشجارا ، وسط الليل البهيم ، دون ان يشعر بالخوف من الظلام ..!

وها هو — ايضا ، يقف وسط الجماهير ، يلقي خطابه ، فيهز القلوب، ويحرق العروش .

لقد تحول من محام فاشل يتعثر في كلامه الى سياسي شجاع ، عملاق ،

يهابه الاستعمار البريطاني ، وتخافه الحكومات العظمى . حتـــى تمكـن من تحرير الهند ،! وبالفعل ، حرر قرابة ستمائة مليون انسان ، كانـــوا يرزحون تحت ثقل الظلم ، وذل الاستعمار !

وهكذا استطاع الانسان ، ان يغير نفسه بالايحاء والارادة ، وان يغير مكانه بالثورة والهجرة .

والتغيير معناه ممارسة فعلية وعملية ، لاخلاق الاسلام ، ومناهجه ، وقوانينـــــه !.

وذلك لان تعلم كل شيء ، انما يتوقف على ممارسته ، فعليا ، والا فليس في استطاعة احد ان يتعلم فنا من الفنون دون الدخول في ساحة العمل والممارسة ،!

فمثلا : لا يكفي لمن يريد ان يتعلم اللغة ان يحفظ الكثير من الكلمـات في القاموس ، وانما لا بد له من ممارسة التكلم مع الاخرين حتى يستطيع ان يتقن اللغة بشكل موزون .!

وايضا لا يكفي لمن يريد ان يتعلم السباحة ان يقرا كتابا في فـــن السباحة ، ويقف على ساحل البحر ، يتفرج على الذين يسبحون وانمــا لا بد له من ان يلقي نفسه في احضان الماء ، ويحرك يديه ورجليه ، مطبقا، قواعد الكتاب في السباحة ، حتى يتعلمها جيدا .

وكما في السباحة ، واللغة . كذلك في الخطابة ، فلا يكفي لمن يريد ان يكون ، خطيبا ، ان ياخذ نهج البلاغة ، ويحفظه — عن ظهر قلب — بل لا بد له من الصعود فوق المنبر ومواجهة الجماهير في فن الخطابة . وهكذا! تجري الامثلة على هذا المنوال .!

وهنا قاعدة في الكيمياء تقول :

« ان الصيغة الكيمياوية للماء ، تتالف من هيدروجين ٢ + اكسجين ١ = المـــــاء . ! .

وهذه هي الصيغة التحليلية الكيمياوية ، للماء !

فلو اراد انسان ان يطبقها ، فانه يحتاج الى المركب الاساسي ، الذي تتجمع فيه عناصر هذه القاعدة العلمية .

وبكلمة اخرى : الذي يريد ان يصنع قطرة من الماء فانه يحتاج الـــى المركب الاساسي في المختبر الكيمياوي ، لانه ليس في امكانه ان يحصل على قطرة ماء ، بمجرد ان يرتل الصيغة العلمية للكيمياء — لفظا في لسانه فقط.

وهل يشبع الجائع ، اذا وقف امام مدخل احد المطاعم وصاح برفيـــع صوتـــــه !

طعام .. دجاج . فواكه .. خبز !

كلا .. بل لا بد له من الدخول في المطعم وتناول الطعام ، ثم الممارسة الفعلية للاكل .!

وهذه الامثلة ، لا تختص بتغيير النفس ، فقط ، وانما تجري على كـــل المبادىء الاسلامية ، والمناهج القرآنية ، اذا اردنا ان نتذوق حلاوتها فـــلا بد من تطبيقها ، تطبيقا عمليا في الحياة اليومية .

واذا عرفنا ذلك ، ادركنا ان ، التغيير النفسي يحتاج الى الايحـــــاء المركز والتمرين التطبيقي ، وذلك : لـــ « ان الله لا يغير ما بقوم حتـــى يغيروا ما بأنفسهم .. » !! .

الفصل الثاني

المهدي: خلاص العالم



بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثهـا عبـادي الصـالحون » قرآن كريم — .

الارض — في النهاية — لا بد ان تسقط في ايدي المؤمنين ، ولا بـد ان يتقلب المؤمنون في احضانها !.

فالله — سبحانه وتعالى — لم يخلق الارض لتبقى تدور في دولاب الدماء والظلم الى الابد .. وانما خلقها لتسبح في نور الحرية ، وفجـر السعادة .

مستحيل ان يستمر الظلام ومستحيل ان يدوم حكم الطاغوت في الارض وايضا : مستحيل ان يظل الانسان غارقا في الالم والحرمان .. اجل .. لا يمكن ان يغفل الله عن الظالمين في الارض .. وانما يؤخرهم ليوم معلوم .. لساعة موقوتة لا يفلتون من قبضتها ، ابدا ابدا .

فكأس النصر — في النهاية — يغفو على شفاه الصالحين .. والثورة قادمة لا محالة ، وستدوس الظالمين باقدامها القوية الجبارة ، وتقذفهـم على المزابل المهترئة العفنة ... وعندها سوف ينضوي العالم كله ، تحت **لواء الحكومة الاسلامية الواحدة ، ذات الثقافة الواحدة ، وذات الطابـع الحضاري الواحد ، بقيادة المنقذ البطل المخلص ، الامام القائد ، صاحب العصر والزمان ، الحجة المهدي ، ارواحنا فداه وعجل الله تعالى فرجة ،**

وجعلنا من أنصاره ، واعوانه ، بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم أفضل الصلاة وازكى السلام .

ونظرة واحدة ، نلقيها على ما يدور حولنا ، من كائنات ، ومخلوقات، حية ، وغير حية .. تكشف لنا ، عن أن كل شيء في هذا الكون ، قائم على اساس العدل ، ولا يمكن له ان يعصي الله طرفة عين — .

فالمجرات الكوكبية ، تسبح في الفضاء ، في اروع نظام ، وادق قانون، وهي تسبح الله وتقدسه .

وكما في المجرات ، كذلك في عالم الاحياء .. اخذا من الخلية، والنبات ، والطير ، وانتهاء بالدواب ، والحشرات ، والاسماك .. فهي لا تعصي الله ابدا ..

« الم تر ان الله يسبح له من في السموات ، ومن في الارض ، — والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » .

« وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

فليس في الكون ، ذرة واحدة ، خارجة على النظام ، ابدا ، وانما كل الذرات ، وكل الخلايا ، وكل ما يجري في الطبيعة . قائم على الحساب ، والدقة ، والنظام ، وذلك ضمن معادلات رياضية ، غاية في الاتقان .

اذن : فالكون كله مطيع لله ، ساجد له ، يسبح بحمده .. والملائكة من خيفته ! باستثناء الانسان الذي يكون منه العاصي ، ويكون منه المطيع — ومن اجل ان يستقيم نظام الكون ، فلا بد أن ياتي يوم ، يرجع الانسان فيه ، الى الله ، والى نظامه ، منسجما مع بقية الكائنات ، على نور العدل ، وهداية العدالة ، وذلك اليوم ، آت لا محالة !

لا بد للارض ، من ان يرثها عباد الله الصالحون في المستقبل القريب، او البعيد ، باذن الله .

لانه من المستحيل ان تظل الارض ، غارقة في حمامات الدم ، التي يزرعها الجلادون في كل مكان ،. ومن المستحيل — ايضا — ان يظل الانسان وهو يدور في دولاب العذاب والحرمان .. بل لا بد للبشرية ان تنعم في ظل الاسلام ، بأحلامها ، وتشرف على طرد المفسدين في الارض بنفسها .. وهنالك يعرف التالون غب ما اسس الاولون — !

وهذا القرآن — امامنا — صريح في تأكيده على هذا الجانب بالذات، وذلك عندما اراد الله ، ان يخلق الانسان ، واخبر الملائكة بالموضوع قائلا : اني جاعل في الارض خليفة . فما كان من الملائكة الا ان قالوا :«اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : اني اعلم ما لا تعلمون .. » .

ونستفيد من جواب الله ، للملائكة : (اني اعلم ما لا تعلمون) : ان الانسان لا يمكن له ان يستمر في سفك الدماء في الارض وانما لا بد له من يوم يتوقف فيه سفك الدماء ، ويعم فيه الخير ، والسعادة ، والنور، والحرية ..

والا فما معنى قوله تعالى : اني اعلم ما لا تعلمون اذ لو لم يكن هناك حد ، لوقف الدماء ، وطمس الظلم في الارض ، لما كان هناك موجب لجواب الله سبحانه للملائكة ، وعلى هذا ، فان اشكال الملائكة يبقى معلقا بلا جواب ..

اذن : فالذي نستفيده من قول الله عز وجل للملائكة : « اني اعلم ما لا تعلمون .. » هو ان الارض يرثها الصالحون وان القائد المخلص ، لا بد ان يظهر ولو بعد حين ، فيطهر الارض من

الظلم والفساد ، ويملأها قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا .. !

والسؤال هو : كيف عرف الملائكة ، ان الانسان سيفسد في الارض، ويسفك الدماء ؟

عرفوا من محورين :

المحور الاول هو : ان الله سبحانه ، قال لهم : « اني خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين .. »

وهنا ادرك الملائكة ان هذا المخلوق ، مؤلف من قبضة من الطين ، ونفخة من روح الله ، فهو اذن ، يختلف عن جنس الملائكة ، وكذلك يختلف عن جنس الحيوانات .. فالملائكة لا غرائز لها ، وانما هي مخلوقات رقيقة محددة الثقافة والمعلومات ، بدليل قولهم : « قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا .. » فالملائكة لا علم لهم الا ما علمهم الله ، اي ان علمهم محدود ، بأبعاد معينة .

اما الحيوانات ، فقد كانت ، تسير مشدودة الى غرائزها ، فهي لا تعقل ، ولا تفكر ..

ولكن هذا المخلوق الجديد ، الذي اسمه الانسان هذا هو وحده الذي يملك قدرة الملائكة ، وقدرة الحيوان ، فهو لديه الغرائز التي مبعثها قبضة الطين وكذلك لدية العقل ، والفكر ، اللذان منبعهما نفخة الروح .. ولانه مؤلف من غرائز مادية ، ومعنويات روحية ، فلا بد له من الصراع بين الغريزة والعقل من جهة ، وبين الشهوة والروح من جهة ثانية ، وكنتيجة طبيعية : تتحكم الشهوة ، ببعض ، ويتحكم العقل ببعض اخر ، ويحدث صراع جديد بين اصحاب الشهوات ، واصحاب العقول ، ولا بد ان يتبع الصراع سفك الدماء .

هذا الشريط التطابقي مر في رؤوس الملائكة ، حين قال لهم الله : «اني خالق بشرا من طين » — والطين منبع الغرائز والشهوات — فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين — والروح منبع العقل والفكر — من اجل هذا استحق الانسان السجود من الملائكة ، والتكريم من الله سبحانه .

على ان السجود حدث بعد ان دخلت نفخة من روح الله في الانسان.. « .. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .. » .

اما قبل التسوية الروحية ، فلم يكن الانسان اهلا لهذا السجود الملائكي ، وذلك : لانه كان مجرد جسد مطروح على الارض .. وهو بعد ذلك ، كتلة من الغرائز والشهوات الملتهبة !.

من هنا ادركت الملائكة ، عمق المأساة التي سيفجرها الانسان في الارض .. ولذلك طرحوا السؤال التالي : اتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ..؟ وجاء الجواب في حزم : اني اعلم ما لا تعلمون ...

والمحور الثاني هو ان الملائكة عرفت بفساد الانسان ، لان الله كان قد خلق قبل آدم هذا الف الف ادم كما تقول الروايات ، والاحاديث عن اهل البيت عليهم السلام .

الإسلام فوق الأديان كلها:

اظهار الدين الاسلامي على الاديان كلها .. لطف الهي ، وضـــرورة تاريخية ، وتشريعية !.

على ان ظهور الاسلام على العالم كافـــة يستدعـــي ظهـــور القائـــد العظيـــم الذي في استطاعته ان يوحـــد صفـــوف الاديـــان كلها تحت لواء الدين الاسلامي الحنيف .. وذلك لا يكـــون ، الا بوجـــود الامام المهدي القائد المنتظر !.

وفي القرآن الكريم . ضمانات اكيدة من الله . على هذا الامر .. واليكم مـــا يلـــي :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الديـــن كله ، ولو كره المشركون » التوبة ٣٣ .

وفي آية اخرى يقول الحق سبحانه : « يريدون .. ان يطفئوا نـــور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ..» ســـورة التوبـــة ٣٣ .

وآية ثالثة : « يريدون ليطفئوا نور الله ، بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .. » سورة الصف آية ٩ .

فالقرآن الكريم — هنا — يقطع وعدا صادقا ، من الله سبحانه ، على

ان يظهر الاسلام على الاديان كلها .. ولان هذه النبوءة لم تتحقق بعد الى الان ، فمعنى ذلك ـ كما تقول الروايات ـ ان تحقيقها لا بد وان يتم على ايدي الامام الغائب المهدي المنتظر ـ سلام الله عليه ـ !.

والملفت للنظر هو : ان القرآن استعمل ـ في الايات الثلاثة ـ صيغتين مختلفتين هما : في صيغة قال : « ... ولو كره الكافرون .. » .

بينما في صيغة اخرى قال : « ولو كره المشركون .. » .

وفي ذكر الكافرين ، والمشركين ـ في هذا المكان بالذات ـ دلالة عميقة لا تخفى على القارىء الفطن ، الواعي .. فنحن نعرف ان الارض ـ في الوقت الحاضر ـ ساقطة بأيدي طائفتين من الناس ؟!.

الطائفة الشيوعية الكافرة ، ويمثلها الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الاخرى التي تدور في فلك الروس الكافرة .

والطائفة المشركة ، تتمثل في الولايات المتحدة الامريكية ، وفي الدول الراسمالية التي تدور في فلك الامريكان ..!

اذن : فعندما يذكر القرآن الكريم ، المشركين ، والكافرين ـ هنا ـ فانه يشير الى ان انتصار الاسلام وظهوره على باقي الاديان ـ انما يقع في وقت تكون فيه الكرة الارضية ، تتنازعها طائفتان من البشر : الطائفة الكافرة ، وهم : الشيوعيون في الاتحاد السوفيتي ، . والطائفة المشركة، وهم اهل الكتاب من المسيحيين ، واليهود ، والمجوس ، في الولايات المتحدة الامريكية التي يديرها ـ اليوم ـ اليهود والمسيحيون !!

والقضية كما يبدو هي ، هي لا تتغير .

فيوم يخرج الامام المهدي ـ عليه السلام ـ فانه سوف يجد الارض

مشطورة الى شطرين ، واحد في ايدي السوفيت الكفرة .. والثاني في ايدي الامريكان المشركين !

اذن : فهو يطلع والارض يحكمها الكافرون في روسيا ، والمشركــون في امريكـــا ..

ولانهم ليس لديهم قوة توازي قوة الله الجبارة فسرعان ما يتساقطون تحت اقدام الامام القائد .

وعندما اراد القرآن ان يعبر عن قوتهم ، الواهية ، الضعيفة ، فانه عبر بأجمل تعبير ، حين قال : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم .. » اجل قال : بأفواههم ، ولم يقل بقوتهم ، ولا قال : بقدرتهم ، وذلك : لان قوتهم مهما كانت عاتية ، فانها ستذوب أمام جبروت الله ، كما تذوب فقاعة الصابون امام العاصفة العنيفة .

العالم يبحث عن خلاص!!

لم تستطع الحضارة ، ان تخفف من آلام الانسان ولو بمقدار بوصة واحدة . . . كما لم يعد في امكان العقول الالكترونية العملاقة التي تستطيع ان تحل ملايين المعادلات الرياضية ، لم يعد في امكانها ان تحل مشاكل الانسان، التي تتراكم عليه ، يوما بعد يوم .

وكذلك ايضا ، لم تقدر طائرة الكونكورد ، العملاقة — التي تنقل الانسان عبر القارات ، في سويعات قليلة ، لم تقدر — هذه الطائرة — ان تغسل اتعاب الانسان ، بسرعتها الفائقة ..!

اجـل ..

لقد تقدمت حضارة العصر ، في مجال علم المادة ، وغزو الفضاء، وتجزئة الخلية ، وانفلاق الذرة ، ولكنها ما تقدمت في مجال علم الانسان، الا بمقدار اصابع اليد منضمة .

ان العلم الحديث ، استطاع ان يوصل الانسان ، الى سطح القمر، واستطاع ان يجلب من المريخ ، والزهرة ، وبقية الكواكب ، صورا ملونة زاهية الابداع .. ولكنه لم يستطع ان يوصل الانسان الى حقيقته ، وان يعرفه بنفسه ، وبخالقه !

اجـل ..

لقد تمكن العلم ان يغوص في اعماق الطبيعة ويدرس دفاترها الغرامية ، ويداعب نهديها ، ويغازلها ويستوعب خلجات فكرها ونبضات قلبها ، ولكنه لم يستطع ان يغوص في اعماق الانسان ، ليدرس نفسه، وعقله ، وفكره ، بل وحتى اعضاءه الجسدية .

وان عجز العلم الحديث ، عن معالجة مرض السرطان ، وفشله في علاج كثير من الامراض المعدية ، لاكبر دليل على عمى العلم الحديث عن مشاهدة الصواب ، وانحرافه عن الصراط المستقيم ..

والانسان ذلك المجهول ، كتاب اصدرته الحضارة الغربية ، بعد دراسة استمرت قرابة ثلاثين عاما ، لهذا الانسان ، ولكنها لم تزدد في معرفة الانسان ، الا غموضا ، وتعثرا ..!

هذا من جانب ، ومن جانب اخر .. نلاحظ المطاردة الحثيثة ، في سباق التسلح ، .. فهذه الملايين تصرف على السلاح ، بينما الانسان لا يجد قوت يومه ، وذكرت التقارير الرسمية ، ان في الارض سلاحا يكفي لقتل اهل الارض ، وتمزيقها مأة وعشرين مرة ..

ثم ماذا ؟

لا شيء سوى الجوع ، والفقر ، والمرض والجهل ، والحرمان . تخيم على معظم بقاع العالم ،

واذا ثار الاحرار ، فسياط الجلادين ، تطاردهم في كل مكان !!.

وهذه السجون تكاد تختنق بالاحرار ، والابرياء .. فما من بلد الا وقد حوله المستعمرون ، — بواسطة الحكام الخونة — الى سجن رهيب لا يطاق ..

وبدل أن يستوردوا خبراء الاقتصاد والزراعة .. استوردوا خبراء التعذيب والقمع .. وبدل ان يوفروا الطعام والامن للشعوب .. وفروا لهم ، السجون ، وآلات التعذيب واعواد المشانق ..!!.

فالعالم غارق في الظلام .. والبشرية تحاصرها السياط من كل مكان .. فلا حقوق ، ولا من يحزنون ولا عدل ، ولا من يسهرون ..!

وسط هذا الطوفان العارم من الظلام ، وقفت البشرية حائرة تبحث عن الخلاص ، وتفتش عن المخرج .. فاذا بها ترى نورا جاء يسعى من ، اقصى الظلام .. وتباشر الناس مرددين : انه نور الخلاص ، انه نور الحرية .. ولانه بعيد عنهم فلا بد ان تطول فترة الانتظار ..

المهم انهم رأوا هذا النور بعين الفطرة ، ولذلك فكل انسان مشدود الى هذا النور شاء ام ابى ... اجل انه نور الاصلاح ، ونور النور الذي يهزم الظلام ..

ورغم اختلاف الناس . في افكارهم ، واذواقهم الا انهم يتفقون ، على الايمان بهذا النور ، بالاجماع ... وذلك لان النور واحد ، بينما الظلام متعدد ، كما جاء في القرآن « يخرجهم من الظلمات الى النور .. » فجاءت الظلمات بصيغة الجمع ، لانها متعددة ، وجاء النور بصيغة المفرد ، لانه واحد لا يتعدد ، وماذا بعد الحق الا الضلال ..!

النور يعني القائد المنتظر .. مع فارق واحد ، هو ان هذا القائد المنتظر الذي سيخرج ويطهر الارض من الظلم والفساد ، .. تخلع عليه كل امة اسما خاصا بها ، فهذه الاسماء وان اختلفت الا انها تشير في النهاية ، الى الشخصية المعدة لخلاص العالم ..

اليهود يعتقدون ، بظهور المصلح الذي يطهر الارض من الفساد ، في

اخر الزمان ، ويعتقدون بأنه موسى سلام الله عليه ..

والمسيحيون يؤمنون بعودة المسيح الى الارض من اجل غسل الارض من الذنوب بمـــاء الرحمة والسعادة ..

وكما في اليهود ، والنصارى ، كذلك في البوذيين فهم يترنمون فـــي معابدهم بتراتيل تطالب بوذا بالعودة الى الارض لخلاص اهلها من العذاب والالـــــم ..

ونفس الشيء يقال في بقية الاديان والمذاهب بل وحتى الماركسيـــة تعتقد بظهور المصلح في اخر الزمان وذلك ان الماركسية تؤمن بأن الانتصار في النهاية للطبقة البروليتارية — العمال — ومعلوم ان هذه الطبقة لا يمكن ان تنتصر وحدها ، وانما لا بد لها من قائد يقودها الى شاطىء الانتصار .. فمعنى ذلك ان الماركسية تعتقد بالمصلح ، رضيت ام غضبت ، وشاءت ام ابـــت .

ولست في معرض تقييم الفكرة الماركسية ، ولا اريد ان ادلل عـــلى صحتها ، او بطلانها ، وانما أردت الاستشهاد فقط ، وضرب المثال على ان كل انسان في الارض يتطلع بقلبه قبل عينيه الى خطى المخلص القائـــد المنتظر .. الامر الذي يجعلك تشعر وكأن الايمان بالامام المنتظر نابع مـــن اعماق الفطرة الانسانية ، وذلك لانه ليس في استطاعة احد ان يتخلص من هذا الايمان ، وانما هو نابت في طينة الانسان ، بشكل محكم !!.

ونقل لي احد التجار في الكويت ، انه كان في الغرب ، ولما زار المانيـــا الغربية ، شاهد منظرا عجيبا ، ما زال محفورا في ذهنه :

يقول التاجر :

كنت ماشيا في الشارع العام مع ثلة من الاصدقاء في الساعة العاشرة ليلا .. فرايت مجموعة من الشبان ، يدقون على الطبول ، ويرددون كلمات الدعاء الخاصة بهم !

كانوا مجتمعين في وسط الساحة العامة ، وكانت رؤوسهم محلوقة بشكل مثير ، فقد تركوا حزمة من الشعر وسط الراس مشدودة ، وارتدوا ملابس صارخة الالوان .. وهم سادرون في الضرب على الطبول وترديد الاناشيد بصوت عال وبين الحين والاخر ، كانوا يرددون هذه الجملة ! ايها القائد المنتظر تعال وخلصنا من العذاب ..!!.. ولما عرفت كلامهم، سألت من الناس المتفرجين الواقفين حولهم :

من هؤلاء ؟

قالوا : هؤلاء يشكلون طائفة كبيرة في المانيا الغربية ، والولايات المتحدة ، تسمى طائفة الخلاص ، وهم ينتظرون رجلا مصلحا سيخرج في اخر الزمان ليطهر الارض من الفساد ، والظلم .. ولما سألت الناس ، من هو هذا المصلح .. اجابوني : بأنهم يرفضون تعريف الناس باسمه ، وانما فقط يكتفون باثاره الناس لاجله ، وتذكر الناس به ..!

وعندما فرغ التاجر الكويتي ، حين نقل القصة ، قلت له : يبدو ان الاعتقاد ، بفكرة الامام المنتظر اصبح مقبولا ، دوليا ، وليس فقط محليا ... وهذا دليل اخر على عمق العقيدة الاسلامية في النفوس البشرية !

اما بالنسبة للروايات التي جاءت ، عن الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم وعن الائمة الطاهرين ، بخصوص الامام المنتظر ، فهي روايات ثابتة ، وصحيحة الاسناد ، وقد اجمع المسلمون على صحتها..بحيث اذا ذكر الشيعة عشر روايات عن رسول الله بخصوص الامام الحجة

المنتظر ، فان المذاهب السنية ، تذكر مأة رواية عن الرسول ،حول الامـــام المنتظر نفسه .

وقد أجمع المسلمون بكل مذاهبهم ، السنة والشيعة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحـــد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه قائمنا اهل البيت فيملأ الله الارض بـــه قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا » .

والايات التي وردت في الامام الحجة ، كثيرة جدا ، بحيث قام احـــد العلماء الاعلام ، وهو السيد صادق الشيرازي حفظه الله ــ بتأليف كتاب يسمى : الامام المهدي في القرآن وقد جمـــع عشرات الايات القرآنيـــة ، التي ذكرها علماء السنة بخصوص الامام المهدي صاحب الزمان .

اضف الى هذا مئات الاحاديث التي يضيء بها بحار الانوار ، والكافي، وكتب الحديث الاخرى .. وكلها تنصب انصبابا على حتمية ظهور الامـــام المنتظر عجل الله تعالى فرجه ، وجعلنا من انصاره واعوانه ــ آمين ــ ..

كما أحصي مجموع الاخبار الواردة في الامام المهدي من طرق الشيعة والسنة فكان اكثر من ستة الاف رواية ، وهذا رقم احصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من القضايا الاسلامية الهامة من كتاب بحث حول المهدي للسيد باقر الصدر ص ٦٤ .

في الحديث عن الامام المهدي ينتصب سؤالان في الساحة :

السؤال الاول هو :

« كيف يمكن أن يعيش الامام المهدي ، هذا العمر الطويل دون ان تزحف اليه الشيخوخة الهرمة ، ودون ان يحاصره الموت والفناء ..؟!.

والســــؤال الثاني هو :

كيف يستطيع الامام ان يوحد العالم تحت ظل حكومة واحدة ؟!.

ونبدأ بالاجابة على السؤال الاول :

ان مسالة طول العمر ، واقعة في دائرة الامكان من النواحي العلمية، والعقلية ، والتاريخية ، وحتى المنطقية والفلسفية ..

ومن أجل التوضيح اكثر ، نبدأ بهذه الادلة الواحد تلو الاخــر ، بشيء من التفصيـــل .

الدليــل العلمي :

اثبت العلم الحديث ، ان الانسان يمكن ان يعيش اكثر من العمــر العــادي .!.

وتقول الارقام العلمية . ان الاجهزة ، تستطيع ان تمارس عمليـــة الاحتراق والعمل ، داخل جسم الانسان لاكثر من عشرة الاف سنة !

فالقلب مثلا ، بامكانه ان يضخ الدم ، ويوزعه على خلايا الجســم، لعدة الاف من السنين ، وكما في القلب كذلك في خلايا الدماغ ، فهي تستطيع ان تستمر بعملها ، في التقاط وارسال الموجات الفكرية ، والحفاظ عـــلى توازن سير وظائف الاعضاء ، لاكثر من عشريـــن الــف سنة .. وهــذه الارقــــام اكدتها مجلـة المقتطف المصرية ، ومجلة الهلال ، وكذلك بعض الصحف العلمية الاخرى ، مثل مجلة (ريدرز دايجست) وقسمها العربي، المختـــار .

واكثر من ذلك ، فقد رايت تصريحا طبيا يقول : انه من الممكن وضع جسم الانسان ، تحت درجة حرارة معينة ، لمدة سبعين الف سنة . دون أن تتناثر جزئيات الجسم ..!

فقد ظهر للعلماء ، ان الانسان شانه شأن النبات والحيوان في طول العمر — لان الخلايا ، والعناصر الكيمياوية واحدة ، وهي نفسها التي تتالف منها الاجسام الحية ، سواء كانت من النبات أو من الحيوان او من الانسان .

ويضيف العلماء قائلين :

في الوقت الذي توجد اشجار في قاع البحر عمرها لا يزيد على الدقائق والثواني .. توجد اشجار في البر يزيد عمرها على الالف عام، كما في عالم النبات في لندن ، وبقية المناطق مثل افريقيا والهند ، وجنوب الاتحاد السوفيتي ...

ونفس الشيء يقال بالنسبة للحيوانات ، فهناك حيوانات ، امتد بها حبل الايام ، وتراخت بها الليالي حتى بلغ عمر الواحد منها اكثر من الفي سنة ، كما ذكرت هذه الحقيقة ، كتب الاحياء العلمية ..!

ومن محاسن التقدير ان هذه الحقيقة ، دخلت في روعي ، من خلال الآية الكريمة التالية : الواردة في قصة نبي الله يونس .

« وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون » . سورة الصافات من اية ١٣٩ — ١٤٤ .
التفاسير تقول : ان النبي يونس ، كان

راكبا في الفلك المشحون — اي السفينة المملوءة بالناس — وكان قد اعترضهم حوت ضخم عملاق .. ولكي يتخلصوا من شر هذا الحوت ، كان لا بد لهم من القاء واحد منهم في البحر ليلتقمه الحوت ويدع السفينة تذهب بسلام .. واقترعوا بينهم ، فدارت القرعة على يونس ، في المرات كلها ، واخيرا استقر يونس في بطن الحوت ...

والشاهد في القصة هو قوله تعالى : فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ...

وهذا هو الموضوع الذي يهمنا في هذا البحث .

فالقرآن يصرح — هنا — ان يونس لو لم يسبح الله ، لبقي راقدا في بطن الحوت الى يوم القيامة ، وهذا دليل على ان كل واحد من يونس النبي والحوت يستطيع ان يعيش ملايين السنين ، شأنه في ذلك شأن سائر الاحياء بدليل قوله تعالى : للبث في بطنه الى يوم يبعثون .

وخلاصة القول : ان العلماء يقولون ما دام الحيوان في امكانه ان يعيش الاف السنين ، وكذلك النبات والشجر ، فلماذا لا يستطيع الانسان ان يعيش مثل بقية الاحياء — علما بأن خلايا جسم الانسان اكثر قوة واشد تعقيدا من خلايا النبات والحيوان .. وعلى هذا فان العلم الحديث يخرج بنتيجة تؤكد امكان اطالة عمر الانسان ؟

على ان طول العمر . ليس من المحالات ، وانما هو واقع في دائرة الامكان .

ان الموت ليس بحبوعا تابعا في داخل الانسان فيخنقه ، او خالقسا

خارج الانسان فيهجم عليه ..!

بل الموت ينشأ من عوامل خارجية ، مثل كثرة الاكل والشرب .. مثل التدخين ، وشرب الخمر ، وما شابه ذلك ..

ان أغلب الناس يموتون بسبب التخمة ، كما جاء في الحديث الوارد عن الصادق عليه السلام .

ويقول الدكتور الكسيس كارل : ان الناس يحفرون قبورهم باسنانهم .! وهذه حقيقة مرة يجب الاعتراف بها .. فالاكل الكثير يسبب الامراض والمتاعب ، حتى قال العلماء ليس في الطب القديم ، والطب الحديث ، قاعدة علمية ، احسن واروع من الاية القرآنية التي تقول : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

اجل .. انه الاسراف في الطعام والشراب انه الاسراف في النوم والسكر والعربدة .. انه الاسراف في التدخين ، والاسراف في تعاطي المخدرات والجنس ..

لا شك ان الاسراف في متطلبات الجسم تؤدي الى سلسلة اليمة من المتاعب والالام ! وتؤدي الى الموت المبكر .

في الحديث اذا كثر الزنا ، كثرموت الفجاة . وهذا الحديث يعطي حقيقة علمية ، وهي ان العلاقات الجنسية غير المشروعة ، تنقل الامراض القذرة البغيضة ، وهذه الامراض بدورها ، كما يؤكد العلم ـ تساهم مساهمة فعالة في اضعاف القلب ، وتوجيه ضربات قاسية لعمل القلب .. فينتج من ذلك ، كثرة موت الفجاة اي ـ السكتة القلبية ـ والجلطة الدموية ، وما شابه ذلك .

ونفس الشيء يقال في التدخين ، فقد ذكروا ان السيكارة الواحدة تنقص ساعة واحدة من عمر الانسان ..

ومعروف ان الناس الذين يعيشون في الريف تحت الهواء الطلق، يتمتعون بأعمار اطول من اعمار الذين يعيشون في صخب المدينة ودخان السيارات والمصانع ..!

وذكرت التقارير الرسمية ، ان في الاتحاد السوفيتي ، اناسا قد تجاوزت اعمارهم المائتي سنة وقبل فترة مات رجل في البحرين ، كان عمره اكثر من (١٥٠) سنة .

وقبل عشر سنوات قرات في مجلة الاسبوع العربي ، تحت عنوان الشيخ الضاحك — وقد نقلتها في وقتها ، ولا زالت محفوظة في اشرطة التسجيل عن الامام المنتظر — ذكر في المجلة عن هذا الشيخ الكبير . انه يبلغ من العمر قرابة ١٨٠ سنة والغريب ان اسنانه لم تسقط منها ولا سن واحدة ابدا .

ولعل من يسأل : كيف نوفق بين هذا الكلام وبين قوله تعالى ، فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ..؟!

والحقيقة انه لا يوجد هناك ، اي تناقض في المسألة ، وذلك لان الله سبحانه لم يقل في هذه الاية ان الانسان ينتهي عمره في سبعين او في مائة سنة ، ابدا .. واصلا قضية العمر الطبيعي ليس لها اصل من الصحة ..

والا فاي كتاب ذكر ان عمر الانسان محدود بكذا سنة مثلا ؟.. ابدا لم يحدث من هذا شيء .

اضف الى هذا ان الله سبحانه ، سخر ما في السموات وما في الارض ، في خدمة الانسان ، وكذلك سخر له كل ما من شأنه ان يطيل عمره ويعطيه الصحة ، والعافية .

فالقرآن يقول : « وسخر لكم ما في الارض جميعا ، وسخر لكم الشمس والقمر ، .. وسخر لكم البحر .. » .

ولاحظوا المناسبة والعلاقة ، بين تسخير البحر وبين تسخير القمر، كمثال على بقية الكائنات ..

العلاقة هي : اننا نستفيد من البحر ، بمائه وركوب السفن البحرية على ظهره .. وكذلك في تسخير القمر .. بالاستفادة من نوره ، وركوب السفن الفضائية على ظهره ..

فالبحر سخره لنا ،بالاستفادة من ماءه ، واستعمال السفن الشراعية.. والقمر سخره لنا ، بالاستفادة من نوره واستعمال السفن الفضائية . .

اذن ، فمن الناحية العلمية ، ثابت امكان اطالة عمر الانسان والتقارير العلمية كثيرة ، وللمزيد راجعوا ، المجلات العلمية ، والكتب العلمية في هذا المجال . مثل مجلة المقتطف المصرية ، ومجلة الهلال ، ومجلة المختار، وبقية الكتب التي لا تخلو منها المكاتب الطبية .

واما من ناحية التاريخ ، فقد احتفظ لنا بأرشيف ضخم يتحدث عن اناس كانوا قد عاشوا اعمارا طويلة ، وعمروا دهرا ، لا يستهان به ، أمثال سلمان الفارسي ، والعباس بن عبد المطلب وما شاكل ذلك ..

وخير دليل على هذا الموضوع ، هو ما يقوله القرآن الكريم عن النبي العظيم نوح عليه السلام .. : « فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما .. ».

والمسلمون يعتقدون ، بحياة مديدة لاربعة من الانبياء ، اثنان منهم يعيشون في الارض واثنان منهم يعيشون في السماء ، فاللذان في الارض هما : الياس والخضر ، واللذان في السماء هما : ادريس ، وعيسى ..

ثم لماذا الاستغراب من طول العمر ؟!.

اننا اذا اخذنا مسالة طول العمر ، فانها لا تخرج عن دائرة الامكان في ابعادها الثلاثة :

أ ـ الامكان العملي ، ب ـ الامكان العلمي ، ج ـ الامكان المنطقي ، او الفلسفي .

والامكان العملي ، يعني ان الانسان يستطيع ان يقوم بهذا العمل على الوجه الكامل ، مثل عبور المحيط بالطائرة ، والباخرة ، ومثل الغوص في اعماق البحر ، بواسطة الغواصات الذرية العملاقة ، ومثل الصعود على سطح القمر ، واطلاق السفن الفضائية الى الكواكب الاخرى ، .. فهذه الاشياء تقع تحت الامكان العملي ، ومعنى ذلك ، ان هناك اناسا قد مارسوا العمل ـ فعلا ـ بهذه الاشياء ، ولا زالوا يمارسون العمل معها، في كثير من الاحيان ...

والامكان العلمي ، معناه ان هناك اشياء ، وافعالا ، ليس في استطاعة الانسان ان يقوم بها عمليا ، ولكن العلم لا يرفض وقوعها في المستقبل .. ـ فمثلا ـ وصول الانسان الى القمر ، اصبح شيئا ممكنا ، وأمرا ميسورا ، ولكن الوصول الى كوكب الزهرة لم يعد في الامكان العملي ـ وانما هو جائز في الامكان العلمي ـ اي انه : علميا ، يمكن تذليل الصعاب في المستقبل القريب ، او البعيد ، بحيث يتمكن الانسان من الوصول الى الزهرة ، ولكن عمليا ـ الان ليس في وسع احد أن يصل الى الكوكب الفاتن!

اذن : فالصعود الى الزهرة ممكن علميا ، وان لم يكن ممكنا عمليا ..! بعكس الوصول الى الشمس ، فانه غير ممكن علميا ايضا ، وهو من المستحيلات بالنسبة لقدرة الانسان على مقاومة الاحتراق والحرارة ،!.

وتفسير ذلك ، ان العلم لا امل له في صعود الانسان على سطح الشمس ، — كما صعد على سطح القمر — اذ انه بات من المستحيل — عمليا — وتجريبيا — امكانية صنع مظلة تقي الانسان ، وتحفظه من الاحتراق بحرارة الشمس العملاقة الملتهبة في عمق السماء !

اما الامكان المنطقي او الفلسفي ، فهو : كل شيء لا يستطيع العقل، رفضه ولا نفي وقوعه ، ولا الحكم ، باستحالته .!.

ولكي تتضح الصورة اكثر فاكثر ، اضرب لكم المثال التالي :

ليس في الامكان ان تقسم ثلاث رمانات الى نصفين بالتساوي ، ولكن دون ان تنكسر احدى الرمانات — وذلك لان العقل يدرك ويعرف ان الثلاثة عدد فرد ، وليس زوجا ، فلا يمكن ان ينقسم بالتساوي « لان انقسام هذا العدد بالتساوي يعني كونه زوجا ، فيكون فردا ، وزوجا في آن واحد ، وهذا من اجتماع الضدين ، وهو مستحيل منطقيا » .

هذا من ناحية انقسام الرمانات الثلاث ، بالتساوي الى نصفين متعادلين ومن دون ان تنكسر احداها ... اما من ناحية ، دخول الانسان في النار ، من دون ان يحترق ، وصعوده للشمس من دون ان تحرقه الشمس بحرارتها ، فهذا ليس مستحيلا ، وانما هو داخل في دائرة الامكان، اي : ليس مستحيلا في المجال المنطقي ، او المجال الفلسفي !.

فلا يوجد هناك تضاد بين القانون الحراري في تسرب الطاقة ، وبين

عدم الاحتراق بهـــا !.

لانه من الممكن عدم تسرب الحرارة من الجسم الاكثر حرارة الـــى الجسم الاقل حرارة ، فليس فيه تضاد وانما هو فقط : مخالف للتجربـــة العلمية ، التي اثبتت انتقال الحرارة من الجسم الاكثر حرارة ، الى الجســم الاقل حرارة ، الى ان يتساوى الجسمان في الحرارة !!.

« من هنا نعرف ان الامكان المنطقي اوسع دائرة من الامكان العلمي ، وهذا اوسع دائرة من الامكان العملي » .

ولا شك في ان امتداد عمر الانسان الاف السنين ممكن منطقيا ، لانـــه ليس مستحيلا من الناحية العقلية التجريدية ، وهو افتراض لا يحمل بذور التضاد في داخله !.

ونخلص من ذلك ، الى ان هذا العمر الطويل الذي تحدثنا عنه ، ليس ممكنا امكانا عمليا واقعا في الخارج بكثرة ، من قبيل ، الغوص في قاع البحر، او الصعود الى القمر ، ــ وذلك لان العلم الحديث بأجهزته العملاقـــة لم يعد قادرا ــ عمليا ــ على اطالة عمر الانسان ، بدليل انه لو كـــان العلماء ، في استطاعتهم تطويل الاعمار ، لطولوا اعمارهم ــ !.

واما الامكان العلمي ، فقد ذكرت لكم ــ في الصفحات السابقـــة ــ ان العلم الحديث يؤيد امتداد عمر الانسان على الرغم من عجز العلـــم عن ذلك ، ولكنه يقول بالامكان فقط !.

والسؤال الان هو :

« هل الشيخوخة الهرمة خاضعة لقانون طبيعي ..؟ واذا كانـــت قانونا طبيعيا فانى لهذا الانسان ان يتغلب على قانون الطبيعة ؟

الجواب :

اقول : لو فرضنا ان الشيخوخة ، قانون ، طبيعي يجري في عروق الانسان ، وفي خلاياه ، مجرى الدم في جسمه ،. وان الانسان بسبب اختلال فسلجي في احد اعضائه ، وبفعل هذا القانون ينهدم بناءه الجسدي،

وهذا مجرد افتراض ، ليس اكثر .. لان العلم — حتى اللحظة الراهنة — عاجز عن معرفة السبب الحقيقي الذي يقف وراء زحف الشيخوخة والهرم ، على الشباب . والصبا .

أقول : لو افترضنا ان هناك قانونا طبيعيا للشيخوخة — فان ذلك ، لا يعني — بالضرورة عدم القدرة على تأخير هذا القانون .. فقد اكتشف العلماء في مختبراتهم ، ان الشيخوخة محددة بأبعاد فسيولوجية ، وليس بأبعاد زمنية — فالشيخوخة تأتي ، تارة ، قبل وقتها ، وطورا في وقتها، واحيانا تأتي بعد وقتها بزمن طويل .

وهذا خير دليل على مرونة هذا القانون ، بحيث استفاد العلماء من هذه المرونة ، في اطالة عمر بعض الحيوانات الى مئات المرات ، بالنسبة لاعمارها الطبيعية ! وذلك بايجاد عوامل خارجية ، وخلق ظروف من شأنها ان تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة والهرم . !!

من هنا ، فان العلم الحديث قد اثبت بجدارة ان في امكانه تأجيل هذا القانون ، بافتعال الظروف والعوامل التي يخلقها في الخارج !.

واذا استطاع العلم ان يؤجل القانون في الحيوان ، ولم يستطع ان

يؤجله في الانسان ، فان ذلك لا يعني الا فارق الدرجة الواحدة ، التي تفصل بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة الى الانسان ، وبين صعوبتها

بالنسبة الى الكائنات الحية الاخرى !.

ونخرج من خلال هذا البحث : بان تطويل عمر الانسان ، وامتداده الى الاف السنين ممكن منطقيا ، وممكن علميا ، ولكنه — لا يزال — غير ممكن عمليا — .. على ان العلم لم يستسلم لليأس ، وانما هو سائر في طريق تحقيق هذا الامكان ، على المدى الطويل !.

اذن : فعمر الامام المهدي — عليه السلام — واقع في دائرة الامكان العلمي ، والعملي ، والمنطقي ، وان بدا غريبا في حدود المألوف في يوم الناس هذا .

واعتقد ان الغرابة ستذوب ، اذا عرفنا اهمية الدور الكبير الذي سيقوم به الامام الحجة المنتظر — عجل الله تعالى فرجه الشريف — !.

فالواقع هو : ان الامام المهدي ، قد القيت اليه مهمة تغيير العالم، واعادة بنائه الحضاري من جديد على اساس العدل ، والحرية .

ولا شك ، انها رسالة ثقيلة جدا ، تستحق هذا العمر الطويل ، ليكون كفؤا لها .

ولست ادري اهي المصادفة العمياء ، ام هو التقدير البصير ، الذي جعل التغيير العام الكامل ، ينطلق من رجلين عظيمين ، كلاهما قد امتد بهما حبل العمر ، وتراخت بهما الليالي والايام ... كان الاول في الماضي وقد ذرف على الالف عام ، وهو النبي العظيم نوح عليه السلام ، الذي بنى العالم من جديد ، اثر الطوفان الكاسح ..

والعظيم الثاني ، هو الامام المهدي الذي ناهز عمره الشريف الالف والمائة والخمسين عاما ، وهو الذي سوف يبني العالم من جديد ، بعد

طوفان الحرب العالمية الثالثة ، كما بناه نوح بعد طوفان التنور الفوار ..

فلماذا — اذن — نقبل ذاك ، ونرفض هذا ؟

وبعد هذا ، وذلك ، فعقيدتنا بالامام المهدي ، هي عقيدة المسلم بالمعجزة .

والمعجزة تعني تعطيل القانون الطبيعي المالوف لدى الناس ، بفعل قانون اخر مخفي ، عنا — حتى الان .

وفي القرآن الكريم : ان الله عطل اكثر القوانين الطبيعية ، من اجل الحفاظ على حياة بعض الانبياء والصالحين !

فقد عطل الله سبحانه قانون الجاذبة ، وبقية القوانين الكونية في الفيزياء ، والحرارة ، والاشعاعات الكونية في الاسراء ومعراج النبي الاعظم « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا .. » .

وكذلك فقد عطل الله سبحانه — قانون انتقال الحرارة من الجسم الاكثر حرارة ، الى الجسم الاقل حرارة ، حتى يتساويان في الحرارة !

هذا القانون ، اوقفه الله عن العمل ، في حماية ابراهيم الخليل — عليه السلام — من الاحتراق بالنار ، وذلك عندما كان الاسلوب الوحيد للحفاظ على حياة ابراهيم ، منحصرا في تعطيل هذا القانون .

« قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم » .

ولقد كان في امكان الحق ـــ سبحانه ـــ ان يرسل الرياح فتثير سحابا ثم يبعثه على النار ، فيهطل المطر فتنطفأ النار ، وينجو ابراهيم من الاحتراق ..

ولكن .. لا ..

انه لم يفعل مثل ذلك ابدا ..

وكان الله ، اراد ان يمعن في السخرية من قدرة ذلك الانسان التافه .

فقال اجمع الحطب ، ايها الانسان المغرور ، ايها الملك الطائش ، واشعل النار في الحطب ، ثم الق ابراهيم في لهب النار ، ومع ذلك فهو لا يحترق بالنار لان قانون الاحتراق انا الذي زرعته في قلب النار وانا الذي اعطله عن العمل عندما اريد ..

وسبحان الله العزيز العليم .. فلو لم يقل : « يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم.. » لمات ابراهيم من شدة البرد ، ولكنه قال : «..وسلاما..» وهذه الكلمة هي التي حفظت ابراهيم من التحول الى قطعة ثلج !

وهذا هو الفارق العظيم الذي يفصل بين ارادة الله الجبارة ، وارادة الانسان الواهية .. فالله سبحانه يطلق الفعل ، ويتحكم به بعد اطلاقه .. في حين ان الانسان يستطيع ان يتحكم بالفعل قبل اطلاقه اما اذا اطلقه، فقد خرج من يده ، وليس في امكانه ان يتحكم في سير الفعل ..

وبالمثل : انه في امكانك ان تتحكم في سير الرصاصة ، قبل ان تطلقها من (المسدس) اما اذا اطلقتها فلا تقدر ان تقول لها : ايتها ، الرصاصة انا اطلقتك نحو الهدف ، ولكني قد غيرت رأيي ، فاريد منك ان تتجهي الى جهة اليمين ... هنا الرصاصة تضحك عليك ، وتسخر منك ، ولسان

حالها يقول : انا خرجت من يدك ، ولم يعد في استطاعتك ان تتحكم فـــي مسيري ، ولا ان تسيطر على توجهي يمينا أو شمالا بينما الله سبحانـه وتعالى ، يطلق الفعل ، ويتحكم به بعد اطلاقه .. فهو يطلق للنار فعـل الحرارة والاحتراق ، ثم يقول لها : يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم .

وهل قرات سورة الكهف ؟

انظر الى الفتية الذين آمنوا بربهم ، وزادهم الله هدى ، وربط على قلوبهم . . اذ قاموا ، ضد المجتمع الغارق في الظلام ، وثاروا ضد السلطان الجائر .. انهم وجدوا انفسهم يعيشون وسط شعب ماتـــت فيه بـذور الانسانية ، وانطفأت فيه شموع العدل والحرية ، بفعل عواصف الظلم والارهاب العاتية الشرسة .

ولما هجروا المجتمع ، وهاجروا الى الله في رحلة الايمــــان ، . . . استقبلهم الله ، في رحابه وشاءت حكمته ان يريهم النهاية المرة التي تنتظـر هذا المجتمع ليعلموا ان الله حكيم خبير .. وان وعده الحق .

اتدري ماذا صنع الله بهم ؟

انه انامهم ، ثلاثمأة سنة ، وزادهم تسعا من السنين ايضا . .

وتعالوا معي ، ننظر ما هي القوانين التي عطلها الله في أصحـاب الكهـــف ..؟!

القانون الاول ، قانون السمع !

لقد ثبت علميا ان حاسة السمع لا تتوقف عن العمل ابدا ، فهـــي تعمل حتى خلال فترة النوم،الاذن تلتقـــط الاصوات وتبعث بهـــا الــى الدمـــاغ .

العين تتعطل في النوم ، ولكن الاذن لا تتعطل عن العمل في غضون فترة النوم ..

ومن هنا تنبع المشكلة !

فهؤلاء فتية ، نائمون في الكهف ، وسط اصوات الرعود ، وانفجارات البروق ، وعواء الحيوانات ، وزئيرها ، وقصف الطبيعة ، وعواصفها ..

فكيف يمكن ان ينام هؤلاء الشباب ، وسط هذا الضجيج ، علما بأن حاسة السمع تعمل على مدار الساعة ، فتنقل الاصوات الى الدماغ ، وتسبب الانتباه من النوم ؟ !

وهناك طريق واحد فقط ، يمكن بفعله ان ينام هؤلاء الفتية ، ليس فقط ثلاثمائة سنة وتسع سنوات ، وانما الاف السنين ايضا ... والطريق هو : تعطيل جهاز الاذن عن العمل موقتا ، اي : ايقاف قانون السمع عن العمل .

وهذا ما فعله الله سبحانه بالضبط معهم ..

فقد عطل قانون السمع عندهم ، ليناموا في هناء وراحة ..

واقرأوا معي اذا شئتم هذه الاية :

« .. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا » .

انظروا الى التعبير العلمي في القرآن .. انه يقول : فضربنا على آذانهم ..!

لم يقل فضربنا على اجسادهم في الكهف ، وانما قال ، فضربنا على آذانهم ، في الكهف سنين عددا .. » .

وذلك يعني ان الله ضرب على آذانهم ، فعطل قانون السمع عندهم ..

وليس فقط ، عطل الله هذا القانون السمعي ، وانما ضرب على الف قانون وقانون ، في اجسادهم .. فهو يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وعملية التقليب هذه لم تقتصر على الاجسام الخارجية ، وانما كانت عملية شاملة ، تجري على كل خلية من خلايا اجسامهم وعل كل جهاز في داخلهم ..

وليس اروع من كلمة التقليب ، في المنهج العلمي ، كلمة تدل على العناية الربانية ، والرعاية الدقيقة ، لهؤلاء الفتية ..

فكان يقلب أجسامهم .. وكان يقلب كل خلية ، وكل كرية ، وكل ذرة في داخلهم لكي تنتظم عمليات الاحتراقات الكيماوية داخل الجسم، وابدالها بطاقة جديدة متخذة من الشمس ، والهواء ، بقدرة فائقة ، يعجز عن فهمها الانسان حتى الان « .. وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » .

وهناك أمثلة كثيرة تدل على ان الله سبحانه ، كان قد عطل كثيرا من القوانين الطبيعية في موارد عديدة .

فقد شبه للرومان انهم قبضوا على عيسى ولم يكونوا قد قبضوا عليه بالفعل !.

وخرج النبي محمد ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ من داره التي كانت

محاطة بسيوف المشركين ورماحهم ، وهم يتربصون به ، كل لحظة للهجوم عليه وقتله ، فجعل الله بين النبي وبينهم سدا .. فأغشاهم فهم لا يبصرون، وهكذا ستره الله عن عيونهم وهو يمشي بينهم .

كل هذه الامثلة ، تدل على ان الله سبحانه كان قد عطل قوانينـــــا طبيعية ، لحماية شخص ، لان الحكمة الربانية ، كانت تقتضي الحفاظ على حياته .

واذا عرفنا ذلك .. فليكن قانون الشيخوخة والهرم ، واحدا من تلك القوانـــــين ، التي تم توقيفها ــ بأمر الله سبحانه ــ من أجل غايـــــة سامية ، وهدف حكيم .. وهو ان يحفظ وجود الامام في الحياة ، الى يـــوم ظهوره الشريف .

فقد جاء في الحديث :« لولا الحجة لساخت الارض بأهلها » .وكأن هناك ترابطا وثيقا ، بين وجود الامام المهدي ــ باعتباره حجة من حجج الله ــ وبين الحفاظ على نظام الكون .

وهذه نقطة لا املك لها فهما ، ولا أريد ــ الان ــ ان افهمها ، لانهـــا فوق المستوى الفكري للانسان المعاصر ، وللتقريب يمكن القول : بأن ضرورة وجود الامام الحجة للارض ، بمنزلة ضرورة وجود الجاذبة للارض ، . فلولا الجاذبة لساخت الارض بأهلها ، وتناثرت ذراتها في الفضاء !.

واذا سألتني ما هي علاقة وجود الامام بسكون الارض ، والحفـــاظ عليهـــــا ..؟

فاني اسألك ــ بدوري ــ وما هي علاقة وجود الجاذبةبسكون الارض، والحفاظ عليها .

واذا كان الجواب انك لا تدري بعلاقة ، الجاذبة بالارض ، ــ وهـــو

الجواب العلمي الذي تقوله كل الجامعات في العالم — فانا أيضا اجيبك في محبة : انني لا ادري بالضبط ما هي علاقة الامام المهدي ، بالارض .!

فهذه قضايا غيبية ، والايمان بها ، يشبه الايمان بوجود الجاذبة .. وكما انك لا تستطيع ان تنكر وجود الجاذبة ، وترفض الايمان بها ، لمجرد انك لا تراها بعينك ولا تعرف روابطها العضوية ، فكذلك ليس في امكانك ان تنكر وجود الامام المهدي — عليه افضل الصلاة وازكى السلام — لمجرد انك لا تراه ، ولا تعرف مكانه ، ولا روابطه العضوية بالارض !.

والسؤال الثاني هو :

كيف يمكن ان تحكم العالم حكومة واحدة ، مع تفاوت الافكار ، واختلاف الاديان ، في شرق الارض وغربها ؟

القرآن الكريم يؤكد ، في بعض آياته ، ان العالم ، سينضوي تحت لواء الاسلام ، في دولة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، وذات لون حضاري واحد .. وان هذا اليوم ، لقادم لا محالة .

ونفس الشيء وارد في الروايات والاحاديث التي جاءت عن طريق العترة الطاهرة فقد اكدت وقوع العالم ، في أيدي الحكومة الاسلامية الموحدة، بقيادة الامام القائد المنتظر — سلام الله عليه — .

لقد قال الله سبحانه : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » .

وهذه الآية ، ركزت على ان الاسلام ، سوف يسيطر على الناس كافة .. بدليل قوله : ولو كره المشركون . وفي مكان آخر يقول : ولو كره الكافرون ، ومعروف ان العالم — باستثناء المؤمنين — يتألف من مشركين

وهم شعوب امريكا المسيحية ، ومن دار في فلكها .. ومن الكافرين وهـــم شعوب روسيا الملحدة ، ومن دار في محورها .. — :

وللاجابة على السؤال الفائت وهو : كيف يمكن اقامة دولة اسلامية واحدة ، تدير العالم اجمع ..؟.. اقول للاجابة على هذا السؤال لا بـد من الاشارة الى عدة نقاط :

النقطة الاولى : هي :

ان العلماء ، مع اقتراب الحرب العالمية الثالثة ، يصعدون موجـة التحذير الى العالم .. ويقولون في تحذيرهم : لتفادي السقـــوط في وادي الحرب الثالثة ، لا بد من اقامة دولة واحدة ذات ثقافة واحدة ، تحكم العالم كله ، ويضيف العلماء ، ان سبب الحروب ، هو الظلم ، والجهل .

وبالفعل ، فقد اكد القرآن ، هذا الجانب ، تأكيدا عميقا فقال : « انه كان ظلوما جهولا .. » « .. وانه لظلوم كفار .. » .

اجل انه الظلم الذي غرق فيه الانسان ، الى اخر شعرة في راســه، وانه الجهل الذي يشد الانسان من قفاه .. ! فلا طريق للخلاص ، مـــن شبح الحرب العالمية الثالثة ، الا باقامة دولة واحدة ، ينضوي في ظلهـــا العالم بأســـره ..!.

وفي الطرف الاخر .. اثبت علماء الاجتماع وعلماء النفس — بالارقام العلمية — ان الملاك الوحيد ، لبناء الدولة الواحدة في العالم ، هو النضوج العقلي ، والتكامل الفكري .. فكلما زادت البشرية نضوجا في العقـــــل، زادت قبولا للعيش تحت ظل حكومة واحدة ذات ثقافة واحدة !

واذا اردت المزيد من العلم بهذا المجال ، فما عليك الا ان تقـــــوم

بقراءة واعية ، في الكتب المختصة بعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، لتجد ان علم الاجتماع والنفس يؤكدان هذه الحقيقة ، وهي : ان قيام الدولة الواحدة يعتمد على المستوى الفكري الراقي للامة ، وكذلك يعتمد على النضوج العقلي ..

والمثال الذي يضربه العلماء ، في هذا المضمار هو :

ان الانسان ، في العصر الحجري . لم يكن على درجة من النضوج العقلي التي تؤهله للعيش مع ابناء جنسه ، ولذلك فهو كان يعيش على السطو ، والنهب ، والقلب ، ثم بدأ عقله يتكامل في النضوج ، فأنشأ الاسرة، العائلة ، ثم تطور عقله ، حتى صار يعيش تحت حكومة القبيلة ، وبعدها، انتقل الى العشيرة ، وكلما زاد نضوجه العقلي زاد تعطشه للعيش اكثر مع ابناء جنسه ، فكان ان تشكلت الدولة ، وهي بدورها كبرت ، واتسعت، حتى شملت الملايين من البشر .. فصارت دولة من عشر ملايين .. واستمر الانسان في رحلة الصعود على سلم التكامل ، واستمرت قدرته على العيش بأكبر دولة — حتى صارت الدولة تحكم على ماة مليون من البشر ، ثم تصاعدت رحلة التكامل ، فصارت الدولة تحكم على ستمائة مليون انسان ، مثل الهند — وارتفع العدد ، الى قرابة الف مليون انسان يعيشون تحت لواء حكومة واحدة وهي الحكومة الصينية ..

فاذا قامت حكومة الالف مليون ، فما هو المانع من قيام حكومة الاربع مليارات انسان ؟.

— : بالطبع . لا مانع هناك ابدا ..
هذه الصورة التي نقلتها لكم ، هي بالكامل ذكرها علماء الاجتماع، وعلماء النفس في كتبهم المفصلة !

والذي ساعد على اتساع رقعة الدولة الواحدة ، هو وجود غريزة

الاجتماع ، وحب ، الاجتماع المزروعة في طينة الانسان ! شأنه في ذلك شأن سائر الحيوانات ، فكل الحيوانات تمشي على وحي غريزة الاجتماع .. بدليل قوله تعالى : « وما من دابة في الارض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء .. » فكل الفصائل الحيوانية قائمة على اساس التجمع ، وعلى بناء المجتمعات بشتى انواعها . من مجتمع النملة ، والنحلة ، والفيلة ، الى مجتمع الطيور ، والاسماك والوحوش ، في الغابة . وانت ترى الطيور تجوب الفضاء ، زرافات زرافات ، وكذلك الوحوش ، قطعانا ، قطعانا ..!

وهذه الغريزة موجودة في الانسان ، كما هي موجودة في الحيوان ، ولكن مع فارق واحد ، وهو : ان هذه الغريزة تبرز في الحيوان دون حاجة الى من يثيرها بعصى التعليم السحرية ، بينما هي في الانسان تحتاج الى من يثيرها بمناهج التعليم ، مثلها في ذلك مثل اغلب الغرائز في الانسان التي لا تنمو الا في ضوء التربية ، ونقاء التعليم ، كغريزة الكلام مثلا .. فلو ان طفلا عاش دون ان يتكلم معه احد ، فانه لا شك يبقى اخرسا لا يستطيع الكلام ، واذا حدث ، وتكلم فانه سوف يخرج من فمه مجموعة من الحروف المتشابكة المتداخلة التي لا تعني شيئا على الاطلاق ..

وما ينطبق على غريزة الكلام ، ينطبق على غريزة الاجتماع .. فهي بحاجة ماسة الى من يمنحها التكامل الفكري والنضوج العقلي .. واذا لم يصل الانسان الى مستوى عقلي رفيع بواسطة التعليم والتربية ، فان الحيوانات تكون اكثر منه ثقافة ، وقدرة على الابداع ...

وخير مثال على ذلك ، قصة ابني آدم التي يذكرها القرآن الكريم .. فهذا قابيل يهجم على هابيل ، فيقضي عليه ، ويقتله ..

ولكنه بعد مقتله ، ظل حائرا لا يعرف ، كيف يواري جسد اخيه .. « فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه ..! قال

اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب .. » .

لاحظوا كيف ، ان الغراب كان اكثر ثقافة من قابيل .. فهو يعلمه كيف يواري جسد اخيه في التراب .. لانه عجز عن أن يكون مثل هذا الغراب — على حد تعبيره ...

اذن ! فالمقياس لقبول الحكومة الواحدة العالمية لدى الناس ، هو مدى النضوج العقلي ، والارتفاع الفكري للانسان ، وتلك حقيقة ثابتة في حقل العلوم الاجتماعية ، والنفسية !

فكلما ارتفع مستوى الانسان ، العقلي والفكري ، ارتفع مستوى تقبله للعيش في ظل حكومة الانسان الواحدة — ذات الثقافة الواحدة ، وذات اللون الحضاري الواحد — كما تقدم الكلام — !

قيام الحكومة الواحدة في العالم ، يعتمد على ثلاثة محاور :

المحور الاول : الاقتصاد .

والمحور الثاني : الثقافة .

والمحور الثالث : التحول الطبيعي التلقائي ..

فالاقتصاد الواعي ، الذي يتغلب على الفترات العجاف ، ويزرع السنوات السمان ، هو من أهم العوامل المساعدة في بناء الدولة الواحدة ..

ونفس الكلام يقال بالنسبة للثقافة الموحدة وذلك ، لان الثقافة اذا تنوعت ، واتخذت اشكالا والوانا تعددت الشعوب ، والامم تبعا لهذا الاختلاف ويؤكد علماء الاجتماع : ان وحدة الثقافة تلد وحدة الامة ..

فلو ان خمسين دولة — مثلا — عاشت تحت ثقافة واحدة ، فانها تعتبر دولة واحدة ، من الجانب الثقافي — على الاقل — .

وكذلك لو ان عشرين دولة ، كانت تحت ثقافة واحدة فانها ستكون — من ناحية الثقافة — دولة واحدة ، .

وخير شاهد ، على هذين المثالين ، هو الوضع الحضاري الذي تعيشه الولايات المتحدة الامريكية ، والاتحاد السوفيتي ..

فالولايات المتحدة الامريكية ، تتألف من اكثر من خمسين دولة ، ولكنها دولة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولون سياسي واحد ،..!

ونفس الشيء يكون في الاتحاد السوفياتي ، فرغم تعدد الجمهوريات هناك ، الا ان الثقافة واحدة ، والكل يعيشون تحت حكومة واحدة ...

وكما في امريكا ، والاتحاد السوفيتي ، كذلك في الصين ، التي يربو عدد سكانها على الالف مليون انسان ، من مختلف الجنسيات ، والالوان .

— كما جاء في اخر تقرير لاحصاء النفوس في الصين — .

ولكن مع هذا العدد الضخم من البشر — نرى الناس يعيشون في ظل حكومة واحدة ، بعد ان كان الانسان في القديم عاجزا عن العيش — بسلام — مع انسان اخر مثله — كما في قصة ابني آدم — .

وفي القرآن الكريم ، يقول الله سبحانه وتعالى : « .. والعصر ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ومعنى ذلك ، ان كل انسان في الارض ، لا بد له من الثقافة الواحدة..

سواء كان ذلك الانسان ، افريقيا ، اوربيا ، امريكيا ، هنديا ، عربيا، فارسيا ، او حبشيا .. لا فرق .

الكل في خسران ، والكل في خسارة ، الا اصحاب الثقافة الواحدة التي يجب ان تحكم العالم ، وهي ثقافة ، الايمان والمؤمنين — (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

والان ، فقد بدا علماء النفس ، وعلماء الاجتماع يطالبون باقامة دولة واحدة ، ذات ثقافة ، واحدة ، من اجل التغلب على مشاكل ، الانسان، وتجنب الحرب ، والويلات .

فالمحور الاول في بناء الدولة الواحدة ، هو العامل الاقتصادي . بينما المحور الثاني ، هو : وحدة الثقافة ، في حين المحور : الثالث ، هو : التحول الطبيعي التلقائي في الامة .

ولكي تصبح صورة التحول التلقائي ، واضحة ، امامكم .. اضرب لكم المثال التالي ، في القصة التالية :

وقبل سرد القصة ، لا بد من الاشارة الى ان العلماء ، يتخذون من قضية ابراهام لنكولن ، وتحريره للعبيد ، مثالا على جانب التحول التلقائي في الامة ... واعتقد اننا في غنى عن هذا المثال .. لاننا نتمكن ان ناخذ الامثال ، والصور والدروس ، من الانبياء العظام ، عليهم افضل الصلاة، وازكى السلام .!

الانبياء ظهروا في القرى التي اخذ الناس يتحولون فيها تحولا تلقائيا، نحو الانتفاضة والثورة على الواقع الراكد البغيض ....

فالنبي موسى — مثلا — ظهر في مجتمع يتململ الناس فيه تململ السليم ، ويبكون بكاء الحزين ، من شدة البلاء وقسوة الظلم .. والقرآن يذكرهم بهذه الفترة بالذات قائلا : « .. واذ نجيناكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون ابناءكم ، ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. » .

اذن : فهم كانوا في اشد حالات الحرمان ، وانواع الظلم . والعذاب، ووسط هذا الجو التحولي ، انبثق نور الخلاص ، على جبين موسى ، — عليه السلام .

وهل كان هذا التحول ، في زمن موسى ، بسبب العامل الاقتصادي ؟!

بالطبع .. لا ..!

ام بسبب العامل الثقافي ؟

ايضا .. لا .

بل كان بسبب التحول التلقائي ، الذي انفجر في الامة ، نتيجة الظلم ، والقمع والارهاب .

ونفس الشيء يقال ، بالنسبة ، للنبي الاعظم محمد — صلى الله عليه واله وسلم — .

والا فما هو السبب المباشر ، وراء الانتصارات الساحقة ، التي احرزها المسلمون ، في عهد النبي وبعد وفاته ..؟! هل هي الثقافة ؟ ام هو الاقتصاد ؟! لا هذا ، ولا تلك .. وانما هو التحول الطبيعي الذي شرح

صدر الامم للاسلام فدخلت فيه افواجا ، افواجا .! مع قلة عدد المسلمين ، وكثرة عدد الكفار والمشركين !.

وبعد هذه الاشارة الخاطفة ، انقل لكم القصة التي تعمل على تعميق الفكرة اكثر فأكثر في نفوسكم ..!

في حرب اليرموك التي وقعت ايام عمر بن الخطاب — والتقى الجيشان ، الاسلامى ، والروحي ، في قتال مرير .. وانتهت بانتصار المسلمين ، على الرومان .. كان سبب الانتصار هو التحول الطبيعي الذي دب في نفوس الامة الرومية ، فجعلها تبحث عن الخلاص ، وليس غيره .. فقد كان عدد الجيش الرومي قرابة ، المليون جندي ، بينما كان عدد جيش المسلمين لا يزيد على أربعين الفا من المقاتلين ..!

فكيف حدثت المعجزة ؟

القصة :

كان الليل طويلا وثقيلا على الجيش الرومي ،!

فها هو اليوم الاول من أيام الحرب ، يمر دون ان يسجل الروم اي انتصار على المسلمين .. وانما كان الامر بالعكس فقد تبخرت احلام الجنود ، من اول لقاء مع المسلمين .

وهكذا بدات الهزيمة تفكك صفوفهم ، وتبعثر فلولهم .. ولكنهم ما زالوا صامدين ، امام جبروت الجيش الاسلامي ..!. ومر اليوم الاول ، ثم تلاه الاسبوع الاول ، ثم اعقبه الشهر الاول ، من بداية الحرب .. والرومان يتجرعون مرارة الهزيمة جولة بعد اخرى ، بينما المسلمون يحققون الانتصار تلو الاخر ، بجنود لا يعرفون الخوف ولا يرهبون العدو ..!

وذات يوم ، من ايام المعركة ، عقد القائد العام للقوات المسلحة الرومية، اجتماعا عاجلا ، ومطولا ، مع كبار الضباط والجنود ، وخطب فيهم ، خطبة ساخنة ، يحذرهم فيها من مغبة التراجع ، امام المسلمين ، ويحثهم على التقدم واحراز النصر ودحر المسلمين ..

وفيما كان يخطب ، في الجنود والضباط ، داخل خيمة كبيرة ، اذ جاءه احد الخدم ، يطلب منه الاذن ، والسماح له بالدخول .. فسمح له بالدخول . فدخل ،وقاطع خطبته قائلا : ايها القائد العام لا تتعب نفسك بالقاء الخطب الحماسية .. فانكم مهزومون لا محالة ، وساله القائد : من أين لك ان تقول ذلك ..؟ فأجابه قائلا : اقول ذلك ، وأومن به، استلهاما من الحادثة التي مرت علي ، وعلى اسرتي :

كان ولدي الوحيد يرعى غنمي ، ومر عليه جماعة من جنودكم وعليهم قائد لا زال معكم ، وهو يجلس الان داخل الخيمة — فأخذوا منه الغنم، واعطوه فقط ، خمسة رؤوس ، من مأتي راس ، ولما صار ولدي يبكي ، ويتوسل اليهم ان يردوا الاغنام عليه . قاموا اليه ، فقتلوه ، ثم دخلوا علي بيتي ، وضربوني ضربا مبرحا ، واخذوا زوجتي ، وداسوا شرفها امام عيني ، وبعد ذلك ذبحوا طفلها الرضيع ، في حجرها ، فجنت وهامت على وجهها بالعراء .. وانا قدمت هنا لاعمل خادما ، بعد ان دمروني ، ومزقوا حياتي تم بكى .. وقال للقائد : من هذه الحادثة عرفت ان جنودكم لا يمكن ان ينتصروا على المسلمين مهما كانت قوتهم قليلة ، وقوتكم كثيرة ..!

فساله القائد ..! هل بامكانك ان تعرفني باسم الضابط الذي صنع معك هذا الصنع ؟

قال : لا يا امير ، لست مستعدا لان احمل مصيبة ثانية تقع على

راسي .. ثم بكى وخرج من الخيمة ، وفي اليوم التالي ، وجد مقتولا امام خيمته ، من اجل ان يدفنوا سره معه في التراب !

نستفيد من هذه القصة التاريخية الرائعة ، ان سبب الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون ضد الروم . هو ان المجتمع الروماني كان في وضع لا يحسد عليه ، بل كان في اشد حالات الخنق والظلام . وهو بعد ذلك كان مجتمعا قد بدأ يتململ في تحول تلقائي من الاسوأ الى الاحسن .

ونخرج من خلال البحث ، بالنتيجة التالية :

وهي : ان العلماء اكدوا في مجال النفس ، والاجتماع ، ان اقامة الدولة الواحدة ، ذات الطابع الحضاري الواحد ، **انما تعتمد على اعمدة** رئيسية ، ثلاثة : وهي :

١ ــ **العامل الاقتصادي ، وهو يفعل فعل السحر في تحويل المجتمعات،** من طوائف متفرقة هنا ، وهناك الى طائفة واحدة كبيرة تحت لواء واحد ودولة واحدة ــ كما حدث في ايام يوسف الصديق عليه السلام ــ عندما اتسعت دولته على العالم ، بشكل ملفت للنظر ، وذلك بسبب العامل الاقتصادي فالناس كانوا يرزحون تحت وطأة السنوات العجاف ، فيعانون الجوع ، والحرمان ، من جهة ، ومن جهة ثانية كان يوسف يتربع على مخازن القمح الضخمة العملاقة التي ملأها الملك بأمره ، خلال الاعوام السبعة السمان ..

هذا الوضع جعل الناس يتقاطرون على يوسف من كل فج عميق .. وحتى اخوته ، دخلوا عليه يتضرعون اليه قالوا : « يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، ان الله يجزي المتصدقين » .

اذن : فهو العامل الاقتصادي الذي جمع الناس تحت حكومة يوسف الذي كان يأخذ بناصية خزائن الارض ، لانه حفيظ عليم ..

اقول : بناء الدولة الواحدة ، يعتمد على ثلاثة اعمدة رئيسية :

الاول : الاقتصاد ، وقد مر ذكره .

والثاني : توحيد الثقافة ..

والثالث : التحول التلقائي الذي يتفجر في الامة ، فيخلف الهدف

الواحد ، والثقافه الواحدة تحت الدولة الواحدة .. كما مر في قضية موسى عليه السلام .

على ان هذه الابعاد الثلاثة ، لا تنشأ في الناس ، الا بسبب النضوج العقلي ، فهي ، تعتمد اعتمادا كبيرا على ارتفاع مستوى العقل والفكر ..!

وقد اثبت علم الاجتماع ، وعلم النفس هذه الحقيقة ، وهي :

ان استعداد الناس ، للعيش في ظل حكومة واحدة ، يتكل على النضوج العقلي ، بحيث كلما ارتقت الامة في سلم التكامل الفكري زادت قدرتها على توسيع ساحة المجتمع الواحد ، في ظل الحكومة الواحدة ..

اذا عرفنا ذلك ، عرفنا الاجابة ، الدقيقة على السؤال الثاني الذي يقول : كيف يمكن — في عصر ظهور الامام المهدي — ان تحكم العالم حكومة واحدة ، مع تفاوت الافكار ، واختلاف الاديان ، في شرق الارض ، وغربها .

واعتقد ان الاجابة ، ستكون اكثر اشراقا ووضوحا ، عندما نقـــرأ الحديث الوارد عن الامام محمد بن علي الباقر ــ عليه افضل الصلاة وازكي السلام ــ بخصوص اقامة الحكومة الواحدة ، ذات الثقافة الواحدة ، بقيادة الامام المنتظر ــ عليه السلام ــ واليكم الحديث ، فاقرأوه ان شئتـــم ، بقلوبكم قبـــل عيونكـم .

الحديــث يقول :

« .. اذا قام قائمنا اهل البيت ، وضع الله يده على رؤوس العباد، فجمع الله بها عقولهم وكملت به احلامهم » !!..

لاحظوا اسلوب الحديث ..!

انه لم يقل : وضع الله يده على رؤوس المسلمين ، ولا المؤمنين ، وانما قال : وضع الله يده على رؤوس العباد .. وكلمة العباد تعني البشرية كافة.

تعني كل انسان في الارض ..!

اجـــل ..

انها يد الرحمة ، . ويد العطاء .

ماذا تصنع هذه اللمسة الساحرة ؟

انها تجمع العقول .. اي ان العقل يتمحور في مركـــزه بعمق واع ، فيعطي الفكر الخلاق .

وكملت به احلامهم ..

واحد من المعطيات الهامة ، في ظهور الامام المهدي — عليه السلام — هو : « تكامل عقل الانسان وارتقائه الى المستوى الفكري المعقول .. » .

فالامام الباقر — عليه السلام — يؤكد لنا — بصورة قاطعة — ان من معطيات الظهور ، هو التكامل العقلي ومن ناحية ثانية ، يؤكد علماء الاجتماع والنفس ، ان النضوج العقلي ، هو احد الاسباب الرئيسية في اقامة الدولة الواحدة في العالم ..

يتبين من كل ذلك ، حتمية الحكومة الواحدة ، بقيادة صاحب العصر والزمان ، ارواحنا فداه .

ومن الروايات والاحاديث الكثيرة التي جاءت حول الامام الحجة ، نستفيد ان الحكومة الواحدة العالمية ، المنتظرة ، انما تأتي على متن التحول الاجتماعي التلقائي ، الذي يصيب العالم بسبب اندلاع الحرب العالمية الثالثة !

فقد ذكرت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام . وعن الامام الصادق عليه السلام :

« .. لا يكون هذا الامر — اي ظهور الامام المهدي — حتى يذهب ثلثا الناس ، فقال الراوي ، اذا ذهب ثلثا الناس ، فمن يبقى ؟! فقال الامام : اما ترضون ان تكونوا من الثلث الباقي » .

تصوروا : ان الانسانية التي يذهب ثلثاها بسبب الدمار الذي تتركه الحرب .. تصوروا بأية حالة يعيش الثلث الباقي من البشرية ..؟!

انهم اناس غارقون في القلق والخوف ، والمرض ، والاضطراب ،

يتطلعون الى المخلص المنقذ بقلوبهم قبل عيونهم ، ليخلصهم من العــذاب الاليم ..!

وهل تدري ، ان الارض تحمل فوق ظهرها من السلاح ما يكفي لقتل العالم مأتي مرة !!.

ولا شك ان الحرب اذا وقعت ، تترك الناس كالفراش المثبــوت، وتترك المدن والقرى كالعهن المنفوش ..

انها صورة مؤسفة مفجعة ، ليس في الامكان تصورها ..

واخر التقارير العسكرية التي قرأتها ، في هذا المجال تقــول : ان الحرب العالمية الثالثة ، اذا وقعت ــ لا سمح الله ــ فانها تقضي ــ في خلال ساعتين فقط ــ على نصف الكرة الارضية ..!

يا للهول ..! انها حرب الازرار ..

مجرد الضغط على زر واحد ، في الغرفة الســوداء ، في البيــت الابيض ، او في الكرملين ، يكفي لقتل قرابة ماة مليون انسان ، في اقل من دقيقة واحدة !!...

وفي هذا الطوفان الذري الهائل الذي يجتاح البشرية ، يقف الواحـد، تائها لا يدري الى اين يتجه .. وهنا ياتي دور الفطرة ، فيتجه الجميع الــى الله الرحمن الرحيم ..

الكل يطلبون من الله العون ، والمساعدة ، والخلاص ..

الكل يقلبون وجوههم في السماء ، مستجيرين .. طالبين الرحمــة ،

والفـــــرج ..

الناس ينادون بصوت واحد : يا الله ارحمنا ، الخلاص .. الخلاص .. الخلاص ..

وسط هذا الجو المليء بالرعب والخوف والقلق ، وبينما الناس يفتشون عن المخرج الى روح الفرج ، يأتي صوت هادر من اعماق الكون ، يشـــق سكون الطبيعة ويمزق ظلام الليل الثقيل .. صوت يسمعه الكل .. صـــوت ينادي : « .. الا يا اهل العالم قد ظهر مهدي آل محمد ، فاسمعـــوا لـــــه واطيعوا ، ولا تخالفوا عنه فتذلوا .. » .

فيملأ الله به الارض قسطا وعدلا ، بعد ما ملئت ظلما وجورا .. » .

وصدق الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيـــــه قائمنا اهل البيت ، فيملأ الله به الارض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلمـــا وجورا .... » .

فينضوي العالم كله تحت لواء حكومة اسلامية واحدة ، ذات ثقافـــة اسلامية واحدة .. بقيادة امل الشعوب ونصرهـــــا المتحتم الامـــام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه افضل الصلاة وازكى السلام .

وهذا يذكرني بكلمة قالها (راسل) الفيلسوف البريطاني ، في كتابـــه امل الحياة : « .. البشرية اما ان تكون تحت حكومة عالمية واحدة ، وامـــا ان تتمزق شر ممزق .. ! » .

الإنتظار ماذا يعني؟

جاء في الحديث « .. افضل اعمال امتي انتظار الفرج .. » يا لروعة هذا الحديث ! انه يقول : افضل الاعمال ، الانتظار .. فأوضح لنا أن الانتظار عمل ، وليس ركودا ، ولا جمودا .

الانتظار معناه الرفض الكامل ، لكل الوان الحكم في الارض ، الحكم الظالم الطاغوتي .. وذلك لانك اذا رضيت بالوضع الراهن للامة الاسلامية لم تعد منتظرا للامام — وانما المنتظر له هو الرافض لكل انواع الظلم والاستعباد ، ولذلك جاء في الحديث عن اهل البيت — عليهم السلام — « ان المنتظر لامرنا ، كالمتشحط بدمه في سبيل الله — » اجل .. انه يلبس الكفن دائما ، لانه رافض للظلم ورافض للجور ، ورافض للاحتكار ورافض للاستعمار ، ورافض للحكام الخونة ، ورافض للمجتمع الجبان الرازح تحت اقدام الحاكم الظالم .

ان الانتظار ، هو الرفض الشامل لكل الظالمين في الارض ، والالتصاق الكامل بكل المحرومين والمعذبين في الارض والامام المهدي يتطلع بشوق بالغ الى اليوم الذي يستطيع فيه أن يمد يده لخلاص البشرية من عذابها الطويل !.

والايمان بالمهدي المنتظر ، ليس لقتل الوقت ، وجمع الاموال ، والسلوة .. وانما هو مصدر عطاء ، وقوة ، لان الايمان بالامام المهدي ، ايمان عميق برفض كل انواع الظلم والجور في كل بقاع العالم .

وهو مصدر قوة ، ودفع لا ينضب لانه يرش الامل في القلوب ويجعلك ترى النور ، وانت في احلك ساعات الظلام ..

فهو انتصار النور على الظلام .

وانتصار جحافل الحق على فلول الباطل ، والمهدي لم يكـن فكـــرة قديمة ننتظر ولادتها ، وانما هو واقع نعيشه ونحسه بوجداننا واعماقنـــا ، وشعورنا ، وهو انسان يعيش بيننا بلحمه ودمه ، يشهد آلام المحرومـــين ويسمع انين المعذبين .

الفصل الثالث

المرأة في القمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق المرأة في الاسلام :

« والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والانثى ، ان سعيكم لشتى ... » قرآن كريم .

القرآن الكريم ، ينتخب في تقديم الحل ، للمشكلات الاجتماعية ، اقرب الطرق الى الاذهان ، واكثرها وقعا ، في القلوب .

فهو يرفض السير في الانفاق الغامقة في مخاطبة الناس .. ويمشي في الطريق الواضح الى الهدف ، حتى تدخل آياته القلوب ، كما تدخل المياه العذبة الحقول الطيبة .!.

والقرآن — هنا — يطرح قضية اجتماعية مختلف فيها مع قضية طبيعية متفق عليها ، ليتخذ من القضية الطبيعية ايناسا للقضية الاجتماعية !.

فالليل والنهار ، ظاهرتان طبيعيتان ، يتفق الناس — جميعا — على ان وظيفة الليل تختلف عن وظيفة النهار ، وعلى انه تستحيل المساواة بينهما في الوظيفة .

اذن : فالقرآن عرض ظاهرتين طبيعيتين متفق ، عليهما ، وظاهرتين اجتماعيتين مختلف فيهما !

والاختلاف ناشىء من ان الناس ــ فطريا ــ يتفقون على تصديق القوانين الكونية ، والرياضيات ، وذلك لانهم لا يستطيعون مخالفتها ، في حين انهم يختلفون على الانظمة الاجتماعية بسبب قدرتهم على مخالفتها ! .

وبالمثل : فالناس يؤمنون بالقوانين الكونية بالكامل ، واما بالنسبة للقوانين الشرعية ، فهم على الاغلب والاكثر لا يؤمنون بها الا قليلا !. . . الكل يعتقدون بالرياضيات والكيمياء ، والفيزياء ، وعلم الاحياء ، على انها سنن كونة ثابتة ، وليس في الامكان الخروج عليها .. فالامريكان والروس ــ مثلا ــ يختلفون في العقيدة ، ومناهجها ، ولكنهم يتفقون في الطبيعة وقوانينها !.

فالفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات ، وقوانين الهندسة كلها واحدة وفي قالب واحد !. وليس في روسيا كيمياء شيوعية ، وفي امريكا كيمياء راسمالية.

وليس هناك رياضيات وفيزياء امريكية ورياضيات وفيزياء روسية ، وانما هي واحدة وذلك لانها قوانين غرسها الله سبحانه ، في اعماق الكون واحضان الطبيعة ، ولم يعد في الامكان مخالفتها ، ولا الخروج عليها !.

العقيدة والطبيعة :

نعم .. يستطيع الناس ، ان يخالفوا في العقيدة بحيث يصبح لكل واحد لون معين من العقيدة .. وذلك لان العقيدة ، مردها الفكر والارادة، بينما علوم الطبيعة مبعثها السنن الكونية ، وهذه ليس في الامكان مخالفتها !.

« فلن تجد لسنة الله تبديلا .. ولن تجد لسنة الله تحويلا » .
وهل في استطاعة الانسان ، ان يخالف قانون الجاذبة ــ مثلا ــ ؟!
كلا والف كلا ..

لان مجرد المخالفة لهذا القانون ، يعني التحطم الكامل لجمجمة وجسم الانسان .. وكما في قانون الجاذبة كذلك في كل القوانين الطبيعية .

والقرآن الكريم ، عندما يقدم بين أيدينا ظاهرة طبيعية ، واخرى اجتماعية ، فانه يريد ان يلفت انظارنا ، الى ان الظواهر الاجتماعية ، في حياة الانسان ، هي الاخرى ، يجب ان تسير على نفس القوانين التي جرت عليها الظواهر الطبيعية .. وذلك : لان الانسان هو ابن الطبيعة ويلبس ثوبها في كل حياته ، ولا يمكنه الانسلاخ عنها .

اذا عرفنا ذلك ، اقتربنا من الهدف الذي تشير اليه الآية المباركة :

القدر المشترك :

هناك قدر مشترك بين الليل والنهار ، وبين الذكر والانثى ، والقدر المشترك هو : ان الليل والنهار اسمان يعودان الى الزمن ... وكذلك الذكر والانثى اسمان يرجعان الى الانسان ! .

وذلك يعني : ان الزمن تفرع منه الليل والنهار ، في حين ان الانسان تفرع منه الذكر والانثى !

وواضح جدا : ان انقسام الشيء يدل على تعدد الوظائف .. والا فلو كانت الوظائف واحدة ، لما كان هناك دافع للانقسام .

اذن : فالليل والنهار فوقهما قاسم مشترك ، وهو : الزمن .. وايضا، فالرجل والمراة يربطهما قاسم مشترك واحد وهو : الانسان !!.

ولانه من غير الممكن توحيد وظيفة الليل ، ووظيفة النهار ، فكذلك

من غير الممكن توحيد وظيفة الرجل ، ووظيفة المرأة ، وانما للرجل دور يتناسب معه ، والمرأة لها دور يتوافق معها ، تماما ، كما الليل والنهار لكل واحد منهما مهمة تختلف عن اختها !.

فالليل جعله الله للسكن والراحة ، بينما النهار جعله للعمل والكدح ، ونفس الشيء بالنسبة للرجل والمرأة .

الاختلاف :

ويحدثنا القرآن بصراحة : انه لولا اختلاف الليل والنهار ، لما استطاع الانسان ان يستمر في الحياة ، وذلك لان الحياة الانسانية ، لا يمكن ان تستمر في ليل دائم ، ولا في نهار دائم ، وقد اشار القرآن الكريم الى هذه الزاوية في قوله تعالى :

« قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة ، من اله غير الله يأتيكم بضياء افلا تسمعون .. » وفي آية ثانية يقول الحق :

« قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة ، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، افلا تبصرون .. » (١) .

فاوضح القرآن — هنا — انه : لا يمكن ان تستمر الحياة دون وجود الليل والنهار ، ولذلك فقد اكد القرآن وظيفة الليل ، وكذلك اكد وظيفة النهار .!

واللفتة العلمية التي تجدر الاشارة اليها هي :

---

١ — سورة القصص آية ٧١ — ٧٢ .

ان القرآن الكريم ، عندما ذكر سرمدية الليل قال بعدها مباشرة (افلا تسمعون) في حين انه عندما ذكر سرمدية النهار قال بعدها : (افلا تبصرون) !

فالسمع جاء في ذكر الليل ، بينما البصر جاء في ذكر النهار . وهنا تكمن في هذا التمييز حقيقة علمية رائعة .

والحقيقة العلمية هي :

ثبت علميا ان حاسة السمع لا تتوقف عن العمل خلال النوم — وانما تظل تلتقط الاصوات وترسلها الى الدماغ ، على مدار الساعة ، بخلاف حاسة البصر فانها تتعطل عن العمل في النوم ، وتلك حقيقة أكدها العلم الحديث مؤخرا ، بالاضافة الى انها واضحة لدى الجميع ، ولا تحتاج الى دليل .. فالكل يعرف ان الاذن تبقى عاملة خلال النوم ، في التقاط الاصوات ،وارسالها الى الدماغ باستمرار ، في حين ان العين مطبقة الاجفان ، وعاطلة عن العمل في النوم .. ولذلك قالت الآية في سرمدية الليل ، افلا تسمعون ، وفي النهار قالت : افلا تبصرون فجاءت بالسمع في آية الليل فقط .. وهذا من الاعجاز العلمي في القرآن الكريم !.

وبعد هذه الجولة العلمية القصيرة ، نرجع الى الموضوع :

في آية اخرى يقول القرآن الكريم : « ومن آياته ان جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبغوا من فضله .. » فالسكن هنا يعود الى الليل ، بينما ابتغاء الفضل يرجع الى النهار !

ويقول ايضا : « وجعلنا الليل سباتا ، والنهار معاشا .. » .

من كل ما تقدم نخرج بالنتيجة التالية وهي :

ان هناك وظيفتين : احداهما وظيفة خاصة بالليل ، واخرى خاصة النهار ... وكما انه ليس في الامكان ان نفضل الليل على النهار ، ولا ان نفضل النهار على الليل ،فكذلك ليس في الامكان تفضيل الرجل على المراةولا ان نفضل المراة على الرجل وذلك لان مقياس الافضلية — في الاسلام — منحصر في التقوى ! « ان اكرمكم عند الله اتقاكم . »

الحديد ام الماء ؟ !

والاسلام لا يقول : الرجل افضل من المراة .. وانما يقول : الرجل اقوى من المراة — وهذه حقيقة بيلوجية — ولهذا حصل الرجل على درجة واحدة اكثر من المراة ، بسبب قوته وعضلاته المفتولة ، وخشونته ، ورجحان عقله على عاطفته وليس في ذلك من بأس ! .

واذا قلنا : ان الحديد اقوى من الماء — فهل يعني ذلك ان الحديد افضل من الماء ؟ ! لا اعتقد .

حقيقة بيلوجية :

على ان الاسلام ، اعطى للنساء حقوقا ، لو عرفها الرجال ، لثاروا مطالبين بالمساواة معها ! .

« .. وللرجال عليهن درجة .. » والدرجة تعني القوة التي استحق الرجل بها ان يكون قائما على الاسرة ، ينشر عليها ، الرحمة ، والمودة ، والخير ، ويوفر لهم الطعام بكد يده ، وعرق جبينه ، مع مراعاة ان الاسلام لم يترك الرجل قائما على اهله ، دون ان يضع له منهجا يتقيد به ، ولا يتجاوز حدوده ، وانما جعله قيما ، بشرط ان يكون عادلا في الاسرة ، وحكيما في

تصرفاته داخل البيت ! .

وعندما يقول القرآن الكريم : « الرجال قوامون على النساء » فانه يقرر حقيقة بيلوجية ، ظهرت في جسم الرجل ، واختفت من جسم المراة ، وهي : ان الرجل يتمتع بقدرة هائلة على التحمل ، في مواجهة الصعاب ، وخوض معترك الحياة ، وذلك : لان الطبيعة اعدته اعدادا كاملا لخوض هذه المعركة بينما اعدت المراة اعدادا كاملا ، للتربية والتعليم ، وتنشأة الجيل الصالح الذي يتحمل المسؤولية في المستقبل !

ونستطيع ان نلمح هذا المعنى ، من خلال عرض القرآن لقصة آدم وحواء ودخولهما الجنة في الآية المباركة التالية :

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .. » (١)

والملفت للنظر في هذه الآية ، هو : ان الله سبحانه حذر آدم من مغبة السقوط في خداع الشيطان ، ! .

« فقلنا يا آدم ان هذا — اشارة الى الشيطان — عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنكما من الجنة — الى هنا الخطاب طبيعي ، والتحذير موجه الى آدم وحواء كليهما ، يدل على ذلك قوله تعالى : « .. فلا يخرجنكما .. » — باستعمال الف التثنية — ولكن عندما ذكر الشقاء ، جعله لادم دون حواء فقال : « فتشقى » وكان المفروض ان يقول : فتشقيا — باستعمال الف التثنية — ولكنه لم يقل مثل ذلك ، وانما اكتفى القرآن الكريم ، بتوجيه الشقاء لآدم دون حواء . وهذا يدل على ان آدم خلق من اجل الشقاء والخشونة والكدح .. في حين ان حواء خلقت لتحتوي آدم ، لتكون سكنا

---

١ — سورة طه آية ١١٧ .

لـــــــه !!.

اذن : فليس الرجل هو الافضل ، وانما هو الاقوى ، وتلك حقيقـــة ليس عليها غبـــــار .

الاسرة خلية المجتمع

يقول القران الكريم في سورة النسـاء آية ٣٤ :

« الرجال قوامون على النسـاء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم .. » .

امامنا — الان — ان نبني الاسـرة ، ومعروف ان الاسـرة هي الخلية التي يدور عليها المجتمع ، وهي الرافد الذي يمد المجتمع بالرقي والتقـــــدم ، او بالانحطاط والتقهقر ! وذلك لان تقدم المجتمع يعتمد على تقـدم الاســـــرة ، فصحة المجتمع من صحة الاسرة ، ومرضـه من مرضها ! .

ولكي تبحر سـفينة الاسرة الى شاطىء السـعادة والهنـــاء ، لا بـــــد لها من وجود القائد الفطن الحكيم .!

فمن يا ترى نرشحه للقيادة ؟ المراة ام الرجل ؟!.

لا شك ان القيادة بيد الرجل ، احسـن منها بيد المراة ! . وذلـــــك للاسباب التاليـــــة :

واحد : الرجل اكثر قوة ، واشد صلابة من المراة ، وهذه مواصفات من شانها السيطرة الحكيمة ، والهيمنة الرحيمة على ، جو الاسرة ،!

اثنين : المرأة عاطفتها جياشة ، متدفقة ، بينما الرجل عاطفته جامدة ، تحتاج الى تسخين اكثر !!.. فالمرأة تتعامل مع العاطفة اكثر من تعاملها مع العقل ؛! بعكس الرجل ، تماما ، فهو يتعامل مع العقل اكثر من تعامله مع العاطفة .

وهذا حكم اصدرته الطبيعة على الرجل والمرأة .

ولان المرأة ، مكانها الافضل ، البيت وتربية الاولاد فهي ــ اذن ــ تحتاج الى العاطفة اكثر لادارة الحياة العائلية ، ولذلك فقد اعدتها الطبيعة ،اعدادا حسنا ، لتقوم بهذا الدور المقدس الشريف .

في حين ان الرجل ، مكانه العمل خارج الاسرة ، والكدح والنضال، وخوض الصعاب من اجل الكد على العيال ، وهذه امور تتطلب صلابة العقل ، اكثر من رقة العاطفة وتلك حقيقة علمية ، اشار اليها الامام علي ــ عليه السلام ــ في نهج البلاغة . وذلك بقوله : « ... ان النساء نواقص العقول .. » اي ان المرأة ، تكون في وضع لا يسمح لها ، بالتعامل مع العقل الا قليلا !. ولا يعني ذلك ، بالضرورة ، ان عقلها يختلف عن عقل الرجل .. وانما معناه ان العاطفة عندها تتغلب على العقل ، في اكثر الاحيان ، بسبب التقلبات النفسية التي تطرأ على المرأة !

ثلاثة : ان المرأة تشعر بجوع عميق الى حماية الرجل لها ، فهي تبحث ــ ابدا ــ عن الحماية في الرجل ، وهذه حقيقة اكدها علم النفس الحديث ، اضافة الى ان المرأة تقوم ، ــ على الاغلب ــ بابراز مفاتنها امام الرجل ، من اجل اشباع الشهوة ، واشباع الجوع الى الحماية ،.. ولا شك انه وضع لا يسمح لها بقيادة سفينة الاسرة ، فالقيمومة اذا صارت بيد الرجل، فان الحماية تتوفر لها ، وتشبع جوعها العتيق الى الرجل .

يقول عالم النفس الغربي (سيديو) : « والقرآن وهو دستور

المسلمين ، عندما جعل الرجال قوامين على النساء ، فانه بين ان للمــــراة حق الرعاية ، والحماية على زوجها » .

اجل .. (الرجال قوامون على النساء) .

فبهذا المنهج الرائع ، استطاع الاسلام ان يبني الاسرة على ارضـــــ قوية متماسكة ، لا تهتز مهما كانت العواصف عاتية !

لقد قرر الاسلام ان تكون القيمومة على الاسرة في يد الرجل ، لانــه اصلب موقفا ، واحكم رأيا ، وبعد ذلك فانه يتمكن من السير بالاسرة ، في طريق مفروش بالورود الجميلة ، والازهار ذات الالوان الحلوة ، وليس مزروعا بالخناجر ، والصخور ، والاشواك ..!.

ولان وظيفة الاسرة ، تقوم على التدبير ، والموازنة ، فان الرجـــل — بحكم هدوءه ، وتفكيره ، وبحكم اعتياده على مقابلة الريـــاح — اجـــدر بالقيام بهذه المهمة الصعبة ..

اضف الى ذلك : ان الرجل هو الذي يقوم بالانفاق على العائلة ، ومن الطبيعي ان الذي ينفق تكون بيده القيادة ، لان الذي بيده الـــوارد هـــو الذي ينبغي ان يكون بيده الصادر وذلك : للموازنة بينهما بدقـــة .

يقول القرآن : « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة .. » . (١) .

فالمراة هي السكن الدافيء ، الذي يحتاجه الرجل ، فيذوبفيه ، كما

---

١ — الروم آية ٢١ .

تذوب الالوان في بعضها البعض .!

« هن لباس لكم ، وانتم لباس لهن .. » .

لباس يحفظ الرجل ويقي المراة من لوافح الشهوة وحرارتها الفوارة !.

في صف واحد

وفي الاسلام : لا فضل للرجال على النساء ، الا بالتقوى .

فالمؤمنون كلهم يقفون في صف واحد من الفضل ، الرجال والنساء لا فرق .. والقرآن الكريم ، يخاطب الرجل والمراة ، بنفس الاسلوب .. فلم يخصص آياته بالذكر دون الانثى ، بل هي للاثنين كليهما .. وعندما يقول: « يا ايها الذين آمنوا ، » .. فانما يقصد الرجال والنساء ، وهذه قضايا من البداهة بحيث لا تحتاج الى تأكيد ، لانها معروفة ، وواضحة في القرآن !.

المساواة :

المساواة : كلمة تصب في اتجاهين متعاكسين .

الاول : المساواة في الطبيعة والخلقة .

الثاني : المساواة في العقيدة والحرية .

اما المساواة في الاتجاه الطبيعي ، والخلقي فمرفوضة بالجملة والتفصيل .. وذلك : لاننا لا نستطيع ان نوحد بين وظائف الاعضاء عند

الرجل ، ووظائف الاعضاء عند المراة ، فكل واحد من الرجل والمراة . لـــه دور معين يقوم به في الحياة ، لاستمرار الطبيعة البشرية ، تماما كمـا الليل والنهار لاستمرار الطبيعة الكونية !. وهل في الامكان ان نسوي بين الرجل والمراة في الدورة الدموية ، التي تظهر ، في مطلع كل شهر ..؟!.

وهل في المقدور ان نجعل النطفة عند الرجل هـــي نفسهـا عنـــد المـــــراة ؟!.

ثم هل في الامكان ان نزرع بويضة الانثى في داخل الرجل كما في داخل الرحم عند المراة ؟ !

لا اعتقد ان معتوها في الادغال ، يقول بمثل ذلك .

فالطبيعة شتلت اكثر من ٧٠ فرقا في جسد الرجل ، وفي جســـد المراة !.. وهي فروق طبيعية ليس في الامكان تجاهلها .. وذلك لان كــل فرق منها ، يقوم باداء وظيفة محددة به !.

يقول **الكسيس كارل** ، في كتابه القيم : الانسان ذلك المجهول ــ صفحة ١١٤ يقول : « .. ان اختلاف المراة مع الرجل يعود الى تكوين الانسجـــة ذاتها ، والى تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزهـــا المبيض ، فلا يجوز ان يتلقى الجنسان ، تعليما واحدا ، وان يمنحا قوى واحـــدة ، ومسؤوليات متشابهة ــ » !.

وهاكم التقرير العلمي الاخر :

« عن معهد الدراسات النفسية ، والاجتماعية في باريس ، ان مجموعة من الخبراء ، اجروا دراسات استمرت قرابة حولين كاملين ، وقد خرجوا بالنتيجة التالية : ان المراة حين تشعر بالمساواة الكاملة مع الرجل تفقـــد

الكثير من انوثتها ، وبالتالي فهي لا تشعر بالسعادة مطلقا لان السعادة تظلل عليها يوم تكون في حمى الرجل » (١) .

القسم :

وعندما يقسم القرآن بالليل والنهار ، وما خلق الذكر والانثى، فكأنه يريد ان يقول : ان الطبيعة قد اصدرت حكمها الصارم ، في حق الرجل والمراة ، وهو : ان يقوم الاثنان ، بدور الليل والنهار ، — واحد للعمل والجد ، والثاني للسكن والراحة — حتى تستقيم اعمدة البيت وليس في وسعهما ان يرفضا ، هذا الحكم الطبيعي ، لانه حكم تتفاعل اجزاءه مع كل اعضاء الجسم ، وتتعامل معه كل خلايا البدن !.

والحكم هذا : هو الذي جعل مكان الرجل خارج البيت ، وجعل مكان المراة داخل البيت ، ليقوم الاول بدور العامل الكادح الكاد على عياله ، وتقوم الثانية ، بدور المشرف على الاسرة ، وتنظيمها ، بتربية الاطفال ، وتوجيههم نحو الافضل ... فالله سبحانه ، قد زود الرجل بقوة عقلية راجحة على عاطفته ، .. وصلابة جسدية تتناسب مع وظيفته .. في حين قد زود المراة بعاطفة دافقة ، ورقة ساحرة ، تتلائم مع وظيفتها هي — ايضا — لتقوم باداء دورها ، على اكمل وجه ، واروع نمط .!

وحصيلة كل ما تقدم ، هو : ان المساواة في الاتجاه الطبيعي والخلقي ، مرفوضة تكوينيا ، لانها بمثابة السباحة ضد التيار — من باب المثال — .

اما الجانب الثاني ، وهو المساواة في العقيدة ، والحرية ، فلا يمنع

---

١ — من راديو الكويت في ٤—١٠—١٩٧٧ .

عنها الاسلام ، وانما يؤكدها في القرآن ، ويطبقها في السنة النبوية ، وفي المناهج التشريعية تطبيقا عمليا . ـ ماة بالماة ـ واليكم الشواهد والامثلة من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والتاريخ واحاديث أهل البيت عليهم السلام .

القدر المشترك :

هناك قدر مشترك ، بين الرجل والمراة ، في العقيدة والحرية .. وفي الواجبات والمحرمات ، وفي كل القوانين الاسلامية ، لا تفترق المراة عن الرجل في واحد من الطرق .. اخذا من اختيار العقيدة ، والحرية في العمل وطلب العلم ، وحضور الندوات العلمية ، والمجالس الاسلامية وانتهاءا بتحمل المسؤولية ، ومجابهة اكبر رئيس في الدولة الاسلامية !.

ولكي نقترب من الواقع اكثر فاكثر ، دعوني ، اعرض عليكم سلسلة من القصص والروايات التي تقطع اقصر الطرق في خط مستقيم الى الهدف .

ولناخذ قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع بنات نبي الله ، شعيب ، كما جاءت في القرآن في سورة القصص من آية ٢٠ الى اية ٢٨ .

القصة الكاملة :

بسم الله الرحمن الرحيم

« .. وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى ان الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين .. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين .. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى

ربي ان يهديني سواء السبيل .. ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير .. فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب اني لما انزلت الي من خير فقير .. فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت : ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .. قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين ..قال اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج ، فان اتممت عشرا فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ، ستجدني انشاء الله من الصالحين .. » .

التعليق على القصة :

لا شك انها قصة ، تستحق الوقوف عندها طويلا ، لقطف العطاء الفكري الاسلامي الناضج ، من خلال الصور المتتابعة فيها .. اضافة الى انها تضمنت جوانب اسلامية ذات اهمية ، كبيرة ، وهي كالتالي :

١ — التوجه الى الله العزيز الرحيم ، في كل الاحوال ، وفي الامور كلها ، (والجأ نفسك في الامور كلها الى الهك ، فانك ستلجئها الى كهف حريز ، ومانع عزيز) كما يقول الامام علي — عليه السلام .. فالتسليم المطلق لله سبحانه ، هو قلب الايمان وهو السعادة ، وهذا بالضبط ما فعله موسى عليه السلام ، كما في قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهدني سواء السبيل » .

٢ — ان المرأة عندما تدفعها ظروف قاهرة ، الى العمل خارج الاسرة، فان على المجتمع ان يقدم لها العون والمساعدة ، كما فعل موسى عندما

وجد امراتين من دون الناس ، تذودان بغنمهما بعيدا عن مخالطة الرجال . فسقى لهما ، وقام بالواجب الملقى عليه !.

وهذه الصورة تلوح لنا في قوله تعالى :

« .. (ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون . ووجد من دونهم امراتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير) . وموسى ــ عليه السلام ــ عندما ورد الماء ، وهو بئر تقع في ظهر قرية شعيب ، التي كان يسكنها نبي الله شعيب ــ عليه السلام ــ وجد الزحام عليها شديدا ، (وجد عليه امة من الناس يسقون) اي مجموعة كبيرة من الناس الذين جاؤوا للسقي ، وكان اكثرهم من الرعاء اصحاب المواشي والابل ، (ووجد من دونهم) في مكان اسفل من مكانهم (امراتين تذودان) اي تمنعان غنمهما عن الماء لئلا تزاحماهم ، وحتى لا تختلطا بالرجال . (قال ما خطبكما) شأنكما تذودان (قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء) جمع الراعي يصرفوا مواشيهم عن الماء (وابونا شيخ كبير) لا يقدر ان يسقي فيضطر لاخراجنا .. فرحمهما موسى فسقى لهما غنمهما وملأ القربة لهما ! » (١)

توضيح :

الفتاتان كانتا تذودان ، اي تحاولان قدر الامكان ، عدم الاختلاط بالرجال ، وتحفظان غنمهما من الاختلاط ببقية الغنم .

واقترب موسى ــ عليه السلام ــ قليلا ، من الفتاتين ، ليطرح عليهما السؤال التالي : « قال ما خطبكما اي ما شأنكما ، وما هي

....

١ ــ تفسير شبر .

الحاجة التي تريدان قضائها ؟!.

« قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء » اي بما اننا فتاتـــان فانـــه لا ينبغي لنا ان نختلط بالرجال .. وكأن موسى يسألهما مستفسرا : اذا كنتما لا ترغبان في الاختلاط مع الرجال ، فلما خرجتما اذا ..؟!.

فجاءت كلمة : « وابونا شيخ كبير » جوابا شافيا وموافقا لهـــــذا السؤال .. اي لان ابانا شيخ كبير ، فهو لا يستطيع ان يقوم بهذه المهمة... فلزم ان نقوم بها نحن دونه ! .

اذن : اصبح واضحا ، من خلال الحوار ، ان المرأة ، يمكن لها ان تخرج للعمل تحت ضغوط الحياة ، وفي حالة انعدام من ينوب عنها .. عـلى انها يجب ان لا تختلط بالرجال وذلك لان الاختلاط محرم في الشريعـــة الاسلامية .

والسبب في تحريم الاختلاط ، سوف نبحثه ، في الصفحات القادمـــة ، انشاء اللـــــه .

خبز الشعير :

« فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب اني لما انزلت الي مـــن خـــير فقير » .

انه كان جائعا ، فطلب من الله ، ان يرزقه خبزا من الشعير ، ليـــس اكثـــــر !.

ولما رجعت الفتاتان الى ابيهما شعيب ، اخبرتاه بالقصة ، فقال لواحدة منهما — وهي الفتاة الصغرى التي تزوجها موسى — عليه السلام — : اذهبي وادعيه الى بيتنا !!.

والان : لاحظوا الصورة الرائعة التي يرسمها القرآن للفتاة المؤمنة ، وهي تمشي في عفة وحياء .

« فجاءته احداهما تمشي على استحياء ، قالت : ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا .. » .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان الاية المباركة : اعطت اروع صورة للانثى : انها تمشي على ، استحياء .. انها تقطر حياءا ، وتفيض عفة وجمالا ومعروف علميا وظاهريا : ان الحياء يغرق الفتاة بالجمال ويشعلها بالفتنة والاغراء ، فكلما كانت المرأة اكثر حياءا وعفة .. كانت اكثر جمالا وفتنة !!.

فها هي تقترب في مشيتها ، رويدا ، رويدا ، في خطواتها الوئيدة، حتى اذا وصلت الى النبي موسى ، قالت له : « ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا » .

لاحظوا :

انها لم تقل له : انا ادعوك الى بيتي ، وانما ربطت الدعوة بأبيها ، وفي ذلك من الدقة في الفكر والتعبير ما لا يخفى على القارىء الفطن الذكي الواعي .

اذ ليس من حق الفتاة ان تدعو شابا غريبا الى بيتها .

ويبدو واضحا — من خلال الصورة التي يعرضها القرآن — ان الفتاة، وجهت الدعوة الى موسى .. وهي تقبع بالحياء ، والعفة ، مطرقة براسها الى الارض ، يفيض الخجل المزوج بالايمان من عينيها ..

وعندما جاء موسى معها ، امرها ان تسير خلفه ، وهو يمشي امامها، تحسبا من ان يقع بصره عليها ، فيتحرك قلبه شوقا لها .. — حتى ولو كان معصوما — لقد ذكر المؤرخون : ان الامام عليا — عليه السلام — كان يقول :

« اني اسلم على النساء ، ولا اسلم على الشابات منهن ، خوف ان يقع في قلبي من صوتها شيء » .

اللقاء الساخن :

والتقى موسى بشعيب ، ثم جرى بينهما حديث عميق ، عميق ، عميق ، تناول القضايا الرئيسية ، التي تدور في الكون ، والحياة ، والانسان ... وبعد ذلك قص موسى — عليه السلام — قصته على شعيب ، وكيف خرج من قصر فرعون الطاغية ، تحت وقدة الهجير ، وفوق حرارة الرمضاء ، مسربلا بالخوف من الاعداء ..

فقال له : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » .

« فلما جاءه ، وقص عليه القصص ، قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .. » .

وهنا ، وقفت احدى الفتاتين ، بباب الحجرة التي كان يجلس فيها موسى مع ابيها شعيب ، وقالت :

« يا ابت استأجره ، ان خير من استأجرت القوي الامين » .

وقد ضمنت كلامها جانبين من المعنى :

المعنى الظاهر : . استأجره .. اي اجعله اجيرا عندنا في البيت، ليساعدنا في العمل ، وعلى ادارة الشؤون المنزلية في الخارج !... هذا هو المعنى الظاهر للاية الكريمة ، ولكن المعنى الاخر الذي ارادته البنت من كل قلبها هو : الزواج من موسى ! .

قالت : يا ابت استأجره ، اي اجعله زوجا لي .. اي انني اخطبه ، وانتخبه زوجا لي ، وشريكا لحياتي .. وذلك لان المواصفات الرفيعة الي ترشحه للزواج مني ، متوفرة في شخصه ، فهو القوي وهو الامين « ان خير من استأجرت القوي الامين » والمراة تبحث في الرجل عن الحماية والاخلاص ، وهما عنصران اساسيان في ربط العلاقة الزوجية بوثاق شديد ! .

ان هذه الفتاة المؤمنة ، طالبت اباها بالسماح لها ، في الزواج من موسى — عليه افضل الصلاة وازكى السلام — .

والذي يكشف لنا عن هذا المعنى الخفي ، هو : كلام ابيها شعيب بعد كلامها ، مباشرة ، فانه التفت الى موسى وقال له : « .. اني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين .. » اي أريد ان ازوجك واحدة منهما .

ولاحظوا الدقة البالغة في التعبير : انه لم يقل له : ازوجك ابنتي هذه المتكلمة ، وانما قال : « احدى ابنتي هاتين » بحيث جعل الاشارة ذائبة بين الاختين .. من اجل الحفاظ على حياء ابنته ، وشخصيتها .

اذن ! فقد تبين من خلال القصة ، عدة اشياء :

أ ــ ان المرأة لها حق الخروج الى العمل ، في الحالات الضرورية ، مع مراعاة الحجاب ، والحشمة .!

ب ــ ان الاختلاط حرام ، فلا يجوز للمرأة ان تختلط بالرجـــال الاخريـــن .

ج ــ ان من حق الفتاة ، ان تختار زوجها ، وتعين فارس احلامها ، بنفسها دون تدخل الغير ، والاهل .

د ــ ان المرأة التي تريد ان تتزوج ، عليها ان تختار الزوج الكفــؤ الذي عنده دين ، ولديه يسار ، ثم هو بعد ذلك قوي وامين .. والرجـــل الكفؤ هو وحده الذي يستطيع ان يشبع جوع المرأة الى الحماية ، والعيش تحت ظل رجل شجاع ، قوي ، امين ، لا يخونها ، ولا يقطع الحبـــل بهـــا وســـط الطريـــق ..

والكفاءة ضمـــام الامـــان من الانهيارات التي تصيب جسد الامرأة . فتحرق اعمدتها ، وتسقط السقف عليها من فوقها .!

ولكي نحفظ الاسرة ، من الوقوع ، في هذا المنزلق الخطير ــ منزلـــق الطلاق ، وتشتت الابناء ــ يجب علينا ، ان نبحث عن الكفؤ قبـــل الـــزواج .

الرجل الكفؤ ، والمرأة الكفؤة :

يقول الامام الصادق ــ عليه السلام ــ : الكفؤ : ان يكون عنـــده دين ولديه يسار » !

ونستفيد ايضا ، من القصة ، ان الرجل والمرأة ، رافدان متعانقـــان ،

ليس بالامكان فصلهما ، بالنسبة للواجبات الاسلامية ، فالمطلوب من الرجل والمراة ، القيام بالواجبات ، وتحمل اعباء المسؤولية ، في الحياة العائلية ، والاجتماعية ، وكذلك مطلوب منهما الامتناع عن المحرمات ، والابتعاد عن كل ما يشين كرامة الانسان !.

آيات من القرآن :

« ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة .. » سورة البقرة آية ٢٢٨ .

« فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض .. » سورة آل عمران آية ١٩٥ .

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا ، وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون » سورة الروم آية ٢١ .

المـــرأة..
في البيت، أم في المصنع؟!



عمل المرأة في الإسلام

ان الاسلام ، فتح ابواب العمل على مصراعيها امام المراة ، اذا دعت الضرورة الى ذلك .

فالقرآن يقول بصراحة : « .. للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن .. » .

والسؤال هو : اي مكان افضل لعمل المراة ، البيت ام السوق ؟!

ان المراة في بيتها تقوم باشرف عمل ، واقدس وظيفة ، الا وهي : وظيفة اعداد الجيل القادم ، وتربية الاطفال .. والطفل اثمن شيء في العالم .. فهي — اذا — تتعامل مع اثمن شيء في العالم !.

وهل بعد هذا التكريم ، تكريم ؟!.

لا تكون المراة آلة معطلة داخل الاسرة ،.. وانما عملها يفوق التصور، فهي التي تصنع الرجال العظام ، !. ووراء كل عظيم امراة عظمى !.

انها تتعامل مع الانسان ، اما .. وزوجة .. وبنتا .. واختا .. في حين ان الرجل يتعامل مع الاشياء .. فالحداد مع الحديد ، والنجار مع الخشب ، والمخترع مع الآلات الصماء !.

وايضا : المراة تقوم بتنمية مواهب الانسان ، واظهـــار قدراتـــه للوجـــود !.

على ان هناك جانبا هاما ، في المراة ، لا يسمح لها بالعمل خـــارج الاســـرة !. وهـــو :

ان مجرد عمل المراة في الخارج ، يشكل في طريقها ، عقبتين رئيسيتين وهمـــا :

العقبة الاولى : بنائها الجسدي ، الذي لا يسمح لها بالاستمرار فـــي العمل ، بسبب العادة الشهرية ، والحمل ، والـــولادة ، والنفاســـ ، والرضاع .. فهذه الامور الطبيعية في جسم المراة ، تأخذ منها ، جهـــدا لا يستهان به ،. ولا شك انه تكليف فوق وسعها ، وتحميل فوق طاقتهـــا ، وذلك ، لان العمل يضيف جهدا متعبا الى جهودها المرهقة .

والعقبة الثانية هي : مشكلة الاطفال ، ومداراتهم ، وفي غياب الام عن البيت ، ليس امامنا — بالنسبة للاطفال — الا ثلاثة حلول :

الاول : ان نترك الاطفال بلا رعاية ، ولا حضانة !

الثاني : ان نرسل الاطفال الى دور الحضانة !

الثالث : ان نهيء خادمة في البيت ، تشرف على رعايتهم وتربيتهم !.

والحل الاول ، لا اعتقد ان احدا يقبله ، وذلك : لان ترك الاطفـــال بلا رعاية ، يؤدي الى تمزقهم ، نفسيا ، وفكريا ، وروحيا ، ويعني الالقـــاء بهم في الهاوية السحيقة .

اما الحل الثاني ، وهو : ان نأخذ الاطفال الى دور الحضانة ، فاعتقد ان نظرة واحدة ، نلقيها على التقارير العلمية التي جاءت من علماء النفس، والتربية الينا ، تكفي للوضوح التام ، واعطائنا ادق الادلة على الفشل الذريع ، الذي اصيبت به دور الحضانة في تربية الطفل ..!

ان الارقام العلمية ، تتحدث عن هزيمة حادة منيت بها دور الحضانة، في اشباع رغبات الطفل ، وميوله الروحية .. فقد عجزت عن الابحار بالطفل الى شواطىء الهدوء والاستقرار .

لان الطفل لا يحتاج — فقط — الى معلبات الحليب المجفف والغذاء المركز الجيد ، وانما هو في حاجة عميقة الى الغذاء الروحي ، والاشباع العاطفي .. فالطفل بمقدار ما يحتاج الى وجبة الطعام ، يحتاج الى دفقة الحب ، وانسياب العاطفة .. والطفل يحصل على الغذاء الكامل في حجر امه فقط ، فهو عندما يلتقم الثدى يذوب على صدر امه ،.. فيشعر بانسياب العاطفة في قلبه ، ملازما لانسياب الحليب في فمه !

وفي دار الحضانة ، لا يحصل الطفل على الغذاء العاطفي الكامل ، بمقدار ما يحصل على الغذاء الجسدي الكامل !.

ولكي تقترب الصورة ، الى الاذهان ، اضرب لكم هذا المثال التالي :

لنفترض ان هناك دارا للحضانة ، فيها عشرة اطفال فقط ، ومربية واحدة .. ومن الطبيعي ان هؤلاء الاطفال يتفاوتون في درجات الجمال، والذكاء ، — كما هي العادة في سائر الناس — ففيهم الطفل الجميل الذي يشع ذكاءا وفطنة ، ويقطر جمالا وحسنا .. وفيهم الطفل الذي ليس بينه وبين الجمال قرابة ، لا من قريب ولا من بعيد !.

وكنتيجة طبيعية : فان المراة المربية يميل قلبها نحو الطفل الجميل،

اكثر من بقية الاطفال .. وتبعا لذلك ، فانها سوف تصب حبها وحنانها عليه دون الاخرين .. الطفل الاجمل يستأثر بحبها ، ويستولي على مشاعرها ، فتغرقه بالحب والعاطفة .. في الوقت الذي يفلس فيه الاطفال الاخرون من الحب والعاطفة ، فيعيشون حالة الجوع العاطفي بكل ابعادها ، وحرارتها وثورتها ... ولا تسأل عن المضاعفات الخطيرة التي تتركها هذه الحالة ، في نفس الطفل ، فتحوله الى قطعة من الحقد والالم ، والتعقيدات النفسية ، بحيث لا يقوم من كبوة ، الا ويسقط في كبوة اخرى ، اشد منها .

الجوع العاطفي ، يصنع من الطفل مجرما ، في المستقبل .!.

في حين ، ان هذا الجوع العاطفي ، لا وجود له في الاسرة بسبب حنان الام وعطفها .. فالبيت الذي تشرف عليه الام لا يعرف العجاف العاطفي، ولا الجفاف النفسي .. وذلك لان الام لا تفرق بين أولادها — جميلهم وغير جميلهم — كل اولادها يعيشون في قلبها .. وهي تحب كل واحد منهم كما لو كان هو الطفل الوحيد في البيت !!.

فاذا عرفنا ذلك .. نرجع الى الحل الثالث وهو : ان نترك الاطفال ، عند خادمة في البيت ، واعتقد ان المشكلة كررت نفسها بأسلوب ثان وذلك من جانبين :

الجانب الاول : ان الخادمة امراة ، وانتم تقولون بضرورة خروج المراة من البيت الى المعمل او المكتب ،. فاذا رضينا بوجود الخادمة في البيت ، فمعنى ذلك اننا رضينا ببقاء المراة في البيت ،. وبالطريقة البورجوازية !

فلم هذه الضجة اذن ؟!.

هذا من جانب ، ومن جانب اخر ، فان الخادمة لا تستطيع ان تعوض

عن حنان الام للاطفال ،!

فهي كالمربية في دار الحضانة ، وعلى ذلك فان الاشكال الذي يطرحه العلماء في دار الحضانة ، هو نفسه الذي يطرح في مسألة الخادمة في البيت !.

بقي امامنا حل رابع ، وهو الحل الطبيعي الذي اعدته الطبيعة احسن اعداد ، واشار اليه القرآن اجمل اشارة ، وهو : ان تكون المرأة في البيت تدير شؤونه ، وتقوم على تربية أولادها ، دون ان تهجرهم وتخرج الى المصنع لمزاحمة ، الرجال ... وهذا ما اشار اليه القرآن الكريم في الآية المباركة : « والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين .. » .

وسيأتي الكلام بالتفصيل — انشاء الله — عن دقة هذه الآية ، وابعادها العلمية ، في مجال التربية ، والتوجيه المنزلي ..!

المرأة وحرية العقيدة :

يقول القرآن الكريم في سورة التحريم آية ٩ — ١٢ .

يقول : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين .. » .

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين » « ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين .. » .

وهذه الآيات صور تشد القلب ، وتثير الفكر ، وتؤكد لنا ــ بالقطع ــ أن المراة تتمتع بحرية العقيدة ، وليس لاحد ان يفرض عليها لونا مــن العقيدة ، مهما أوتي من القوة ، ومن عظمة الشخصية !

فهذه زوجة نوح ، وتلك زوجة لوط ، لم تتأثر اية واحدة منهما بعقيدة زوجها النبي ، ومعلوم ان النبي هو اقدر الناس على التأثير العقائـدي ولكنه لم يستطع ان يؤثر على زوجته ، او أن يفرض عقيدته عليها ، وهذا دليل صارخ على الحرية الفكرية التي تتمتع بها المراة !.

جبروت الطاغوت ، يتفسر امام حرية المراة :

وفي الطرف الآخر .. يقف فرعون الطاغوت عاجزا امام جبروت الايمان فلا يقدر عليه ، ثم ينهزم فرعون الكافر شر هزيمة امام ارادة زوجتــه الطاهرة !.

ان فرعون على الرغم من طغيانه ، وجبروته ، وكفره ، لا يستطيـع ان يتحكم في قلب زوجته ، لان القلب منطقة حرة ، لا تخضع للسيطـرة مطلقا ، الا لله وحده !.

أما جسدها فهو ماد ي، ويستطيع فرعون أن يدق المسامير الحادة ، في جسدها ، امعانا في التنكيل بها وارضاء لغيضه منها ! .

ولكن لا بأس ، ولا ضير ، فليصنع فرعون ما هو صانع ، فهــي ستنقلب الى الله ، وتتقلب في احضان النعيم « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امراة فرعون ، اذ قالت ربي ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين .. » .

والقرآن في هذه القصة ، يعكس أروع صورة للمراة المؤمنة البطلة، التي يتمزق جسدها تحت السياط ، ويظل قلبها صامدا لا ينبض بالتراجع ولا مرة واحدة !.

بلقيس في القرآن :

« وتفقد الطير فقال ما لي لا ارى الهدهد أم كان من الغائبين ، لاعذبنه عذابا شديدا ، او لاذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين اني وجدت امراة تملكهم واتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ... » .

هذا هو الخبر الذي نقله الهدهد ، الى نبي الله سليمان — في قصته

المعروفة في سورة النمل — فما كان من أمره الا ان بعث برسالة عاجلة الى بلقيس وقومها .. يدعوهم فيها الى الدخول في رحاب الايمان ، والاستسلام له والا فهو — سليمان — سوف يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها وسوف يجعل اعزتهم اذلة !.

وهنا تستوقفنا المناظر المتتالية في القصة .. مناظر تعكس صورة المراة الجريئة الفطنة ، التي لا تستبد برايها ، وانما تدير البلاد حسب قانون الشورى ، ووفق نظر جميع اعضاء الحكومة الديمقراطية !.

ولما القي اليها كتاب سليمان ، قالت :

« يا ايها الملأ اني القي الي كتاب كريم » !

اذن : فهي تعترف بقيمة الكتاب ، ! وبنظرها الثاقب عرفت ان صاحب

الكتاب ، في عداد العظماء ومصاف الملوك .

وتابعت تقرأ الكتاب على الملا : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تعلوا علي واتوني مسلمين » .

كانت تقرأ الكتاب ، امام الوزراء ، ورجال الدولة ، لتأخذ رأيهم في تحديد الموقف الذي يجب اتخاذه امام الواقع الراهن ، وكعادتها فهي لا تقطع امرا حتى يشهدون ..! كانت تمثل قمة ، الديمقراطية في الحكم ، « قالت يا أيها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون .. » .

« قالوا نحن اولو قوة ، واولوا بأس شديد والامر اليك ، فانظري ماذا تأمرين .. » .

ويدل جواب قومها ، على انهم كانوا قد وضعوا ثقتهم كاملة فيها !.

« قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة ، وكذلك يفعلون » .

وهذه الكلمة الاخيرة (وكذلك يفعلون) هي تصديق من الله على كلامها !.

وتستمر القصة الى حضورها في قصر سليمان وجلب عرشها الى هناك . وهنا يبدو ذكائها على اشده ،! « قال : نكروا لها عرشها ننظر اتهتدي ام تكون من الذين لا يهتدون » .

« فلما جاءت ، قيل اهكذا عرشك قالت : كأنه هو .. » .

تصوروا دقة التعبير :

انها تركت عرشها في سبأ ، وهي الآن عند سليمان ولكنها حين نظرت الى عرشها عرفته .. فكيف اذن توفق بين وجود العرش هنا ، وبين تركها له في سبأ ؟

فأجابت جوابا دقيقا ، ودبلوماسيا :

قالت : كأنه هو ! ... لاحظوا : انها لم تنفه ولم تثبته ، وهذا يدل على عبقريتها في الخروج من المواقف الحرجة !.

والقرآن يعرض علينا قصة مريم ، وقد ركز عليها بشكل يلفت الانتباه، حتى انه سجل سورة كاملة باسم سورة مريم !،

والله يصطفي من النساء .. كما يصطفي من الرجال « يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

« يا مريم اقنتي لربك ، واسجدي ، واركعي مع الراكعين .. » .

وقد انزل الله سورة كاملة في القرآن بحق (خولة بنت الاوس) التي كانت تجادل ، الرسول الاعظم في زوجها .

يقول القرآن :

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها والله يسمع تحاوركما... »

وفي القرآن ، سورة طويلة ، باسم سورة النساء ، تتحدث عن المراة ، وحقوقها ، وشؤونها ، وقضايا الزواج ، والميراث ، والطلاق ، وبناء الاسرة ، وكل ما يدور حول المراة ، موجود في هذه السورة القرآنية !

المراة في السنة النبوية :

« دخلت الجنة فرأيت اكثر اهلها من النساء » حديث شريف .

والاسلام يقول : « الجنة تحت اقدام الامهات » لان الاسلام يكرم الام ، ويرفعها الى اعلى المستويات .

والاسلام كرم المراة ، وهي بنت ، واخت ، وزوجة،وام . !

تكريم البنت :

جاء في الحديث : « خير اولادكم البنات » .

وفي حديث اخر « ان وجود البنت في البيت رحمة » .

والبنت مقدمة على اخوانها الذكور ، في اعطاء حقوقها ! فها هو الرسول الاعظم — صلى الله عليه وآله — يأمرنا اذا جلب الواحد منا ، شيئا من اللعب ، والفواكه ، وحاجيات الصغار الى البيت ، ان نبدأ بالاناث قبل الذكور !. فيقول : « اذا جاء احدكم بشيء لاولاده ، فليبدأ بالاناث قبل الذكور » .

وهي كذلك مقدمة على اخوتها في الحب ، وفي توزيع العاطفة .. فقد قال رسول الله : من قبل ابنته كأنما اعتق رقبة من ولد اسماعيل » !

اجل .. انه تكريم لا يعرف الحدود !

تكريم الاخـــت :

كان النبي ــ صلى الله عليه واله ــ جالسا في المسجد ، وقد دخلت عليه امراة ، فقام اجلالا لها ، وعظمها ، وافترش لها رداءه ، فجلست .. وراح يحدثها ، ويصغي لكلامها ، وهو مقبل عليها بكله ، حتى اذا فرغت من الكلام ، وقامت منصرفة ، وودعها النبي ، وسار خطوات معها ، . تقدم أحد الاصحاب يسأل النبي ، عن هذه المرأة التي استحقت كل هذا التكريم منه ،! يسأله مـــن هي ! ؟ .

فقال النبي :

انها اختي من الرضاعة ، انها الشيماء بنت حليمة السعدية ، فهي اخت النبي الاعظم ، !!.

تكريم الزوجـــــة :

اما تكريم الاسلام للزوجة ، فحدث عنـــه ولا حرج وآيـــــات القرآن تشهد على ذلك .. فلو لم تكن في ، القرآن الا الاية التي تقول : «وعاشروهن بالمعروف » لكفت دليلا كبيرا ، على مدى اهتمام الاسلام بحقوق الزوجـــة .. هذا بالاضافة الى الروايات التي تشكل ملفا ضخما ، يتحدث عن حقـــوق الزوجة على زوجها ، ومراجعة خاطفة لكتاب الوسائل في بـــــاب النكـــاح تكفي لاعطائنا انصع الصور في حقوق الزوجة ! .

ويحذر الاسلام الذين يتطاولون على زوجاتهم فيقول : « من مد يده الى زوجته ليلطمها فكأنما مد يدا في النار .. » .

ويقول : « ولا يكن اهلك اشقى الخلق بك . فان المرأة ريحانة . وليست بقهرمانه . واياك والتغاير (استعمال الغيرة) في غير موضعه فان ذلك يدعو الصحيحة الى السقم ، والبريئة الى الريب » .

تكريم الام :

اما الام ، فقد وردت الاحاديث بحقها ، بشكل منقطع النظير ، اضف الى ذلك حقوقها المقررة في القرآن الكريم ، في عديد من الايات ، كقوله تعالى : « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا .. » .

جاء شاب الى رسول الله ، وقال :

« يا رسول الله من ابر ؟ »اي : من اولى الناس بتكريمي .

فقال له النبي :

ـ « امك » .

فسأل الشاب :

ـ ثم من ؟

قال النبي : ـ « ثم امك » .

قال : ثـــم من ؟

قال النبي : ــ « ثم أمك » .

قال الشـاب : ــ يا رسـول الله : « ثم من ؟ » .

قال النبي : ــ « ثم .. اباك » !

اي ان حقوق الام اكثر من حقوق الاب ، بثلاثة اضعاف .

ويأتي شـاب آخر الى الامام الصادق ــ عليه السلام ــ ويقول : ــ يا ابن رسـول الله ، لقد حملت امي على ظهري وحججت بها عشـــر مــرات ، وهي على ظهري من المدينة الى مكة فهل اديت حقوقها ؟

فيبتسم الامام الصادق ويقول :

« والله لم تؤد حق ليلة واحدة ، قامت من نومها والقمتك ثديهـــا ، وادرت الحليب في فمك » وفي رواية ثانية قال له :« والله ما اديت حق طلقة واحدة » والطلقة ، مأخوذة من الطلق ، وهي حالة المخاض التي تعتري المراة عند الولادة !.

وقال النبي : « لما دخلت الى الجنة ، رايت اكثر اهلها مــن النساء » من كتاب مستدرك الوسائل باب النكاح .!.

رمـــي المحصنات :

والاسلام يعامل المراة في غاية التكريم ، حتى ، انه رفض ان يرميهـــا

احد بأي نوع من التهم الجنسية !

ومن أجل ان يضع حدا لهذه المهازل ، فقد شرع قانونا يقضي بجلد الذين يرمون المحصنات ، ولم يأتوا بأربعة شهداء .. فلو جاء ثلاثة ، وشهدوا على امرأة بالزنا ، فانه ليس فقط ترفض شهادتهم ، وانما أيضا ، ينزل على ظهر كل واحد منهم ، ثمانون سوطا موجعا ، حتى يذوقوا العذاب !.

حدث ذات يوم ان عمر بن الخطاب . كان مارا في احد الازقة — في المدينة — فسمع صوتا يدل على اتصال جنسي غير مشروع .. فاقتحم الباب ، ودخل الدار فوجد اثنين على فاحشة .. ولما اراد اجراء الحد عليهما وقف متحيرا ، لا يدري ، كيف يجري الحد عليهما ، لانه واحد ولا بد لاجراء الحد ، من اربعة شهداء !

ومن اجل ان يتأكد اكثر من القضية ، خرج الى المسجد ، وبعد الصلاة طرح السؤال التالي على المسلمين ، قائلا : ما رأيكم في أمير المؤمنين ، ان رأى اثنين على فاحشة ، أله ان يقيم عليهما الحد أم لا ؟ !

وكان الامام علي — عليه السلام — حاضرا في المسجد فقال له : اذا ذكر أمير المؤمنين اسميهما اقمنا عليه الحد ! .

قال : وكيف ذلك يا أبا الحسن ؟!

فأجابه الامام قائلا : ذلك لان الله سبحانه يقول : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا

لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون » (١) ولانك واحد ، وليس معك من يشهد بذلك ، فان الآية تنطبق عليك ، مجرد ان تذكر الاسماء فسكت الخليفة ، وردد مرة اخرى كلمته المعروفة :

« لولا علي لهلك عمر » .

والذي نستفيده ، من هذه الحادثة هو : ان الاسلام اراد ان يبني سورا منيعا حول المراة ، يمنع عنها تسرب كل ما يشينها .. واراد لها ان تعتصم بقلعة الحياء ، والحجاب ، والعفة ، والشرف ، بينما اراد المربيون للمراة ، انهيار اسوار العفة ، حجرا حجرا ..!

المراة تتحمل المسؤولية ، قبل الرجل ! .

ومن خلال احصائية دقيقة ، في الجوانب الجسدية والنفسية ، والفكرية ، المزروعة في الرجل والمراة ... ظهرت النتيجة تؤكد : ان المراة في ٩٥٪ منها متساوية مع الرجل تماما .. في حين ان نسبة ٠.٥٪ فقط تشكل جانب الاختلاف بين الرجل والمراة ، وهذه ال ٠.٥٪ هي : تتمثل في تعود المراة عن الصلاة ، والصيام — أيام العادة الشهرية — وتخلفها عن ساحة المعركة بسبب رقتها وسرعة انفعالها بالاحداث اليومية !.

على ان المراة تتحمل المسؤولية ، قبل الرجل في كافة الواجبات الاسلامية ، وذلك لانها — عادة — تصل درجة البلوغ قبل الرجل بعدة سنوات .

فلو فرضنا ان امراة انجبت طفلا ، وبعد مرور عام واحد ، انجبت طفلة اخرى .. فان الطفلة هذه تأخذ حقها من الارث قبل الولد ، لانها اذا

---

١ — النور آية ٤ .

بلغت العاشرة ، اعطاها الاسلام حقها من الارث ، وجعلها تتصرف بالمال حسب ارادتها ، وفي كامل حريتها ، في حين ان الاسلام ، لا يعطي الولـــد حقه من الارث الا بعد مرور خمسة عشرة سنة ، وهو السن القانونـــي الطبيعي للبلوغ — في الاسلام — بالنسبة للذكور طبعا .!.

اذن : فالبنت قبل الولد بست سنوات ، تتحمل المسؤولية ، وتتصرف بشخصية مستقلة !.

المراة المجاهـــدة :

لو اردنا ان نستعرض الشريط التاريخي ، الذي يحتفظ ، بالسجـــل البطولي ، الذي كتب ملامح المراة المجاهدة ، بحروف من نور ، وصور حتى نبضات قلبها في مواجهة الظالمين ... لتشكل لدينا ملفا ضخما عن تلـــك المواقـــف المشرفـــة !

غير اننا نكتفي بعرض مقتطفات من صور البطولة الرائعة ، والشجاعة الباسلة التي تحلت بها ، المراة ، المسلمة خلال العصـــور الاسلاميـــة الماضيـــة !

اخذا من السيدة خديجة الكبرى ، وانتهاءا ، بسويدة الهمدانية :

خديجة الكبـــرى :

في البداية : لولا خديجة لما قام الاسلام على قدميه فهي التي انفقت كل ثروتها في سبيل انتشار الاسلام ونجاح الدعوة الى الله العلي العظيم .

لقد انفقت اكداسا من الذهب والفضة ، في سبيل الله .. فقد ذكـــر

المؤرخون : ان خديجة كانت تشكل الاعمدة الرئيسية للاقتصاد العربي ، قبل الاسلام ، فهي كانت تدير الاقتصاد الوطني في مكة ، ومكة تنشر رياحها الاقتصادية والتجارية ، على كل الجزيرة العربية ، ! والملفت للنظر في تاريخ هذه البطلة المجاهدة ، هو : انها صرفت كل اموالها في سبيل دعم الاسلام ، حتى بلغ بها الامر ان تنام على جلد كبش !!.

يا للعظمة !.

وكانت الى جانب النبي ، في اشد الساعات المًا ، واكثرها مأساة !.. وقفت تغسل الالم عن رسول الله وتقول له : « يا رسول الله ، ثابر على ما نهضت به ، فان الله ناصرك ، وخاذل اعدائك » اضف الى ذلك : انها اول امراة آمنت برسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ

واذا كان المثل يقول : ان وراء كل عظيم امراة ،.. فان خديجة هي اروع مصداق لهذا المثل .

فاطمة الزهراء :

واما ابنتها الصديقة الطاهرة ، فاطمة الزهراء ــ عليها السلام ــ فهي ام الاسلام ، وبنت الاسلام ، وقلب الاسلام النابض ، دوما ، بالعطاء والحرية !

ولعلني لا اعدو الحقيقة ، اذا قلت : ان فاطمة الزهراء ، كانت ولا تزال ، وستبقى ، الرائد العميق الذي يمد المسلمين بالدفأ ، والعطاء .

لقد كانت النبع الطاهر ، الذي ينشر النور ، والخير ، والحرية ، ثم يزرعها شتائل ، في طريق الحياة .

ولست في معرض تقييم الزهراء ، فان عباقرة العالم لو اجتمعوا ، فانهم لا يستطيعون تقييمها ، اللهم الا ان يكونوا قد اوتوا من قدرة القلم والبيان ، ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور .

فالمؤمنون الصادقون ، وحدهم ، هم الذين يعرفون من هي فاطمة الزهراء ، أما غيرهم فلم يعرفها ، ولن يعرفها !.

ولا أريد ان اتحدث عن الزهراء ، هنا ، وانما فقط اردت ان اقول: ان الاسلام كرم المرأة ارقى تكريم ، في شخصية الصديقة الطاهرة ، فاطمة الزهراء ــ عليها افضل الصلاة وازكى السلام ــ .

مُسلمات صَنعنَ التاريخ:

الريحانـــــة :

الاسلام يقول : ان المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة !

اجل : ريحانة في السلوك ، ريحانة في الجمال ، ريحانة في كـــل شـــيء ..

خمس كلمات حول المرأة :

واحد : ذات مرة : كان النبي يستعد للحرب ، فجاءه شاب مـــن الانصار ، وقال : يا رسول الله ، انا حاضر من اجل الذهاب الى المعركة — ونحن نعرف ان الجهاد واجب اسلامي ، لانه من فروع الدين — فسألـــه النبـــي :

— : وهل لك أم ؟!. وهل لك اب ؟!.

— : نعم يا رسول الله .

— : وهل هما راضيان بخروجك ؟!.

— : ما خرجت الا وامي ، وابي يبكيان ، فتركتهما في البيت في بكـاء ، ولوعـــة !!.

ــ : فقال له الرسول : ان الله قد وضع الجهاد عنك لان في المسلمين كفاية .. ارجع اليهما واضحكهما كما ابكيتهما ، فان أنسهما بك افضل عند الله من الجهاد في سبيله !.

وهل سمعتم في الدنيا ، بقصة مثل هذه القصة .. ! ؟ .

شاب خارج للحرب ، فيرده الاسلام الى الدار ، بسبب امه وابيه ، الذين تركهما في بكـاء وأسى ! .

(ملاحظة : هذا القانون موجود ، في النظام العسكري ، في الجيوش الاسلامية .. ويطبق اذا لم تكن الجبهة الاسلامية في خطر .. اما اذا كـان الاسلام في خطر ، وليس هناك من يقوم مقام هذا الشاب ، فـــان هـــذا القانون يتعطل والشاب يخرج الى ساحة الحرب ، حتى ولو كان ابـــواه يبكيان عليه ؟!.. والشيء الملفت للنظر في هذا القانون .. هو : ان المسلمين لم يستعملوه ولا حتى مرة واحدة ، فعلى الرغم من ان الام والاب ، مـــن حقها ان يمنعا ولدهما الوحيد ، عن الرواح الى ساحة الحرب وفق هـــذا القانون . لكن الذي حدث كان عكس ذلك تماما .. فقد كانت الامهات ، والاباء ، يدفعون بابنائهم في لهوات ، القتال ، حتى كانت المراة تفتخـــر بين النساء ، بأنها دفعت كل ابنائها الى المعركة ، ! ومن اراد المزيد مـــن الاطلاع فليراجع التاريخ الاسلامي حول هذا الموضوع) .

على انني ذكرت هذه القصة ، للتدليل على مدى اهتمام الاســـلام ، بحقوق الام ،. بحيث يعطل قانونا في الجيش العسكري من اجل عين الام !!.

اثنين : فاطمة بنت محمد ــ عليها ، وعلى ابيها افضل الصـــلاة، وازكى السلام ــ واسلاميا ــ فالرسول هو افضل من كل شيء في الكون ،

ولكن مع ذلك ، فقد ذكر المؤرخون ، ان فاطمة ، عندما كانت تدخل على ابيها ، كان الرسول يقوم اجلالا لها ، وكان يأخذ يدها فيقبلها ويقول : مرحبا بأم ابيها !. ويومها ، كان عمره الشريف ، ستين سنة ، في حين انها : كانت في الربيع الخامس عشر !

يا لروعة الاسلام ، حين يكرم المرأة في شخصية فاطمة الزهراء .!

اجل : انه التكريم الذي لا يعرف الحدود !

ثلاثة :

قال المسلمون ، كنا جالسين مع النبي في المسجد ، اذ دخلت عليه فتاة بدوية عربية ، كانت تعيش في الصحراء ، فقام النبي لها ، واخذ عباءته ، وفرشها ، وقال لها : تفضلي اجلسي هنا ، ثم اقبل عليها يحدثها، مرة ، واخرى يصغي لكلامها ، حتى اذا انصرفت قام النبي في وداعها ، ولما سألوه عنها ، اجابهم : هذه اختي من الرضاعة ، شيماء بنت حليمة السعدية !.

اربعة :

قال المسلمون : كنا في صلاة الجماعة مع الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله عندما سجد واطال في السجود ، حتى ظننا ان الوحي نزل عليه ، ولما فرغ من صلاته ، سألناه : يا رسول الله ، هل نزل عليك الوحي خلال الصلاة ؟

فقال : لا ، وانما هي : امامة الصغيرة ، ابنة بنتي ، امتطت ظهري فكرهت ان ازحزحها !!. — وامامة هذه ، هي طفلة في السنة الثالثة من العمر ، وهي بنت زينب بنت رسول الله — .

اليس في هذا دليل على العناية العميقة التي يوليها ، الدين الاسلامي، للمراة ، من طفولتها ، الى امومتها ؟!

انها العناية الرحيمة التي تذوب امامها ، كل عناية وكل رعاية !.

خمسة : ذكر المؤرخون . ان النبي الاكرم ، كان يعامل زوجاتـــــه، معاملة الفجر للزهور المتفتحة ،!.

كان صباح كل يوم — وقبل ان يخرج الى المجتمع ، يدخل على كـــل امراة فيسلم عليها ، ويقبلها ثم يخرج عنها الى الثانية وهكذا ! وفي المساء ، عند عودته الى الدار ، كان يصنع نفس الصنيع ، فهو يقوم بهذه العملية، مرتين في اليوم ، في المساء مرة ، وفي الصباح اخرى !.

وهل حصلت المراة على هذا التكريم المناقبي ، على طول التاريخ ؟! كلا ، والف كلا ..

واكثر من ذلك ، فقد جعل القرآن ، المراة في عداد الانبياء والمعصومين، وفي مصاف الاولياء والصديقين ، وجعلها آية للعالمين .. آية الكفـــاح والجهاد ، اية الشرف ، والعفة ، اية العقل والاستقلال ، اية الايمـــان والحرية : الا وهي : الصديقة المعصومة ، مريم البتول !.

فقد قال الله العظيم : « والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها مـــن روحنا ، وجعلناها آية للعالمين » .

المراة المسلمة في المعركة :

في حرب صفين التي استمرت ١٤ شهرا ، كانت قبيلة همدان مـــن

القبائل التي اشتركت في القتال مع الامام علي عليه السلام ضد جيش الشام.

وذات يوم كادت ان تقع هزيمة في صفوف اهل العراق ، ولكن قبيلة همدان اعادت السيطرة على الميدان بسبب تشجيع النساء للرجال ..

فقد حدث ان واحدة من النساء تسمى سويدة من اهل البصرة ، انشدت اربعة أبيات من الشعر ، استطاعت ان تفعل فعلها الساحر العميق في القلوب ، والهبت ظهور المقاتلين بسياط الحماس ، والاندفاع ، فاندفع الرجال في وسط المعركة ودارت رحى الحرب وتمكنت هذه القبيلة من السيطرة الكاملة على ساحة المعركة ، وتراجع جيش الشام الى الوراء .

ولما عرف معاوية بالامر بيت شرا ودفن حقدا في صدره على هذه المراة (سودة) التي هي من همذان في البصرة ، وقال : لان ظفرت بها لاروعنها اشد ترويع .

واخذ يكرر القول بينه وبين نفسه : « سودة باربعة ابيات من الشعر تأخذ الميدان ! .. لا بأس سأنتقم منها عاجلا او آجلا .. »

ودارت الايام دورتها ، وقتل الامام علي امير المؤمنين وجاء دور معاوية .. فغير كل الولاة في البلاد ، فكان ان ارسل الى البصرة ، بسر بن ارطاة وعينه واليا عليها ، وقال له : اذهب الى البصرة ، فانها معقل شيعة علي بن ابي طالب — .

ومن هنا تبدأ حرية المراة ، في الاسلام

اسمعوا القصة جيدا :

اول عمل قام به بسر بن ارطاة في البصرة هو : جمع الزكاة بالقوة،

ونهب اموال الناس بالباطل .

وبسر هذا معروف بانحرافه واجرامه ، وهو الذي قتل اطفال عبيد الله بن العباس ، عندما دخل الدار واخذهما من حجر الام ،وضربهما بالحائط، في شر جريمة .. انه معروف باجرامه وعدائه لاهل البيت ولشيعة علي .

وكان لسويدة ، نخيل في بساتين البصرة ، فصادر بسر كل نخيلها ، وبساتينها ، التي كانت قد جعلتها تحت ايدي المستضعفين من الناس .

فجاء المستضعفون الى سويدة ، يبكون ، وهم يخبرونها ، بأن بسرا . قد أخذ البساتين وطردهم منها ، فاصبحوا بالعراء لا مأوى لهم ولا دار .

فلما سمعت سويدة بذلك ، اغتسلت بالالم وراحت الى بسر بن ارطاة ، فوقفت امامه ، وكأنها اسد باسل ، كانت كلماتها تتساقط على بسر وكأنها احجار ملتهبة .. فهي من شيعة علي ولا تهاب الموت ، وليكن ما يكن ..!

قالت : يا بسر بن ارطاة .. ان عمالك ، هجموا على بساتين الضعفاء ، واخرجوا منها اهلها ، واخذوها .. يلعبون بخيرها ــ وقد علمت انهم اخذوا اموالا كثيرة من الناس ، بحجة جمع الزكاة ، وانت تعرف ان هذا ليس هو وقت الزكاة ، فارجع الاموال الى اهلها ، وردّ البساتين الى اصحابها .. والا فانني قادرة على القضاء عليك ، بهذا البلد !

قال بسر : لست راد الاموال الى اهلها ، ولا البساتين ، واعملي ما شئت ان تعملي !

تركت سويدة بسرا ، ورجعت الى الدار ، فهيأت اسباب سفرها ، وخرجت ميممة وجهها شطر الشام قاصدة قصر الرئاسة في دمشق ..لتعرض القضية على معاوية ..

وحدها ، قطعت ذلك الطريق الوعر حتى اذا وصلت الشام ، راحت تطلب الدخول على معاوية ..

نزلت من جملها ، وربطته بباب القصر ، وقالت للحاجب ، قــل لمعاوية ، ان سويدة من اهل البصرة ، تريد مقابلتك من اجل شغل هــام عندهــا !!.

دخل الحاجب ، واخبر معاوية ، فلما سمع معاوية باسمها ، قال : جاءت برجلها الى الموت هذه سويدة ، التي كانت في صفين تدفع الرجــال في احضان المعركة ــ انها اليوم هنا .. وقد آن الوقت للقضاء عليهــا .. فلتدخل علينا سويدة :

ودخلت ثم سلمــت وجلســت !

قال معاويه : من انت ؟

قالت في هدوء : انا سويدة من اهل البصرة ، جئت اشتكي من بسر بن ارطاة فقد اخذ اموالي ظلما ، وكذلك تجاوز الحدود ، وارعب الناس ، واخذ اموالهــم ..

وعندما راجعته ، رفض ان يرد الاموال الى اهلها ــ من اجل ذلــك جئت اليك لارفع ظلامتي عندك ، ثم اضافت قائلا : على انني هددت بســرا بالقضاء عليه اذا هو لم يستجب للمطالب التي ذكرتها له !

وهنا بدأ الحقد ياكل صدر معاوية ، وبدأ الشر يتطاير من عينيــه .. فقال لها في غضب شديد .

الم تكوني انت المرأة التي كانت تشجع الرجال على القتال ، وتنشــد

الاشعار ، فتزرع الحماس في النفوس ..؟

قالت نعـــــم !

قال : اولست انت المراة التي اعادت قبيلة همدان الى ساحة المعركــة في صفين ، واعادت سيطرتها على الميدان بالكامل ..؟؟

قالت اجل ..! هي انا سويدة الهمدانية من اهل البصرة ..!

قال : اولست انت من اصحاب علي بن ابي طالب ، ومن شيعته ..؟

قالت : نعم . انا كذلك يا معاوية فماذا عندك ..؟

انظروا الى القوة الجبارة التي كانت تتمتع بها سويدة ..!

قال معاوية : ساقتلك شر قتلة واذيقك الموت غصة بعد غصة ..!

قالت : ويلك يا معاوية ، اراك تجتر الماضي ، وتخلطه بالحاضر !

فقال معاوية : والان ماذا تريدين ؟

قالت : اريد ان تأمر بارجاع اموال الناس ، وارجاع النخيل الـــى اصحابه المستضعفين من الرجال والنساء .

فصاح معاوية برفيع صوته :

علي بالنطع والسيف والجلاد ، اقتلوها امام عيني ، اخلطوا لحمهــا بدمهــــــا ــ .

فسكتت ولم تجب ، ومرت لحظات ، حضر بعدها الجلادون ، وفرشوا النطـــــع .

فلما رات النطع امامها ، انشدت تقول :

صلى الاله على روح تضمنها قبر

فاصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي له بدلا

فسار بالحق والايمان مقرونا

قال معاوية : بحق من قلتي هذا الشعر ؟

قالته : قلته في حق سيدي ومولاي امير المؤمنين علي بن ابي طالـــــب عليه السلام .!

قال : ولمــــاذا ؟

قالت : اعلم يا معاوية انه ، في ايام حكومة امير المؤمنين ، وايــــام خلافته ، كان الوالي علينا ، قد مارس الظلم ، والضغوط علينا ، فذهبت الى الكوفة ولما وردت المسجد ، كان امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليــه السلام ، يريد ان يصلي ، فقلت يا امير المؤمنين ، لا تكبر للصلاة ، فـــان واليك علينا ، قد ظلمنا .. فبكى علي ، وقال : اللهم انك تعلم اني ما ارسلت

حاكما عليهم ليظلمهم ، ثم اخرج ورقة من جيبه ، وكتب عزل الوالي ،ودفع الكتاب بيدي ، فرجعت الى البصرة ، وانا احمل بيدي عزل الوالي .

اما الان ، فأنا قادمة عليك من البصرة احمل اليك الشكوى ، واقول لك ، ان واليك بسرا قد ظلمنا ، فتأمر بضرب عنقي !

سلام الله عليك يا أمير المؤمنين !

فلما فرغت من كلامها — قال معاوية ، ارفعوا النطع ، ولا يأتي الجلاد ، وانما علي بالكاتب بدل الجلاد ، فدخل الكاتب .

فقال معاوية : اكتب الى بسر ان يرد الاموال الى هــذه المرأة ،!

فقالت : وما اصنع بأموالي ، يا معاوية .

انما جئتك من اجل القضاء على الظلم في البصرة ، واعادة امـــوال الناس كلها الى اهلها .

ثم تابعت تقول : اسمع يا معاوية ، اما ان تعزل بسرا من ولايـــة البصرة ، وترد الاموال الى اهلها ، واما أن تقتلني هنا ، واذا لم تفعـــل من ذلك شيئا ، فاني لن ارجع الى البصرة ، وانما سأظل هنا في الشـــام اعمل في اثارة الناس عليك ، حتى يسقط حكمك او يحكم الله لي وهو خير الحاكمـــين !! .

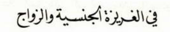
فقال معاوية :

والله عجبا لك يا أبا الحسن ، اي نوع من الاحباب صنعت ، لا يخافون

الموت ، ولا يخشون السجن ، ولا النار !

فكتب لها كتابا بعزل الوالي ، فاخذته بيدها ، وعزلت بسرا من البصرة ، وارجعت الاموال الى اهلها وهو الكتاب الثاني الذي اخذته بيدها لعزل الولاة في حياتها ..

هذه هي حرية المراة ، في العقيدة والاستقلال ، والشخصية ..


في الغريزة الجنسية والزواج

لمـــاذا الزواج

الانسـان ابن الطبيعة ، فهو يتفاعل معها ، ويتكيف مع حرها ، وبردها، ويجري وفق قوانينها ، حتى انه ليس في وسعه ان يخالف انظمتهـــــا مقدار شعرة واحدة :

وفي الطبيعة بعد يشد بعضها ببعض ، هو البعد الزوجي ..!

اجل ان الطبيعة قائمة على اساس مبدأ الزوجية العامة ، الذي يلـف عنق الكون كله ،..

لقد اثبت العلم ان كل ما في الكون من كائنات تخضع لقانون الزوجية.. وهذه حقيقة كشفها القرآن قبل ١٤ قرنا ، حيث قال : « سبحان الـــــذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ، ومن انفسهم ومما لا يعلمون .. » .

اي ان الزوجية ، تجري في النبات كما في الحيوان ، كما فــــي الانسـان ، اضافة الى العوالم التي لا يعرف عنها الانسان اي شيء ..! وفي آية اخرى يقول الحق : « ومن كل شيء خلقنا زوجين .. » وفي اية اخرى: « ومن كل شيء جعلنا زوجين اثنين ... » وهكذا بقيت الآيات التي تتناول موضوع الزوجية في هذا الكون العملاق .

انه مبدأ لا يتهرب منه ، لا الذرة ، ولا المجرة ..

فالمجرات مؤلفة من الذكور والاناث ، والسحاب مؤلف من الذكر والانثى ـ سحابه سالبة ، واخرى موجبة ، وكذلك الصوت مؤلف من موجة صوتية فيها عنصر السلب ، وموجة اخرى فيها الايجاب ..

ونفس الشيء ، في الخلية ، وفي تزاوجها ، وتناسلها ..

وواضح قانون التناسل والتكاثر في الخلايا وكذلك في الاشجار .. فهذه نخلة ذكر ، وتلك انثى .. وعملية اللقاح واضحة جدا لدى أصحاب البساتين ..

وصدق الله حين قال : « وارسلنا الرياح لواقح .. » وحتى الرياح والهواء خاضعة هي الاخرى لهذا القانون .. ثم الهواء ـ بعد ذلك ـ وسيلة للقاح ، يدفع السحابة الانثى في حضن السحابة الذكر ـ وفق قانون السالب والموجب ـ فتنشأ العلاقة ، ويحدث الرعد والبرق ، ويهطل المطر.

والامثلة كثيرة في هذا المجال ، وفي استطاعة كل انسان ان يجدها في الكتب العلمية التي تتناول موضوع الزوجية العامة التي تسير الكون العملاق . « جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه ». الشورى ١١ .

اذن : فكل شيء خاضع للزواج في الطبيعة .

ولان الانسان ابن الطبيعة ، فلا محيص له من الزواج .. والا فالمأساة تكبر امامه شيئا فشيئا حتى تصل به الى محطة الجنون . كما يقول علماء النفس ، وعلى راسهم فرويد العالم النفسي الشهير والقضية تبدأ بهذا الشكل :

في الانسان غريزة ، تسمى غريزة الجنس وهذه الغريزة ، هي من

اقوى الغرائز واعتاها وهي تلح دوما على صاحبها بالاشباع ، والممارسة ، فكيف يشبعها وعن اي طريق ؟

لاشباع الغريزة الجنسية ، وارضائها .. امامنا ثلاثة حلول لا غير :

١ ـ الزواج الطبيعي ..

٢ ـ الكبـــت .

٣ ـ الانحلال الجنسي .

ولا حل الا بالزواج ، لان الكبت يؤدى الى الامراض النفسية وتفكك الشخصية . بينما التحلل يؤدي الى الامراض الجنسية ، وتفكك المجتمع .

ونبدأ بالعد العكسي للقضية ، فلو فرضنا اننا اخذنا بالانحــــلال الجنسي ، وافساح المجال امام اشباع رغبات الشباب الجنسية دون قيود ، ولا رقابة ، لو اننا فعلنا ذلك ، فماذا ستكون النتيجة ؟.

انها ولا شك ، ستؤدي الى الامراض الجسدية الفتاكة مثل السفلس ، والزهري ، والسيلان ، وهذه بدورها تترك مضاعفات خطيرة على عمـل الدماغ ، وخلايا الفكر ، فقد اكدت الارقام العلمية ، ان بعض الجراثيم المرضية تستطيع ان تصل الى خلايا الدماغ ، عن طريق الدم ، فتبـــدأ الكارثة وذلك ، حينما تبدأ الجرثومة بتمزيق الخلايا في الدماغ واكلها .. !

هذا بالاضافة ، الى ان الانحلال الجنسي يؤدي الى الانحلال الخلقي ، وتبعا لذلك ، فان اعمدة الاسرة تتساقط ، الواحدة تلو الاخرى وتبدأ الاسرة رحلة التمزق والضياع ..

ان الفتاة الساقطة . لا تستطيع ان تبني بيتا ، وتربي اولادا فـــي مستوى المسؤولية .

والمراة الخائنة تجني على زوجها ، واولادها شر جناية .. وذلـك لان الزوج ، اذا عرف انحراف زوجته ، وعلاقته بالاخرين ، ولو جزئيا .. فان ذلك يضعه امام الحقيقة المرة .

فهو لا بد ان يطلقها ، ويبقى ذيل الطلاق البغيض يضغط على قلـوب الاطفال ، ويدوس انفسهم ، وهذا بدوره ، يصب الحقد ، في صدورهم ، ويزرع بذور الجريمة في اعماقهم ، — فلا يلبثون ان يتحولوا الى مجرمين محترفين .. كما تؤكد ذلك ، الاحصائيات الرسمية ، حيث اثبتت ان ٨٥٪ من المجرمين هم من نساء مطلقات ، او يتامى انحرفوا عن الخط المستقيم ، بسبب انعدام التربية ، في الطفولة !.

زد على ذلك ، ان الانحلال ، يقتل الثقة في النفوس ... وذلـك ان الفاسد ، يصاب بنكسة نفسية تجعله يعتقد بفساد الناس اجمعين .

والذي نفسه غير جميلة لا يرى في الوجود شيئا جميلا — ان الواحد الفاسد ، يصدر حكما بفساد الناس كلهم دون تفرقة بينهم وهذه العقيـدة المهترئة ، تزرع الخفة في نفسه ، فيستخف باعراض الناس ، واموالهـم ، ودمائهم .. فلا يقيم لها وزنا ولا قيمة .. اذ لا مانع لديه من ممارسـة الجريمة في اية لحظة ...

واي شيطان يستنهض ، يجده خفيفا ملبيا للدعوة ، دون قيـد ، ولا شـرط ..!

وهذا بالضبط ما وقع فيه الغرب الكافر .. حيث امتدت فيه الحريـة الجنسية ، وامتدت ، وامتدت ، حتى اهلكت الحرث والنسل .. ولم تقـف عند الزنا ، واللواط وانما بلغت من الانحراف الجنسي ، حدا لا يطاق .

وضاعت المراة الغربية ، في هذا الوادي اللزج القبيح ، وضاعـت ،

بضياعها ــ العفة والحياء ، حتى اصبح الجنس يمارس على طريقة السندويتج .

والآن ، وبعد ان قمنا بجولة في الافتراض الاول ــ نأخذ الافتراض الثاني ، او الحل الثاني ، وهو الكبت ، وعدم افساح المجال امام الغريزة الجنسية بالتنفس . .

وهذا الحل كسابقه من قبل . . فانه لا يؤدي الا الى مزيد من التعقد النفسي ، والتدهور الصحي .

وقد أثبت العلم الحديث بالارقام : ان الكبت الجنسي ، يفضي الى اكثر من عشرة امراض نفسية كلها في غاية الخطورة ــ .

لان الغريزة لا تحتمل الكبت . . وذلك لان الكبت معناه خنق الغريزة، ودفنها في تراب النسيان . . ولا شك انها محاولة فاشلة علميا . .

لقد أثبت العلم الحديث ، ان الغريزة الجنسية ، اذا خنقتها ، فانها لا تستسلم للخانق ، وانما تظل تلح ، وتلح ، في تحد مستمر ، ثم لا تلبث ان تنفجر من مكان اخر ، فهي لا تنطفأ في مكان الا وتشتعل في مكان اخر ، ولكن هذه المرة ، بأسلوب اخر . .

يقول فرويد :

« ان الغريزة الجنسية ، اذا تم خنقها فانها تطلع بأمراض نفسية متنوعة ، مثل الخوف والقلق ، والشعور بالوحشة ، والشعور بالاضطهاد، وهي بهذا الاسلوب انما تعبر عن وجودها وتحكي قصة حياتها . . » .

والادلة العلمية التي تؤيد هذا الجانب ، كثيرة جدا . .

من اجل ذلك .. اكدت الشريعة الاسلامية على الـزواج المبكـر ، واعتبرته الحل الوحيد ، والسريع للمشكلة .. فقد وردت الروايات الكثيرة ، وجاءت الاخبار الكافية ، التي تدفع الشباب الى احضان الزواج وتحـذر المجتمع من خطر الشاب الاعزب ، ومن خطر توقف الزواج ..

كان النبي يقول : ايها الشباب من كان منكم يملك البـاه ، فليتزوج .. اي انه يستطيع الزواج .

لان الزواج هو الطريق الصحيح ، لارواء الظمأ الجنسي ، والجـوع العاطفـي .

وقال الرسول : « شرار امتي عزابها » .

وقال الرسول لرجل : الك زوجة قال : لا . فقال له النبي : افأنـت صحيح موسر ، قال نعم ، قال :

« تزوج والا فأنت من المذنبين .. »

« .. خيار امتي المتأهلون ، وشرار امتي العزاب » .

ان اشباع الغرائز ، وارضائها ، من اهم الوظائف الاسلامية ..

ان هناك غرائز اذا لم تشبعها تموت في مهدها وان هناك غرائـز اذا لم تشبعها تثور ، وتصعد نشاطها كما يقول فرويد : وتترك ورائها سلسلة، من الاخلاق السيئة ، والمضاعفات البغيضة ، الوحشة الخوف القلـق ، التردد ، ضعف الشخصية ، حب الارهاب ، ممارسة الجريمة :

حتى انني سمعت من احد العلماء : « ان هناك — في بعض البلاد —

حزبا سريا اراد ان يربي مجموعات ارهابية من الشباب ، فكـــان اول الشروط ، ان لا يكون الشاب متزوجا . لان عدم الزواج يربي النفوس على الارهاب والرعب .. » !!.

وقد جاء في الروايات :

« .. من احب ان يلقى الله طاهرا مطهرا ، فليستعفف بزوجة .. ».

« من سنتي التزويج ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .. » .

« .. من تزوج فقد حفظ ثلثي دينه ، فليتق الله في الثلث الباقي ..» .

لا شك ان نسبة الزواج في انخفاض مستمر ، في حين ان نسبة الطلاق في تصاعد مستمـــــر !

والسبب واضح : وهو :

ان موجة الجنس العارمة حملت الشباب على العزوف عن الزواج الطاهـــــر .

وان موجة الجنس العارمة ، سببت تفكيك الاسرة ، وتصدع المجتمع ، وبالنتيجة : تصاعد معدل الطلاق .

واليوم ، اخذت مشكلة الزواج تحتل المرتبة الاولى في العالم .. ومن اسبابها ما يلي :

يعتبر — حاليا — في الزواج بلوغان : البلوغ الاقتصادي والبلـــوغ الجنســـي .

البلوغ الجنسي معناه الميل نحو النساء ، واشتهاء المرأة ، والبلوغ الاقتصادي يعني القدرة على النفقة ، وادارة الحياة العائلية .

في الماضي كان البلوغ الجنسي ، مقارنا للبلوغ الاقتصادي ، لان الولد الشاب ، كان يخرج الى السوق وينزل الى معترك العمل ، والحياة ، ويكتفي ذاتيا من الناحية الاقتصادية ، وهو في سن السابعة عشرة .

ولهذا ، في الريف لا توجد مشكلة زواج على الاغلب والاكثر — .

ومن الامور التي وقفت في طريق الزواج ، خنجرا حادا ، هي قضية اكمال الدراسة ، — وتصوروا ان الفتاة وكذلك الشاب ، يدخلان المدرسة، وهما في السابعة من العمر ، وتستمر الدراسة اخذا من الابتدائية ، ومرورا بالثانوية ، وانتهاءا الى الجامعة ، . حتى اذا تخرج الطالب من الجامعة ، كان عمره ، ٢٦ سنة ، اضف ثلاث سنوات للتخصص ...

ولهذا نرى اغلب الزيجات انما تتم بين سن ٣٠ — ٣٤ سنة في العالم وهذه من امهات المشاكل التي تشكل الما حادا في قلب المحافل العلمية في العالم .

والغريب ان (راسل) الفيلسوف البريطاني يقول : «من اجل القضاء، والتغلب على هذه المشكلة يجب : ان نسمح بالزواج المؤقت للشباب ، والزواج المؤقت بلا اطفال ، من اجل القضاء على الامراض الجنسية المنتشرة في أوساط الشباب ، ثم طالب بأن يشرع قانون يسمح لهم بالزواج المتعة »٠

وراسل هذا — فيلسوف عظيم ، وكثير من آراءه مقبولة عند كافة الجامعات العلمية ..

ان خطر ما تصاب به البشرية ، هو : ان تسقط اعمدة الاسرة فوق انقاض التدهور الاخلاقي .

فالاسرة تتألف من زوج وزوجة ، وهما النواة الثمينة ، للنمو الانساني.

وكما ان النواة لا تتفتح الا في الهواء والنور والحرية ، كذلك الاسرة لا تقوم على سوقها الا في الاخلاق والامانة والتعاون .

وبهذا الجو وحده ، يتمكن الاطفال من الانطلاق بكل قدراتهم ومواهبهم نحو المستقبل الافضل ..

ولان الاسلام حرص اشد الحرص على زرع فسائل السعادة في الاسرة لكي تسعد الحياة الزوجية ، ويسعد الاولاد ، فقد قرر ابتداء التكافؤ بين الزوج والزوجة ..

ويرجع التكافؤ الى الجوانب الروحية اكثر من المادية ، فيلزم ان يكون الزوجان متقاربين في العقائد ، حتى ان المسلم لا ينكح مشركة ، والمشركة لا تنكح مسلما ..

قال تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولامة مؤمنة خير من مشركة ، ولو اعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم ، اولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمغفرة بأذنه ، ويبين اياته للناس لعلهم يتذكرون » .

والسبب واضح في كل ذلك ، فان للعقيدة دورا فعالا في توجيه النفوس ، وفي تخطيط نمط السلوك في الحياة ولا شك ان الاختلاف في العقيدة بين الزوجين سيؤدي — حتما — الى تصدع جدار العلاقة

الزوجية وهذا بدوره ، يترك اثرا سيئا على الاولاد ، وفي نفوسهم ، فمن اجل ذلك ، اشترط الاسلام ، التكافؤ العقدي ..

وبعد التكافؤ العقدي ، يأتي دور التكافؤ الخلقي والمادي ..

قال علي بن مهزيار : كتب علي بن اسباط ، الى ابي جعفر عليه السلام ، في امر بناته ، وانه لا يجد احدا مثله فكتب اليه ابو جعفر عليه السلام : فهمت ما ذكرت من امر بناتك وانك لا تجد احدا مثلك ، فلا تنظر في ذلك رحمك الله فان رسول الله قال : « اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير) (١) .

وقال الحسين بن بشار الواسطي : كتبت الى ابي جعفر اساله عن النكاح ؟ فكتب الي :

« من خطب اليكم فرضيتم دينه وامانته فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض ، وفساد كبير » .

وروى محمد بن الفضيل عن ابي عبدالله الصادق قال : (الكفو : ان يكون عفيفا ، وعنده يسار » .

ولان الاسلام يرفض الاعتراف ، بالفوارق القبلية والاقليمية ، فانه يقرر : ان المسلم كفؤ المسلم مهما كانت قبيلتهما واقليمهما !

عن امير المؤمنين علي قال ، قال رسول الله : « اذا جاءكم من

....

١ ــ هكذا الاسلام ١٦٣ .

ترضون خلقه ، ودينه فزوجوه ، قلت : يا رسول الله ، وان كان دنيا في نفسه ، قال : اذا جاءكم من ترضون خلقه ، ودينه فزوجوه .. الا تفعلوه تكن فتنة في الارض ، وفساد كبير » .

اجل انه الخلق الحسن ، والعقيدة الصحيحة ، واليسار ليس اكثر ..

اما ان يكون الشاب حامل شهادة عالية ، او يكون عنده سيارة راقية ، او كم يملك من الاموال ؟ والى اي قبيلة ينتمي ؟ — فهذه امور لا دخل لها في القضية ، وهي التي تخلق العراقيل في طريق الزواج .

ان الاسلام يشترط الدين ، والاخلاق الحسنة ، واليسار .. يعني ان الزوج يملك مالا ، يمكن ان يدير به نفسه بشكل معقول ..

هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان الاسلام يرفض التزوج بالاحمق، وسيء الخلق ، ومشوه الخلقة ، والمجنون ، وشارب الخمر وذلك ، لان الزواج يتحول — حينئذ — عذابا ، والعيش صعبا .

قال الحسين بن بشار الواسطي : اكتبت الى ابي الحسن الرضا عليه السلام : (ان لي قرابة قد خطب الي وفي خلقه سوء ؟ قال : لا تزوجه ان كان سيء الخلق) !

وعن الصادق قال : قال امير المؤمنين : (اياكم وتزويج الحمقاء، فان صحبتها بلاء ، وولدها ضياع ..) .

وعن محمد بن مسلم ، عن ابي جعفر — عليه السلام — قال : (سأله بعض اصحابنا عن الرجل المسلم ، تعجبه المراة الحسناء ايصلح له ان يتزوجها وهي مجنونة ، قال : لا) .

وعن أبي عبد الله قال : قال رسول الله : (.. شارب الخمر لا يزوج اذا خطب) . وقال الصادق : (من زوج كريمته من شارب الخمر، فقد قطع رحمها ..) ١٦٤ ــ (هكذا الاسلام ، للسيد الشيرازي) .

« وبهذه الكيفية يضع الاسلام أول لبنة لحياة سعيدة ، زوجان عاقلان ، كاملان ... والزوج ذو يسار وليس بسيء الخلق ، ولا مشوه الخلقة ولا شارب الخمر ، حتى يعربد ويؤذي اهله ، واحيانا يفعل ما لا يحمد عقباه ، مما يعرفه الجميع .. » .

وعلى الرغم من التشدد في هذه الامور الثلاثة (الدين ، الاخلاق ، اليسار) الا ان الاسلام لا يغفل الجانب العاطفي ، وهو جانب الجمال، والرقة .. وانما يركز عليه تركيزا لا يستهان به .

وذلك لان : « الله جميل يحب الجمال » ، فقد جاء عن الامام الصادق عليه السلام : اذا أراد احدكم ان يتزوج فليسأل عن شعرها ، كما يسأل عن وجهها ، فان الشعر احد الجمالين » .

اذن : فالاسلام ، يضع الخطوط الاصلية للزواج السعيد ، وهو ما يتوفر فيه حسن العقيدة والحق والعمل ، وعدم قلة العقل واليسار .

وفي ظل مثل هذا اللون من الزواج ، يستطيع الزوجان ان يعيشا حياة الهناء والهدوء والسعادة .

وما قيمة المال والثروة ، بلا اخلاق ولا دين ، ولا عقيدة ..؟

ان الثروة ، لا تعطي السعادة ، والمال لا يصنع الراحة النفسية، بل بالعكس ، في أغلب الاحيان .

ولكن ، كم هو جميل ورائع ، ان تجتمع الثروة مع الدين والاخلاق ..؟!

لان الاسلام دين الحياة ، ومن لا معاش له لا معاد له ..

وتذكروا دائما ، ان الاخلاق تشكل العمود الفقري في جسد الاسرة.. وفي معاشـــرة المــراة .

قال الامام علي : (.. فان المراة ريحانة ، وليست بقهرمانة فدارها على كل حال ، واحسن الصحبة لها ليصفو عيشك) .

وقال الامام الصادق عليه السلام : « رحم الله عبدا احسن فيما بينه وبين زوجته ، فان الله عز وجل قد ملكه ناصيتهـــا ، وجعله القيـــم عليهـــا .. » .

وقال : (عيال الرجل اسراؤه ، واحب العباد الى الله عز وجل احسنهم صنعا الى اسرائه) .

وقد حذر الاسلام من سوء الخلق مع الزوجة ، وضربها .. فقد جاء في الحديث نوع من التأنيب للذي يضرب زوجتـــه ثم يعاشرهـــا معاشرة الازواج . قال : (ايضرب احدكم المراة ثم يظل معانقها ؟) .

والاسلام يرفض ان يبيت الرجل عند غير اهله ، في نفس البلد . فقد قال الرسول الاعظم : (هلك بذي المروة ان يبيت الرجل عن منزله بالمصر الذي فيه اهله) .

هذه الاحاديث ، وجمهرة من الاحاديث الاخرى هي التي تنصب في طرف المراة ، ومن اجلهـــا .

اما في ما يخص الرجل وحقوقه على زوجته ، فقد جاءت اخبار كثيرة .

قال النبي : (ايما امراة خدمت زوجها سبعة أيام اغلق الله عنها سبعة ابواب النار ، وفتح لها ثمانية ابواب الجنة تدخل من ايها شاءت) .

وقال : (ما من امراة تسقي زوجها شربة من ماء الا كان خيرا لها من عبادة سنة ، صيام نهارها ، وقيام ليلها ..) .

وقال : (ايما امراة باتت وزوجها عليها ساخط في حق ، لم يتقبل منها صلاة ، حتى يرضى عنها) .

وبهذه الانظمة ، والدساتير ، تمكن الاسلام ان يحصن الزواج من الانهيار ، ويجعل الزوجين يعيشان في بحبوحة الهدوء والسلامة .

وحقا انه لزواج مغري ..! والشباب سيزدحمون على باب الزواج ، من اجل الاسراع في الخطبة والزمان ، ليتذوقوا طعم حلاوة العشرة الزوجية في ظل الاسلام وليس في ظل غيره ..

انه الاسلام وحده ، هو الذي يستطيع ان يصب جام السعادة في القلوب ، ويشد الزوجين برباط الوفاء والاخلاص !

انه الاسلام وحده !.

قصة في الزواج :

قال النبي : من اراد ان يتزوج امراة من اهل الجنة ، فليتزوج (بركة) وهي فتاة دخلت في مسجد النبي ، وجلست تطلب الزواج ، فقام شاب من الانصار يسمى زيد ، وخطبها ، فزوجها النبي على بساطه . وهذه الفتاة هي التي سميت فيما بعد بـ أم أيمن .

« أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

وقصة ثانيـــة في الـــزواج :

شاب يسمى جابرا ، كان قد تخلف في الطريق ، بسبب جمله الـذي برك في الجادة ، ولم يتمكن من النهوض .. فمر به النبي ـ صلى الله عليه واله ـ وسأله : من هذا ؟. قال : انا جابر يا سيدي ، برك جملي فتأخـرت معه ، فقام النبي واعانه على قيام بعيره ، فركبه ، وأردف جابرا معـه ، وفي اثناء الطريق سأله النبي : هل انت متزوج ؟!

ـ : لا يا رسول الله .

ـ : لماذا لم تتزوج ؟

ـ : لان ابي مات وترك علي دينا لا استطيع ايفائه اضافة الى ان لي : اخوات في البيت ، واني اكره ان اتزوج وفي البيت عانسات !

فقال له النبي : تعال عندي في المدينة ـ خلال موسم التمر فانـي سوف ازوجك ، وادفع دين ابيك !.

الفصل الرابع

التوكل: منهاج اكاديمي في الحياة



بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

كثير من القضايا العقائدية في الاسلام — اخذها الكثير من المجتمع بمفاهيم خاطئة !.

ومنها التوكل .... ماذا يعني التوكل بالضبط ؟!.

قبل كل شيء ، علينا ان نفرق بين التوكل والتواكل ، فكثير ما تشتبه احدى الكلمتين بالاخرى ، في صدور العامة من الناس ، فتفقد كلمة التوكل محتواها الاسلامي .

الفرق هو :

ان التوكل يعني الجد والمثابرة ، والحزم في الامور ، والانطلاق بسرعة نحو الهدف كما هو مذكور في القرآن .

في حين ان التواكل ، لا يعني أكثر من التخاذل والتكاسل ، والتراجع الى الوراء ، او السير في دائرة مفرغة .

من هنا ، فقد قال الامام علي — عليه السلام — مخاطبا اصحابه

الذين خذلوا الحق ، وما نصروا الباطل — على حد قول الامام — « ... فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الاوطان .. » .

تأملوا كلمة الامام جيدا : « فتواكلتم ، وتخاذلتم » كيف اتخذ من الخذلان نتيجة طبيعية للتواكل !.

بعض الناس ، يضيع من بين يديه ، المفهوم السليم ، للتوكل في زحام الغفلة — فيترك متابعة الاسباب في الحياة — معتقدا انه متوكل على الله .. في حين فاته ان التوكل هو : اتباع الاسباب ، والجري في نورها : « .. ثم اتبع سببا .. » .

فلا يكفي لمن يريد ان يكون طبيبا حاذقا .. ان يسد الباب ويقبع في بيته ، داعيا ربه في تضرع وخشية : يا رب اجعلني طبيبا .. دون ان يذهب الى كلية الطب للدراسة .

ولا يكفي — ايضا — لمن يريد ان يصبح مهندسا قديرا مجرد التوكل، دون الدراسة العلمية العميقة للهندسة .

لان التوكل ، معناه ان تأخذ بأسباب الحياة ، وتطبق قوانينها ، ثم تتكل على الله ، وتطلب منه أن يمدك بالتوفيق والنجاح ، والعناية ، والعطاء الغيبي .

ان لكل شيء في الحياة ، طرفين متعاكسين ، احدهما يرتبط بالله ، والاخر يرتبط بالانسان ..

نحن نحتاج الى الطعام ، ولكي نحصل على الطعام لا بد لنا من حرث الارض وزرعها فنحن نحرث الارض ، وندس البذور في التراب ، ونسلط الماء عليها ، ثم نتوكل على الله في انشائها ، وطلب المزيد من الرزق .

وللتوضيح اكثر ، اضرب لكم المثال التالي :

كل الاشياء في الحياة ، لها جانبان ، جانب الفعل ، وجانب الانفعال..
فقسم من الاشياء ، يفعل للانسان ، وقسم اخر ينفعل بالانسان !

فالشمس والهواء والماء .. هذه اشياء كلها تفعل لك .. اي : انها
تمدك بالعطاء دون أن تطالبك بالمقابل ..!.

الشمس تزودنا بالحرارة ، ولولاها لانطفأت الحياة في الارض ، وصار
الظلام يلف الاشياء .

والشمس هي ، عبارة ، عن كتلة عملاقة ملتهبة،
تجري في الفضاء تبث من الطاقة ، في الثانية الواحدة ، ما يعادل
كل الطاقات التي صرفها الانسان ، على سطح الارض ، منذ وجوده والى
الان — (١) .

وهي ترش ضوئها ، وحرارتها على المؤمن ، والكافر — لا فرق
عندها في ذلك — لانها تفعل للانسان ولا تنفعل به .

يقول العلماء :

**« .. لو سقطت قطعة من الشمس ، في حجم الدرهم ، على الارض،
لاحرقت الارض واهلها ، في اقل من الثانية الواحدة .. » .**

ولكن الله سبحانه ، امرها ان توزع طاقتها في الكون وما زاد من

---

١ — من راديو الكويت في ١٩—٩—١٩٧٦ .

الطاقة ، تدفعه نحو الارض ، عبر الغلاف الغازي وهذا الغلاف له تأثير كبير ، على امتصاص الحرارة ، وجعلها في درجة تتناسب مع حياة الانسان في الارض .!

ويا للروعة .. فقد اشار بطل الانسانية ، الامام علي عليه السلام ، الى هذه الحقيقة ، قبل أكثر من الف سنة عندما قال :

« .. لو وجهت الشمس اليكم لاحرقتكم ، والارض معكم .. » .
فالشمس ــ اذن ــ تفعل للناس كافة ، بلا فعل يقوم به الناس من جانبهم تجاه الشمس ..

وكذلك الهواء .. اذ انه يفعل للناس ، اي يعطيهم الحياة يتنفسونه في كل لحظة .. بأمر الله تعالى ..

وما ينطبق على الشمس والهواء ، ينطبق على عالم النبات والاشجار.!

انظروا الى عجيب صنع الله سبحانه :

ان كل اغذية العالم تنبع من عملية التخليق الضوئي في النبات ، حيث يتحد ثاني اوكسيد الكاربون المتواجد ، في الهواء مع الماء المناسب في الارض ، باشراف الطاقة الشمسية ، ويحول الى مادة الكربوهيدرات ومواد عضوية اخرى داخل الورقة الخضراء .

وتقدر كمية الكربون التي تنتج كل عام بهذه الطريقة بحوالي ٢٠٠ الف مليون طن التي بدورها تنتج ٥٠٠ الف مليون من الكربوهيدرات ، وبناء على هذا ، فان عملية البناء الضوئي تخزن لنا كل يوم ــ على مدار السنة ــ ما

يعادل ١٤٠٠ مليون طن من السكر ..! (١) .

والجدير بالذكر ، ان الحياة على سطح الارض ، لا يمكن لها أن تستمر لولا قيام النبات بهذه العملية .

والنبات يتمكن ، بفعل المادة الخضراء (الاكلوروفيل) من صيد الطاقة الشمسية ، وباجتماع غاز ثاني اوكسيد الكاربون والماء والمعادن ، التي تمتصها الجذور من التربة ، يتكون الغذاء وبعد هذا كله ، فالنباتات، والاشجار تقوم باعطائنا الاوكسجين اللازم للحياة ، وبالمحافظة على نسبة في الهواء — والنجم والشجر يسجدان — .

اذن ! فالنباتات ايضا تفعل لنا وهي مسخرة في خدمة الانسان ، شأنها شأن الشمس والهواء .

فهذه أشياء تفعل لنا ، اما الاشياء التي تنفعل بنا فهي التي تعرفنا معنى التوكل في الاسلام .

فالارض ، لا تعطينا الطعام ، الا بعد ان نقوم ، بحرثها وزرعها ، وخذ المثال التالي :

رجلان ، كل واحد منهما يملك قطعة ارض صالحة للزراعة ..

وامام كل واحد منهما ان يثبت ، بأنه زارع ماهر متوكل على الله

---

١ — ملحق جريدة الوطن الكويتية العدد ٤٢ .

في عملــــــه .

فلننظر ايهما اهدى طريقا ، واكثر توكلا ، وازكى نفسا ..

الاول ، اكتفى بأن اخذ كتاب الدعاء ، وراح يدعو الله ويطلب منـــه ان يرزقه ، محصولا وفيرا — هذا العام — من دون ان يحرك الارضـــــ فيهزها ، ويحرثها ، ويزرعها .

في حين ان الثاني ، خرج من بيته ، يحمل بيده ، المسحاة وراح يركـــل الارض برجله ، فيحرثها ، وينثر البذور في التراب ، ثم سلط عليها المـــاء، ورجع الى داره ، متوكلا على الله ، في تمام العمل .. ومتضرعا الى اللــه ربه أن يرزقه محصولا وفيرا هذا العام .. :

والان .. تعالوا ننظر ، ايهما المتوكل ؟

اتدرون من هو المتوكل ؟

انه الثاني ، وليس الاول ..! لان الثاني اعتمد — اولا — على اتباع الاسباب ، في الحصول على الطعام والرزق ، وثانيا ، توكل على اللـــــه، وطلب منه ان ينزل البركة على ارضه وزرعه .

بينما الاول ، ترك الاسباب ، واكتفى بالدعاء ، وظن — عبثا — انــه من المتوكلين على الله ، ولكنه في الواقع كان ابعد ما يكون عن الله في هــذه المسالــــــة .

قال الامام امير المؤمنين علي عليه السلام :

« .. الراعي بلا عمل كالرامي بلا سهم .. » .

اذن فالتوكل ، عمل ومثابرة ، واتباع اسباب .

لذلك قال الله في كتابه :

« ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » الانفال آية ٤٩ . اي ان التوكل يجري على خطة العزة والحكمة ، ولا يعرف الذلة ولا السفاهة .

وفي قراءة واعية للقرآن ، نلاحظ ان التوكل جاء في السلم والحرب « وان جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله .. » سورة الانفال آية ٦١ .

وجاء التوكل في بناء الانسان :

« ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير .. » اية ٤ الممتحنة .

وقال الله :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » آية ٢ الانفال .

وجاء التوكل في خلق القوة في النفس ، لمحاربة الشيطان .
« ... انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم .. يتوكلون .. » سورة النحل آية ٩٩ .

والقرآن يقول بصراحة :

«وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده » سورة الفرقان آية ٥٨ .

« قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » ٢٩ الملك .

« وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب » ٨٨ سورة هود .

« فعلى الله توكلت فاجمعوا امركم وشركائكم » ٧١ يونس .

فالتوكل حياة ، ورحمة ، وتوفيق ، واعداد في الالتحاق بجبهة الحق ضد العدو .

التوكل يعني اللجوء الكامل الى الله العزيز الحفيظ .

وجاء في وصية الامام علي عليه السلام لولده :

« اي بني .... والجا نفسك في امورك كلها الى الهك ، فانك تلجئها الى كهف حريز ومانع عزيز واخلص في المسألة لربك فان بيده العطاء والحرمان » .

آيات في التوكل :

١ — « فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » .
٢ — « الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .
٣ — « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ٣ الطلاق .
٤ — « واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .
٥ — « ان الحكم الا لله عليه توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون » .

ومن اجل ان تكتمل ظلال الصورة .. ينقل القرآن الكريم لنا — قصة

قصيرة في التوكل ، وهي من أروع ما تكون القصة ، وارفع ما يكـــــون التوكل !

ويفتح القرآن المشهد الاول ، في القصة التوكلية ، والتي حكاها عـــن النبي العظيم ابراهيم الخليل ، عليه السلام كالتالي :

« واذ قال ابراهيم ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهـــم وارزقهم من الثمرات .... » .

فهذا أب يترك زوجته ، مع طفلها الرضيع بالعراء ، على غـــير زرع ولا مـــاء !.

والتفتت هاجر ام اسماعيل ، الى زوجها ابراهيم الخليل تسأله :

« بأمرك ، يا ابراهيم هــذا الامــر ، ام هو من عند الله ؟..

قال : بل هو من عند الله ، ان الله امرني ان اتركــك انــت وطفلــك اسماعيل ، هنا بالعراء ، على غير ماء ولا زرع ...

فما كان منها الا ان قالت : اذن : فان الله لا يضيعنا !. » .

وظلت الام مع طفلها الصغير الذي لم يتجاوز الربيع الاول من عمره ، وسط البيداء الموحشة .

واشتد العطش بالام ، وبالطفل الرضيع !.

ولانها امرأة مرضع ، فقد جف اللبن في صدرها نتيجة انعدام المـــاء،

واخذ ابنها يتلوى صارخا من العطش .

وهنا تطلع علينا — هذه السيدة الطاهرة — بصورة رائعة للتوكــل الصادق ، الذي يهدف الى السعي والبناء مع الاعتماد على الله تعالى .

فهي كانت قد اعتمدت على الله في بقائها هنا ، في هذا المكان الخالــي من البشر ، — اضافة الى ان ابراهيم الخليل ، كان قد اخبرها بأن الله امره ان يتركها مع طفلها في العراء ويرحل عنهما .

وعلى هذا الاساس ، كان في امكانها ان تجلس الى جانب طفلها ، وتطالب الله بالماء ، فتقول : يا رب أنت امرتني بالبقاء ، فهيء لنا المـــاء .. ولكنها لم تفعل مثل ذلك ، ابدا . وانما تركت ولدها ، وراحت تبحث عـــن الماء ، لتعلمنا كيف نتوكل على الله ، في حياتنا .

وقفت على تل الصفا ، تسرح بنظرها في التلال والوهاد ، المجاورة لها ، في محاولة جادة للحصول على الماء .. غير انها باءت بعدم وجـــود الماء .. فركضت من الصفا الى المروة ، وراحت تدير طرفها ، في التــلال المبعثرة ، هنا وهناك ، مرة ، وتارة تقلب وجهها في السماء والالم يعتصــر قلبها على طفلها الظمآن .

وهكذا ، كررت الركضة والهرولة ، فتارة نحو الصفا وطورا الـــى المروة ، وعينيها شاخصتان الى ولدها الذي كان يتقلب تحت وقدة الهجير ، وفوق حرارة الرمضاء ، وقسوة العطش تكادان تهلكــه غـــير انها لم تجد ما يشير الى احتمال وجود الماء ..

واخيرا كرت راجعة الى الصفا ، ثم انحدرت مهرولة نحو المروة ، في ولهة ولوعة ، وقطعت في رحلتها هذه سبعة اشواط بين الصفا والمـــروة.

وهذا اكبر مجهود ، يمكن لامراة مثل هاجر ان تقوم به في تلك الاجواء .. ولما غرقت في التعب ، وتصببت الما عادت الى طفلها ، فوجدت الماء الفرات ، يتدفق من تحت قدميه الناعمتين ، — فراحت تحاصر الماء بجمع حفنات من التراب حوله . والفرحة تلمع في عينيها — . وهكذا شرب الطفل ، وكذلك شربت هي من الماء الفرات !.

وهنا يجدر بنا ان نتوقف قليلا عند هذه القصة ، لاخذ العبرة ، والاسوة .

لقد كان في امكان الله سبحانه ، ان يوجد لها الماء دون ان تركض سبعة اشواط .

هذا صحيح ، ولكن الله لو فعل ذلك ، لكان يدفع الناس نحو التواكل والتكاسل .

وكان في امكان الخالق سبحانه ، ان يوجد الماء لها ولطفلها ، خلال السعي ، وهي تقطع الاشواط السبعة ...

هذا صحيح ، ولكن الله لو فعل ذلك ، لكانت القضية مرتبطة بالسعي فقط ، وانما اراد الله سبحانه ، ان يبين لنا ، ويلفت انظارنا الى نقطة بالغة الاهمية ، وهي : انه قال لها : انت امنت بي ، وتوكلت علي وركضت، تفتشين عن الماء .. فأنا اعطيك الماء من تحت اقدام طفلك الرضيع ، لتعلمي انه ليس بالاسباب وحدها ، يحصل الانسان على الرزق ، وانما بالتوكل ايضا .

وهذه القصة تصور لنا معني التوكل ، ومحتوى التوكل ، وتعطينا بعدا اخر لمفهوم العبادة في الاسلام .. فهذا هو السعي بين الصفا والمروة، يرمز الى السعي والكدح في الحياة في سبيل البناء من اجل سعادة الانسان .

فالعبادة في الاسلام ، تهدف الى البناء المادي والمعنوي ..

وعندما نقرأ الفقه الاسلامي ، نكتشف ذلك بشكل واضح وجذاب .. ويظهر لنا جليا ان الاسلام هو دين الحياة ، الشامل لكل ابعادها فلا يترك صغيرة ولا كبيرة ، الا ويتدخل فيها ويوظفها في خدمة البناء الانساني .

واليكم بعض الامثلة الدقيقة :

الاسلام يقول ، بالنسبة لمعاملة اليتامى :

« وارزقوهم واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » .

تأملوا كلمة ارزقوهم ، اي وفروا لهم ارضاء واشباع الجانب المادي ، الجسدي ، وفي كلمة واكسوهم كذلك يبدو اشباع الرغبة المادية الجسدية . بشكل معقول ، ثم يقول وقولوا لهم قولا معروفا ..! وهذه الجملة في نظري ، تمثل قمة التقدمية في الاسلام ، وذلك لانها ترمز الى جانب نفسي عظيم ، وهو ارضاء ميولات اليتيم النفسية ، والمحافظة على توازنه الروحي ، بالتحدث معه ، ونقل القصة له ، ووضعه موضع الاحترام، والتقدير فالاية ، اشارات الى ارضاء الجانب المادي ، والجانب الروحي، في الطفل اليتيم ..

ويذكر التاريخ ، ان الامام علي عليه السلام عندما كان في صفين ، طلب ماءا ، فجاؤا له بالماء ، في قدح فلما نظر الامام ، في القدح ، قال لا اشرب الماء ! قالوا : ولم ؟ قال : لان القدح مفطور ، وفيه ترسبات جامدة في اسفله !..

ثم اندس في المعركة ، وبعد لحظات ، كان الامام يقلب وجهه في السماء ، وكانه يبحث عن شيء غائب في الافق البعيد .. فسأله عبد الله

بن عباس ، عن سبب تطلعه نحو السماء بهذا الوقت .

فقال الامام : اني انظر الى زوال الشمس كي نقيم الصلاة ،.! فتعجب ابن عباس ، وقال : سيدي وهنا وسط الحرب نصلي ، فقال الامام لا فرق بين المسجد والميدان .!

تأملوا هذه اللوحة الرائعة ، انها جمعت الصمة والقتال ، والمسجد في نسيج واحد فكلها في نظر الاسلام واحدة .

ونظرة واحدة ، على الفقه الاسلامي ، ترينا بوضوح ، ان الاسلام ، في واجباته ومستحباته ، وحلاله ، وحرامه ، دائما وابدا يتوخى الحقيقة التي تصب السعادة في صدور الناس ، وترش الضوء في دروبهم ..

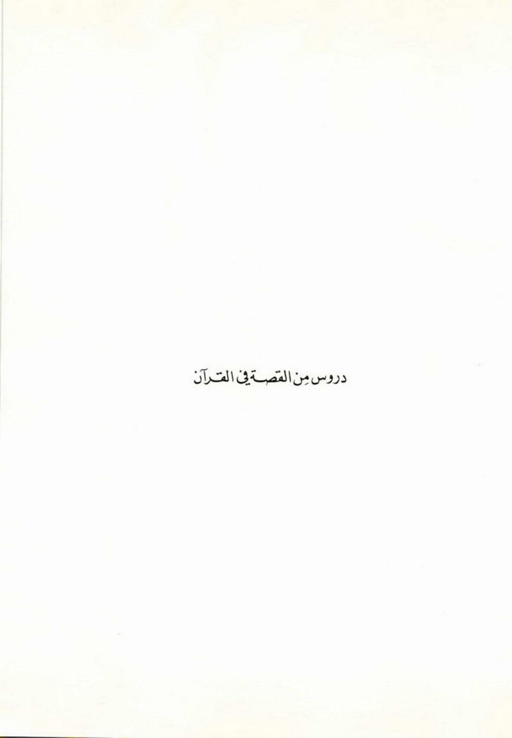
اذن : فالتوكل في الاسلام ، يعني اخذ الحياة بقوة ، والمسارعة في العمل ، والحزم البالغ في الامور كلها !.

لم يكن التوكل .. معناه التقاعس عن العمل ، والتخاذل في اداء الواجب ... وانما التوكل ، معناه الكدح ، والكفاح ، والمضي في الخط المستقيم الى نهاية الشوط .. من اجل البناء لحياة افضل ، وغد اجمل !

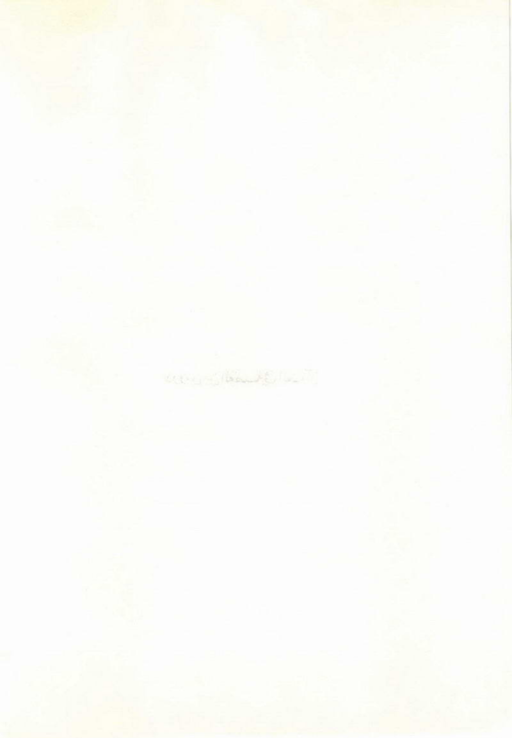
« فاذا عزمت فتوكل على الله .. » قرآن كريم .

فأولا العزم ، والحزم ، والسير على الطريق ثم التوكل على الله الحفيظ ثانيا !

واخيرا : التوكل يعني اتباع الاسباب في الحياة .. « ثم اتبع سببا » لان الدنيا حقل الاسباب .



دروس مِن القصة في القرآن



بسم الله الرحمن الرحيم

ان هذا لهو القصص الحق .

« لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب . »

للقصة وقع شديد في القلب ، لانها بضعة من فطرة الانسان، وهو يمتاز بأنه مولع بالقصة الى درجة كبيرة .

فالله زرع في داخل الانسان ، جوعا لسماع القصة ونلمح هذا الجوع من أيام الطفولة ، حيث يكون الطفل في أمس الحاجة لاشباع جوعه العميق للقصـــــة .!!.

وليس مثل القصة شيء ، يسيطر على قلب الطفل ، ويستولي عـــلى مشاعره ، ولذلك نرى الاطفال يلتفون حول جدتهم ، في شوق بالغ ، لسماع حكايات ايامها السالفة ، ومغامراتها التي كانت مضرب المثل في الشجاعــة والبطولة ، فهي تقص عليهم : كيف ضربت زوجها ليلة الزفاف ، وكيـــف ركضت وراء القطة السوداء التي سرقت اللحمة من القدر ، وهكذا .!

وغرام الانسان ، بالقصة ، يبقى ملازما له ، طول حياته .. حتـــى انك ترى ان سوق القصة ، اشد حركة وازدحاما من سوق عكاظ ..!

وها هم كتاب القصة في العالم .. يتربعون على قمة المجد ، والشهرة، وهم بعد ذلك موضع احترام الجميع .

وهذه ميزة امتاز بها الانسان ، دون سائر المخلوقات ، اذ انه يملـــك حبا لسماع القصة ، وشوقا لكتابتها — وما ذلك الا لان الانسان ، فطـر على القصة ، كما فطر على القلم والبيان .!

والقصة في القرآن ، لها اهداف وغايات ، تسعى من اجل تحقيقها، فهي لم تكن مجرد قصة جامدة ، لا هدف لها ، وانما تعطي للانسان ، نـــورا يمشي به في الناس !

ان القصة — في القرآن — احتوت مضامين علمية ، وعطاءا من اجود ما يكون ، على كل النواحي في الحياة .!

ولنأخذ ثلاث نماذج من القصة في القرآن ، ونبدا بقصة ابراهيم .. حتى نطلع على الجوانب الهامة ، التي تهدف اليها القصة !

قصة ابراهيم الخليل :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبني وبني ان نعبد الاصنام . »

كان ابراهيم ، وكان الظلام يلف الارض من اقصاها ، الى اقصاها، فلا مكان للايمان ، ابـــدا !.

انها لم تكن حياة طيبة ، بل كانت سجنا غارقا في ظلمات عبــــادة الطاغوت ، والشهوات !.

الشعب كان يعبد الاصنام ، ويركع امام الحاكم الظالم ، ويمرغ وجهه

وناصيته ، بتراب اقدام السلطان المتهتك الكافر .. !

اما العدالة ، فقد كانت مدفونة في تراب الاستبداد والاستهتار .. وايضا الرحمة ماتت منذ زمن بعيد !

فالطبقات الفقيرة ، يطحنها الحرمان ، وتطاردها سياط الجلادين ، على مدار الساعة !

وسط هذا الوضع المؤسف الخانق ، ووسط ذلك الطوفان البهيم، من الضياع والفساد ، وقف ابراهيم يقلب وجهه في ملكوت السموات والارض، في محاولة لاثارة دفائن العقول ، وتحريك القلوب الجامدة..

« واذ قال ابراهيم لابيه ازر ، اتتخذ اصناما الهة اني اراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض ، وليكون من الموقنين .. » .

ونزل ابراهيم الى المجتمع وراح يحرك الجماهير التي اصطفت في الليل ، في زرافات زرافات ، هذه تعبد الشمس ، وتلك تعبد القمر ، واخرون يعبدون الكواكب والنجوم ..

فكان يقف مع كل فرقة ، ثم يقول هذا ربي — مشيرا بيده — الى الكوكب الذي تعبده تلك الفرقة حتى اذا افل وغاب ، قال : اني لا احب الافلين ، وبهذه الطريقة استطاع ان يفجر اسئلة عريضة في صفوفهم ، وتمكن ان يزرع الشك في نفوسهم ، بالايمان بالالهة المزيفة ..

« فلما جن عليه الليل ، راى كوكبا قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الافلين .. فلما راى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم

يهدني ربي ، لاكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر ، فلما افلت قال يا قوم اني برىء مما تشركون .. اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض ، حنيفا وما انا من المشركين » (١) .

كان الليل مطبقا بالظلام عندما وقف ابراهيم يلتفت ذات اليمين، وذات الشمال ، في محاولة للعثور على احد يذكر الله ولو مرة واحدة !

انه في جوع عتيق لسماع مثل هذا الصوت الذي طال غيابه عنه .!

وتسارعت دقات قلبه ، عندما سمع رجلا يصيح : الله اكبر .. فرددها ابراهيم ، خلفه قائلا : قلها مرة ثانية ، وخذ نصف اموالي ! فصاح الرجل : الله اكبر .. فناداه ابراهيم ، وعيناه تلمعان بنشوة النصر : قلها .. قلها .. في الثالثة ، ولك كل ما املك ــ فقال : الله اكبر .. الله اكبر .. الله اكبر ..

وخرج ابراهيم من خيمته ، لعناق هذا الرجل المؤمن الوحيد في الارض .. فتوقف كمن صدمته حقيقة ، فقد ظهر له : ان الرجل المتكلم لم يكن سوى جبرئيل الامين !

وناضت عيناه من الدمع ، من خشية الله !

كان ابراهيم امة !

---

١ ــ سورة الانعام اية ٧٤ـ٧٩ .

وكان يريد ان يفجر امته هذه ، في المجتمع الذي ظل عاكفا على عبادة السلطان ، والاصنام !

ولكن كيف يتمكن من ذلك ؟!

واختار الطريق الاصعب في تفجير الموقف .

وبدا بتحطيم الاصنام ، قبل تحطيم السلطان .

وتعالوا ننظر ، كيف راحت الاصنام تتهاوى تحت قدميه ، تاركة وراءها الناس يموج بعضهم ببعض !.

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر : اتتخذ اصناما الهة اني اراك وقومك في ضلال مبين .. » (١) .

كان ازر بائع اصنام في البلد .. وكان ابراهيم (ع) يبيع الاصنام، لابيه ازر في السوق .. ولكن بطريقة لا تخلو من السخرية والاستهزاء .. فقد ذكر التاريخ : ان ابراهيم كان يأخذ الصنم فيضع الحبل في عنقه ويجره في السوق مقلوبا على وجهه .. مناديا عليه : ايها الناس من اراد منكم ان يشتري الها لا يفهم ولا يسمع ولا يعقل ، فليشتري هذا الاله الذي اجره بالحبل !.. فيغرق الناس بالضحك على هذا المنظر المثير .

وفي داخل معبد الشعب ، كانت الالهة تنتظم في صف طويل ، طويل ، وكان بين الالهة المصنوعة من الحجارة ، صنم كبير يقف في وسطهم ، وكأنه

---

١ ــ الانعام ٧٤ .

فيل هندي قد صعقه الحنوط .!

وكما جرت العادة ، فقد كان الناس يخرجون من بيوتهم ، خارج البلد، في يوم الزينة ، بحيث تخلو البلدة من المارة تماما الا من الطيور ، والدجاج !.

وهنا خلا الجو لابراهيم ، ووجدها فرصة ثمينة لا تفوت .. انها فرصته الوحيدة التي يستطيع فيها أن يضرب ضربته القاضية ..

وأسرع الى داخل المعبد ، يحطم الاصنام واحدا تلو الاخر ، باستثناء الكبير الذي علق الفأس في عنقه وتركه كما هو ، وخرج .. ولما رجعوا وجدوا حطام الالهة قد قطع الطريق في المعبد ، وراحوا يتساءلون في حرقة والم : « من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له : ابراهيم .. قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين » .

والان دعونا نستمع الى القرآن ، وهو يعرض امامنا هذه الملحمة المثيرة!

« ولقد آتينا ابراهيم رشده ، من قبل وكنا به عالمين .. اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون .. قالوا وجدنا ابائنا لها عابدين. .قال لقد كنتم انتم واباؤكم في ضلال مبين .. قالوا اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين .. قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن، وانا على ذلكم من الشاهدين .. وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين .. فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون .. قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بألهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم انكانوا ينطقون .. فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون .. ثم نكسوا على

رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .. قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم .. أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون .. قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم . وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين .. ».
الايات من سورة الانبياء من اية ٥١ــ٧٠ .

وهنا تأخذ القصة ، منعطفها الخطير .. فها هي النار قد ارتفعت اعمدتها في الافق ، والناس مجتمعين في زحام شديد ، والانفاس تكاد تتقطع ..!

كل العيون مشدودة على ابراهيم الخليل ، وهم يأخذون الاستعداد الكامل ، لالقاء ابراهيم وسط اللهيب المحرق .. كان وحده يقف ، ساعة تذفوه في النار .. فلم يكن معه احد ، الا الله الحفيظ العليم ..

وهنا يبدو الفارق واضحا ، بين قوة الخالق القادر ، وقوة العبد المسكين ..

القوة يتحكم بها الانسان ما دامت بيده ، اما اذا خرجت عنه ، فلا يقدر على التحكم بها ..

وبالمثل : انت تستطيع ان تتحكم بالرصاصة قبل اطلاقها ، اما اذا اطلقتها ، فقد خرجت من يدك .. فما دامت في يدك ، تكون قدرتك عليها وعلى توجيهها نحو اي هدف ..

وهل في امكانك ، اذا اطلقت الطلقة ، من (المدس) نحو الهدف، ان تحولها عن الهدف بمجرد الكلام والامر .!؟ كلا ..

ولكن الله سبحانه وتعالى ، يطلق الفعل ويتحكم به بعد اطلاقه .. فهو يقول للنار : « يا نار كوني بردا ، وسلاما على ابراهيم » .

ان الله أطلق الفعل في النار فجعلها محرقة . ولكنه تدخل وغير مجري الفعل .. فقال لها : كوني بردا ، وسلاما على ابراهيم ، ولو لم يقل وسلاما ، لمات ابراهيم من شدة البرد ..!

ولقد كان في امكان الله سبحانه ، ان يبعث ، سحابة ممطرة ، على النار فتطفئها ، وينجو ابراهيم من الاحراق ...

ولكن .. لا ..

فالله يريد ان يقول : ايها السلطان الجائر ، اجمع الحطب ، واشعل النار فيه ، وارمي ابراهيم في النار .. ومع ذلك ، فالنار لا تحرق ابراهيم.. لان النار تجري بأمري ، وليس بأمرك يا نمرود .

وهكذا فقد نجاه الله سبحانه ،من النار ..!

ولكن يكفي ذلك في استجابة الملك الظالم ، لمطالب ابراهيم المتمثلة في اعطاء الحقوق والحريات ، لمختلف ابناء الشعب المحروم ؟

ـــ : طبعا لا .

فطبيعة الخائنين الجلادين ، انهم كلما توغلوا في الغي ، والاجرام ، ازدادوا عزة بالاثم ، واخذتهم ، حمية الشيطان .. « .. فاذا قيل له اتقي الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ، وبئس المهاد .. » .

ولذلك فقد صاعد النمرود حملته ضد ابراهيم ، وضاعف مطاردته

لكلام ومبادىء ابراهيم الخليل .. حتى وصل الامر ، الى ان يجتمع ابراهيم بالنمرود ، في حفل حجاج ونقاش ، يكون فيه المنتصر زعيما على الامة ، والشعب .. وجرى الحوار التالي :

النمرود : فمن ربك يا ابراهيم .

ابراهيم : ربي الذي يحيي ويميت .

قال الملك الجبار : انا احيي واميت .. : وذلك بأن اطلق سراح رجلين قد حكم عليهما بالاعدام واقتل مكانهما اثنين من الابرياء .. وبهذا الفعل اكون قد احييت رجلين ، وامت رجلين ، فأنا احيي واميت ..!

ولان كلام النمرود هذا ، لا يخلو من عنصر الاستهزاء والسخرية .. فهو كلام لا يتقبل به حتى الاطفال الصغار .. فقد التفت ابراهيم الى نقطة من الحساسية بمكان وهي نقطة : ان الذي له حق التحكم بمصير الانسان انما هو الله وحده ، وليس غيره ..

لماذا ؟ لان الله الذي يأتي بالشمس من المشرق كل يوم ، ويدير الكون العملاق كله هو وحده الذي يملك الحق الكامل في السيطرة على العباد ..

قال : « ــ فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ... » .

وهنا ، سقطت اخر ورقة رابحة بيد النمرود .. المتكبر المتغطرس.. وذلك أن المسألة لا تحتمل المراوغة ، فهو في امكانه ان يقتل الابرياء، ويطلق سراح المجرمين ولكن هل بامكانه ان يعيد الشمس الى المغرب وقت الشروق ؟ كلا ، وكلا .

نطلع من كل ما جاء في قصة ابراهيم مع النمرود ، ان الانبياء لهم وظيفة خاصة ، وهي عزل الجماهير عن عبادة السلطان وتوجيههم الى عبادة رب السموات والارض ، وما تحت الثرى ..

ونستطيع ان نلخص وظائف الانبياء بما يأتي :

أ — كسر الاغلال والقيود ، واعطاء الحريات للناس في حياتهم .

ب — اقامة العدل بالقوة ، لينتعش الضعفاء ، ويحترق الظالمون .

ج — عزل الناس ، عن عبادة السلطان .

د — توجيه الناس الى الله ، وجعلهم عبيدا لله ، حتى يحسوا تيار الحرية يتدفق في داخلهم ..

وبعد ذلك ، فالانبياء كانوا — دائما — في صف المحرومين ، وفي صف الجياع المضطهدين . ولذلك كانت المصائب تنزل على رؤوسهم بلا انقطاع ..

اذن : فقصة ابراهيم ، تهدف الى خلق الروح الثورية في النفوس ، لمواجهة الحاكم الظالم . بتفجير طاقات الامة ، وتوظيفها في المعركة .

على ان عبادة الاصنام لم تقتصر على زمان دون زمان ، وانما هي تسري في الحاضر ، كما تسري في الماضي ، مع فارق واحد فقط ، وهو : ان الناس كانوا يعبدون الاصنام المنحوتة من الحجارة .. اما الان فقد تكون عبادة الاصنام من نوع اخر ، وهو : ان يعبد الانسان خيانة الاعين وخيانة السمع ، والقلب ..

فالعين الخائنة صنم .. والاذن الخائنة صنم ايضا ، والقلب الخائن صنم من طراز رفيع ، وهكذا ..

فعندما تسمع الغناء ، فانت تعبد صنم الغناء ، وعندما تلاحق اعراض الناس ، فانت تعبد صنم الشهوة ، وعندما تنظر الى نساء الاخرين ، كذلك تعبد العين الخائنة ، وهكذا وهكذا دواليك ..!

قصة مريم

وفي قصة مريم ، نلتقي بعدة اهداف ، وبألوان من المضامين العلمية ، والحقائق المدهشة التي لم يعرفها العلم الا حديثا ..

ولكي تتضح الصورة اكثر ، نبدأ القصة من اولها :

عمران وزوجته ، لم يكونا من الذين حالفهم الحظ باعطاء الذرية والولد .. وانما كانت زوجة عمران ، امراة عقيمة ، لا تلد ، ولا ترضع اضافة الى ان زوجها كان قد اصبح شيخا كبيرا ، ولكنها لم تقف على حافة اليأس ، وانما راحت تطلب من الله في دعائها ، وصلاتها ، بالحاح شديد، ان يرزقها ولدا .. وقد نذرت الولد ، بأن تجعله خادما في بيت المقدس ..!

وبالفعل .. فقد استجاب الله دعائها ، ودعاء زوجها .. فحملت بالجنين الذي طال انتظارها له .. ولا يمر يوم على حملها ، الا والفرحة تتسع في عينيها .. والسعادة ، تصبغ وجهها ..

وحدثت الفاجعة في اثناء حملها .. عندما مات زوجها عمران ، فتركها وحيدة ، فريدة .

ولكن لا بأس . فهي تريد ان ترى الولد الذي سيأتي ليخفف عنها الامها .. وهي تراه يقوم بواجباته الدينية في بيت المقدس .. الذي يعتبر مهبط الانبياء ، ومحط الرحال لعامة الناس .

ولكن الذي حدث ، كسر كل احلامها ، واحرق كل التوقعات التي كانت قد بنت عليها امالها ..

فها هو يوم الوضع ، بدأ يقترب ، والولادة على الابواب .. وانتظرت بفارغ الصبر .. واذا بها تضع انثى مكان الولد الذي نذرته لله فقالت والاسى يعتصر قلبها : « قالت ربي اني وضعتها انثى.. » وانما قالت ذلك ، لانها لا تدري كيف يتم الوفاء بالنذر ، اذا كان المولود انثى وليس ذكرا .. فالذكر يستطيع ان يقوم بالعمل داخل المسجد الاقصى .. في حين ان الانثى لا تستطيع ان تقوم بنفس العمل وبنفس الطريقة .. لهذا قالت : « ربي اني وضعتها انثى .. والله اعلم بما وضعت .. وليس الذكر كالانثى .. » فالله سبحانه يعلم بما وضعت ويدري انها انثى ، بدليل ان الذكر يختلف عن الانثى اختلافا جذريا .. وليس الذكر كالانثى (وهنا تجدر الملاحظة الى الجانب العلمي في هذه الآية) فهي تقول « وليس الذكر كالانثى .. » وبالفعل فقد اثبت العلم الحديث ان اكثر من ماة فرق جسدي ونفسي وفكري ، يفصل بين الرجل والمراة ، الامر الذي جعل الدعوة للمساواة بين الرجال والنساء ، تتعثر وتصاب بصداع دائم في الراس !. ثم قالت : واني سميتها مريم .. !

ولكن بعد الولادة ، ماتت امها ــ فظلت مريم طفلة يتيمة ، فقدت حنان الام وعطف الاب فتكفلها زكريا ... !

وزكريا النبي سلام الله عليه ، هو زوج خالة مريم ولذلك ، فقد قام برعايتها الى اخر لحظة .. واما ما ينسب الى رعاية يوسف النجار لمريم.. فلا يعدو عن كونه جزءا من الحملات اليهودية التي توجه ضد الانبياء، وضد النساء الطاهرات ، كما هي عادة اليهود في كل مكان ..

والا فالقرآن صريح ، يقول : فتكفلها زكريا .. كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ...

فالقرآن يؤكد كفالة زكريا لها .. في حين تقرأ بعض الكتب التي تؤكد كفالة يوسف النجار لها ، وهذا خلاف القرآن ، والتاريخ الصحيح .

ووفاءا بالنذر ، فقد كانت مريم تعيش في بيت المقدس ، ولكن بطريقة معينة ، فقد هيئوا لها غرفة في اعلى المسجد ، وكانت هناك في الحجرة ، تعبد الله وتقدسه ، بحيث يكون النذر قد سقط عنها ، وتكون هي مقبلة على عبادة الله .

وهذه الحجرة هي التي اطلق عليها القرآن ، اسم المحراب .. باعتبار انها في داخل المسجد ، وباعتبار ان السيدة مريم ، قد اتخذت منها محرابا لصلاتها ودعائها .

وهنا في هذا المكان بالذات ، كانت الملائكة تخاطبها : « يا مريم ان الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك ، واسجدي واركعي مع الراكعين .. » وهنا ايضا ، كانت موائد الطعام تنزل عليها تباعا .. حتى ان النبي زكريا استغرب ، وتعجب وقال لها في سؤال لا يخلو من التواضع :

« يا مريم انى لك هذا ..؟ قالت هو من عند الله .. » ولم تكن المرة الاولى والاخيرة ، وانما يبدو من القرآن ، ان المائدة كانت تنزل على مريم بشكل مستمر ودون انقطاع ، بدليل سير الاية الكريمة :

« كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا ، قالت : هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب» .

وذات يوم ، كانت تغتسل ، وبينما هي تلبس ثيابها اذ لاح لها شاب جميل يقف امامها .. فارتعدت اعضائها ، وخافت منه ، وقالت : « اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .. » اي اذا كنت تخشى الله ، فاصرف وجهك عني .. ولم يكن ذلك الشاب سوى الامين جبرئيل ، ارسله الله اليها .. ليهبها غلاما زكيا : « واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا اليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا . قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ، قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا ، قال كذلك ، قال ربك هو علي هين ، ولنجعله اية للناس ، ورحمة منا ، وكان امرا مقضيا .. » .

وبمجرد ان قال لها الامين جبرئيل « وكان امرا مقضيا » ، احست بالجنين يتحرك في احشائها ، فخرجت هائمة على وجهها لا تدري الى اين تذهب ، وكانت في أشد حالات الخوف والفزع . والسبب في ذلك ، يرجع الى انها تعرف اليهود وتعرف استعداداتهم ، وقدرتهم ، لتوظيف هذا الحدث ، في ضرب مريم ، ونشر الشائعات حولها .. وهي البتول الطاهرة..

وانطوت لها الارض — باذن الله — فوصلت الى صحراء كربلاء بالعراق .. فوقفت وحدها بالعراء تلتفت يمينا وشمالا — لعلها تجد امراة تساعدها على ثقل الطلق ، وآلام الولادة ، غير انها لم تجد هناك سوى جذع نخلة يابسة ، فالتجأت الى الجذع وجاءها المخاض ، بكل تحولاته النفسية ، فتمنت الموت وفضلته على الحياة .

« فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ، يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ... » فناداها من تحتها ان لا تحزني قد جعل ربك تحت سريا .. وهزي اليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطبا جنيا .. فكلي واشربي ، وقري عينا .. فاما ترين من البشر احدا فقولي اني نذرت للرحمن

صوما فلن اكلم اليوم انسيا .. » .

وهنا حدثت المعجزة .. فبينما هي في غمرة الاسى ، والحزن .. واذا بالطفل يتكلم مع امه بعد ولادته بلحظات معدودة ..!

فناداها من تحتها .. اي بعد الولادة ، ولحظة قدومه للحياة .. قائلا : الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .. » .

والسري ، يعني النهر الجاري ، وبالفعل فقد نظرت مريم ، واذا بنهر يجري في قلب الصحراء ، فراتا باردا ..!

« وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » .

ومجرد ان هزت النخلة ، تساقطت رطبا جنيا عليها .. فكلي واشربي .. كلي من الرطب واشربي من الماء .. فأما ترين من البشر احدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا ..!

وفي القصة ، ملاحظات علمية ، تستحق الوقوف :

اولا : كانت مريم تعاني من مشكلتين قاسيتين هما :

مشكلة الضعف الجسدي ، الذي الم بها اثر الجوع والعطش .. ومشكلة الخوف والقلق النفسي . وهما : مشكلة جسدية ، واخرى نفسية .. وهنا نجد القرآن ، قد قدم العلاج الكامل لهما .

العلاج في الجسم .. تم باحضار الرطب ، وتوفير الماء .. فقامت اغتسلت بالماء ، واكلت من الرطب وشربت من الماء ايضا .. فشعرت بالراحة الجسيمة ..

اما الحالة النفسية التي صاحبت الولادة ، فكانت الخوف ، والقلق.. وقد قدم القرآن علاجها ايضا ، عندما قال الطفل لامه : فاما ترين من البشر احدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم انسيا :

اي ، يا امي اتركي القضية علي ، فأنا اتكفل بها .. ولا تشغلي بالك بالاهتمام بها .. لا من قريب ،ولا من بعيد ..

والسؤال الان هو : ما علاقة الرطب بالولادة ..؟

وبكلمة ادق : ما علاقة اكل الرطب ، وتناوله ، في ساعة الولادة ... ولماذا قال الله : وهزي اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي ؟

لا شك ان الرطب له تأثير كبير على عملية الولادة وما يصاحبها من مضاعفات .

وهذه حقيقة علمية لم يتوصل اليها العلم الا مؤخرا .. فقد اثبت العلم الحديث بالارقام : ان اكل الرطب ، يساعد على تسهيل الولادة ، وازالة الضعف الذي يأخذ المراة ، ساعة الولادة ، اضف الى ذلك ان في الرطب مادة تساعد على تقلصات عضلات الرحم ، بشدة ودفع الجنين الى الخارج، بسهولة .. وفيه مواد اخرى ايضا ، تساعد على منع النزيف الدموي الذي يصاحب الولادة ، في الاكثر والاغلب الى عشرات الفوائد التي اكتشفها العلم الحديث مؤخرا ، وكلها اثبتت ان للتمر خاصية سحرية على اخراج الجنين من بطن امه ، بسلام ، ورحمة ..

والاحاديث التي وردت عن النبي الاكرم ، واهل بيته الكرام ، في خصوص التأكيد على تناول الرطب للمراة الحامل ، لهي احاديث كثيرة جدا .. حتى انك تسمع ان اكل النبي كان في اغلب الاوقات من الاسودين

ــ كما تقول عائشة ــ الماء والتمر .. وينصح الاطباء بتناول التمر لــلاولاد الذين يعانون من اصفرار الوجه ، وارتجاف اليدين ...

وانما ذكرنا ذلك ، كشاهد على ان القصة في القرآن ، ليست للتسلية، وانما لعرض الحقائق العلمية ، واعطاء الدروس والعبر ، للجيل الجديد .

مَن هُم أولوا الأمر ؟!

يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين .

القرآن ، في هذه الاية يعطي منهجا عمليا ، لحياة الانسان ، في الارض ..

والمنهج يتألف من التقوى ، مضافا ، الى الالتحاق بركاب الصادقين ، فالتقوى تعني الرفض لكل احكام الانسان الجائرة ، والعودة الى احكام الله العادلة .

التقوى ، ان تتقي كل عمل يؤدي الى خيانة رسالة الانسان ، وهضم حقوقه ، وحرقها في العراء .

التقوى ان تبتعد عن ساحات الظالمين ، وتقترب من رحاب الله العظيم .. وهذا الامر لا يتحقق الا بالرفض الكامل ، لكل الطغاة ، وكل قوانينهم ، وتعني الالتفاف بشوق بالغ ، حول كل الانبياء ، وحول كل رسالاتهم .

ولمعرفة من هم الصادقون ، تجدر الاشارة الى ان الذي يكذب ولو مرة واحدة ، في حياته ، لا يسمى صادقا .. فقد تقرر في الاصول ، ان القاتل حتى ولو دفع دية القتيل ، فانه لا يسمى بريئا ، وانما يبقى قاتلا اسميا .. اي ان اسم القتل لا ينتزع عنه .. وعلى هذا الاساس ، فان الذي كذب

مرة في حياته ، كمن قتل مرة في حياته ، فهذا كاذب ، وذاك قاتل .. هكـذا يقول علماء الاصـول ..

اذا عرفنا ذلك .. نأتي الى الاية ، وهي تقول : « يا أيها الذيـن آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين » . فالذي يبدو من مناخ الايـة ان الصادقين هم الانبياء والائمة ، وليس غيرهم ، لان هؤلاء معصومون عن الخطأ ، ولا يقترفون جريمة الكذب ، فلذلك جاء في القـرآن ، انهـم صادقون ..!

اذن : فالصادقون هم الائمة سلام الله عليهم .. والايات كثيرة جداً، في هذا المجـال ..

ويكفي أن نعرف ، ما تقوله الاية التالية :

« يا أيها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم».

لكي تتضح الصورة اكثر لا بد من طرح السؤال التالي :

من هم أولو الامر ؟

ان اطاعة الله ، ملازمة لاطاعة الرسول ، وكذلك اطاعة الرسـول لا تفارق اطاعة الله ، فهما رافدان متعانقان ، في سبيكة واحدة ، لا تنفصل، ابدا ... وهذه قضية معروفة لا تحتاج الى الكثير من الادلة والشواهد.. وانما نحن بصدد قوله تعالى « .. واولي الامر منكم .. » .

فمن هم اولوا الامر .. الذين اوجب الله علينا طاعتهم وقرنها ، بطاعة الله ، وطاعة الرسول ..؟

وهنا لا بد من ذكر ما جاء في التفسير والتاريخ من اراء مختلفة حول

اولي الامـــــر ..!..

فالبعض ذكر ان المراد بأولي الامر ، هم الامراء الذين حكموا البــلاد الاسلامية ، منذ عهد الراشدين والى اليوم ..

وهذا راي خاطىء ، على ما يبدو !.

وذلك ، انه : لو كان المقصود ، بأولي الامر كل الامراء .. لكـــــان يجب ان يدخل في عدادهم معاوية وابنه يزيد ..! ولا اعتقد ان واحدا من المسلمين ، يقبل بدخول يزيد في طاعة الله وطاعة الرسول !.

وهل يأمرنا القرآن ان نطيع مجموعة ، من القتلة ، والسفاكين ، وقطاع الطـــــرق ؟

لا اظن ذلك ابدا ..

اما البعض الاخر ، فيرى ان المراد من قوله تعالى : واولـــــي الامر منكم .. : هم المذاهب الاسلامية وهذا الراي ، خاطىء كأخيه مـــن قبل .. وذلك ان الاية امرت بطاعة اولي الامر ، اي كل اولي الامـــــر ، وليس واحدا دون الاخر ... واذا كان الامر كذلك .. فان الطاعة الموحدة، لا تتحقق في المذاهب ، لانها مختلفة في الاراء ، والاجتهادات ، فالحنفي يقول رأيا ، ويخالفه الشافعي والمالكي ، وهكذا .. فان الاية لا تنطبق عليهـــم لتضارب اقوالهم في الاستنباطات الشرعية ..!

اما اذا اخذنا الاية ، وطبقناها على اهل البيت عليهم السلام .. فانها تأتي منسجمة معهم بتمام معنى الكلمة ... وخصوصا ، اذا عرفنا ان الائمة الاثني عشر عليهم افضل الصلاة والسلام .. كلامهم ، واحد لا خلاف فيـــه،

ابدا ، فليس هناك من يقول ، قال الامام علي ، وخالفه الباقر ، او قال الصادق وخالفه الرضا .. وانما كلامهم واعمالهم ، سلسلة متكاملة الحلقات ، لا ترى فيها عوجا ولا امتا .

وكما يقول الشاعر :

« قل لمن حجنا بقول سوانا حيث فيه لم يأتنا بدليل .

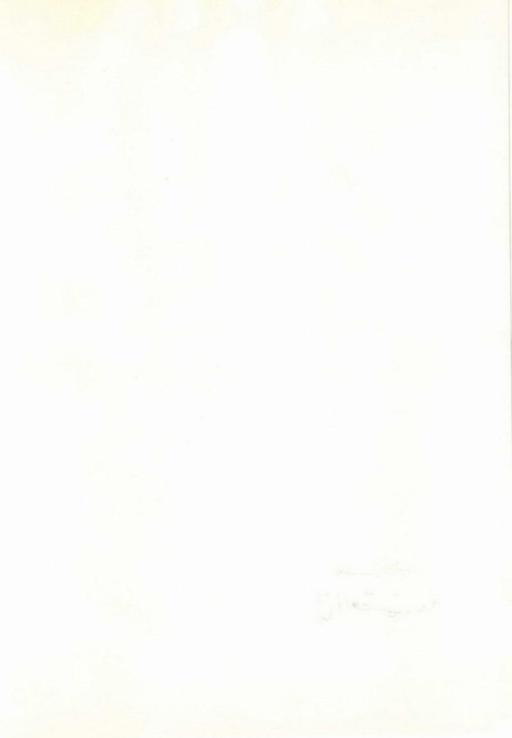
نحن قوم اذا روينا حديثا بعد ايات محكم التنزيل :
عن ابينا عن جدنا ذي المعالي سيد المرسلين عن جبرئيل
وكذا قال جبرئيل عن الله ، بلا شبهة ولا تأويل .

اذن ، فالاية تشير الى اهل البيت ، بقولها ، واولي الامر منكم ...

وفي حديث اخر باذن الله ، سوف نتطرق الى مكانة أهل البيت في القرآن ، وانهم الطرف المعادل للقرآن ، في حديث الثقلين الذي ذكرته السنة والشيعة في مختلف الطرق والاسانيد .

الفصل الخامس

في العقيدة



بسم الله الرحمن الرحيم

« .. ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون » .

قرآن كريـــم

لاخذ صورة مستوعبة للموضوع ، لا بد من ذكر المقدمة التالية :

هناك قوانين ثابتة في بطن الكون ، راسخة في اعماقه ، لا تتحـــول، ولا تتبدل بمقدار شعرة واحدة !.

فهي قوانين تلف الكون في حزام دقيق من النظام الذي لا يحيد عـــن الطريق قيد انملة ، اخذا من الذرة ، والخلية ، والشجرة ، وانتهـــاءا بالمطر ، والزرع ، والطيور ، والنجوم الغارقة في عمق الفضـــاء واحضان الطبيعة !.

وقد اشار القرآن الكريم الى تلك القوانين في ايتين وهما :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا » « ولن تجد لسنة الله تحويلا .. » .

وتلك القوانين تتمثل في الفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات ، والقواعد الكلية ، في الفلسفة ، والمنطق !.

ففي الفيزياء — مثلا — قواعد ، وقوانين ثابتة ، ترفض التغيير والتحول ، مثل : قانون الفعل ورد الفعل .

« لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ، ويعاكسه في الاتجاه » .

وقانون :

« الطاقة الكامنة في الذرة ، تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء » .

وقانون :

« القوة (السرعة) تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا ، فكلما زادت القوة (السرعة) قل الزمن » .

وقانون الطفو :

« كل جسم يغمر في سائل يتلقى قوة دفع من الاسفل الى الاعلى تساوي الحجم المغمور في السائل » .

وكذلك قوانين انشتين في الفيزياء العددية ، والعلمية ، وقوانين نيوتن في الجاذبة ، وقانون سرعة الضوء وانكساره !.

وكما في الفيزياء ، كذلك في الكيمياء ، والهندسة ونفس الشيء في الرياضيات . . فالذي ينطبق على الفيزياء والكيمياء ، ينطبق — تماما — على الرياضيات ! وهي قوانين لا خلاف في صحتها ، والاعتراف بها ، بين الناس كافة . فالكل يؤمن بهذه القوانين ، وذلك : لانها قوانين مادية ، تجري في

الكون ، مثل الدم في العروق ، فلا خلاف في الايمان بها ... انما الخلاف يقع في المسائل المعنوية ، والقضايا الروحية ، والفكرية .!

ففي الوقت الذي يتفق فيه ، كافة البشر على الايمان العميق بكل الامور المادية ، نراهم يختلفون — تماما — في المسائل الغيبية ، والقضايا الروحية والفكرية !!.

والسبب واضح ، وهو : ان القضايا الروحية ، والمعنوية تنطلق من القلب ، والقلب منطقة حرة ، لا تلتزم بالقوانين الكونية الثابتة ، وانما تلتزم بارادة الانسان وحده !.

من أجل هذا ، كان الانسان حرا ، في اختيار العقيدة « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي .. » .

اذن : حصيلة الكلام : ان الاختلاف يقع — عادة بين الناس — في المسائل المعنوية ، وليس في المادية !

فلا توجد هناك ، كيمياء امريكية ، وكيمياء روسية ، ولا فيزياء امريكية ، وفيزياء روسية !.

وليس هناك ، رياضيات امريكية راسمالية ، ورياضيات روسية شيوعية ... وانما هي كيمياء واحدة ، ورياضيات واحدة ... وذلك لانها سنن وقوانين كونية ثابتة ، ليس في الامكان تحويلها ، ولا تبديلها .. « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

ومن باب المثال : ان القوانين الكونية التي انطلقت وفقها السفن الفضائية الامريكية ، هي نفسها التي انطلقت عليها ، السفن الفضائية الروسية .. اذ ليس في الامكان الخروج عليها .. فالروس ليس في

استطاعتهم أن يخالفوا هذه القوانين لمجرد ان امريكا ركبتها في الفضاء ، كما يفعلون — مثلا — في القوانين الاقتصادية ، وفي العقيدة !.

فعلى الرغم من أن الامريكان ، والروس ، يختلفون في العقائد والافكار ، اختلافا جذريا ، الا انهم يتفقون في السير على القوانين الكونية، اتفاقا عميقا .. وذلك لان مجرد التمرد ، والخروج على السنن الكونية، يعني التحطم الكامل ، والوقوع في الهاوية !.

فلا تقول موسكو : لاننا شيوعيون ملحدون ... يجب علينا ان نطبق الفيزياء الشيوعية ، والكيمياء الشيوعية والرياضيات الشيوعية ، كما نطبق الاقتصاد الشيوعي ، — مثلا — ونعتقد بالعقيدة الشيوعية !.

لا .. ابدا ، فليس في مقدور احد ان يقول مثل هذا القول !

لماذا ؟

لان الاقتصاد مثل العقيدة ، لا يرتبط بقوانين ثابتة غير قابلة للتحويل ، وانما يتعلق بالقوانين الفكرية والامور المعنوية ، التي تتحول بين لحظة واخرى ، من اقصى اليمين الى اقصى اليسار .. في حين ان الكيمياء ، والفيزياء ، والرياضيات ، وعلم الاحياء ، كلها مشدودة ، بظهر الكون ، ومحزومة بحزام الانظمة الدقيقة التي تطوق عنق السموات والارض !!.

ففي علم الفلسفة ، والمنطق ، كليات ، وجزئيات ، والكليات لا تتغير ، بينما الجزئيات قابلة للتغيير ! فمثلا :

في المنطق قواعد كلية :

« الكل اكبر من الجزء » و

« اجتماع الضدين محال» و

« التناقض محال » وكذلك القواعد الرياضية تعتبر كليات : مثل :

١ + ١ = ٢ و ٢ × ٢ = ٤ ، وكما في الرياضيات النظرية ، والمنطق كذلك في القواعد الكونية فالضوء يسير بسرعة (١٨٦) الف ميل في الثانية، الواحـــدة !.

اذن : ظهر واضحا ، ان الاختلاف بين الناس ، يقع في الجانب الفكري العقائدي ، ولا يقع في الجانب المادي الكوني .

واذا عرفنا ذلك . عرفنا السبب المباشر في عدم ، الايمان بالله بالنسبة للملحدين ، والكفار !.

السبب هو : ان الملحدين آمنوا بالقوانين المادية الكونية ، لا لانهم احبوها من قلوبهم ، وانما لانها فرضت نفسها جبرا عليهم !. ووجـدوا انفسهم عاجزين عن مخالفتها ، فآمنوا بها ، وغرقوا في الاخلاص لها !.

والا .. فأي انسان يجرؤ على مخالفة قانون الجاذبة ، فيلقي بنفسه، من اعلى ناطحة للسحاب ، الى الارض دون ان يتهشم عظمه ولحمــه ، ويتحول الى كومة عجين حمراء قانية ؟!.

واي انسان يجرؤ على مخالفة قانون الاحتراق في النار ، فيتربع فـي النار دون أن ينضج جلده ؟!.

ومن يستطيع ان يخالف قانون الاختناق في الماء ، فيرمي بنفســه

في البحر ، ويلتحف الامواج في الاعماق ، دون أن تزهق روحه في دقائق، معدودة ؟!.

وهل في الامكان ان يضرب الناس ، عن استنشاق الهواء ، مدة خمس دقائق ؟!

كلا ، والف كلا ..

انها قوانين غرسها الله سبحانه ، في طينة الطبيعة وسنن زرعها في قلب الكون ، وهي تجري بالخلق في دقة وحساب ، ومستحيل ان يخالفها الانسان بمقدار شعرة ، او قيد انملة !!.

ومن ثنايا هذه المقدمة ، يطلع علينا سؤال يقول :

« ما هو الدليل على وجود الله ؟!.» .

انه النظام الذي يحرك الكون كله ، ولا احسن من النظام دليلا على وجود الله سبحانه وتعالى ..

وذلك : لان النظام يدل على المنظم الحكيم . . والفوضى لا تلد النظام ، والصدفة لا تعطي النظام ... لان الصدفة تعني اللانظام ، فكيف يولد النظام من اللانظام — والقاعدة العلمية تقول : « فاقد الشيء لا يعطيه»

ومعنى هذه القاعدة : انه اذا كنت لا تملك الا درهما واحدا فهل في امكانك ان تعطي دينارا بدل الدرهم ؟

بالطبع لا .

واذا كانت السلة التي في يدك ، مليئة بالحجارة ، والحصى ، فهل في استطاعتك ان توزع تفاحا ، ورمانا من السلة نفسها ؟!..

ايضا ، لا ..

ومن باب المثال : ليس في امكان البدوي الذي يجري خلف جماله في الصحراء ، ان يشرح لنا النظرية النسبية ، بقواعدها الفيزياوية ، وأبعادها الاربعة العلمية ، وذلك لان البدوي ، لا يعرف ذلك ، ثم هو فاقد للعلم، فلا يعطيه .

اذن ! فالنظام الذي يمسك السموات والارض ان تزولا ، ويشد الجبال ، ويحتضن البحار ، هذا النظام هو وحده الذي يدخل الايمان في قلوبنا ، ويزرع اليقين في صدورنا ، وينزل السكينة على نفوسنا — فنؤمن بالله العلي العظيم ، ونزداد هدى ، ونؤتى تقوانا !.

الخلية :

والان تعالوا معي في رحلة حول عالم الخلايا ، حتى تتجسد امامنا عظمة الخالق الحكيم !.

معروف ان الخلية ، هي الخامة الاساسية في بناء الاحياء الثلاثة .. النبات .. الحيوان .. الانسان ..

والخلية مصدر الحياة ، وسرها ، ومنبع العطاء ، وصهريج النمو والتكاثر الحيوي !

ومن عجيب صنع الله سبحانه ، ان الخلية تبدأ رحلتها في رحم الام ، بعد ان تكون نفسها من بويضة المراة ، ونطفة الرجل .. (نصفها من

نطفة الرجل ، والنصف الاخر من بويضة المراة ..) فهي خلية واحدة ، تبدا حياتها في داخل الرحم في نظام منقطع النظير !

وهاكم اقرءوا هذا التقرير العلمي :

« ان الخلايا هي وحدة الاساس للانسجة التي تتكون منها اعضاؤنا ، وهذه الخلايا تتوالد وتتكاثر لتعطي خلايا جديدة ، يحتاجها الجسم كلما فقد خلايا قديمة ، بحيث يحافظ على المعدل الطبيعي للخلايا وهو : مليار خلية لكل غرام واحد في جسمنا ! .. وعندما يحصل الجسم على الخلايا الضرورية ، تتوقف هذه عن التكاثر — لسبب لا يزال مجهولا — وكأن جهازا معلوماتيا يتحكم في عمل الخلية ..! وقد يحدث ذات يوم ، ان يتعطل هذا الجهاز المعلوماتي في احدى الخلايا ، فتتكاثر بشكل غوغائي ، وتشكل انتفاخا يدعى : « التورم الخبيث (١) ! » .

« وقف العالم الطبيعي — مورسون — ليوجه نداءا الى الماديين يدعوهم فيه ، الى دراسة الخلية ، لان الخلية هي السبب المباشر في هدايته ، وايمانه بالله العليم العزيز » .

وقال مورسون :

« ايها الماديون ، هل صحيح انكم تؤمنون بالصدفة ؟. واذا كنتم كذلك، فاجيبوني : كيف انتظمت فصائل واجزاء هذا العالم ، في نظام دقيق لا تفلت من قبضته ذرة واحدة ؟!.

واضاف يقول :

---

(١) مجلة الحوادث العدد ١١٧٣ .

« خذوا جسم الانسان ، فانكم ستجدون ، فيه من الخلايا بعدد عشرة ملايين مليار خلية ، وهذا هو العدد المتوسط للخلايا ، في جسم شـــاب في مقتبــل العمــر !.

ولكن هل تدرون كم هذا العدد ؟!

لا واللــــه !.

اذهبوا الى البيت وحاولوا أن تعدوه ! ولكن في استطاعتكم حســاب اعضاء هذا الموكب الخلوي العملاق .. ؟ ! .

لا اعتقد .. اللهم الا اذا وجد انسان يستطيع ان يعد من الواحد الى المئة ، في غضون ، ثانية واحدة .

اذا وجد مثل هذا الانسان ، فانه لكي يحسب خلايا الجسم كلهـا ، يحتاج الى ثلاثمائة الف سنة من الوقت حتى يتمكن من عد كل خلايا الجسم !

ولو فكرت في : انه كيف استطاعت هذه الخلايا ان تنظم امرها ، في مجاميع ، وفصائل ، كل يعمل على شاكلته ؟! لو فكرت في ذلك ، لوقفت على العجب العجاب ولاحسست بدفقة الايمــــان تجري في داخلك ساخنة دافئـــــة .

انها قدرة الله سبحانه ، التي تتجلى في آياته الكونية ، ومخلوقاتـــه كلهــــا .

الغدد المعامل الضخمة :

ان ارقى ما انتجته الحضارة — اليوم — هو العقل الالكتروني والعقل

الالكتروني هذا ، يذوب خجلا امام غدة واحدة ، من الغدد التي تعمل في داخـل الجسم !.

فالغدة — احيانا — تقوم بانتاج اكثر من عشرين نوعا من الهرمونات!.

ويقول العلماء : اذا اردنا ان نوجد معملا يقــوم بنفس العمل الفسلجي للغدة ، فانه يكون معملا من الضخامة بحيث يشغل مساحة من الارض قطرها مليون ميل مربع بالاضافة ، الى انه لا يمكنه القيام بعمل الغدة مئة في المئة !.

ونظرة فاحصة في النظام الفسلجي ، والبيلوجي في الجسم ، تكشف لنا عن قدرة الخالق الحكيم الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تحشرون .. بحيث اكبر العقول الالكترونية العملاقة ، تتصاغر امام عمل خلية واحدة في الجسم ، او غــدة واحــدة !.

ويا لروعة ما قاله الامام الحسين — عليه افضل الصلاة وازكــى السلام — في دعـاء عرفــة :

« عميت عين لا تراك ، فمتى غبت حتى تحتاج الى دليل .. » .

اجل .. فالله سبحانه ، ليس غائبا عن العباد ، وانما هو اقــرب الينا من الدم في مجرى عروقنا :

« .. لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبـل الوريـد .. » .

« .. وهـو معكـم اينما كنتـم .. » .

العــــدد :

بات العدد يحكم العالم كله ، حتى صار له فرع خاص ، في الفيزياء ، اسمه : الفيزياء العددية !.

العدد في كل شيء ، في الجسم ، في الدورة الدموية ، في العناصـر الكيماوية ، في الحرارة ، في الهواء في الماء ، في النجوم ومواقعهـا ، في الطيور وآفاتها وبالتالي ، فالعدد يتحكم في الذرة ، وفي المجرة !.

ومن باب المثال : الدم في الجسم ، يجري وفق اعداد دقيقة في الكريات الحمراء ، والكريات البيضاء .

والعدد يدخل في المحافظة على نسبة الصوديــوم .. والكالسيوم .. والفسفور ، والحديد ، وبقية العناصر الكيماوية ، في جسم الانسان !.

وكذلك : فالعدد ينظم الحرارة داخل الجسم ، بحيث يجعلها في المعدل الطبيعي ، وهو : ٣٧بالمئة درجة ، ولو زادت او نقصت فالمرض والبلاء !

وايضا يدخل العدد ، في الحفاظ على نسبة الاوكسجين في الهواء ، وهي نسبة معروفة في الفيزياء ٢١ بالمئة درجة ، دون زيادة ولا نقصان .. فلو زادت نسبة الاوكسجين الى ثلاثين بدل الواحد والعشرين ، فان عودا واحدا من الثقاب ، يكفي لاشعال مدينة كاملة ! ولو نقصت النسبة ، لتوقفت الحياة ، وجمد التناسل والتكاثر ..!

والعدد ياخذ بناصية المجرات الكوكبية العملاقة والمجاميع الشمسية الضخمة الجبارة ، ومن باب المثال ، نأخذ نظرة من مجموعتنا الشمسيــة هــــذه :

ولو اقترب القمر ــ قليلا ــ من الارض ، لصار سببا في تشقق قشرة لسببت تجليد الارض بالثلــوج .

ولو اقترب القمر ــ قليلا ــ من الارض ، لصار سببا في تشقف قشرة الارض ، وتطاير الغلاف الغازي ولاثر على عملية المد والجزر في البحــار ، ولغمرت المياه اغلب الارض اليابسة ، اضف الى ذلك ان اقتراب القمر او ابتعاده ، يخلق اضرارا مادية ومعنوية ، في حياة الانسان ، على الارض !.

ونفس الشيء في بقية الكواكب والنجوم ..

« فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم .. » اجل انه يحتاج الى العلم والدراسة .

« .. والسماء رفعها ووضع الميزان .. » .

انه ميزان الحق ، ميزان العدل ، انه ميزان العدد ، الذي لا تخرج من كفتيه ، لا ذرة ، ولا اصغر منها ولا اكبر ..

انه الحساب الدقيق ، الذي يجري على سكته الكون العملاق ..

« ... الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان .. » .

وما يقال في الكواكب ، والنجوم ، يقال في الاشجار والنبات .. فهذه شجرة البرتقال — مثلا — من اجل ان تحافظ على نوعها ، تأخذ من الارض العناصر الكيماوية عن طريق الجذور ، وشجرة البرتقال هذه ، تسحب : من التراب عناصرها ، من الفسفور ، والجير ، والكبريت والكالسيوم ، وفق نظام سلسلة الاحماض الامينية ، وهي تقوم بأخطر عملية كيماوية ، حسب هـذا القانـون !.

وذلك لان ، شجرة البرتقال ، لو اخطأت في اخذ المقادير ، فانها لم تعد تعطي برتقالا ، وانما فاكهة اخرى !.. وكذلك بقية الاشجار ..

والسؤال هو : كيف استطاعت هذه الشجرة ان تمتص العناصر اللازمة لبقائها ، دون ان تقع في الخطأ ..؟! فالشجرة لا تستطيع ان تحافظ على حياتها الا اذا سارت على نظام العدد ، وحافظت على قواعد الاعداد في سلسلة الاحماض الامينية لان ورائها خالقا حكيما ، يسيرها نحو النظام والعطاء الا وهو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى ..

خذوا عشر اوراق ، ورقموها ، من واحد الى عشرة ، ثم اخلطوها ، واسحبوا واحد بعد الاخر .. فكم مرة من السحب نحتاج ، لكي يطلع الرقم الاول ، والثاني ، والثالث ، بالتسلسل ؟!

وكم مرة من السحب ، نحتاج حتى تطلع الارقام من واحد الى عشرة في سحبـــات متتاليـــة ؟!

انه المحال الرياضي ، كما يقول علماء الرياضيات العالية .! وذلك : لانه مستحيل ان تحصل على الارقام العشرة متتالية عن طريق الصدفة !

من كل ما تقدم . ندرك مهزلة الصدفة ، وانها لا مكان لها فـــي الوجــــود ، وقد ذكر العلماء : انهم ما اكتشفوا جزءا صغيرا ، من اجزاء الكون الا ووجدوه خاضعا لادق الانظمة ، والقوانين !

فالنظام مضافا الى الفطرة ، يؤدي الى الايمان الكامل بالله العلـــي العظيـــم ..!

الفطـــرة :.

لناخذ الفطرة .. « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلـــق اللـــه .. » .

فالطفل ــ فطريا ــ يعتقد بقانون العلية ، ويعتقد انه لكل مصنوع صانع ، وان لكل سبب مسببا ، فاذا انقطع التيار الكهربائي فجاة ، فان الطفل يسال امه واباه ، لماذا انقطع التيار الكهربائي ؟!.

واذا سمع صوتا ، يسال عن مصدر ذلك الصوت وكذلك عندما يجد قشور الفاكهة في البيت ، فانه يدرك على الفور ، بأن اهله كانوا قد اكلوا

الفاكهة هذا اليوم !. وهذه كلها قوانين العلة والمعلول ، ولدت معه ، فهي مزروعة في طينته الفطرية .

عندما يسافر ابوه ، يسال : لماذا سافر ابي ، والى اين سافر ؟!.

وهذه الكلمة (لماذا) هي رصيد الانسان ، وسر تفوقه في الحياة ، فالحيوانات لا تملك ، ان تسال لماذا انقطع التيار الكهربائي ، ولماذا هطل المطر ، ولماذا حدث هذا ، ووقع ذاك ..

ابـــدا ..

لماذا .. ان كلمة الاستفهام هذه خاصة بالانسان وحده ، دون سائـــر الموجـــودات !.

والحضارة التي نشاهدها ، اليوم ، هي البنت المدللة لكلمة (لماذا) .. فلا تطور تكنلوجي ولا اكتشافات ، ولا اختراعات ، من دون (لماذا) ولولا كلمة — لماذا — لما اشرقت الارض بنور العلم ، والتطور !.

فالكل يعرف : ان اسحق نيوتن — بفضل لماذا — استطاع ان يكتشف قانون الجاذبة ، وبقية القوانين الاخرى .. كان نائما تحـــت شجـــرة تفاح ، وقصته معروفة ، فسقطت تفاحة فوق راسه ، فأخذها ، وتساءل : لماذا سقطت التفاحة الى الاسفل ، ولم تسقط الى الاعلى ، او الى اليسار او الـــى اليمـــين ؟!.

وهذا السؤال ، يعتبر ساذجا ، بالنسبة للناس العاديين ، ولكنـــه سؤال علمي منطقي ، في نظر العلم وبصيرة العلماء . وهكذا استطاع نيوتن ، ان يكتشف — لنا — قوانين الجاذبية ، ويبني النظريات ، الفيزياوية عليها ، بفضل كلمـــة (لماذا) .

المهـــم :

ان كل اثر يدل على المؤثر ، وهذه ، حقيقة مزروعة في اعماقنا لا يختلف فيها اثنان .. فالبدوي يعرفها ، والجامعي يؤمن بها !.

سالوا امراة عجوزا ، كانت تدير دولابا للغزل فقالوا لها : ما هــو الدليل علــى وجــود الله ؟!.

فقالت : دولابي هذا ، ان حركته تحرك ، وان امسكت عنه توقف .. واذاكانت حركة الدولاب تدل على المحرك ، فما بالكم بحركة هذا الكــون العظيم الا تدل على الله العزيز العليم ؟!.

ولما سالوا الاعرابي ، بنفس الصدد ، اجابهم :

البعرة تدل على البعير ، والاثر يدل على المسير .. افسماء ذات ابراج، وارض ذات افجاج ، الا يدلان على اللطيف الخبير !.

واقول لكم : ان نظرة واحدة يلقيها الانسان ، على ملايين النجـــوم المعلقة في الفضاء ، وكأنها تبدو كما لو كانت جزرا جميلة متناثرة في المحيط . نظرة واحدة نلقيها على ما في الكون من مخلوقات وآيات تكفي لاعطائنا الف دليل ودليل ، على وجود الله .

فلولا الله الخالق الحكيم ، كيف كان يمكن ان تسبح ملايين المجـرات الكوكبية في الفضاء الرحب دون ان تصطدم ، ودون ان تخرج من مواقعها ؟!

« تبعد ارضنا التي نعيش عليها عن الشمس ــ التـــي تبلغ درجة الحرارة على سطحها ١٢ الف درجة (فهرنهيت) بمقدار يبلغ ٩٢ مليونا ونصف مليون ميل ، وتبعد عن القمر بمقدار ٢٤٠ الف ميل ، وهذه الابعـاد

هي التي تكفي لتهيئة البيئة الصالحة للحياة ، بالصورة التي نعرفها على الارض ... وتدور الارض على محورها بسرعة الف ميل في الساعة ، اي بما يعادل مرة كل اربع وعشرين ساعة ، ولو قل معدل دورانها عن ذلك ، لطال النهار بما قد يؤثر في النبات والاحياء صيفا . وطال الليل بما قد تتجمد بسببه السوائل ، وبذلك تقل مسببات الحياة ، والتي لو زادت لانعدمت شيئا فشيئا ، واذا زاد سمك قشرة الارض عما عليه قليلا ، لنقص الاوكسجين ، وقلت فرص الحياة ، فاذا فرضنا « ان سمك القشرة الارضية زاد بمقدار عشرة اقدام ، لانعدمت بانعدام الاوكسجين مقومات الحياة ، هذا الاوكسجين الذي اذا زاد زيادة طفيفة ، لسبب فناء العالم ، بما يسببه من اختلال في كثافة الهواء ... فتتهاوى الكواكب والاجرام ! » (١) .

« والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » . قرآن كريم ٥١ — ٤٧ .

يقول العالم بليفن في كتابه (العلم ينظر الى السماء) .

« ان الكون ارحب واعظم مما كنا نتخيله ، وان الاجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بعيدا بسرعة مخيفة » .

« ان الكون بنجومه المختلفة الاحجام التي لا حصر لها ، والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيلها ، حتى يدركه البهر وتنقطع انفاسه (٢) » .

ويقرر العلم ان سرعة الضوء هي ١٨٦٠٠٠ الف ميل في الثانية الواحدة ، ومن النجوم ما ترسل ضوئها فيصل الينا في دقائق ، ومنها ما يصل الينا في

---

(١) كتاب الله والعلم الحديث ص ٢١ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٣ .

شهور ، وهناك نجوم ارسلت ضوئها — وامكن معرفة ذلك بأجهزة خاصة — من ملايين السنين ولم يصل الينا ، ضوئها بعد ؟!.

ولمعرفة سعة الكون ، يكفي ان تعلم ان العلماء اكتشفوا — قبل عدة اشهر — نجما يبعد عنا ، مسافة مليار سنة ضوئية !.

فكم بذلك يبلغ اتساع هذا الكون العملاق ؟!

« قل انظروا ماذا في السموات والارض ، وما تغني الايات والنذر عن قو مٍلا يؤمنون » قرآن كريم ١٠ — ١٠١ .

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج .. » قرآن كريم ٥٠ — ٦ .

قال العلامة سينكا : « لا يستطيع الواحد منا أن يرفع بصره نحو السموات العلى ، الا ويغضي اجلالا ووقارا — وتأخذه الخشية من الله — اذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها في افلاكها ، وتنقلها في ابراجها .. وكل نجم واي كوكب ، وكل سديم واي سيار انما هو دنيا قائمة بذاتها ، اكبر من الارض وما فيها وما عليها وما حولها » ! .

واذا عرفنا ان اقرب نجمة الى المجموعة الشمسية ، تبعد عنا ، مسيرة اربع سنوات ضوئية !.. وللتقريب يقول العلماء : اذا ركبنا طائرة بسرعة ضعفي الصوت ، قاصدين الى اقرب كوكب منا ، فانه يلزمنا ان تسير بنا الطائرة ستة ملايين من السنين ، دون توقف ، حتى نصل الى اقرب كوكب للمجموعة الشمسية !.

اقول : اذا عرفنا ذلك ، عرفنا العظمة ، الهائلة التي ينطوي عليها الكون العملاق ، وهذه كلها ادلة تأخذ بأعناقنا الى رحاب الله ، والى الايمان

بالله سبحانه ، والخوف من معصيته ، والتشوق الى طاعته ، والذوبان في الاخلاص لــه .

قال الامام الصادق عليه السلام ، لاسحق بن عمار : « يا ابن عمار ، خف الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، فان زعمت انه لا يراك فقد كفرت ، وان قلت انه يراك ، ومع ذلك برزت له بالمعصية ، فقد ، جعلته من اهون الناظرين اليك .. » .

دخل رجل على الامام علي بن موسى الرضا ــ عليه افضل الصــلاة والسلام ــ وسأله : ما الدليل على وجود الله ؟ !

فاجابه الامام :

« انت لم تكن ثم كنت ، وقد علمت انك لم تكون نفسك ، ولا كونك من هو مثلك ..! ثم تابع الامام الرضا يقول : اني لما نظرت الى جسدي ، ولم يمكنني فيه زيادة ، ولا نقصان ــ في العرض ، والطول ، ودفع المكاره عنه ، علمت ان لهذا البنيان ، بانيا ، بناه فأقررت به مع ما ارى من دوران الفلك بقدرته ، وانشاء السحاب ، وتصريف الرياح ومجرى الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وغير ذلك ، من الايات العجيبات المبينات علمت ان لهذا مقــدرا منشئــــا ــ » .

يقول القــرآن الكريــــم :

« ان في خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلــك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ، والسحــاب

المسخر بين السماء والارض ، لايات لقوم يعقلون (١) » .

اراد احد العلماء ان يكتب رسالة في وجود الله ، فقالت له زوجته : افي الله شك فاطر السموات والارض . وكانت زوجته هذه ، امرأة من معادن الفضل والايمان ، فلما سمع كلامها وكيف قرات له الاية المباركة : « افي الله شك فاطر السموات والارض » بكى من خشية الله ، وانصرف عن كتابة الرسالة .

ولذلك يقول القرآن في ايجاز شديد :

« ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون » .

والخطاب صريح ، وواضح .. فانت موجود تأكل الطعام وتمشي في الاسواق ، فمن الذي اوجدك واعطاك الحياة .. ؟ ! .

ولانه منذ فجر التاريخ الانساني ، والى يومنا هذا ، لم يأت احد فيدعي انه هو الذي خلق الانسان .

ولانه لم نسمع بأحد قال ، ولو مجرد ادعاء ، بأنه يتمكن ان يخلق الانسان ، وما جاء احد وادعى ان في استطاعته ان يخلق حتى ذبابة واحدة .

اقول : لان ذلك لم يحدث ، فقد ثبت بالعقل والعلم والمنطق ، ان الخالق لهذا الكون ، وللطبيعة والانسان ، هو الله القادر الحكيم .

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .

هو الله لا اله الا هو ، الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى .

« ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله .. » .

وهكذا تلوح لنا آيات الله سبحانه ، في الافاق وفي انفسنا ، وفي كل ما يدور حول الانسان وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد .

في رحاب الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ

خمس دقائق مع الامام الصادق — عليه السلام — في مدرسته العلمية :

يقول الامـــام في حديـــث علمـــي دقيق :

« وجدت علم الناس كله في اربع :

واحد : ان تعرف ربــك !

اثنين : ان تعــرف ما صنــع بــك !

ثلاثة .. ان تعرف ما اراد منك !

اربعه : ان تعرف ما يخرجــك عن دينك » .

والان تعالــوا نمشي في ظلال الحديث ، خطوة ، خطوة .. حتــى نأخذ صورة حية ، عن علاقة الانسان بالله سبحانه وتعالى !.

الفطرة تدل علــى معرفــة الله :

الاول : « ان تعرف ربك .. »

اجل .. فأول الدين معرفة الله !.

لقد زرع **الله** — سبحانه — في داخل الأنسان بذور الفطرة .. وهذه البذور تأخذ الانسان بقوة ، الى معرفة الله تعالى .. والايمان به ، فقــد جاء في الحديث الشريف انه : « كل مولود يولد على الفطرة ... » .

والفطرة التي تولد مع الانسان ، تخلق في اعماقه احساســـــا عنيفا

بوجود الله العزيز العليم ــ وهي بعد ذلك ــ تشده شدا وثيقا ، الى الايمان بالله ، و البقاء في رحابه الهانئة الخالدة !.

قانون العلـــة :

ان الانسان يشعر ــ تلقائيا ــ بحاجة السبب الى المسبب ، وحاجة المصنوع الى الصانع .. وحاجة الاثر الى المؤثر !.

فالطفل ــ مثلا ــ يعرف ــ بالفطرة ــ قانون العلة والمعلول ، ويبدو ذلك واضحا من خلال اسئلة الطفل الكثيرة ، حول ما يدور في حياته مــن اشياء .. فهو يسأل امه عن سبب انقطاع التيار الكهربائي ، ويسأل اباه عن الخياط الذي خاط ملابسه : من هو ؟!.

واكثر الكلمات تكرارا على شفتيه هي : كلمة (لماذا) ؟ !

لماذا صار هذا ؟ ولماذا حدث ذلك ؟ ولماذا ضربني ابي ، ولماذا احبتني امي ، ولماذا هطل المطر .. والى اخر القائمة !.

ولماذا الاستفهامية هذه ، تدل على ان الانسان يشعر بجوع عميــق ، عميق الى معرفــة الله سبحانه !.

وذلك : لان تعطشـه القاتل ، الى ان يعرف المسبب الاصلي لكــل الاسباب ، والمحرك الاول ، لكل حركة في الكون يجعله متطلعا ــ ابدا ــ الى الخالق الحكيم .. لان الله هو الذي فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان ارضه !

الحضارة بنــت لمــــاذا !.

وبفضل (لماذا) هذه تمكن الانسان ان يثير الارض ، ويبني الحضارة، ويغزو الفضاء ، ويغتصب الطبيعة !

واكرر القول مؤكدا انه : « لو لم يقل نيوتن : لماذا سقطت التفاحة فوق راسي ، لما استطاع ان يهز العالم بمهد علومه الرياضية ، ونظرياته العالية في الفيزياء والجاذبة ، والطاقة » .

وكلما فكرت في كلمة (لماذا) ادركت انها أم الحضارة ، وبواسطتها أستطاع الانسان ان يصل الى ارفع المستويات ، ويتربع على القمة ، في التطور المادي — طبعا — !.

الساعة والطبيعة :

قال انشتين : « ان ساعتي اليدوية هذه ، اكبر دليل على وجود الله .. وذلك لانها تسير ضمن ابعاد مجزءة ، وموزعة على الزمن ، مثلها في ذلك مثل الطبيعة التي لا تجري الا ضمن ابعاد مجزءة على الزمان والمكان . وكما ان الساعة اليدوية ، لا بد لها من صانع صنعها ، او مخترع اخترعها .. كذلك الطبيعة لا بد لها من مبدع قدير ، ابتدعها بقدرته ، وانشأها بحكمته ، وهو الخالق العظيم .. » .

ونفس الشيء بالنسبة للبدوي الذي يركض وراء جماله في الصحراء . فعندما سالوه : كيف عرفت الله ؟ اعطاهم دليلا استله من قلب الصحراء ، كما مر ذلك ، في الصفحات السابقة !.

ومن محاسن الفطرة ، انها تظل تهز اعماق الواحد منا ، بعواصف الايمان ، سواء كان ذلك ، الواحد انشتين ، او كان بدويا لا يقرأ ولا يكتب !.

النظـــام المهيمـــن :

من البداهة بمكان ، ان تعرف : ان الكون كله ، يسير في دقة ونظام .. وان هذا النظام يهيمن على الكون كله ، ويأخذ بعنـــق الطبيعة ، ويلف خاصرتها بحيث لا تسقط ذرة ، ولا تصعد اخرى الا بحساب دقيق .. ولا تموت خلية ، ولا تحيا خلية ثانية الا بحساب اكثر دقة !.. الامـــر الذي جعل العلماء الطبيعيـــين يؤكـــدون :

« ان الطبيعة تجري ضمن معادلات رياضية عالية ، ليس في الامكان تصور دقتهـــا !. » .

يقـــول القـــرآن الكريـــم :

« والسماء رفعها ووضع الميزان .. » .

اي ميزان عظيم هذا الذي لا تفلت منه ورقة ولا حبة ؟! لا شك انـــه ميزان غاية في الاتقان .

« .. وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين .. » قرآن كريم .

ان في النظام الذي يحكم الكون ، اكبر دليل على وجود الله الخالـــق الحكيم ، والا فماذا وراء هذا النظام الدقيق الذي اعجز العلم الحديـــث ، وحـــير العلمـــاء ؟!.

هـــل وراءه الصدفـــة ؟!

ومـــا هـــي الصدفـــة ؟!

ان الصدفة تعني اللانظام ، فكيف يخرج النظام من اللانظام ، والقاعدة العلمية في المنطق تقول : « .. فاقد الشيء لا يعطيه » !.

فالصدفة العمياء ، لا تعطي النظام المتقن الرائع .. وللتوضيح خذوا المثـــال التـــالـــي :

الخلية هي اصل البناء ، في عالم الاحياء ، فالخلية الواحدة تتناسل وتتكاثر ، لتعطي خلايا جديدة شابة ، مكان الخلايا القديمة الهرمة ! وذلك ، ان الجسم البشري ، يحرق اكثر من عشرة ملايين خلية ، في الدقيقة الواحدة ، لنحل محلها خلايا حية جديدة حسب حاجة الجسم للخلايا ، ومعـــــروف لتحل محلها خلايـــا حية جديدة حسب حاجة الجسم للخلايـــا ، ومعروف وعندما يحصل الجسم على الخلايا الضرورية ، تتوقف هذه الخلايا عن العمل لسبب لا يزال مجهولا — حتى هذه اللحظة — وكأن هناك ، جهازا معلوماتيا، يتحكم في سير الخلية ، وعملها ! ..

ولولا هذا العقل الالي الذي يقبع داخل الخليـــــة ، لتكاثرت الخلايا بطوفان خلوي غوغائي ، يؤدي الى اضطراب الجسم ، وموت الانسان في ايام معدودات ! فأين الصدفة من هذا النظام البديع .. ؟.

اجـــــل ..

انه النظام الذي يشد قلبك الى الله العلي القدير ..

« يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة ، او فـــي السموات او في الارض ، يأتي بها الله ، ان الله لطيف خبير .. » قـــرآن كريـــــم .

سألوا غاندي : اين الله ؟! قال : هو في قلبي .

التفكير طريق الى الايمان بالله :

في القرآن الكريم ، دعوة صريحة الى اعمال الفكر في ما اودع الله سبحانه في هذا الكون من كائنات حية ، ومخلوقات عملاقة ، حتى جعل التفكر صفة ملازمة للمؤمنين .

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا فقنا عذاب النار » . قرآن كريم .

وايضا يقول القرآن : « قل انظروا ماذا في السموات والارض .. » .

ان نظرة واحدة على السماء ، وما فيها من نجوم وكواكب واقمار ، تكفي للايمان بأن وراء هذا الكون ، العملاق ، الها خالقا ، حكيما ، حيا ، قيوما .

فالعلم يزداد قناعة يوما بعد يوم ، بأن الله سبحانه « هو الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى » .

يقول احد العلماء في حقل الفيزياء :

« اني رأيت الله في الذرة ينظمها ويسيرها » .

وعالم اخر يقول :

« مهما تقدم العلم فانه لا يستطيع ان يغترف من المعرفة باسرار الكون ، الا بمقدار قطرة بالنسبة للبحر .. » وهذه الكلمة تذكرني بالاية المباركة :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » . سورة الكهف آية ١٠٩ .

ويؤكد العلماء في تصريحاتهم حول دراسة الطبيعة ، انه : من المستحيل معرفة ابعاد هذا الكون الفسيح ، وذلك لانه يجري في اتساع مستمر ، فبين الحين ، والحين ، تولد آلاف النجوم في احضان الفضاء ، وكلها تتحرك في مواقعها العظيمة ، على بعد يقدر بالاف الملايين من السنين الضوئية ، دون ان يحدث تصادم بينها !.

« لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » قرآن كريم .

« ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ... » قرآن كريم ٢٢ — ٦٥ .

الكون ، كما يراه الانسان

الكل يجري بحسبان منقطع النظير !.. اخذا من الذرة ، والخلية ، والنبات ، ومرورا بالجسم الانساني ، والاحياء كافة .. وانتهاءا بالشمس والارض ، والنجوم ، والقمر ... فلا شيء يخرج على سنة الله ، ونظامه ، — من الذرة ، الى المجرة .

ولكي تكون الصورة ، اكثر وضوحا ، دعوني انقل لكم صورة حية ، اخذتها من احد الافلام العلمية ، التي شاهدتها ، في غضون اقامتي في الولايات المتحدة الامريكية — من اجل التبليغ الاسلامي عام ١٩٧٨ :

الصورة الكاملة للفيلم :

في مكتبة واشنطن الشهيرة ، كانت هناك قاعة كبيرة للعرض السينمائي للافلام العلمية !.

دخلت القاعة مع ثلة من الشباب المؤمن .. لمشاهدة فيلم علمي تتجلى فيه عظمة الله سبحانه ، من خلال آياته ، ومخلوقاته الرائعة .

على ان الفيلم عرض بطريقة فنية ، تستقطب العجب ، وتشد القلوب اليها ، بحيث تشعر — وانت في القاعة ، تتابع المشاهد الكونية ، ومناظر الطبيعة بشوق بالغ — اقول ، تشعر كما لو كنت في سفينة فضائية ترتحل بك في الافاق الغارقة في البعد !

هكذا ، بالضبط ترى نفسك ، وانت مشدود الى الفيلم ، فهو يرتحل في اعماق الطبيعة ، وانت ترتحل معه ايضا .. وهنا يكمن التفوق الفني في طريقة العرض !.

العرض السينمائي للفيلم :

يبدأ العرض بصورة رجل نائم فوق السرير الاخضر في الغرفة الحمراء، في داره الواقعة في احدى القرى النائمة ، على صدر احد الجبال ، في ولاية كاليفورنيا !. ثم يأخذ الفيلم في الصعود اكثر فأكثر حتى يخيل اليك وكأنك تتسلق سلم السماء ، فقد خرجت عدسة التصوير من الغرفة ، ثم من الدار ، والقرية ، ثم من الولاية ..

وهكذا راح يرتفع في السماء ، حتى بدت لنا ولاية كاليفورنيا ، وكأنها

ابريق فضة يلمع في اشعة الشمس ثم يرتفع الفيلم في الافق خارج المجال الجوي للارض .. فتبدو الارض ، وكأنها كرة معلقة في الهواء ، تدور حول نفسها ، والقمر يرقص حولها في نظام دقيق !.

ويدخل الفيلم في النظام الشمسي للمجموعة الشمسية فتلوح الكواكب الضخمة ، والنجوم العملاقة وهي تسبح في افلاكها فهذا هو المريخ اقرب الكواكب الى الارض . — بعد القمر طبعا — يتحرك في شموخ وكبرياء ، وذلكم كوكب الزهرة الذي اصابته ، الحمى فبلغت درجة الحرارة فيه حوالي ٥٠٠ درجة مئوية كما ان سرعة الرياح على سطحه تبلغ حوالي (٧٠٠) كيلومتر في الساعة ، وانعدام وجود الماء على سطحه يحير العلماء، ولكن رصد الكوكب ما زال جاريا ، وتم اكتشاف وادي ضخم في المدة الاخيرة ، على سطحه ، بواسطة المركبة الفضائية ، بايونير ١٢ و ١٣ — هكذا كان المسؤول السياحي ، يعلق على الفيلم في هدوء . — ثم تابع ، يقول : هذا عطارد امامكم ، وهو أقرب الكواكب الى الشمس ، وارضه عجاف لا حياة فيها .. أما المشتري — والكلام ما زال للمعلق — الذي يعتبر من اكبر الكواكب في المجموعة الشمسية فقد مرت في أجوائه « بايونير ١٠» و « بايونير ١١ » خلال الاعوام ١٩٧٣ — و ١٩٧٤ ، والتقطت له هذه الصورة التي نعرضها عليكم ، انها صورة العواصف التي تشبه الاعاصير على سطحه ، ثم لاحظوا اعمدة البرق كيف تنزلق على صفحة هذا الكوكب ...!

والان ، نحن على مقربة من محيط كوكب ساتورن « زحل » الذي يعد بعد المشتري ، من اكبر الكواكب في مجموعتنا الشمسية ، ويبلغ حجمه عشرة اضعاف الكرة الارضية ولكنه يتميز بكثافته الضئيلة ، حتى لو وضع في محيط مائي لطفا فوق سطح الماء ، وتشير المطالعات الاولية للصور ، التي تقطع حوالي ثلاثة الاف مليون كيلومتر لتصل الى الارض ، أن الكوكب تغلفه ، الغيوم النشادرية (مؤلفة من نايتروجين وهايدروجين — كما تشاهدونها امامكم — الان في الفيلم .!.) .

وهنا سكت المعلق ، واخذت الصور الكونية ، تتلاحق على حائـــط العرضـــــــس .

انه العجـب العجــاب !!.

فكل الكواكب والاقمار ، تدور في مواقعها ، وتسبح في افلاكها ، كمـا تسبح الكرة في الهواء ، والسمكة في الماء ! .

وها نحن اخذنا نقترب من الشمس رويدا رويدا ، وقد تصاعـــدت دقات قلوبنا حيث انتصبت الشمس امام اعيننا ، كتلة عملاقة ملتهبــة ، تتصاعد منها أعمدة البراكين والحمم ، والنار مسافة الاف الامتار عمق الفضاء

ثم عاد المعلق العلمي على الرحلة ليقول : اما الان ، فسنخرج من المجموعة الشمسية ، في رحلة استطلاعية ضمن مجرة درب التبانة — ودرب التبانة هي المجرة الكبيرة العملاقة التي تقع المجموعة الشمسية في اسفل نقطة منها !!.

ودخلنا درب التبانة ، وراحت السفينة بنا في اعماق الكون ملايين السنـين الضوئية « هكذا كان كل واحد من المشاهدين يشعر وهو يتابع الفيلم » !!.

وكنا ننظر الى النجوم ، كما ينظر الواحد منا الى شريط النخيل ، وهو يمر عليه بالقطار السريع .!!.

وقال المعلق العلمي : ان هذه النجوم المتراقصة امامكم في الصـورة ، تبعد عشرة الاف مليون سنة ، ضوئية عن الارض !!.

العـــودة الـى الارض :

وبدأ الفيلم يعود بنا الى امنا الارض ، وكانت نفس المناظر تتكـــرر امامنا حتى اقتربنا من النظام الشمسي في المجموعة ، ودخلنا فيها ، وهـا نحن نقترب من الارض شيئا فشيئا !

فالارض بدت لنا ، رمانة كبيرة غارقة في حمرة الخجل من المريـــخ! بينما راح القمر يدور حولها في حراسة حازمة ، ثم اقتحمنا المجال الجـــوي للارض ، وها هي الولايات اخذت تلوح لنا في الافق ، وتتضح اكثر فأكثـر ، افريقيا ، واسيا ، الصين ، وبريطانيا والسوفيت وامريكا هكـذا كانت الدول تتألق على وهج الشمس وزرقة البحر ومرت لحظات كنا بعدها ، قد دخلنا اجواء ولاية كاليفورنيا .. واقتربنا ، واقتربنا ، واقتربنا حتـى ظهر الجبل الاخضر ، مشرقا ، زاهيا بثوبه الربيعي الجميل ، وكأنه يلوح لنا بتحية سلامة العودة .

حتى اذا وصلنا القرية الصغيرة ، الغافية على صدر الجبل ، ودخلنا البيت ، وجدنا الرجل ، ما زال نائما على سريره الاخضر ..!.

وهنا طلب ــ المعلق ــ منا جميعا ، ان نكون على اهبة الاستعـداد للالتحاق في رحلة استطلاعية ، داخل جسم هذا الانسان النائم لنـــرى عجيب صنع الله سبحانه وتعالى .

وقبل الدخول في الجسم الانساني ، سلطوا الاضواء العلمية ، عـلى طبقة الجلد ، وما يلتصق فيه من كائنات عجيبة .

الشعر ، وما ادراك ما الشعر ..!

كل شعرة بدت وكأنها جهاز علمي دقيق ، لانها تقوم بعمليات ، يعجز عنها اكبر الاجهزة الحديثة !.

ثم هناك الطبقة الشمعية فوق الجلد ، تقيه هجمات العدو المكروبي، بالاضافة الى طبقات البكتريا المختلفة ، الفصائل ، والمزروعة في الجلد، من اجل الدفاع الكامل ، ضد الامراض الجلدية وغيرها ! .

وكم كانت المفاجأة عظيمة عندما دخلت عدسة (الكاميرا) داخل الجسم ، لتشاهد الكريات الحمراء تحمل الغذاء لكل الخلايا ، وهي تمشي في الدم على شكل قوافل تسحر العيون ، وتستولي على القلوب ، في حين ان الكريات البيض تدافع عن الكريات الحمر ، في جيش دفاع من اروع ما يكون ، في اجمل تنظيم ، وادق تشكيل !.

اما الخلايا : فيذوب الانسان خشوعا لله سبحانه ، عندما ينظر اليها ..!

انها الخلايا ، وما ادراك ما الخلايا .

فهي تسير على شكل مجاميع ، وفصائل ولكل خلية فضاء تدور فيه، وفلك تسبح فيه .

انها تدور في افلاكها ، كما تدور الكواكب والنجوم في مواقعها ..

وكلما كثرت الصور ، ظهرت العجائب !

واذا نفس الدورة التي في النجوم ، هي نفسها في الخلايا داخل الجسم البشري ، ونفس الدورة والحركة الكوكبية ، موجودة في حركة الكريات الحمراء ، والكريات البيضاء ، وعند انتهاء الفيلم ، احسست بنور الايمان بالله وفيض الخشوع يتدفق في داخلي ، وكذلك شعر بقية الاخوة من الفتية الذين رافقوني في هذه الرحلة الايمانية العلمية اللذيذة .!.

الانسان : العالم الاكبر ! .

والثاني : « ان تعرف ما صنع بك .. » .

لكي تعرف ماذا اراد الله منك ، عليك ان تعرف اولا ، ماذا صنع بك .. فان نظرة واحدة يلقيها الانسان على ما اودع الله في داخله من ، طاقات هائلة، واجهزة متقنة جبارة ، تكشف له عن هدفه الاعلى في الحياة، والذي جاء من أجل الوصول اليه ـ عن طريق الكدح والكفاح المستمر.

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه .. » قرآن كريم.

ولكي تبدو المسألة اكثر وضوحا ، خذوا المثال التالي : في دنيا الالات ، والتطور التكنولوجي ، نلاحظ ، ان الاختراعات كلها مزودة بوسائل، وطاقات تتناسب مع وظائفها التي تقوم بها ، وكلما كانت الوظيفة اصعب كانت الالة اكثر دقة ، واشد تعقيدا .. في اجهزتها ، وادواتها ، وطاقاتها.

فمثلا : في المواصلات ، هناك السيارة والقطار ، والباخرة ، والطائرة، ثم السفينة الفضائية وهذه كلها الات صنعها الانسان من اجل اهداف وغايات متفاوتة ، في الاداء ، والوظيفة .. فالقطار اكثر قدرة من السيارة على تحمل الصعاب ، واجهزته اكثر دقة من أجهزة السيارة ، وذلك لان وظيفته اكبر من وظيفتها .. وكذلك الباخرة اكثر قدرة ، وادق اجهزة، من القوارب المائية المحدودة ،!.

ونفس الشيء بالنسبة للطائرة ، والصاروخ . فكلما كانت الوظيفة أشق ، والهدف ارفع ، كانت الوسائل والاجهزة اكثر دقة ، وابعد مدى ...!.

فالطائرة والصاروخ ،والسفينة الفضائية كلها ، مخترعات حديثة مزودة

بالوسائل ، والاجهزة الالكترونية الدقيقة .. الا ان السفينة الفضائية، كانت اكثر شيء دقة وحسابا .. وذلك لان أمامها هدفا اعلى ، الا وهو : الصعود على سطح القمر !

فالطائرة ، بأجهزتها المحدودة ، لا تستطيع أن ترتفع في الجو اكثر من الارتفاع المقرر لها !. في حين ان السفينة الفضائية تطوي السماء طيا ، وتحرق المسافات الفارقة في اعماق الكون ، وتقتحم كل العقبات بجسدها العملاق !

فلا شيء يقف في وجهها .. فيتطع عليها الطريق لا تكاثف اشعاع الموجة القصيرة ، ولا حرارة الصفر المطلق ، ولا حتى النيازك والشهب !

والسبب واضح : وهو أن السفينة الفضائية مزودة بأجهزة راقية، وطاقات خلاقة ، أكثر من الطائرة ، والصاروخ .. وذلك من أجل القيام بهدف رفيع وهو الوصول الى القمر !

ونفس المثال ينطبق على الكائنات الحية ، وعلى الانسان بالذات .. فالحيوانات كلها تشترك مع الانسان ، في أن لها قلبا .. ومعدة ، وكبدا ، وخلايا .. غير أن الانسان متفوق عليها بعقله ، وفكره ، ووعيه ، وقدرته الهائلة ، على تسخير الطبيعة وتسخير الكائنات الاخرى بخدمته ..!

لقد شاء الله سبحانه ، ان يخلق الانسان في أحسن تقويم ، في هندامه ، وعقله ، وفكره ، وروحه ، ثم زوده بطاقات جبارة ، وأودع فيه مؤهلات ترشحه لان يقوم بدوره الذي خلق من أجله . وهو هدفه الاعلى في الحياة ، الا وهو الوصول الى قمة الكمال في العبادة ..!

والعبادة تعني التكامل العلمي ، والعملي ، في طريق عبادة الله سبحانه وتعالى ..

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .. » قرآن كريم .

« افضل العبادة ، الفكر » حديث شريف .

« فكر ساعة قصيرة خير من عبادة طويلة » ، حديث شريف .

« ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة ، انما العبادة كثرة التفكر في امر الله » ومن كلمة الكثرة يبدو واضحا ، ان المراد من الصلاة ، المستحبة وليس الواجبة .

الانسان ، والمركبـــــة :

وهل تدري لماذا تمكن الانسان من ادارة ، المركبة الفضائية ، ولـــم يتمكن من ادارة نفسه ؟!.

لانه لا يعرف نفسه !

لانه تقدم ماديا ، ولم يتقدم معنويا ،!

ان الانسان يتقدم في علم الطبيعة والمادة ، بسرعة الطائرة ، بينمـــا هو يمشي في علم النفس ، والعقل ، بسرعة النملة ! .

كل ذلك ، لان البشرية لا تعرف نفسها .. ومن لا يعرف نفسه ، لا يعرف ربه .. فقد جاء في الحديث الشريف : من عرف نفسه عرف ربه !

والطريق الى معرفة الله ، يبدأ من معرفـــة النفــــس .. وهـــذا ــ بالضبط ــ ما فعله ديكارت الفيلسوف المعروف ، عندما بدأ بمعرفـــة

نفسه ، فعرف ربه .. سائرا على هدي القاعدة المنطقية ، في الفلسفة ، والتي تقول : « انا افكر اذن انا موجود » ! .

من هنا ، كانت ساعة واحدة ، من التفكير ، تساوي سبعين سنة من العبادة !ـ وطبعا ، فالمراد من العبادة هنا ، العبادة المستحبة، وليس الواجبة ، يدل على ذلك قول الامام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ : « ليست العبادة كثرة الصلاة ، والصيام ، وانما هي التفكر في أمر الله سبحانه » وكلمة كثرة ، التي وردت في هذا الحديث ، تدلنا على ان المقصود بالعبادة ، الجانب المستحب ، وليس الواجب ..!.

اذن : فالفكر من أرقى انواع العبادة في الاسلام !.

القـــدرة علـى التعلم :

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » .
القرآن الكريم ، في الانسان يقول : وعلم ادم ، اي انه يملك القدرة على التعلم ، لذلك علمه الله سبحانه بينما في الملائكة ، لم يقل : وعلم الملائكة ، وانما قال : ثم عرضهم على الملائكة : والعرض مثل عرض الصورة على (الرادار) وعرض الصوت على المسجل ، فالملائكة معلوماتهم محدودة ومعينة ، بدليل قوله : «قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » ، ومعنى ذلك ان معلومات الملائكة ، تدور ضمن احجام معينة ، ونطاق محدود، وذلك لانهم ليس لديهم قدرة على التعلم بالمرة ، وانما هم يفعلون ما يؤمرون.

ولكي نأخذ صورة واضحة ، عن الموضوع ، نعد مرة اخرى ، الى الايات المباركة :

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين .. قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم .. قال يا ادم انبأهم باسمائهم ،فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون ،وما كنتم تكتمون» سورة البقرة اية ٣٠ ـ ٣٣ . لاحظوا : الكلمة الاخيرة في هذا الحوار الرباني ،!

الم اقل لكم : اني اعلم غيب السموات والارض ؟!

اي : هل تدرون ـ ايها الملائكة ـ اي مخلوق عجيب ، سأخلقه في الارض ؟! وهل تدرون ، كم هو عظيم وعبقري ، هذا المخلوق الذي يجري انتاجه في الارض ؟! انه الانسان ، فحسب ! .

وتزعم انك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الاكبر !.

والذي تجدر الاشارة اليه ـ هنا ـ هو : ان الاسماء التي ورد ذكرها في الحوار ، انما ترمز الى الاشياء ، والمخلوقات ، يدل على ذلك قوله: ثم عرضهم : فلو كان الضمير يعود الى الاسماء ، لكان يجب ان يقول : ثم عرضها .! ولكن لان الاسماء رمز المسميات ، فقد جاء الضمير بصيغة الجمع !.

اذن : فالانسان هو المخلوق الوحيد ـ بين كل الكائنات ـ الذي يتمتع بالقدرة على التعلم ، واثارة العقل ، عن طريق البحث العلمي .

والميزة التي تميز الانسان ، عن سائر الاحياء ، هي قدرته على تلقي العلم ، واذاعته بين الناس ، عبر القلم ، والبيان !.

اما الملائكة ، فأخذها في العلم محدود ، وعطائها محدود ايضا ..!
وما يقال في الملائكة ، يقال في بقية الاحياء .. فالحيوانات — مثلا — لا تملك القدرة على التعلم ، وهي عاجزة — تماما — عن اخذ تعليمات فوق مستوى الغريزة !.

الكلاب ، والاطفال :

ومن باب المثال : الحيوانات تستطيع ان تأخذ تدريبات وتعليمات محدودة جدا ، جدا ، ولكنها لا تستطيع ان تنقل هذه المعلومات ، الى الحيوانات الاخرى ، عن طريق التعليم !

ولنفترض :

ان هناك ثلاثة اطفال ، يذهبون الى المدرسة ، وثلاثة كلاب يذهبون الى مدرسة خاصة بتعليم الكلاب — كما هو الحال في اوروبا — !

وعندما يتخرج الاطفال من المدرسة ، وهم في سن الثانية عشرة ، نجدهم قد تعلموا اشياء كثيرة ، حول الطبيعة وجسم الانسان ، والقضايا الاخرى !.

ونفس الشيء بالنسبة للكلاب ، فعندما تتخرج الكلاب من المدرسة ، تكون قد تعلمت امورا معينة ، واخذت تدريبات خاصة ، مثل الكلاب البوليسية ، وغيرها ..!
ولنتصور اننا اخذنا الاطفال ، والكلاب معنا ، وذهبنا بهم الى احدى القرى ، من اجل التعليم ، ثم نترك الاطفال المتعلمين ، مع اطفال القرية ، وايضا نترك الكلاب المتعلمة مع كلاب القرية .. ثم نطلب من الاطفال ان يعلموا اطفال القرية كل المعلومات التي حصلوا عليها في المدرسة ، ونطلب

من الكلاب المتعلمة ، ان يعلموا كلاب القرية .

انه مجـــــرد افتراضـــــ !

ومن الطبيعي ان الاطفال ، لديهم القدرة الكافية على تعليم الاطفـــال الاخرين في القرية ! بحيث يستطيع الطفل الواحد منهم ، ان يقوم بتعليـــم، عشرة من اطفال القريـــة ...!

ولكن السؤال هو : هل تستطيع الكلاب ان تقوم بنفس العمل ..؟! اي هل يتمكن الكلب الواحد المتعلم ، ان يعلم عشرة من كلاب القريـــــة ؟

ابدا ، لا اعتقد ، فالكلاب البوليسية تستطيع ان تاخذ في المدرســـة تعليمات دقيقة حول الجريمة ومطاردة المجرمين ، ولكنها عاجزة عن نقـــل تلك التعاليم الى كلاب اخرى وذلك لان الكلب ليس عنده القدرة على نقـــل العلم لكلب اخر .. وانما هي قدرة تختص بالانسان وحده ، دون سـواه !.

اذن : فقابلية التعلم ، والتعليم ، خاصة بالانسان وهي التي صنعـــت الانسان ، وصنع الانسان بها ، الحضارة !.

العلـــم غـــــذاء العقـــــل ! .

قال الامام علي ــ عليه السلام ــ : « كثرة النظر في العلم يفتـــح العقل » ! من هنا يظهر واضحا ، ان العقل يتغذى بالعلم ، وان العقـــل الجائع هو الذي يتعثر بظلام الجهل !.

فمن دون العلم ، يموت العقل في ثنايا الدماغ !.

ولكي تبدو القضية واضحة ، وتلمع الصورة ، في سماء المعرفـــــة اكثر .. لا بد من عرض المثال التالـــي :

يقول العلماء ، في حقل النفس ، والبايلوجية :

عندما نأخذ اثنين من الاخوة ، يحملان نفس المواصفات ، ونفســـ القابليات ، وكلاهما من خلية واحدة ومن نطفة واحدة ، وحتى من فصيلة دموية واحدة ايضا !.

عندما نأخذ اثنين مـــن الاخوة يحملان نفس المواصفات ، ونفســـ طلب العلم والثقافة .. في حين نبعث الاخر الى الصحراء ، من أجل رعـــي الغنـــم ، والجمـــال !.

فالاول في الجامعة .. والثاني في الرعي !.

وبعد ثلاثين سنة ، يلتقي الاثنان كلاهما ، على مائدة واحدة .

اقول : عندما يتم هذا اللقاء بينهما ، بعد تلك الفترة الطويلة ، فـــان الفارق (التوعوي) الذي يفصل بينهما ، يبدو حادا ، وعميقا .. وذلـــك لان الذي ذهب ، الى الجامعة عاد يتمتع بقدرة هائلة على التحليل ، والفهم ، والقاء النظرة الثاقبة على الامور !.

في حين ان الذي ذهب الى الرعي ، عاد يتمتع ، بغباء فائق ، وبلادة قاتلة ، فهو ليس لديه القدرة على التحليل والفهم ، وهو بعد ذلك ، لا يملك النظرة الثاقبة في الامور !.

فالعقل عند الراعي في جمود ، بينما هو عند الجامعي في عطاء !.

وجرب ان تطرح على الاثنين مسالة رياضية فكرية ، لترى ان الشاب الجامعي يأخذها بعقله قبل عينيه ، ثم يعطيك حلها ، بسرعة فائقة ! . وفي الوقت نفسه ، يظل اخوه الراعي ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمـــال، لا يدري اي جواب يعطـــي .. ثم هو بعد كـل هـــذا ، لا يـــدري اي واحد من الجن يتحدث معه بهذه اللغة الشريرة التي لا يعرف اولهــا، ولا اخرهـــا !.

والسبب واضح جدا :

فالعلم اعطى لعقل الاخ الاول ، حياة ، واعطاه قدرة على التحـرك والابداع .. وفي المقابل اعطى الجهل لعقل الاخ الثاني ، جمودا ، وركودا !.

وذلك : لان العقل يتغذى بالعلم ، والعلم يثير دفائن العقل ، ويهـز كنوزه هزا عنيفا ، وحين يغيب العلم عن العقل ، يظل العقل يتيما يعانــي من سوء التغذية ، فيصاب بألم المفاصل ، والركود الكامل !

وهذه حقيقة اثبتها العلم الحديث ، واكدها الامام علي — عليـــــه السلام — من قبل ، حيث قال : « كثرة النظر في العلم يفتح العقل » !

وعن طريق الكاميرات الالكترونية العملاقة ، ظهر واضحا ، ان عقل المتعلم يسبح في أمواج النور ، بينما عقل الجاهل يقبع في الظلام !..

اجـــل :

في ادق الاجهزة الحديثة ، اخذوا صورة لراس العالم ، وصورة لراس الجاهل ، وكانت النتيجة مذهلة عندما وجدوا في الصورة الاولى ، سحابة نور تلف رأس العالم ، في حين ظهرت صورة الانسان العادي ، عاديـــة ، وليس فيها قطرة نـــــور !

ولعل الحديث الشريف ، يشير الى هذه الحقيقة :

« .. العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء » .

يقول الامام علي ـ عليه السلام ـ !

« العقل عقلان : مطبوع ، ومسموع » .

وبهذا الحديث يؤكد الامام : ان العلم هو العقل الثاني للانسان !.

وايضا يقول : « العقل عقلان ، عقل طبيعي ، وعقل تجريبي ، وكلاهما يؤدي الى المنفعة » !!

والعقل التجريبي ، يشير الى الدراسة .

مركـــز العقـــل :

هناك بحوث اسلامية علمية ، تدور حول العقل ، وما هي حقيقـــة العقل ، واين مركزه ؟! سنبحثها في مكان اخر ، باذن الله !

أما حقيقة العقل ، فلم تعرف حتى الان ، بالرغم من التقدم العلمـي المادي ، يظل العقل مجهولا ، ! على أن عدم.معرفة العقل ، مسالـــة متفق عليهـــا ، عالميا !.. وكأنها جزء من مسالة الروح ! .

اما اين مركز العقل ، فهذا يرجع بنا الى روايات اهل البيت ـ عليهم السـلام ـ .

هناك مدرستـــان :

المدرسة المادية تقول : خلايا الدماغ هي مركز العقل ، وكما ان الكبد يرشح (المرارة) كذلك خلايا الدماغ ترشح الفكر (انه مجرد مثال للتقريب ليس اكثر) ويستدلون على ذلك ، بأن الدماغ موزع الى مناطق عديدة ، وكل منطقة مختصة بجهة معينة من جسم الانسان ، واذا اتلفت منطقـــة فـي الدماغ ، فان عملها يتلف معها ..!

أما الروحيون فيقولون : ان العقل من خواص الروح ، وشأنـــه شأن الروح في العمـــل .

اي : ان الشخص المصاب بلوثة عقلية ، لم يكن ، مصابا بعقله ، وانما هو مصاب بالخلايا العاكسة لعمل العقل !

وللتوضيح خذوا المثال التالـــي :

يقول العالم الغربي (كرسجي) المختص بعلم الفسيولوجية :

« ان مركز الفكر ، بالنسبة للعقل ، يشبه الى حد بعيد شبكـــة التلفون !! فلو فرضنا ان شخصا ما ، اتصل بشخص اخر هاتفيا ، مـــن مدينة أخرى ، وفي اثناء المكالمة ، انقطع السلك الهاتفي ، وانقطع الكلام .. فلا يعني ذلك ، أن السلك هو الذي كان يتكلم ثم توقف عن الكلام بسبـب القطع .. وانما يعني ان الشخص المتكلم لم يستطع ان يوصل صوتـــه بسبب انقطاع السلك ..

ونفس الشيء يقال ، بالنسبة للعقل ، فاذا أصيبت منطقة التفكيـــر بالشلل في الخلايا ، فلا يعني ذلك ــ بالضرورة ــ ان العقل مات ودفن ... بل يبقى العقل حيا ، ولكنه تابع وراء غيوم الخلايا المتعفنة .

وبالتالي : فعلاقة العقل بالخلايا ــ تماما ــ مثل علاقة الكلام بالسلك

التلفونـــــــي !.

البيان : اللسان :

وفي اهمية البيان يقول القرآن الكريم :

« الرحمن علم القرآن خلق الانسان ، علمه البيان » والشيء الملفت للنظر ، هو ان كلمة البيان ، جاءت بعد مرحلة خلق الانسان مباشرة ، حيث قال : خلق الانسان علمه البيان .. فالله سبحانه ، خلق الانسان اولا ، ثم علمه البيان ثانيا ، اي اعطاه القدرة على ، التعبير عما يدور في فكره ، وما يعتمل في صدره وهذا يدل على انالبيان هو الثدي الذي ترتضع منـــــه البشرية حليب التقدم والرقي في الحياة !

والنطق عطية الهية ثمينة للانسان ، فليس في كل الكائنات ، مـــــن يستطيع ان يتكلم ناطقا ، ما عدا الانسان . ولذلك يسمى : حيوان ناطق .

بالاضافة الى ان شخصية الانسان ، تكمن في كلامه ، حتى قـــال الامام علي ــ عليه السلام ــ ! تكلموا تعرفوا فان المرء مخبـــوء تحـت لسانه » .

والبيان ، اكبر وسيلة ، لنشر العلم !

القلم : هوية الانسان :

الانسان ، هو الكائن الوحيد ، الذي أعطاه الله قدرة الكتابة ، وعلمه لقلم ما لم يعلم !

فالقلم اكبر منحة ، زرعها الله سبحانه ، في يد الانسان ، لكي يقطع بها رحلة التكامل ، في البناء ، والتعمير المادي ، والمعنوي !

ولولا القلم ، لما استطاع الانسان ، ان يدغدغ مفاتن الطبيعة ، وينشر العلم في الافاق .

وما ينطبق على القلم ، ينطبق على البيان لانهما رافدان متعانقان، يصبان في نهر التقدم ، والعلم !.

ورحلة التكامل التي يقطعها الانسان ، في الحياة ، لا يمكن ان تتم ، الا عن طريق القلم ، والبيان ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، في اول سورة له ... نزلت على قلب النبي الاعظم — صلى الله عليه واله — .

وتعالوا نعش دقائق مع ظلال السورة المباركة .

يقول القرآن :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .. » .

وفي هذه السورة رؤى تستحق الوقوف عندها ، وفيها ملاحظات تجدر الاشارة اليها :

والرؤى هي :

اولا : قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

لاحظوا جيدا :

انه لم يقل : اقرأ باسم الله الذي خلق .. وانما قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق .. فاختار كلمة الرب بدل كلمة الله !.. والسبب واضح

وهو : ان كلمة الرب ، مشتقة من التربية ، فكأن القرآن يريد ان يعلمنا كيف نقرأ ، لتكون القراءة في اطار التربية والبناء ، وليس في مجال التحلل والهدم !.

ثانيا : قال : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .. » وقد تقرر في أصول الفقه ان ترتب الحكم على الوصف مشعر بكونه علة ، وهذا يدل على ان الله اختص بوصف الاكرمية ، لانه علم الانسان العلم ، فلو كان هناك شيء افضل من العلم وأنفس ، لكان اقترانه بالاكرامية المؤداة بأفعل التفضيل .. » (١) .

ثالثا : ان السورة عرضت رحلة الانسان في طريق التكامل .. اخذا من العلقة ، وهي ادنى المراتب في الاشياء : وانتهاء بمرتبة الانسان العالم الكامل ، الذي يفلق الخلية ، ويجزء الذرة ، وهي ارفع قمة في حياة البشرية .

على ان وصول الانسان الى القمة ، انما تم بفضل القلم والبيان ليس اكثر !.

الملاحظات :

اولا : قد يظن البعض ، ان المفروض في اول سورة تنزل في القرآن ، ان تتحدث عن واحدة من العبادة ، مثل الصلاة ، او الصوم فلماذا — اذن — تركت الامور العبادية وطالبت الناس بالقراءة ، اولا وقبل كل شيء ؟!.

---

١ — من كتاب منية المريد صفحة ١٣ .

واعتقد ان الذي يعرف الاسلام ، يعرف السر العميق ، وراء هـــذه السورة المباركة !.

فالدين الاسلامي ، دين العلم والنور ، دين الاستقلال والحرية ، ديـن التقـــدم والازدهـــار .

الدين الاسلامي ، دين العلماء والمجاهدين .

واذا كان الاسلام كذلك ، فلا بد له ، ان يطالب اتباعه بالقـــراءة قبل ان يطالبهم بالعبادة وذلك : لان العبادة الفارغة من القراءة ، والوعي، عبادة فارغة من النور والحرية ... فارغة من العلم والمعرفة ، وبالتالي : فهي عبادة تتناسب مع عقل الانسان في العصر الحجري ، وليس مع الانسان، المسلم في عصر الاسلام العظيم !.

والقراءة تفتح الافاق تلو الافاق امام هذا الانسان الضائع فـــي متاهات الجهل ، وظلام الاستغلال .

فالامة الواعية ، التي تطرد الاستعمار من بلادها ، هي الامة التـي تقرأ ، وتقرأ ، وتقرأ في كل علم وحول اي شيء !.

ثانيا : ان صفة الاكرمية ، وكلمة الرب التي تشير الى التربية تؤكدان، ان لا كرامة للانسان الا في ظل القلم ، والبيان وعندما يقول القرآن : ولقد كرمنا بني ادم ، فانه يشير الى التكامل العلمي ، الذي جاءت به السورة .. اذ لا كرامة للانسان دون الاخذ بناصية القلم ، وزمام البيان !

ثالثا : السورة كررت القراءة مرتين ، ثم ذكرت الكتابة المتمثلـــة بالقلم ، وكأنها تريد ان تعطي درسا ، لمن يريد ان يربي القلم بين اصابعـه

فنقول له : لكي تأتي الكتابة جميلة وعميقة ، اقرأ مرتين ، واكتب مـــرة واحــــــــدة !

الانسان والقــرد :

اذن فالكلام ، والنطق ، خاص بالانسان دون سواه ، ــ ففي تجربــة علمية ، جرت في أمريكا ، مؤخرا .. اخذوا عشرة من القردة ، وعشــرة اطفال ، ثم جعلوهم يعيشون في مكان واحد ، موحدين ، في اللباس ، وفــي الاكل ، وفي اللعب وحتى في اسرة النوم !. فالكل سواء ، ولا يميزهم الا الذيول فقط ، حتى اذا وصلوا الى مرحلة الكلام والنطق جاءت النتيجـــة صاعقة ، حيث ظهر ان القردة لا تقدر على الكلام والنطق ابدا ، ابدا بالرغم من المحاولات الجادة التي بذلها العلماء ، في سبيل تعليمها الكلام !

ومن خلال الفيزلوجية ، لاحت ملاحظة ، هامة جدا ، اذ ظهر أن القرد لا يملك في دماغه منطقة للكلام بالمرة ، علما بأن الدماغ موزع الى مناطق عديدة ، كل منطقة تختص بجانب من جسم الانسان !

والان : هل لاحظتم القدرة على القلم ، والبيان ، كيف ان اللــــه سبحانه ، قد خص بها الانســــــان ؟ !

ومن هنا ، تبدو اهمية الحديث الوارد عن الامام الصادق ــ عليــه السلام ــ والذي ما زلنا نتابع حلقاته بالشرح ــ الحديث الذي يقول :

« وان تعرف ما صنع بك » .

الاصــــابع

ان ٦٠٪ من التقدم ، والتطور التكنولوجي ، تم ، بفضل الاصابع !.

واصابع اليد هذه ، تستطيع ان تأخذ قرابة (٥٠٠) هيئة ، وشكل ، وكيفية ، فهي تنقل نفسها ، في اللحظة الواحدة ، الى مئات الهيئات ، والاصابع تتحرك بسرعة ، وخفة فائقة !

والجدير بالذكر ، ان المخلوق الوحيد الذي لديه اصابع تتحرك بهذه الخفة ، والقوة الفنية ، هو : الانسان ، والانسان وحده !

ان اليد التي صنعوها في الانسان الالي ، بالرغم من سحرها في الحركة ، وقدرتها على العمل الا انها تذوب خجلا أمام عظمة يد الانسان الذي خلقه الله سبحانه ، وأودع فيه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة !.

نظرة في جسم الانسان

« ان تركيب الانسان بجوانبه المتعددة ، التشريحية والفيزيولوجية ، والنسيجية كلها تجعل المتأمل — حتى بشكل بسيط — يخشع لقدرة الله ، ويأخذه العجب — كل العجب — لهذا التركيب الفذ الفريد .. هذا في الجوانب المادية عند الانسان ، فقط ، فما بالك في الجانب غير المنظور !... والدراسات تقر ، وتعترف ، بعظمة الاحكام والبناء ، وروعة التناسق والعمل ، في الجسم الانساني ... فالذي يعرف أن هناك ثلاثة عشر الف مليون خلية عصبية — اي ١٣ مليار خلية عصبية — في الجهاز العصبي وحده والخلية بحد ذاتها بناء محير مدهش ، وهذه كلها تعمل بشكل دقيق محكم متناسق متعاون لتأدية الاغراض الحيوية ، والفكرية ، اقول : الذي يعرف ذلك ، يدهش للرقم اولا ، ثم لكيفية عملها ، وترابطها وابداعها !.

كلها اسرار محيرة ، والغاز مدهشة ، يكشف الطب عن القليل منها ،

ويبقى الكثير طي الكتمان ، حتى يحين الوقت لكشف شيء منه ! .

والذي يعلم ان هناك : (٧٥٠) مليون سنخ رئوي يعمل لتصفية الدم ، وذلك بامرار غاز الاوكسجين ، من الخارج الى الدم الاسود الوارد من البطين الايمن من القلب ، وطرح غاز الفحم منه !

اقول الذي يعلم ذلك ، يأخذه العجب كل مأخذ ، وذلك من عمل السنخ الواحد ، لان ، جداره رقيق ، فهو ارق من ورقة لفافة التبغ ، حيث يتألف الجدار من طبقتين ، التي لا تكاد ترى بالعين المجردة !!.

الكليـة :

وهذه الاسناخ تنقي الدم بشكل مستمر !

بالاضافة الى الكلية التي تقوم ، بتصفية الدم من جهة ثانية ، وفيها واحات صغيرة جدا لا ترى الا بالمجهر ، حيث يتفرع الشريان الذي يغذي الكلية الى فروع دقيقة جدا ،حتى يصل الى تفريع شعري لا يرى الا بالمجهر، يلتف حول نفسه ليشكل ما يعرف بالكبة وفيها يمر الدم ببطء شديد ويتصفى ، بالرشح في الكبة ، قرابة ٢٠٠ ليتر من الدم يوميا ، ويعود ليمتص مرة اخرى بواسطة الانابيب الكلوية التي يمر منها قرابة ١٩٨ ليتر !

وهذه الكبب يصل عددها الى المليون في الكلية الواحدة ، تقوم بتصفية مئات الالتار من الدم يوميا وان الروعة لتكمن في العدد ، وفي البناء ، وفي كيفية العمل ، وفي الروعة الهائلة لتخليص الانسان من السموم التي تدخل جسمه ! » (١) .

---

١ ــ الطب محراب الايمان صفحة ١١ .

تقرير طبي اخر حول الكلية :

تقع الكلية ـــ في العادة ـــ خلف التجويف البطني ، ووظيفتها ، ازالة الفضلات من الدم ، وتصفية الماء ، والدم وحجمها يقارب قبضة اليد ، وهي تعمل ضمن الجهاز البولي ، الذي يتألف من الكلية ، والحالب ، والمثانـــة (مخزن البول) وهي تفتح وتغلق بعضلة لاارادية .

كل كلية تحتوي على ما يقارب مليون ونصف المليون من الخلايـــــا النيفرونية الحية Nephron !

وظيفة الكلية الرئيسية :

الامتصاص ، والافراز ، والتصفية ، بالنسبة الدم الذي يمر وهو محمل بالاملاح ، والاحماض الامينية ، والبروتينات الصغيرة الحجم .

الوظيفة الفسيولوجية للكلية !

واحد : ازالة الاحتراقات الكيماوية من جميع اجزاء الجسم ، والتـــي تحمل بواسطة الدم الذي يمر كل خمس دقائق ـــ مرة واحدة ـــ علـــــى الكلية ، وحجم الدم هو : من ٥ ـــ ٥,٥ ليتر .

اثنين : تنظيم التفاعلات الكيماوية في الجسم ، والتي لولاها ، لاختلت الموازين الفسلجية داخل البدن ، وتعثرت حياة الانسان !

ثلاثة : تنظيم كمية الماء في جسم الانسان ... لكي تحافظ على ضغط الدم ومعدله في البدن !

أربعة : ازالة بعض المواد التي لا يستفيد الجسم من وجودها ، مثل البهارات ، وبعض الاصباغ ، والادوية ، والسموم ، حتى تمنع الجسم عن الدخول في التسمم !!.

حجم الماء الذي يمرّ على الكلية :

الكمية التي تمر في الكلية من أجل التصفية ، يكون حجمها — في العادة — ١٧٠ ليترا من الماء ، في حين ان الكمية التي تمتصها خـلايا النيفرون في الكلية ، تساوي ٥ر١٦٨ ليترا من الماء !

فالكمية الاساسية هي : ١٧٠ ليترا من الماء .

يسقط منها في التصفية : ٥ر١٦٨ ليترا من الماء الصافي .

يكون الباقي ٥ر١ ليتر فقط .

وهو البول الذي تفرزه المثانة عادة ، وهذا الـ ٥ر١ مـن البول ، يخرج محملا بالميكروبات الضارة والاحتراقات المسمومة .. حتى ان القطرة الواحدة ، من البول ، اذا وقعت على الجلد ، تشكل مضاعفات وقد تسبب امراض جلدية ، خطيرة !!.

ملاحظة فقهية جديرة بالاهتمام !

في الفقه الاسلامي ، يكره التبول ، في الارض الصلبة ، وفي مقابلة الريح ، وفي مواطن الثمر ، وفي الماء الراكد ..!

يا لروعة الاسلام .. انها مجرد مسألة في الفقه الاسلامي ، ولكنها احتوت كل مناهج العلم الحديث وذلك لان التبول في الارض الصلبـة ، يستدعي انتشار ذرات البول على جسم الانسان ، فيسبب نقل الامراض الجلدية ، ونفس الشيء بالنسبة للتبول في مقابلة الريح ، وكذلك الحال ،في الماء الراكد .. لانه يتحول الى مقبرة للجراثيم ، والميكروبات ، وعندها تنتشر امراض الملاريا ، وغيرها .. !

فالاسلام يتوخى الصحة ، والنظافة ، وسعادة الانسان ، في كـــل تشريعاته .. وهذا في الاشياء المكروهة في الاسلام ، فما بالك بالواجبات، والمحرمات ، ولو اطلعت عليها لرايت ان الاسلام بعيد المدى في الفكــر ، والعقل ، ومتابعة الحقائق العلمية ، وتنظيم الحياة للبشرية ، وفق ارقى، المناهـــج والتشريعـــات !!.

وبالتالي ، فعمل الكلية في الجسم ، يشبه الى حد بعيد ، عمل شرطة خفر السواحل ، فهي تلقي القبض على كل زائر اجنبي .

عظمة دولاب الاجهزة في داخل الجسم !

في جسم الانسان عشرات المليارات من الخلايا وهذه الخلايا تشكـل دولاب الاجهزة في البدن ، الذي يحتوي ، على جهاز التنفس ، وجهـــاز الهضم ، والجهاز البولي ، والجهاز التناسلي ، والجهاز اللنفاوي ، والجهاز الدموي ، والجهاز العضلي ، والجهاز الصقلي العظمي ، والجهاز العصبي ، والجهاز الجلدي ، والجهاز الصنام ، اضافة الى الحواس ، مثل حاسـة السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، والاحساس عن طريق الجلد !.

وهذه الاجهزة العظيمة كلها ، تعمل في جوقة واحدة ، تشكـل جسم الانسان ! علما بأن الجهاز الواحد بالذات ينقسم الى اعضاء ، ويتفرع الى فروع مثل الجهاز الهضمي الذي يتألف من الفم ، واللسان ، والحلق ، والبلعوم ، والمري ، والفؤاد ، والمعدة ، والبواب ، والاثني عشريـــة ، والامعاء الدقيقة ، ثم الامعاء الغليظة ، ثم السني الحرقفي ، ثم المستقيم، ثم الشرج ، وهو كما يبدو يتألف من ١٢ــ١٣ عضوا ، وهذه ، الاعضاء تتعاون تعاونا ، وثيقا ، فيما بينها ، لتؤدي دورا بالغ الاهمية ، بالنسبة للانسان ، وهو التغذية ومتطلباتها !.

وكما في الجهاز الهضمي ، كذلك في الجهاز التنفسي حيث يشترك فيه ،

الانف ، ثم الحلق والرغامي ، ثم القصبات ، والقصيبات ، ثم الاسناخ الرئوية التي يبلغ عددها ٧٥٠ مليون سنخ رئوي ، وتفرش سطحا مساحته سبعون مترا مربعا ، وكله للتبادل الغازي بنظام محكم بديع !

يا لعظمة الخالق الحكيم !.

فمن اجل ان تعرف ربك ، عليك أولا ، ان تعرف ماذا صنع بك .. على حد قول الامام الصادق — عليه السلام — .

صلاة القلب :

« واما تنظيم ضربات القلب ، فهي ايضا ، سر من اسرار الخلق والابداع ، فهو ينبض بمعدل ٧٠ ضربة في الدقيقة ، الواحدة ، اي بمعدل يصل الى (١٠٠) الف مرة يوميا ، و (٤٠) مليون مرة في السنة الواحدة، وما يزيد على ، (٢٠٠٠) مليون مرة في متوسط العمر ، ولننظر الى هذا التسبيح العظيم الذي لا يكف ولا يفتر في ليل ولا في نهار (كل قد علم صلاته وتسبيحه) ولننظر ايضا الى الاية الرائعة في الجسم ، والتي هي تنظيم الحرارة ، ان هناك ما يشبه ميزان الحرارة ، داخل الجسم ، فاذا جاءت الاخبار الحسية من الجلد ، تخبر عن المناخ الخارجي ، ودرجة حرارته ، سارعت هذه المناطق الكائنة في الجذع الدماغي ، وما فوقه الى جهاز (الدوران) تستحثه على أن يحمي الحدود الخارجية للجسم ، وسرعان ما تحدث تقلصات العروق الدموية ، ونضج القلب للدم بما يفي حاجة الجلد، فاذا كان باردا قل تدفق الدم ، الذي يحمل الحرارة ، ليعدل البرودة والعكس بالعكس ! » (١)

---

١ — الطب محراب الايمان صفحة ١٤٢ .

وظيفة الجلد :

أ ـ الحفاظ على درجة حرارة الجسم من الداخل ٣٧٪ مئوية .

ب ـ يقوم بدور الدفاع عن الانسان ، لانه مزود بخلايا دفاعيـــة، تشن هجمات مضادة على الكروبات الخارجية التي تعلق بالجلد ! .

ج ـ يقوم بوظيفة البرق والهاتف الاحساس ، لانه يرسل برقيـــات للدماغ بشكل متواصل .

العظام سر الحياة

لقد اثبت العلم الحديث ، ان العظام هي سر الحياة ، السحري فهـي التي تصنع الدم ، في الوقت الذي يعجز العلم الحديث فيه ، عن صناعـة قطرة واحدة من الدم ..

بالاضافة الى ان العظام تساعد على الحيوية والنشاط ، وهي التـي تساهم مساهمة فعالة ، في سير العمليات الفسلجية ، والتنظيمات الكيماوية داخل الجسم الانساني !

« وانظر الى العظام كيف ننشزها .. » قرآن كريم .

وبالرغم من التطور العلمي الحديث ، يظل الانسان ، لا يدري ، كيف تتم دورة دولاب الاجهزة ، في البدن ..! انه يجلس على المائدة ، ويضـع

اللقمة في فمه ، وهو لا يدري ، بأن المعدة تأخذ تلك اللقمة فتحولها الـى اكثر من ٩٠ عنصرا ، كلها تتوزع في الجسم عن طريق الدم !

وهل تعلم ، بأن الكبد وحده ، يقوم بأكثر من (٥٠٠) عملية كيماوية ، وفسلجية معقدة ؟!

انها ارقام تفوق الحصر ، والخيال !.

الافاق والانفس :

يقول القرآن الكريم :

« سنريهم اياتنا في الافاق ، وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق .. » .

الاية المباركة ! قدمت معرفة الافاق ، على معرفة النفس ! وهذا ما حدث بالضبط !

فالانسان عرف الطبيعة ، وركب الفضاء ، ولكنه ظل عاجزا عن معرفة نفسه ..

وحسب سياق الاية ، فقد ظهرت صور ، الطبيعة في العلم الحديث، وبدت الايات الكونية تطلع في افق المعرفة الانسانية ، وها هي معرفة الانسان ، اخذت تقترب شيئا فشيئا نحو الحقيقة !

اذن : فعندما يعرف الانسان اسرار السموات والارض ، ويرى الايات الكونية في الافاق ، وفي الانفس ، تكون النتيجة ، ان يتجلى له الحق ، فيؤمن بالله سبحانه وتعالى .

ولكن السؤال الان هو :

هل عرف الانسان نفسه ، مثلما عرف الطبيعة والنجوم ؟!

والجواب : كلا ثم كلا .

ولكن الامل يحدو الانسان في ان يعرف ، نفسه ، في المستقبل القريب ليعود الى الله وطاعته ، فيتذوق طعم الايمان وحلاوة السعادة ، والهناء !.

والثالث : « ان تعرف ما اراد منك » .

ان تعرف ماذا اراد الله منك .. تلك هي المعضلة !.

فلو ان كل واحد منا — نحن المسلمين — عرف ما اراد الله ، منه ، وعمل وفق مناهج الله سبحانه ، لما وصلت بنا الحال ، الى هذا الـدرك السافل من الانحطاط ، والتاخر !.

وهل تدري لماذا ركع المسلمون امام اليهود ؟!.

لسبب بسيط هو :

ان المسلمين لم يعرفوا ما اراد الله منهم ، وبالتالي تركوا الله فتركهم الله سبحانه ، لان الله لا يقدم النصر ، للقاعدين عن الكفاح ، في طبق من فضة ، وانما خلق الحياة وجعلها للعاملين ، فقال : « كلا نمد هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا » اي : ان العطاء الالهي يتدفق ابدا نحو العاملين ، سواء عليهم اكانوا مسلمين ، ام كانوا يهودا ..!!. لا فـرق !

فالمسلمون اضاعوا اهدافهم بين ضباب التخلف ، وغيوم الجهل !!.

ان تعرف ما اراد منك :

على الانسان ان يأخذ دوره الذي جاء من اجله ، في الحياة ، وهو دور الابداع ، في طريق التكامل ، والبناء !.

ودور الابداع هذا ، يكمن في عبادة الله سبحانه .. حيث يقول : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

وعند قراءة الاية ، يقفز في اذهاننا ، ان العبادة ، منحصرة في الصلاة ، والصوم ، ليس اكثر !

هكذا يتبادر الى اذهاننا !

ولكن الحقيقة غير ذلك !.

فالعبادة — في الاسلام — تشكل شجرة عظيمة ، تحتوي على الاف الاغصان المورقة ... بينما الصلاة تشغل واحدا من الاغصان فقط ،وكذلك الصوم يأخذ غصنا اخرا ،الحج يؤلف الغصن الثالث ، وهكذا ..!

صحيح ان العبادة ، في الصلاة ، والصيام ، والحج ، ولكن الصحيح ايضا ان العبادة في الفكر !

والعبادة في طلب العلم .

والعبادة في الزراعة .

والعبادة في التجارة .

والعبادة في الصناعة .

والعبادة في الاقتصاد ، والسياسة ، او بالتالي فالعبادة في كل ما من شأنه ان يبني الحياة ، والانسان شريطة ان يكون الايمان بالله ملازما له ، طول الوقت . فأفضل العبادة الفكر ، وذلك يعني ان تتفكر في الاشياء التي تدور حولك في الحياة اخذا من الذرة ، والخلية ، والشجرة، ومرورا ، بالفراشة والنحلة ، والطير ، وانتهاء في الفيزياء ، والكيمياء ، وفي علم الاجنة ، وفي النطفة ، والنجوم والكواكب ، والبحار ، والهواء فهذه الكائنات كلها ، هي التي تشكل مسرح التفكير في الايدلوجية الاسلامية! « ان تعرف ما اراد منك : » .

هدف الانسان في الحياة يتمثل في اخذ دور الابداع في المجال العلمي، وفي المجال العملي كما جاء في القرآن الكريم :

« الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن ... لتعلموا.. » فهذه الاية المباركة ، ذكرت الهدف العلمي ، في قوله تعالى : «لتعلموا ...» بينما في الاية الثانية ، جاء الهدف العملي في قوله : « هو الذي خلق الموت والحياة ، ليبلوكم ايكم احسن عملا .. » .

وفي اية ثالثة يؤكد القرآن : ان هذين ، الهدفين لا يتحققان الا في ظل العبادة ، وذلك في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

والسبب واضح جدا ، وهو :

ان العلم الخالي من الايمان ، يصبح اداة لهدم الانسان ، ورش الفوضى في المجتمع !.. ونفس الشيء يقال بالنسبة للعمل ، الذي فقد الهدف ، وابتعد عن سبيل الله ، فانه ولا شك يتحول ، من خدمة الانسان ، الى سحق الانسان ، وكذلك العلم الفاقد ، للايمان ، يتحول من خدمة

الانسان الى خدمة الغرائز !!.

العلم ، الان ، صار في خدمة الغرائز !!.

انظروا الى الجامعات في العالم ، ماذا تعطي للطلاب ؟!

انها أعطتهم علما ، ولكنها ما اعطتهم اخلاقا ، ولا ايمانا — ففي الحرب اللبنانية — مثلا — كان الطالب الجامعي — على الاغلب — يأخذ السلاح ، ويقف على سطح البناية ، ليصطاد رؤوس المارة !

والطبيب المتخرج من الجامعة ، اذا دخل عليه مريض لا يملك ثمن الدواء !. فهل يعالجه ، ام يدفعه خارج العيادة ؟! ذلكم مقياس الايمان .

ملاحظة :

« ان الافئدة لما فرغت من الايمان بالله ، واليوم الاخر ، امتلأت ايمانا بأمور اخرى اختلقتها ، اختلاقا » .

فالحقيقة — كما يقول « العلامة هاري ارسون » في كتابه « كيف تكون رجلا حقا » : انه ما من انسان يستطيع أن يكون غير مؤمن بالله ،فقد ركب الانسان ، من الناحية النفسية ، بحيث اصبح مضطرا الى الايمان بالله او بغيره ومتى مات الايمان الايجابي ، فان الايمان السلبي يحل محله ! » .

الابداع :

فالكون يسير في طريق التكامل المادي ، في حين ان الانسان يسير في

طريق التكامل العلمي ، والعملي وذلك ، من خلال عبادته لله وحده ، وطاعته الكاملة لاوامره ، والسير وفق مناهج الله ، في الحياة ..

لا : للتقليـــد !

في علم النفس ، والاجتماع : للانسان ثلاثة ادوار في الحياة ! .

ا — دور التقليد ، في الطفولة !.

ب — دور التمحيص ، في المراهقة !.

ج— دور الابداع ، في الشباب ، والكهولة !.

ففي أيام الطفولة ، يتبع الطفل في حياته طريق التقليد فهو يقلد أباه في كل حركاته ، واقواله ، وايضا ، يقلد ، امه في اخلاقها ، وذلك لانه : لا يرى الدنيا الا من خلال امه وابيه ! . فليس من المستغرب ، ان يأخـــذ الطفل آلة الحلاقة ، ويقف امام المرآة ، ليحلق وجهه بعد ان يكون قد لطخ صورته ، برغوة الصابون في محاولة لتقليد ابيه ، في حلاقة الذقن !!.

بينما في أيام المراهقة ، يبدأ دور البحث والتركيز ، والمطالعة ، لان غريزة حب الاستطلاع تكون قد بلغت ذروتها ، في هذا الدور بالـــذات !

وجرب : ان تتحدث في شيء يخص الحياة ، امام صبي مراهـــق، لتجده مبهورا في حديثك ، مقبلا عليك بكل جوارحه ، خصوصا ، عندمـــا تتناول في حديثك — معه — ، موضوع الايمان بالله ، والدين ، والاخـــلاق فانك ترى عينيه تلمعان بالصدق ، والاخلاص ، في البحث عن الحقيقـــة !. وما ذلك الا ، لانه يعيش مرحلة التمحيص ، والاستطلاع ! .

اما في ايام الشباب ، والكهولة ، فهنا يأتي دور الابداع ، والابتكار ، في بناء الحياة ، وتعمير الارض ، وصنع الحضارة !.

الحيوانـــات ، والتقليد :

ان الحيوانات ليس لها دور الابداع في الحياة ، وانما هي — ابدا — في دور التقليد ، واتباع الغريزة !.

وذلك : لانها لا تعرف التطور ، ولا التقدم — على العكس من الانسان ، الذي جاء لتطوير الحياة وتحديثها ، في ركب التقدم الحضاري !.

ولكي تأتي الصورة واضحة ، اضرب لكم المثال التالي :

حياة الحيوان ، لاتعرف التطور ، بالمرة ، وانما هي تسير وفق وحي الغريزة ، وعلى ضوئها .

فالنحلة — مثلا — تقوم بصنع العسل ، من رحيق الازهار — متبعة في ذلك — ادق الانظمة ، والقوانين ، وهي لا تستطيع ان تطورها نحـــو الافضل ، وليس في امكانها ان تخالفها ، قيد انملـــة !.. والنحلة تبنـــي بيتها وفق القاعدة الهندسية ، في الشكل السداسي ، وهذه طريقتهـــا منذ وجودها ، وحتى تقوم الساعة .. فلا يمكن ان تطور حياتها ، او تتخلص من قيد النظام ، وارهاق الرتابة المملة !.

على ان الحيوان لا يفكر ، في كيفيـــة الخلاص من حبائل الاعـــداء ، وكيـــد الانســـان :

فالسمكة — مثلا — تقع في فم الصنارة ، فتذهب الى النار ، والاكل ، وهي عاجزة عن اخذ الترتيبات ، الوقائية ، لتجنب السقوط ، في فم الصنارة

وانياب الشبكة ، وذلك : لانها تعيش في حياة غريزيـــة جامدة ، وليست متطـــورة .

ومن باب المثال ايضا : هل سمعتم بأن الفئران ، اجتمعت ، وتباحثت ، في طريقة الخلاص من شر المصيدة ؟!.

لا ، بالطبـــع .

وهل عقدت الغنم اجتماعا طارئا ، للبحث في مشكلة الذئاب ، وكيفيـــة القضاء ، عليهـــا ؟!

لا اعتقد ان يكون قد حصل مثل هذا الاجتماع .

والامثلة كثيرة ، والسبب واحد :

وهو ان حياة الحيوان ، لا تطور فيها ، ولا ابداع بل هي قائمـــة ، على التقليد مرة ، وعلى ،الفريزة مرة اخرى .

والطف مثال على التقليد ، هـــو ما نراه ، في دنيا القردة ، وطريقة حياتهـــا :

فالقرد ، قد فصلت شخصيته على التقليد !.

قصـــة افريقيـــة :

قال احد الكتاب المعاصرين :

كان لي صديق افريقي حميم ، وكانت تربطني به علاقة عائلية قديمة ، وكان شغله بيع القبعات ، بالجملة والمفرد ... وذات يوم ، خرجت معه في نزهة عصرية قصيرة ، في احدى الغابات الراقدة على الساحل ، فـــي افريقيا .. وكنا — انا وهو — نرتدي القبعات توقيا من حرارة الشمس ، وكان يحمل معه ، حزمة من القبعات ... فتركناها في مكان معين في الغابة ، وذهبنا الى الشاطيء على امل ان نعود ، فنأخذ القبعات معنا !.

وكم كانت المفاجأة مضحكة : عندما رجعنا لنجد ان القبعات ، قـــد سرقت بالكامل !.

وتحيرنا ، ترى من سرقها ؟ !

ورحنا ندير طرفنا هنا ، وهناك ، بحثا عن حزمة القبعات .

ولا تسأل : عن حالنا ، يوم رفعنا ، رؤوسنا نتطلع في الاشجار ، فاذا بنا نرى مجموعة من القردة ، قد ارتدى كل واحد منها قبعة فوق رأســـه ، ثم جلس فوق غصن من الشجرة يتطلع علينا !.

وغرقنا في الضحك العميق .. انه منظر يستأهل الوقوف الطويـــــل ، ثم فكرنا في كيفية ، استرجاع القبعات من رؤوس ، هؤلاء ، الجنود الذين لا يكادون يفقهون حديثنا .

وبالتالـــــي :

اهتدينا الى طريقة فنية ، تضمن لنا عودة القبعات سالمة .

والطريقة كانت تقضي ، بأن يأخذ كل ، واحد منا ، قبعته من رأسه ، ثم ينفخ فيها ، ويرميها في الارض ، حتى ، تصنع القرود ، نفس الصنيع ،

فتنزل القبعات المسروقة الى الارض بعد عملية النفخ !..

وهذا ما حدث بالضبط ..

فمجرد ان قمنا بهذه العملية الفنية ، قامت القردة كلها ، مرة واحدة ، بنفس العمل ، الاكاديمي ، فكان كل قرد ، يأخذ قبعته ، ويبصق فيها ــ بدل النفخ ــ ثم يقذفها بقوة الى الارض .

وهكذا جمعنا القبعات ، ثم غسلناها بالماء تخلصا من بصاق القردة ، ورجعنا والضحك يسيرنا الى الدار !

انه التقليد الاعمى ، الذي تسير عليه حياة الحيــوان بينما الامــر يختلف ــ تماما ــ بالنسبة للانسان الذي جاء ليعبد الله ، ويبني الحياة ، في حركة التطور ، والابداع ــ باذن الله ــ .

نعـــم : للابداع :

يقف الانسان ، وسط عالم يزهو بالابداع ! فاذا تطلع الى السماء ، راى حديقة النجوم المعلقة في الفضاء ، تجري في ابداع يبهر العقول ، ويسلب الالبـــاب !.

واذا نظر المرء الى الارض ، وما عليها من زينة ، ازدحمت المناظــر الفاتنة في عينيه ، وتلاحقت الصور امامه وكلها تشير الى عظمة بديـــع السموات والارض ، الخالق الكريم !.

وانظروا الى هذه القطعة ، من لوحة الطبيعة :

كان الليل غارقـا في السكون .

وكانت النجوم تبعث تحيتها ، من خلال ضوئها ، الفستقي الازرق ...
اما القمر : فكان يرش نوره الفضي ، فويق الحقول المنبسطة ، امام الطبيعة، كسجادة عجمية ، فتنتعش الازهار ، وتهفو الفراشات فوق الرحيق !.

وكانت الطبيعة ترتدي ثوب الفجر ، كي تستعد لبعث الصبح من نومه العميـــق !.

وفجأة ارتفع صياح الديكة ، ليشق سكون الليل فيعلن قدوم الفجر يتلوه الصباح .

ومرت دقائق معدودة ، كان الصبح بعدها ، يتنفس تنفســا عميقا ، في محاولة لاحتواء الشمس ، القادمة من المشرق الى المغرب .

واطلت الشمس بوجهها المشبع بالحمرة ، من وراء الجبال ، تبسط ضوئها ، فوق الحقول ، والوهاد فترتدي الطبيعة ثوب النهار الدافىء !.

وتحركت الكائنات الحية ، في طلب رزقها ! .

والطير صافات ويقبضن تجوب السماء ، زرافـــات ، زرافات تشق الجو بصدورها ، وهي في رحلة البحث عن الطعام .

وكما في السماء ، كذلك في الارض ، فهذه الكائنات الحية ، تموج في العمل ، ومنها الفراشة ، والنحلة ، والنملة التي دبت لرزقها ، تجمـــع في حرها لبردها ، وكلها حركة وعمل !

وكذلك السمك في الماء .. انه يسبح في احضان الماء ، وهو يعيش ضمن

نظام جماعي ، من أروع ما يكون .

انـــه الانســـان

وبعد ذلك فلا يفوتنك الانسان نفسه . ان سجل الابداع في جســم الانسان ، يبدأ ، ولا ينتهي ، لانه يفوق التصور ، والخيال !.

ومن بـــاب المثال :

لو طلبت من ارقى عبقري في الهندسة المعمارية في العالم ، ان يضـع لك خرائط متنوعة لاشكال مختلفة من البيوت ، في الهندسة ، فانه لو اعطي قدرة العباقرة في الهندسة ، لا يستطيع ان يخطط لك اكثر مـــن عشرة آلاف بيتا متنوعا — وهذا هو اعلى رقم حسابي في هذا المجال — !.

ولكن تعال معي لترى الابداع الالهي ، في خلق هذا الانسان ، وحده !.

واليك اربعة من الصور الابداعية في الانسان :

أولا : الصورة ، النسخة المفردة التي لا تتكرر !

ثبت علميا ، بالقطع ، انه من المستحيل ، ان يوجد ، اثنان من البشر — على سطح الارض — يتشابهان ، في الصورة — مئة بالمئة — ولا حتى في الصوت !.

يقول العلماء : عندما تنعقد النطفة في الرحم ، تقرر الجينة الوراثيـــة — وهي خلية من الصغر بحيث لا يمكن رؤيتها الا بادق الاجهزة العلمية ، تقبع — عادة — في الكروموسومات — التي يتخلق منها الجنين — تقرر هذه

الجينة نوع المخلوق الذي يجري انتاجه حتى تموجات شعره ، ولون عينيه يا لعظمة الابداع !.

تصوروا : انه حتى تموجات شعر الراس ، التي يحدثها الهواء ، لها ذبذبات خاصة بصاحبها ، ولاتنطبق على غيره ابدا !.

فمن عجيب صنع الله البديع ، ان هذه الوراثية ، تعطي الانسان ، صورة ، ليس لها ، مثيل ، ولا شبيه في عالم الانسانية ، على الاطلاق ، فالفم ، والانف ، والشفاه والعيون والحواجب وكل ما في جسم الانسان من اعضاء ، هذه كلها تشكل نسخة مفردة لا تتكرر ، تسمى الانسان !.

وثانيا : الصوت ، وقد ركبت اوتاره ، تركيبا معجزا ، وعجيبا بحيث لا يستطيع احد ان يقلد صوت اخر — مئة بالمئة — حتى ان الواحد منا ، يعرف الانسان الاخر ، في الظلام ، منصوته !.

واما الثالث : فهو بصمة الابهام، والتي يقول فيها القرآن الكريم « بلى قادرين على ان نسوي بنانه » .

والبنان : هو اصبع الابهام .وقد اثبت العلم ان بصمة الابهام هذه ، لا تتكرر خطوطها ، عند انسان اخر ابدا !. ولهذا اصبح الاعتماد على اخذ بصمات الاصابع ، في الدوائر الرسمية ، وفي الوثائق الهامة ، له اثره الكبير !.

وكما في التوقيع بالاصابع ، كذلك في التوقيع بالقلم !

ورابعا : حركة اليد ، فقد اثبت العلم الحديث ان لكل يد حركة خاصة بها .. فاليد عندما تتحرك ، تحدث موجات في الهواء ، والشيء الملفت

للنظر ، ان كل يد تترك موجات ، ليس لها مثيل ، في بقية الايدي ! وتبعـا لذلك فان التوقيع بالقلم ، هو الاخـــر ، ايضا يشكل معجزة ، في لائحة الابداع الالهي .

اذن : فكل واحد منا ينفرد بهذه الامور الاربعة :

ا ــ التموجات الصوتية . ب ــ خطوط الاصابع . ج ــ ذبذبات الخط.
د ــ تموجـات الشعـر .

وهل بعد هذا الابداع ، ابداع ؟!

تقول مولاتنا فاطمة الزهراء ــ سلام الله عليها ــ :

« ابتدع الاشياء لا من شيء كان قبلها ، وانشأها ، بلا احتذاء امثلة امتثلهـا » .

ويقول الامام علي ــ عليه السلام ــ :

« انشأ الخلق انشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية اجالها ، ولا تجربـة استفادها ، ولا حركة احدثها .. » .

اجل : انه الابداع الالهي الذي لا يعرف الحدود !.

من كل ذلك ، نخرج بالنتيجة التالية وهي :

ان الله سبحانه وتعالى ، خلق الانسان ، وجعله خليفته في الارض ، ليقوم بدور الابداع والابتكار في مجال الحضارة ، والبناء المادي ، ويقـوم

بدور الطاعة الكاملة لله ، والعبادة المخلصة له ــ سبحانه ــ في مجال العقل والبناء الروحي . . . فهذا هو هدف الانسان في الحياة : ان يعبد الله مخلصا له الدين ، ثم يبني الارض ، ويربي الحضارة ، على ضوء توجيهات القرآن الكريم ، ومناهجه العلمية .

فالله يريد منا ، ان نؤمن به ، ونأخذ ، بمناهجه ، فيكل مناحي الحياة، ومن اجل هذا الهدف جاء الانبياء ، ونزلت القوانين السماوية ، ومن اجل هذا الهدف ــ ايضا ــ امتدت قائلة ، الشهداء الطويلة الدامية ، على طــول التاريــخ !

ومن اجل هذا الهدف ــ وهو تطبيق حكم الله في الارض ــ كانت فاجعة الطف ،ومقتل سيد الشهداء الامام ابي عبد الله الحسين عليه افضل الصلاة، وازكى السلام ــ فلا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الــــدم ــ !.

والرابع : « ان تعرف ما يخرجك عن دينك » .

لكي تعرف ما يخرجك عن دينك ، عليك اولا :

ان تعرف لون الايمان بالله ، ولون الشرك بالله !.. فكثيرا ما يذوب احد هذين اللونين بالاخر ، فتضيع الصورة الحقيقية للايمان ، فــي وادي الشرك السحيق .

والسؤال الان هــو :

ماذا يعني ، ان تكون مؤمنا بالله ؟!.

الجواب يقتضي شيئا من التفصيل !. وذلك لان كلمة الايمان ، لهــا

جانبان : الجانب السلبي ، والجانب الايجابي ، ولنأخذ ــ مثالا على ذلك ــ : كلمة التوحيد ، وهي : « لا اله الا الله » .

وعندما ندقق النظر فيهذه‌الكلمة ، نجد انها كلمة ذات بعدين :

بعد النفي ، وبعد الاثبات ، اي انها كلمة مؤلفة من الرفض والقبول !.

النفي « لا اله » ، والاثبات « الا الله » .

فأولا ، تنفي كل اله مزيف ، وترفض الطاعة لكل الاصنام في الارض ، ثم بعد ذلك تؤمن بالله الواحد العزيز الجبار المتكبر .. وفي آية الكرسي المباركة ، نجد الصورة ، اكثر وضوحا : حيث يقول القرآن الكريم :

« فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ،فقد استمسك بالعروة الوثقى».

تأملوا هذه الاية جيدا :

« فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن الله .. »

اذن : فالايمان ، يبدأ بالكفر بالطاغوت ، برفض الطاغوت ، ثم بالايمان بالـلـــــه .

وعندما لم ترفض الطاغوت ، فانك لست مؤمنا بالله ، حتى ولو وجدت نفسك تصلي في اليوم والليلة الف ركعة !.

والطاغوت : يعني كل طاغية سفاك .. كل حاكم ظالم جلاد !.

الطاغوت : يعني الاصنام البشرية ، التـــي تعبد من دون الله !..

وبالتالي : فالطاغوت معناه : الحكام الظالمون الخونة ، صنايع الغرب ، والشرق الذين زرعهم الاستعمار ، في البلاد الاسلامية لخنق صوت الاسلام ، وسحق الشعوب المستضعفة ، ونهب نفطها ، وخيراتها ، الى الاجانب والمستعمرين !.

اجـــل :

الطاغوت : كل ظالم باع ضميره ، ووطنه للاجنبي ، وسحق شعبه بعجلات الفقر ، ودولاب الاضطهاد والقمع !.

اذن : فعندما نقرأ قوله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله » ندرك ــ على الفور ــ ان المراد بالايمان ، هو : الرفض الكامل لكل طواغيت الارض وشذاذها .. الرفض المطلق لكل الظالمين ، والمستكبرين ، اولا ، والايمان بالله ثانيا.. الايمان بشريعة القرآن ، الايمان بكل الانبياء والمرسلين ثم الايمان ، بالاسلام النابع من القرآن الكريم ، والعترة الطاهرة !.

ومن اجل التوضيح اكرر بعض مقاطع الموضوع :

الايمان بالله ، يعني : ان تكفر بالطاغــوت ، ثم تنتقل الى مرحلة الايمان .. « فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعـروة الوثقــى .. » .

يقول الامام الصادق ــ عليه السلام ــ في حديث له ، حول هذا الموضوع بالـــذات :

« ان بني امية اطلقوا للناس تعليم الايمان ولم يطلقوا لهم تعليـم الشرك ، لكي اذا حملوهم عليه ، فعلوه ولم يعرفوه » !. اي : ان بنـي امية اعطوا الحرية للناس في ان يؤمنوا بالله ،ولكنهم ما اعطوا الحريةللناس

في ان يكفروا بالطاغوت !

فالامويون سمحوا للناس ، في الايمان بالله ، ومنعوا عنهم الكفر بالطاغوت !.

في ظل حكومة بني امية ، لك الحق في ان تصلي .. وتصوم ، وتذهب لاداء فريضة الحج ... ولكن ليس من حقك ، ولا مسموح لك ، ان تتعرض للسياسة ، ولا ان تتعرض للحاكم الظالم ، والا فسيكون مصيرك ، مصير ابي ذر الغفاري ، تموت جوعا بالعراء ! . هذا اذا لم يلقوك في غياهب السجون ، لتنفض حياتك تحت قسوة السياط ، ومرارة العذاب ! .

فالسياسة الظالمة — في كل زمان ومكان — تريد منك ان تعرف الايمان فقط وتمارس شعائره التعبدية ، اما الشرك فمحظور عليك ان تعرفه ، لا من قريب ولا من بعيد !.

صلي ، واسكت على الظلم ، صم وارض بالذل والحرمان ، اذهب الى الحج ، وادعو للحاكم الظالم ، بين الركن والمقام ، بالصحة واطالة العمر !.. اما خيرات البلاد ونفطه ، ومعادنه ، فلتذهب الى غير رجعة .. اما الاحرار القابعون في السجون .. اما الابرياء المعذبون ، اما المحرومون ، والمستضعفون من ابناء الشعب .. فليذهبوا جميعا الى الجحيم !.

بهذه العقلية يريدك الظالمون ، ان تفكر ، وبهذا الاسلوب ان تعيش ، والا فانت تشكل خطرا على سلامة امن الدولة ويجب الخلاص منك ، وتصفيتك ، بأقرب فرصة وبأتفه وسيلة !.

هذا هو اسلوب بني امية ، في معاملة الناس ، الواعين !.

والتاريخ حافل بسجل الشهداء ، الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق ، وابرد برؤوسهم الى الفجرة !.

ومن هؤلاء : حجر بن عدي ، واصحابه الذين قتلهم معاوية بن ابي سفيان ، شر قتلة !

هؤلاء حملة القرآن ، وحضنة الاسلام ، وشيوخ الايمان ، والعقيدة ، والجهاد ، والتقوى ، هؤلاء الاقمار السابحة في فلك محمد وعلي ... يحفر لهم ــ معاوية ــ قبورا بالعراء ، ثم يدسهم في التراب !.

الا ساء ما عمل معاوية ! .

وظل مقتل هؤلاء البررة ، يصليه نارا ، فقد كان الناس يسمعونه (اي معاوية) يصيح برفيع صوته : « ليلي منك يا حجر طويل !.. » .

اذن : فالتاريخ حافل بأسماء العظام الذين رفضوا الطاغوت ، فكانت نهايتهم على ، الطريقة الاموية : « ان لله جنودا من عسل » ..

« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله .. » .

واذا قرا بنو امية هذه الاية ، فانهم يقرئونها ، بهذا الشكل التالي : « لا اكراه في الدين ... فمن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

اما صدر الاية : « فمن يكفر بالطاغوت .. » فلا مكان له عند بني امية ، ولا يريدون ان يعلموه للناس وللتاكيد اكرر القول مرة ثانية :

لاحظوا كلمة التوحيد .. انها مؤلفة من نفي ، واثبات ، اي : من كفر وايمان ، فانت تقول : « لا اله .. الا الله .. » نفي ، واثبات ، ونفس

الشيء ، في بقية المناهج الاسلامية ، اذ انها تبدأ بالرفض ، وتنتهي بالقبول ! ولكي تكون الصورة اكثر وضوحا .. سأعرض عليكم بيانا خطيا ، للقضية والبيان الخطي هو كالتالي :

رسم بيانـــي

النفـــي	الاثبـــات
فمن يكفر بالطغوت	ويؤمـــن باللــــه
لا الـــه	الا اللــــه
النهي عن المنكر	الامر بالمعروف

الشرك له طرفــــــان :

طرف في العبادة ، وطرف في الطاعة ، وكلاهما يؤدي الـــى الخيانـــة العظمـــــى !.

فالشرك في العبادة ، ان تعبد غير الله ، مثل ان تعبد الاصنام ، ان تعبد الشمس والقمر ، وبقية انواع العبادة ، في حين ان الشرك في الطاعة هو : ان تطيع غير الله ، مثل ان ، تطيع السلطان الظالم !.

والعبادة ، والطاعة ، كلمتان مترادفتان :

يقول القرآن الكريم : « الم انهكم يا بني آدم ان لا تعبدوا ، الشيطان » اي ان لا تطيعوا الشيطان ، وذلك لان المرء لا يسجد ولا يركع للشيطان ، وانما فقط يطيع اوامره !.

قال ابو بصير : سألت ابا عبد الله ، عن قوله تعالى : « **اتخذوا** ، **أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله** .. » ؟ !

فقال الامام : « اما والله ما دعوهم لعبادة انفسهم ، ولو دعوهم لعبادة انفسهم لما اجابوا لهم . ولكن احلوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا ، فعبدوهم من حيث لا يشعرون ، قالوا لهم اعملوا ، فعملوا ... » .

وقال الامام الباقر ـــ عليه السلام ـــ : « **في قوله تعالى** » : « **وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون** (١) » . قال : « ذلك شرك الطاعة ، وليس شرك العبادة .. » .

ويقول الرسول الاعظم ـــ **صلى الله عليه وآله** ـــ : « **من اطاع مخلوقا** في غير طاعة الله عز وجل ، فقد كفر ، واتخذ الها من دون الله » !.

وعن الامام الصادق : « **من اطاع رجلا في معصية الله فقد عبده** » !

وايضا ورد عن الامام محمد بن علي الجواد ـــ عليه السلام ـــ : « من اصغى الى ناطق فقد عبده ، فان كان الناطق عن الله ، **فقد عبد الله** ، وان كان الناطق ينطق عن لسان ابليس ، فقد عبد ابليس » ! .

ويبدو من خلال حديث الامام الجواد ، ان الاستماع ، للغناء هو : نوع من انواع الشرك في الطاعة ! وذلك في قوله : **من اصغى الى ناطق فقد عبده** .. ونفس الشيء يقال ، بالنسبة للافلام الخليعة ، التافهة ، الرخيصة ، التي تعرض على شاشة التلفزيون ، والسينما ..

---

(١) يوسف آية ١٠٦ .

فالشرك في العبادة ، ان تعبد غير الله : « واتخذوا مـــن دون الله ، آلهة ، ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » قرآن كريم اية ٨٢ سورة مريم .

والشرك في الطاعة ان تطيع ، السلطان الجائر !

ومن كل ما تقدم نخرج ، بالحصيلة التالية : وهي : انالايمان بالله ، دون مقاومة ، الطغاة والظالمين ، يؤدي الى تمزق المجتمع ونهايته المرة !.

وقد اشار الامام علي ـــ عليه السلام ـــ الى ذلك في كلمة رائعة : « اما انكم ستلقون ، من بعدي ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، واثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة » .

وايضا فقد اشارت السيدة الطاهرة ، فاطمة الزهراء ـــ سلام الله عليها ـــ الى ذلك ، في خطبتها الشهيرة :

« .. فابشروا بسيف صارم ، وسطوة معتد غاشم ، واستبداد مـــن الظالمين يدع فيئكم زهيدا ، وجمعكم حصيدا .. » .

فلكي يكتمل ايمانك بالله ، عليك ان تقـــف في صف المظلومين ، ضد الظالمين ، ومع المحرومين ، ضد المستكبرين !.

الفصل السادس

الصلاة: استقلال الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

لا شك ان الصلاة تقف في الصف التقدمي ، وليس في الصف الرجعي ، وذلك ، لان الصلاة رحلة في طريق التكامل النفسي والجسدي ..

ونظرة واحدة ، على الصلاة ، تكفي لاعطائنا اقوى الادلة ، على انها احتوت على كثير من الابعاد التقدمية .

ومثالي على ذلك ، سورة الحمد التي نقراها في اول الصلاة ، وهي تشكل اكبر بقعة في ساحة الصلاة !.

ويوم تقراها بوعي ، فانك تعيش التقدمية بالكامل ، واذا اردت ان تتنفس التقدمية عبيرا ، منعشا ، ينشط رئتيك ، فما عليك الا ان تدرس سورة الحمد ، دراسة دقيقة ثم بعد ذلك ، تردد كلماتها على شفتيك لتحس الحلاوة تتدفق في داخلك ، ثم تشعر بالكلمات ، وكانها تركض امامك ،فترش التقدمية بين يديك ، ففيها انعتاق من العبودية ، وفيها السباحة في الحرية ، وفيها السير على الخط المستقيم .. في الحياة ، في العلم ، في التربية ، في الجامعة ، في المدرسة ، وفي الاسرة ..

والسير نحو التكامل يستدعي السير ، في الخط المستقيم ، وذلك ان

الخط المستقيم ، هو الاقصر مسافة .. كما تقول القاعدة العلمية :

الخط المستقيم اقصر خط موصل بين نقطتين .

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »
(قرآن كريم) .

ليس بين المؤمن والكافر الا ترك الصلاة !.

هكذا بدأ الاسلام حديثه عن الصلاة !.

وفي العلم الحديث ، ان للصلاة اثرا عميقا على نفس الانسان ، فهي العطاء الدافيء للانسان على المدى البعيد .

كان غاندي يقول : لولا الصلاة لكنت معتوها منذ امد بعيد ..! وجاء بعده العالم النفسي الشهير ديل كارينجي ، فذكر في كتابه : دع القلق وابدا الحياة ، ان الصلاة اكسير الصحة ، وينبوع الحياة النفسية ، الهادئة .. فكم من الامراض التي تم علاجها عن طريق الصلاة ، وكانت من قبل تهزأ بالاطبـــاء !.

والصلاة عند الامام علي ــ عليـــه السلام ــ كالنهر الجاري الذي يغتسل فيه الواحد ، خمس مرات ، في اليوم ، فما عسى ان يبقى علـــى جسمه من درن ؟! فلا شك ان الصلاة تغسل ، القلب من الفحشاء ، والمنكر ، وتنظف النفوس من الرواسب الشيطانية المتكلسة ، في الاعماق .

والذي يلفت النظر هو ان يصدر كتاب من الغرب يعطي للصلاة بعـــدا

علميا ..! الكتاب اسمه : (اقول لكم : صلوا) ومؤلفه العالم النفساني الكبير (جورج ميلدن) وقد امضى هذا العالم قرابة اربع سنوات ــ مع ثلة من العلماء ــ في دراسة الصلاة ، ومدى تأثيرها على النفس والجسم .

والدراسة الشاملة في الكتاب ، والحصيلة الرائعة التي جاءت نتيجة طبيعية لهذه الدراسة الدينية ، تؤكد : ان العلم والدين ،يلتقيان في الصلاة ، ويتعانقان في اجزاءها .

جاء في الكتاب : ان الصلاة تخلق طاقة خفية في الجسم ، بحيث ان الذي يبدأ الصلاة ، تنطلق من جسمه اشعاعات خفية ، تتفاوت في درجتها ، بين شخص واخر !.

وقد اكد هذا العالم الكبير ، بعد ان استعان بالكثير من الاجهزة الحديثة العملاقة ، اكد ان الذبذبات المنبعثة من جسم المصلي ، تسبب له هدوء الاعصاب ، وراحة البال خاصة ، وان الدم يتدفق بكميات كبيرة خلال الصلاة ، للدماغ ، في اثناء الركوع ، والسجود ، الامر الذي يجعل خلايا الدماغ اكثر نشاطا ، واكثر انطلاقا في التفكير السليم (١) ! .

اما الدكتور الكسيس كارل ، فقد قال : (ان الصلاة هي اعظم طاقة عرفت حتى الان) !.

ومن غاندي الذي كان يقول : لولا الصلاة لكنت معتوها منذ امد بعيد .. الى يوثانت ــ سكرتير عام الامم المتحدة سابقا ــ الذي كان يقول : اسرح في صلاتي لكي اتحرر من القيود المادية التي تحاصرني على مدار الساعة .. فانا ارحل ــ كل صباح ــ مع الروح العليا ، في صلاة هادئة ــ ولكن على

---

(١) من راديو الكويت في ٢١ ــ ١ ــ ١٠٧٧ .

الطريقة البوذية بالطبع ـ وبفعل الصلاة ، كان اقوى رجل ، واهدأ سكرتير عرفته الامم المتحدة فلم تكن يلبس همومه فوق عينيه ، وانما كان يدفنها في صدره .

ونفس الشيء قاله المراقبون ، عن بطل الملاكمة ، محمد علي كلاي ، فهو لم يترك فريضة الصلاة ، قبل النزول الى ارض الحلبة ، وكان يقول : ان الصلاة تولد قوة خفية في اعماقي ، فتجعلني في قمة النشاط ، وتشعرني بأني اقترب من رحاب الله شيئا فشيئا ! .

والسؤال هو : « هل نحن البشر وحدنا نصلي لله ، ام ان الكائنات الاخرى ، تشاركنا في الصلاة ايضا ؟ » .

والجواب هو : ان الكل يشاركنا في الصلاة ، اخذا من الذرة والنبات والخلية .. ومرورا بالجبال والاشجار والدواب ، وانتهاءا بالطيور والكواكب والمجرات .. هذه الاجناس كلها ، قد عرفت صلاتها وتسبيحها !

وتعالوا ننظر الى الطبيعة ، وهي تؤدي صلاة الجماعة ، في موكب كوني واحد !.

« تسبح له السموات السبع ، والارض ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم (١) » .

حقا انها لصورة رائعة لهذا الكون وهو يقيم صلاته ، ويردد تسبيحه لله تبارك وتعالى ... ولكن المشكلة اننا لا نفقه التسبيح .. انه تسبيح من لون لم نتعود رؤيته في الحياة .

---

(١) الاسراء آية ٤٤ .

ثم لوحة اخرى ، تطلع علينا ، مع الطيور الصافات ، فـــي جـو السمـــــاء :

« الم تر ان الله يسبح له من في السموات ، والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون .. » (١) .

وخذوا هذه الترنيمة العميقة ، لصلاة الجبال مع داود !

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين .. » (٢)

وفي اية اخرى يقول : « يا جبال أوبي معه » اي مع داود النبي ... وأوبي تعني رجعي تسبيح الله ، وبكلمة : يجب ان يطابق ترجيعك يـــا جبال ، ترجيع داود ! والجبال ، والطيور ، مسبحة لله ، مع داوود ، ؤمع غير داوود « يا جبال اوبي معه والطير .. » (٣) .

والرعد ، هو الاخر ، يسبح الله ويقدسه « .. ويسبح الرعـــــد بحمده ، والملائكة من خيفته « (٤)

فليس الرعد وحده ، يسبح الله ، بل يشترك معه الملائكة في التسبيح، وهي خائفة وجلة ! .

وبكلمة اخرى : فالكون كله راكع ساجد مصل ، في طاعة الله لا يعرف

---

١ ـــ النور ايـــــة ٤١ .

٢ ـــ الانبيـــــاء اية ٧٩ .

٣ ـــ سبأ آية ١٠ .

٤ ـــ الرعد آية ١٣ .

المعصية .. اما الانسان فهو المخلوق الوحيد الذي جاء منه العاصي والمطيع .!

ولان الانسان ، ابن الطبيعة ، فعليه ان يعود الى طاعة الله ، منسجما مع الطبيعة ، في حركة واحدة .

ونلمح هذا المضمون ، في الاية التالية :

« الم تر ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال ، والشجر ، والدواب . وكثير من الناس ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب .. » (١) .

فالاية ، ذكرت الاجناس كلها ، من السموات والارض والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، ثم الشجر والدواب ، تلك اجناس بأجمعها ساجدة لله الواحد القهار ، فلم يستثن منها شيئا .. ولكن الحق ، عندما ذكر الانسان لم يذكر الاجماع معه ، وانما جاء منه العاصي ، وجاء منه المطيع .. فقال الله العظيم ... ! « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ..! » .

وكان المطلوب ان ينسجم الانسان مع الكون في الطاعة والصلاة ، الا انه — في بعض افراده — شذ بالمعصية ، فابعدته الشياطين عن الساحة ولذلك كان على الانسان ان يلتحق بالكون المصلي الساجد .

والشيء الملفت للنظر ، في هذا المجال هو : ان القرآن الكريم ، يثبت لنا ، بالقطع ، ان الطبيعة ، وما حوته من كائنات ، تستوحش ، وحشة

---

(١) سورة الحج آية ١٨

مريرة ، من البشر الذين تركوا عبادة الله ، وعبدوا الاحجار ، والاهـواء، والطاغـــوت !.

وذلك في القصة التاليـــة :

« .. وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لاعذبنه عذابا شديدا ، او لاذبحنه ، او ليأتيني بسلطان مبين .. » .

انه منطق يدلك على صرامة العدل ، الذي كان عند سليمان عليـــه السلام .. فهو حاكم عادل ، ودقيق في حساباته مع الرعية .. فلا يغيـب منهم احد دون عذر مقبـــول !

ويفتح المشهد الثاني من القصة برجوع الهدهد :

« فمكث غير بعيد فقال : احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبـــا بنبـــأ يقين .. » .

يا لروعة الهدهد ، وهو يقف خطيبا أمام النبي سليمان ، والثقة تتدفق من قلبه على لسانه فهو قوي القلب فصيح اللسان .. يخبر سليمـــــان، بأنه كان عند سبأ ، في اليمن ! فهو قد وصل الى مكان لم يصله سليمـــان من قبل .. قال : احطت بما لم تحط به .! وجئتك من سبأ بنبأ يقين .. اي انني احمل لك خبرا ، لا يحتمل التشكيك بصحته !.. وتابع في خطبته يقول: « اني وجدت امراة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم .. ! »الى هنا والخبر عادي لا يثير الاهتمام ..

وتابع الهدهد كلامه ، ولكن هذه المرة ، تغيرت لهجة الهدهد ، وبدى عليه الامتعاض ، وكأن الالم يعتصر قلبه ، وهو ينقل الخبر المأساوي : « .. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان

اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون .. » .

اذن : فالذي حز في قلب الهدهد ، انهم يسجدون للشمس من دون الله — لانه بفطرته يعرف أن السجود يكون لله وحده ، وتلك سيرة الطبيعة !

ولماذا لا يسجدون لله ؟

« الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون .. » .

ومن عجيب لطف الله في خلقه .. ان هذا الهدهد ، يستدل — بفطرته — على وجود الله ، من خلال اشياء تتوافق مع جنسه ، وطريقة معيشته في الحياة ، فهو عرف الله ، الذي وفر له الخبء في الارض ، والخبء هو الرزق ، الطعام المخبوء تحت التراب ، والهدهد يهتدي الى هذا الخبء بمنقاره .

« الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » .

« الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » .

وهنا لفتة رائعة في الاية ، وهي أن الهدهد ، ذكر عظمة الله امام سليمان ، لكي يتنازل سليمان عن عظمته امام الهدهد ، وكأنه يذكره ، بأن هناك من هو أعظم منك يا سليمان . (١)

---

١ — الايات في سورة النمل من اية ٢٠—٢٥ .

فالكلام الذي يهمنا في القصة — هو أن يقول الهدهد :

« وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » .

وكأن الذي قطع قلب الهدهد ، هو أن يجدهم على هذه الحالة الكافرة .. وهذا دليل على ان عقيدة التوحيد سارية في مخلوقات الله سبحانه .. كافة ..!

ويقول القرآن بصراحة : ان الطبيعة تبكي لفقد المؤمن ولا تبكي لفقد الكافر .

وذلك فيقوله تعالى :كم تركوا من جنات وعيون،وزروع ومقام كريم،ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك واورثناها قوما اخرين .. » ثم يقول الحق : « فما بكت عليهم السماء والارض ، وما كانوا منظرين » (١) .

ولان منطوق الاية ، يدل على انها ما بكت على الكافرين ، فمفهومها، يدل على انها تبكي على المؤمنين ..!

فما بكت ؟ كأن السماء تبكي .؟ نعم تبكي ، وتبكي بعاطفة ايضا ، ولكن فقط على المؤمن المطيع لله سبحانه ، لانه منسجم مع السماء والارض ، في الصلاة .

أما الكفار ، اما قوم فرعون فلا تبكي عليهم السماء ولا الارض ... لانهم كانوا كافرين ، بالله وأياته ..

---

١ — الدخان آية ٢٥ — ٢٩

وكان الامام علي ــ عليه السلام ــ يقول : « اذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في الارض ، وموضع في السماء : اما في الارض ، فموضع صلاته ، واما في السماء ، فموضع العمل الصالح .. »

ويصرح التاريخ : ان السماء بكت من اجل استشهاد الامام الحسين عليه السلام .. وقد اشارت لذلك بطلة كربلاء زينب سلام الله عليها ،عندما قالت : « .. افعجبتم ان مطرت السماء دما ولعذاب الله اخزى ، وانتم لا تنصرون .. » (1) .

اذن : فالسماء تبكي لفقد الانسان المؤمن المصلي بينما لا تبكي لفقد الكافر كما يقول القرآن ..!

يرتبط كثير من العبادات في الاسلام بحركة الشمس ، والقمر .. فمثلا، الصوم يرتبط بالقمر « صوموا للرؤية ، وافطروا للرؤية ، ومن راى منكم الشهر فليصمه .. وكذلك الحج في حين ان : الصلاة مرتبطة بالشمس ، فصلاة الصبح قبل الشمس بوقت معين ، وصلاة الظهر وقت زوال الشمس، والعصر حين يصير ظل كل شيء مثلية ، وهكذا المغرب والعشاء .

وارتباط الصلاة ، بحركة الشمس يوحي لنا بالوحدة في الهدف بين الشمس والصلاة .. فكما أن الحياة الطبيعية تعتمد على وجود الشمس ، فكذلك الحياة الروحية تعتمد على وجود الصلاة .. وكما ان الحياة الطبيعية تنطفأ بانطفاء الشمس ، كذلك الحياة الروحية .. فالشمس عمود الطبيعة ، والصلاة عمود الدين ..!

---

1 ــ من خطبة زينب في الكوفة .

الصـــلاة تقتـل الجريمة

لقد اكد القرآن ، ان الجريمة تنشأ من ترك الصلاة وذلك لان الصلاة، تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وفي موتها تتناسل الجريمة ، في تكاثر سريـــع الانتشـــــار .

فاقرؤوا — ان شئتم — هذه الايات اللاحقة ، لتروا كيف ان انعدام الصلاة في المجتمع ، يتحول الى منزلق خطير نحو الهاوية ، والى مستنقـــع الجريمة والفساد الخلقي :

يقول الحق سبحانه : « يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم في سقـــر قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مــــع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين » .

يبدو من خلال العرض القرآني لحالة المجرمين في الجحيـــم .. ان الجريمة تبدأ من ترك الصلاة ، وتأخذ بالانحدار الشديد في الهاوية ، مـــع اقتراف الجرائم الاكثر حدة والاعظم خطرا على سلامة المجتمع ..

اذن ، بداية الجريمة ، ترك الصلاة ..!

كان أهل الجنة يطرحون السؤال التالي على اهل النار :

« ما سلككم في سقر » وكان يجيء الجواب صاعقا « قالوا : لـــم نك من المصلين » فنحن اولا تركنا الصلاة ، ولما تركناها ، انقطعــت علاقتنا بالله العظيم ، فجف الايمان في قلوبنا ، وانطفأت العاطفة في ظـــلام المعصية ، فكانت النتيجة اننا لم نتفقد المحرومين ، ولم نطعم المساكين .. «ولم نك نطعم المسكين» وتدحرجنا اكثر فاكثر في المنزلق ، ورحنا ننشــر الفوضى في المجتمع من الغيبة ، والنميمة ، والنفاق ، وملاحقة الاعراض ..

« وكنا نخوض مع الخائضين .. » وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك .. كفرنا باليوم الاخر ، وقلنا لا جنة ولا نار .. ولكن هل غير ذلك من الواقع شيئا ؟ كلا ، وكلا .. لان الحقيقة باقية .. وصدمتنا باليقين .. فصرنا في الجحيم ...

والان ، ارايتم الذين تدرجوا في مرديات الجريمة كيف صارت بهم الحال ؟

وماذا عن المجتمعات التي تركت الصلاة ؟

لا شيء فيها ، سوى انعدام الامن ، والخوف ، والقلق ، والتربص، والاختطاف ، والاغتصاب .

فهذه المانيا — كما تقول الصحف — قد تحولت الى غابة تسكنها الحيوانات الضارية ، وليس الانسان الوديع الامين !

فالاختطاف بالمئات ، وحوادث الاغتصاب بالالاف وجرائم السلب والنهب ، والقتل ، تفوق الحصر ، حتى عادت العاصمة في الليل ، مدينة اشباح ، لا يكاد الواحد يأمن على نفسه من الخروج .!

والان وانا اكتب هذا المقال ، امامي مجلة التايم الامريكية ، وهي تحمل تحذيرا الى نساء لوس انجلس .

ويقول التحذير : « المراة التي تسير بمفردها في شوارع لوس انجلس، معرضة للخطف والاغتصاب ، خاصة اذا حاولت استخدام (الاوتوستوب) كوسيلة لتنقلاتها ، وبعد تكرار حوادث الاختطاف والاغتصاب في مدينة لوس انجلس اعلن القاضي — هناك — انه : لا يمكن للمرء ان يتخيل الانحطاط الخلقي الذي وصل اليه المجتمع الامريكي ... ثم اضاف يقول في التحذير : على الفتيات عدم القيام بالنزهة بمفردهن .. واذا خرجن،

فعليهن توقع الاغتصاب في اية لحظة .. » .

والصحف والمجلات ، تموج بحوادث الاختطاف والاغتصاب ، والقتل، والسلب ، والنهب ، في كل يوم ، وفي كل انحاء العالم غير المصلي بـــلا استثناء ..!

انه امر يدعو الى الدهشة ، والفكرة الطويلة ..

وقد اكد علماء الاجتماع والتربية ، وكذلك علماء النفس :

« ان اي مجتمع يبتعد افراده ، عن الدين ، وعن الصلاة ، تكـــون نسبة الاجرام فيه اكثر واشد ! » .

فالمجتمع بحاجة الى المضمون الجيد ، والصلاة تتكفل هذا المضمون ..
وقد جعل الله ، ترك الصلاة مصدرا للتدهور الخلقي ، والتمـــزق الاجتماعي ، فقـــال :

« .. فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهــوات ، فسوف يلقون غيا .. » .

ورددوا معي كلمة : «فسوف يلقون غيا » حتى تعرفوا الحقيقة عـــلى طبيعتهـــا ..!

والصلاة صمام الامان ، من الانهيارات العصبية التي يتعرض لهـــا الانسان خلال رحلته في الحياة ..

« ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مســه

الخير منوعا ، الا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون .. » (١)

وقد اكد علماء النفس حقيقة اخرى وهي :

« ان الناس المصلين ، هم اكثر هدوءا من غيرهم واعمق اطمئنانا ، وهم لديهم القدرة الكافية في مواجهة الصعاب .

وكان النبي الاعظم — صلى الله عليه واله وسلم — اذا شعر بالضيق يتسرب الى صدره ، صاح يا بلال ارحنا . فكان يقوم بلال ، ويرفع الاذان للصلاة !..

اي ، يا بلال ارحنا .. ارحنا من هم الدنيا ، وقلقها ، ارفع الاذان، لنصلي لربنا صلاة الخشوع والاطمئنان !

والصلاة تعلمنا درس الحرية ، والاستقامة .

فنحن نقول في الصلاة : اياك نعبد واياك نستعين .. وهنا نكسر قيود العبودية لغير الله .. ثم نتوجه الى عبادة الله ، وهذه هي الحرية باروع معانيها .

ان تكون عبدا لله ، فانت حر ..

اما اذا صرت عبدا لشهواتك ، ورغباتك فانت عبد ، حتى ولو اغمضت عينك وتصورت انك في بستان الحرية ..

---

١ — سورة المعارج اية ١٩—٢٣ .

وعندما نقول في التشهد : اشهد ان محمدا عبده ورسوله .. فاننا ناخذ الحرية من القمة وليس من السفح .. وذلك اننا قدمنا العبودية على الرسالة .. وهذا منتهى الاكرام للعبودية السماوية .

انها تمضي التحرر الكامل من كل قيود المادة ، واغلال الشهوة ..

والاسلام يقول : « لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرا .. » .

فليست الحرية ، في العربدة ، والاستهتار ، وعبادة « الغير » من اي نوع كان ، وانما هي حرية العقل ، وحرية الفكر ، وحرية الاستقلال ، والتقدم .

انها الحرية التي زرعها الانبياء في الارض وسقاها الامام الحسين بدمه الطاهر ..!

. والصلاة هي كتاب ضمير الانسان ، فاذا اردت ان تقرأ كتاب ضميرك، فما عليك الا ان تقوم وتتوضأ ، وتنفض غبار الكسل عن صدرك ، وتقف بين يدي الله العزيز العليم وتذوب في رضوانه .. في صلاة خاشعة ، هادفة الى الخير ، والجمال ، والنور ، والحرية .

يقول القرآن الكريم :

« ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. » .

ويقول الامام على أمير المؤمنين — عليه افضل الصلاة ، وازكى السلام : « تعاهدوا امر الصلاة وحافظوا عليها — واستكثروا منها ،

فانها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ... الا تسمعون الى جواب اهـــل النار ، حين سئلوا : ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين » .

وانها لتحت الذنوب حت الورق ، وتطلقها اطلاق الربق .. وشبهها رسول الله ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ بالحمة ــ تكون على بـــاب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن ... وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهـــم عنها زينة متاع ، ولا قرة عين ، من ولد ولا مال ... يقول الله سبحانه : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واقام الصــلاة وايتـــاء الزكاة ... » (١) .

وكان الامام علي ــ عليه السلام ــ اذا جن عليه الليل ، يتحول الـــى دمعة تجري في ثنايا الليل .. يقول :

« ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ، فاذا رددت فاي باب اقرع . »

براك الظمـــأ مـــن خـــوف باريك في غـــد

وقد امـــــن المغـــرور من خوف باريـــه

على شفتيـــك الذكـــر يطفـــح سلســـلا

فتنهـــل عـــلا مـــن سمـــو معانيه ..

---

(١) نهج البلاغة ص ١٧٩

يقول نوف البكالى :

« رقدت عند امير المؤمنين ، ليلة من الليالي ، فلما تناصف الليل،نظرت الى علي يدور يتلمس الحيطان ، وقد رمق السماء بطرفه قائلا :

(ما لي كلما طال عمري كثرت خطاي ولم اتب ، اما آن لي ان استحي من ربي) .

وسألني : يا نوف انت رامق ام راقد ، قلت سيدي بل رامق ، قال : اعلم أن لي ولك موقفا عظيما ، بين يدي الله ، كن من الله على حذر .

ثم قال يا نوف : اني رأيت اصحاب محمد يبيتون لربهم سجـــــــدا وقياما ، يخالفون بين جباههم ، وجنوبهم اذا ذكر الله عندهم يميدون كمـــا يميد الشجر ، كانما القوم يأتوا غافلين .. » .

فيا أيها الاباء علموا اولادكم الصلاة ، وهم ابناء سبع سنين ..

ويا ايها الشباب عليكم بالصلاة ، فانها عمود دينكم — وهي مصـــدر عزكم ونجاحكم في الحياة .

وانتن ايتها الفتيات المؤمنات عليكن بالصلاة ، هيا ابحـــــرن اليها .. مقتديات بفاطمة الزهراء ، وبطلة كربلاء زينب التي ما تركت الصلاة ، وهي في أشـــــد عنتها ..!

قصـــــة مؤلمـــة :

اذكر جيدا ، ذات يوم ، زرت أحد الاصدقاء في بيته ، ولما حان وقـــت

الصلاة ، قمت الى الصلاة ، فغسلت وجهي ويدي الى المرافق ، ومسحت براسي ، ورجلي الى الكعبين .. وبعدها طلبت منه التربة ، لاسجد عليها ، كما قال النبي : جعلت لي الارض مسجدا وطهورا . ولكنه اخبرني بأن لا وجود للتربة في البيت ..!

لا يهم ذلك ، فبالامكان ان يسجد الانسان على اي حصير ، او اي شيء لا يؤكل ولا يلبس .

وكم كانت دهشتي شديدة ، عندما سألته عن جهة القبلة ، فوقف المسكين ، متحيرا لا يدري ماذا يجيب فهو لا يعرف القبلة ، وما حدث ان توجه نحو القبلة في حياته للصلاة ..!

لا بأس ، فليوجه السؤال الى امه العجوز ، الطاعنة في السن .

وهكذا فعل ..!

ونزلت الكلمات على راسي نزول الصاعقة ، وفقدت صوابي ، وانا اسمع الام الموقرة ، تجيب ولدها قائلة :

والله يا ماما ، انا ما ادري ، من اين القبلة ولكن المرحوم كان يصلي من جهة الشمال ..!

ولئلا تتكرر المأساة ، في البيوت الاخرى ، علينا ان ندخل نور الصلاة، في كل بيت ، وفي كل اسرة اسلامية .. ليقوم الناس بالقسط في الحياة، و ادارتها ..!

فالامام الصادق عليه السلام يقول : « ان شفاعتنا لا تنال مستخفا

بالصلاة .. » !!.

ونحن نقول في الصلاة :

اهدنا الصراط المستقيم :

والصراط المستقيم ، هو اقصر خط موصل بين نقطتين — كما تقول القاعدة العلمية ..

وعلى هذا ، فاننا اذا أردنا الرواح الى الله فما علينا الا ان نركب سفينة الصلاة ، فانها اسرع السفن ابحارا ، واكثرها امانا ، من الغرق في الشهوات ، والظلمات .

الفصل السابع

الحرية: دم الانسان!



الحريـــة

الانسان يحتاج الى الحرية ، احتياج الوردة الى النور ! فهو لا بد لـه أن يعيش في الحرية ، كما يعيش السمك في الماء لا يستغني عنهـا بـأي حال من الاحوال ..!

ويوم تموت الحرية ، يموت عطاء الانسان وتنطفأ كرامته ! لانه مثل الوردة التي لا تنمو ولا تتفتح الا في الشمس والهواء ، والحرية ــ بالنسبة للانسان ــ هي الشمس والماء ، والهواء !.

واقوى دليل على ذلك ، هو وضع المسلمين الحالي ، بالنسبـة لوضعهم الماضي ، فيوم كانت البلاد الاسلامية تغتسل بماء الحرية ، كانت تعطي العالم علما ووعيا ، وفكرا ، وكان العلماء المسلمون ، يكتبـون أسمائهم على صفحة القمر ، وفي زرقة السماء ، الامر الذي جعل العالـم الغربي ، والشرقي ، يركع في خشوع ــ أمام عظمة العلوم الاسلاميـة ، وعبقرية علماء الاسلام وحتى هذه اللحظة ، لا زالت اسمائهم تتصـدر الجامعات العلمية في الغرب وفي الشرق على حد سواء .. فهذا جابر بـن حيان الكوفي ، زعيم الكيمياء ، ومكتشف الذرة واسرارها ، وذاك ابن سينا ، قائد موكب الطب ، وفيلسوف الحياة ، وذالك ، ابو الحسن ابن الهيثـم ، رجل الفيزياء ، والرياضيات ، وذلك الشيخ البهائي ، والمفيد والعلامـة الحلي ، والشيخ الطوسي ، والكليني ، وامثالهم ، من الذين تعاقدوا عـلى

العلم ، ونشروه في أكثر بقاع الدنيا .

كل هذا وغيره حدث في الماضي ، يوم كانت البلاد الاسلامية ، تسبح في أنهار الحرية ، واوربا المسيحية تتعثر في الظلام ! فقد كانت الكنيسة ، تحرق العلم ، والعلماء ، وكانت تجري وجبات التعذيب على المكتشفين ،في الساحات العامة ، وعلى رؤوس الاشهاد ، حتى ذكر المؤرخون ان الكنيسة في الغرب ، احرقت ، وعذبت ، وقتلت اكثر من ثلاثين الف عالم ، في مختلف العلوم ، أمثال : « غاليلو » و « كوبرنيكس » .

هذه الصورة ، وقعت في الماضي الغابر يوم كانت اوربا غارقة في ظلام الكبت والجهل ، وكانت البلاد الاسلامية ، سابحة في نور العلم والحرية ..!

أما الان ، وعندما انقلبت الاية على وجهها ، وماتت الحرية في البلاد الاسلامية تحت اقدام الحكام الخونة ، فان الذي حدث كان بالعكس تماما !

فحين انطفأت الحرية ــ هنا ــ وساقوها الى المذبح تحت غطاء كثيف من الشعارات المزيفة ، اشتعلت وتألقت في الغرب ، فأعطت العلم والنور ، والابداع ! طبعا في النواحي المادية فحسب .

فصار ان عادت البلاد الاسلامية تلتحف بظلمات الجهل والتأخر ، والحرمان ... بسبب فقدان الحرية ، وانعدامها .. في الوقت ، الذي راحت فيه الحضارة الغربية ، تغزو الفضاء وتكسر الذرة ، وتفلق الخلية، وتصدر العلم والعلماء الى نقاط العالم ، بسبب وجود الحرية ، ونورها.

لقد قام الاستعمار الغربي ، والشرقي ، بزرع عملائه من بعض

الحكام الخونة ، في البلاد الاسلامية ، وامرهم بمصادرة الحريات ، وملاحقة العلماء ، ومطاردة الاحرار في كل مكان منها ، حتى كادت السجـــون تختنق بالعلماء ، ورجال الفكر ، وحتى تكسرت المشانق في رقاب الشبـــاب الواعـــي المسلـــم !

حدث كل ذلك واكثر من ذلك ، غير أن الاستعمار لم يتوقف عنـــد هذا الحد ، وانما أمر اذنابه ، من بعض الحكام الخونة ، والسفاكين ، أمرهم ان يدوسوا الشعوب الاسلامية بأقدامهم ، ويشبعوهم تعبا ، ونصبا . حتى يخلو الجو بالكامل ، للاستعمار البغيض ، فينهب الثروات ، ويســـرق النفط ، والغاز ، ويلتهم الخيرات الباقية — فتبقى الشعوب الاسلاميـــة كما يقول الشاعر : .. كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ ، والماء فـــوق ظهورها محمـــول .

من هنا ، فان الحرية ، هي حرية التقدم ، والاستقلال ، حرية العقل والفكر ، حرية الوعي ، والمسؤولية ، حرية الحقوق ، وحرية كرامـــة الانسان ، وليست الحرية هي حرية التحلل ، والاستهتار ، ولا حريـــة الخمرة ، والطيش والميوعة !

الحرية ، معاناة ، ومسؤوليـــة !

وليست انفلاتا ، وضياعـــا !

ودار دولاب الخيانة ، دورته الموجعة ، ليذبح الحرية ، ويدسها في التراب ، دون ان يذرف عليها حتى دمعة واحدة !.

فعادت الساحة فارغة من الحريات تماما !

صادروا حرية العقـــل ، والفكـــر !

وقتلوا حرية التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، ودفنوا حرية السفر ، والاقامة ، وداسوا حرية الكلام ، والراي تحت اقدامهم ! وهكذا ماتت الحريات خنقا تحت العروش الظالمة الخائنة !

صحيح ان هناك وثيقة حقوق الانسان ، التي تؤكد ان البشر ، يولدون احرارا ، متساوين في الحقوق ، ولكن الصحيح ايضا ، ان هذه الوثيقة كانت ، وما زالت وستبقى مجرد حبر على ورق ..!

صحيح ان المؤتمرات تعقد في العالم ، من اجل المطالبة بحقوق الانسان ، وتوفير الحرية له .. غير أن هذه المؤتمرات بمجرد ان تنتهي، وينفض اهلها ، يسحق مؤتمروها ، كل حقوق الانسان (بأحذيتهم) .

ولكي تكون الصورة ، اكثر وضوحا ، دعني اقرا عليك قسما من وثيقة حقوق الانسان :

يقول ميثاق الامم المتحدة ، في حقوق الانسان : « .. البشر يولدون احرارا ، ومتساوون في الكرامة ، والحقوق ... كل فرد له الحق في الحياة ، والحرية ، وسلامة الشخصية ، ليس هناك عبودية ، ولا يسمح بتعذيب انسان ، ولا اهانته ، ولا اعتقال ، او سجن او نفي احد تعسفا.. لكل احد الحق في حرية التفكير والمعتقد ، والدين ، وله الحق في التفسير والتعبير عن نفسه ، وحرية الاجتماع السلمي ، والانضمام الى رابطة » .

هذا بعض من ثلاثين مادة تشكل لائحة حقوق الانسان التي تمت المصادقة عليها عام ١٩٤٨ !

وللمزيد تعالوا نستمع الى (البروفسور كاستر) وهو يجيب على سؤال ما هي حقوق الانسان ؟!

« .. عندما نسأل ما هي حقوق الانسان ، لا بد ان ينبع من الشعور،

بأن لكل انسان احتياجات معينة اساسية ، تنطبق على كل فرد في العالم . وعلى هذا المجتمع ان يحترم هذه الاحتياجات ، اذا كان المجتمع سيقيم نفسه بأي شكل من الاشكال ... ومثالا على ذلك : حاجة الانسان الاساسية ، في البقاء على قيد الحياة ، وكذلك لا يتعرض للاذى من قبل جيرانه ، وهذا من شأنه ان يولد قانونا طبيعيا ، وهو انه لا يحق لك ايقاع الاذى ، بجيرانك .. ثم هناك حق طبيعي اخر ، وهو : حق الانسان في التنقل ، وهذا يؤدي بنا ، الى فكرة الحق في الحرية ..!

وباعتقادي : فان حق الانسان ، هو حق طبيعي ، يجب ان يطالب به كل كائن حي في العالم ..!

ويضيف قائلا : ان فكرة حقوق الانسان ، فكرة قديمة يرجع اصلها الى اليونانيين ، والقدماء !.

ويقول عالم الاجتماع (دلوك) : « .. ان الحكومة لا يمكن أن تستمر في حكمها ، ما لم تكن قد جاءت برغبة الرعية المحكومة .. ! » .

ثم حق الانسان في الملكية الخاصة ، حق كل فرد في الحياة ، والحرية ، والملكية ، وقد تركز هذا الشعار ، في قانون الحقوق الذي ، شرعه البرلمان البريطاني .

وقد حدد الدستور ، في الولايات المتحدة الامريكية ، في عام ١٧٨٩ — حقوق الانسان بما يلي :

« .. حرية الكلام ، والصحافة ، والحرية ، من الاعتقال الاعتباطي، وحرية الدين ... وبعد ذلك عزز الدستور الامريكي ، حيث اعتبر الرق، — مخالفا للقانون — واباح للمواطنين — بغض النظر عن لونهم وجنسهم — اباح لهم حق الانتخاب » .

اما الدستور الفرنسي ، فيعرف الحرية بما يلي :

« .. الحرية تعني القوة التي تفعل ما هو غير مضر بالاخرين — وكذلك حرية الكلام ، وحرية الكتابة ، وحرية الدين ، والحرية من الاعتقال التعسفي .. » !

وجاء مفكرون ، ففسروا حقوق الانسان ، حسب اهوائهم ، فمثلا : كارل ماركس . اعتبر حقوق الانسان على انها وهم برجوازي ! — واكد : « ان الحقوق للمجتمع وليس للانسان ! » .

والانسان يشك في قيمة هذه الضمانات .. لانه قد اتضح انها مجرد حبر على ورق ..!

واذا نظرنا الى المجتمعات ، لوجدنا ان نسبة المجتمعات الحرة التي تتمتع بحقوق الانسان الكاملة ، لا تزيد على الاصابع .. هذا اذا لم تكن معدومة بالمرة ! .

ومرة اخرى دعونا نسمع ، ما يقوله ميثاق الامم المتحدة !

« .. البشر جميعا يولدون احرارا ، ومتساوون في الكرامة والحقوق كل فرد له الحق في الحياة ، والحرية ، وسلامة الشخصية ، ليس هناك عبودية . ولا يسمح ، بتعذيب انسان ، او معاملته معاملة تهين انسانيته ولا يجوز اعتقال ، او سجن ، او نفي احد تعسفا » .

« لكل انسان الحق في حرية التفكير ، والمعتقد ، والدين ، وله الحق، في التفسير ، والتعبير عن نفسه وحرية الاجتماع السلمي ، والانضمام الى رابطة .. » .

« لكل انسان الحق ، في العمل ، وفي اختيار العمل ، وتحديد ساعات العمل ، والتمتع باجازة ! ولـه الحق في التعلم ، والغذاء ، والمسكن ، والملبس ، والعناية الصحية ، والضمانات الاجتماعية !» .

هذا بعض من ثلاثين مادة تشكل لائحة حقوق الانسان .. (١) .

وعندما تسأل العالم عن حقوق الانسان ، تنهال عليك الوثائق الطويلة العريضة ، انهيالا منقطع النظير .. !

فهذه وثيقة حقوق الانسان ، الامريكية ، وتلك وثيقة حقوق الانسان السوفيتية ، واخرى بريطانية بينما الوثيقة الرابعة ، خطهـا (ماوتسي تونغ) بيمينه ، وتبدأ سلسلة وثائق حقوق الانسان ، ولا تنتهي ، بحيث يخيل اليك ، وكأنك غارق في الحقوق ،وكان الانسان يسبح في الحرية والكرامة ..!

ولكن الحقيقة تختلف عن كل هذا تمام الاختلاف لان كتابة الوثائق والتهريج بها شيء ، والواقع شيء اخر ..

ان نظرة واحدة ، على الانسان ، وحياته في عصر الفضاء ، تدل على أن الانسان ، يعاني الامرين من الغرب والشرق ..! فلا حقوق ولا حرية ، ولا سعادة ، ولا امان ، ولا حتى طعام !

وهاك بعض التقارير التي تؤيد ذلك :

يقول رئيس البنك الدولي :

---

١ — راديو لندن في ٣—١٢— ١٩٧٧ .

« .. هناك اكثر من الف مليون نسمة من الناس ــ في عالمنا هذا ــ حاليا ، يعيشون حالة من الحرمان المادي ، يمكن أن توصف : بأنها تحت مستوى ، الكرامة البشرية .. » .

ولكن من المسؤول عن هذا ؟

منذ مأة عام ، والى الان ، تشكل المؤتمرات ، وتبحث في حقوق الانسان ، ولكن بمجرد ان ينتهي المؤتمر ، تبقى حقوق الانسان ، تحت اقدام المؤتمرين ، مسحوقة !

فهناك لجنة حقوق الانسان ، التابعة للامم المتحدة ، تقول ــ في تقرير لها ــ انها تلقت منذ عام ١٩٧٠ اكثر من مأتي الف شكوى ، من الافراد، والمنظمات ، حول خرق حقوق الانسان في العالم .. » .

وذكرت منظمة العفو الدولية ، انها تلقت قرابة عشرة الاف شكوى، تؤكد خرق حقوق الانسان وتعرضه لابشع انواع التعذيب ، في اكثر بقاع العالم ، بحيث اخذت بعض الدول ، تتفنن في اتقان عملية التعذيب القاسي ، حتى أن قسما كبيرا من الدول ، كانت ترسل بعثات خاصة، للخارج ، لاخذ دورات تدريبية ، في فن التعذيب ، واتقانه ، على ابشع وجه ، واقذر صورة !

هذا من جانب ، ومن جانب اخر ، جاء في تقرير لمنظمة الاغذية، والزراعة ، عن المجاعة في العالم يقول :

« .. ان (٥٠٠) مليون طفل في العالم ، ينامون جياعا كل ليلة، ويموت جوعا حوالي (٣٥) مليون انسان كل عام .. » .

بالاضافة الى الملايين من الاطفال الذين يعانون من سوء التغذية ،

والنتيجة المأخوذة من هذه المقدمة ، هي : ان الانسان يحتاج الى الحرية احتياجه ، الى الخبز ، والماء ..!

وانعدام الحرية ، يعني انعدام الرؤية أمام الانسان .. لان العطاء يموت ، بموت الحرية ، والابداع يسقط ، بسقوطها !.

من هنا ، فان الانسان ، بلا حرية ، يعني ، الانسان بلا روح ، اي : مجرد هيكل يتحرك في الظلام ، لا اكثر ، ولا اقل !.

وحين انطفأ نور الحرية . في البلاد الاسلامية بفعل بعض الحكام الخونة ، تساقطت اعمدة العزة ، والكرامة ، وخر السقف على المسلمين ، من فوقهم ، ووقفت اليهود بيدها المغلولة ، تصفعنا ، المرة ، تلو الاخرى !!.

حصل كل ذلك ، بغياب الحرية ! ولو أنها كانت حاضرة لما تجرعنا الغصص المرة !.

على أن حقوق الانسان في الاسلام ، لا نظير لها ، ولا مثيل .

والانسان قيمته في الاسلام ، تساوي العالم كله ، فقد قال الله سبحانه في القرآن : « .. ومن قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض ، فكأنما قتل الناس جميعا .. ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا .. » .

لكل انسان الحق في الحياة ، والعيش الكريم ، فليس لاحد أن يجوع احدا ، او يروعه ... فقد شرع الاسلام نظام الجهاد ، من أجل الدفاع عن حقوق الناس ، وصد الظالمين ، والمستكبرين ، عن المستضعفين والمحرومين ، حيث قال الله العظيم : « .. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ، والمستضعفين ، من الرجال ، والنساء ، والولدان الذين يقولون

ربنا اخرجنا ، من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا .. » (١) .

اجل ..

انه القتال من اجل الحرية ! ومن اجل حقوق الانسان .. ولهذا كانت سعادة البشر متوقفة على الشهادة ، ولذلك ايضا ـ كان الشهيد منبع الحرية ، ومصبها !

فـ : لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق على جوانبه الدم ..

وتلك قاعدة صادقة ، مأة بالمأة .

وللعباد الحق ، في الطعام ، والامن ..

قال الله العظيم : « .. فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف .. » .

ان الله طلب العبادة ، والطاعة ، من البشر ، بعد ان وفر لهم الامن ، والطعام .!.

ويقول الاسلام : لكل فرد الحق في اتخاذ المسكن اللائق به ، واتخاذ

---

١ ـ اية ٧٥ سورة النساء .

الدابة ، ــ للركوب ــ كانت الدابة في الماضي من الخيل والبغال وما شابه، اما الان ، فله الحق في اتخاذ السيارة الفخمة ، والخادم ، وكل ما يحتاج اليه في بناء الاسرة .

ومراجعة واحدة ، في الكتب الفقهية في حقل الاقتصاد الاسلامي، تؤكد لنا ــ بلا شك ــ ان الاسلام ، قد اعطى ضمانات اقتصادية ، وايضا جعل ضمانات اجتماعية ، بحيث لم يترك حاجة من حاجات الفرد الا واشبعتها ، بشكل معقول ، فلا فقر ، ولا حرمان ، ولا شظف عيش .

الانسان

« .. واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين فاذا سويته، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

لاحظوا : كيف ان الله سبحانه ، طلب السجود من الملائكة للانسان، بعد ان يزرع في اعماقه ، نفخة من روحه ــ سبحانه ــ حيث قال الحق : فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين !.

فلم يكن الانسان يستحق السجود من الملائكة عندما كان جسدا من طين ، مطروحا على بوابة الجنة ، ولكنه صار اهلا للتعظيم ، يوم اضاءت في داخله نفخة من روح الله !.

وتلك النفخة الروحية ، هي وحدها ، التي رفعته ، واجلسته على القمة !.

ولما تربع الانسان على القمة ، ــ قمة العقل ، والفكر ، والوعي ــ جعل الله ، المسؤولية في عنقه ، بعد أن رفضتها السموات والارض ،

والجبال ، غير أن الانسان لم يستمر الى نهاية الشوط ، في الحفاظ على تلك الامانة الثقيلة وانما كسر العهد ، في وسط الطريق ، وخان الامانة فظلم نفسه ، وجهل قدره !

« ... انا عرضنا الامانة على السموات ، والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها ، الانسان ، انه كان ظلوما جهولا ..».

الحرية لـدى الانسان :

شاء الله أن يخلق الانسان ، حرا في تصرفاته واعماله ، في الداخل والخارج !.

ففي الداخل ، خلق الله الحرية ، في أعماق هذا الانسان ، وتركه يختار طريقه بنفسه ، دون اكراه ..! « .. ولو شاء الله لآمن من في الارض جميعا ، افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. » .

لقد رفض الله ، ان يكره البشر على الايمان وكان في امكانه ذلك ، لو اراد ، غير انه شاء لهذا الانسان أن يتحرك في حرية ، وبلا جبر . فقط خلقه ، وارشده الى الطريق المستقيم : « .. انا هديناه السبيل اما شاكرا ، واما كفورا .. » .

« انا هديناه النجدين (الطريقين) » .

« .. وقل الحق من ربك — فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. » .
اذن : فالحرية ، تتدفق ، كالشلال — من داخل الانسان ، ولذلك فهو يحتاج الى الحرية ، في الخارج .. وهنا نجد :

أن الله سبحانه كان قد وفر الحرية للانسان ، في المجال الكوني، والمجال التشريعي ، ففي المجال الكوني ، سخر الله كل الكائنات لخدمة الانسان ، وفي ، المجال التشريعي ، وضع الله انظمة ودساتير ، تقضي بتطهير المجتمع من الظلم والفساد ، ورفع القيود عن صدر الانسان ، وازاحة الاغلال من يديه !.

الحرية في المجال الكوني :

واقرأوا اذا شئتم الايات التالية :

« .. ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر .. » (٢) الرعد

« .. وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » . (٣٢) ابراهيم

« .. وسخر لكم الانهار .... » (٣٣) ابراهيم

« .. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين .. » (٣٣) ابراهيم .

« .. وسخر لكم الليل والنهار .. » (٣٣) ابراهيم

« .. وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر . » (١٢) النحل

« .. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا . » (١٤) ابراهيم

« .. الم تر ان الله سخر لكم ما في الارض » ٦٥ الحج

« .. الم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات ، وما في الارض . » (٢٠) لقمان

« .. وسخر الشمس والقمر كل يجري الى اجل مسمى » (٢٩)لقمان

« .. وسخر الشمس والقمر كل يجري الى اجل مسمى ذلكم الله

ربكم .. » (١٣) فاطر

« .. سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » (١٣) الزخرف

« وسخر لكم ما في السموات ، وما في الارض ، جميعا منه .. » . (١٣) الجاثية

اذن : من خلال هذه الايات القرآنية ، ندرك ان الله سبحانه ، قد وفر الحرية للانسان ، بتذليل الكون والطبيعة له ، بحيث كلما فطن الانسان الى جانب ، رآه مسخرا في خدمته .. حتى لم يعد هناك ، فارق، يفصل بين استفادة الانسان من البحر ، وبين استفادته من القمر .. لان البحر مسخر للانسان ، والقمر — ايضا — مسخر للانسان .. فالبحر يخدم الانسان بالماء وحمل السفن الشراعية ، على ظهره ،! والقمر يخدم الانسان ، بالنور وحمل السفن الفضائية على ظهره !

هذا بالاضافة ، الى تسخير الحيوانات البرية والبحرية ، والجوية ، في خدمة الانسان ..!

« .. والانعام خلقها لكم ، فيها دفء ، ومنافع ومنها تأكلون ... ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون ... وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم....والخيل والبغال، والحمير ، لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون ... هو الذي انزل من السماء ماء لكم . منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ... ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والاعناب ، ومن كل الثمرات ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون .... وسخر لكم الليل والنهار .. والشمس والقمر.. والنجوم مسخرات بأمره ، ان في ذلك لايات لقوم يعقلون .. وما ذرا لكم في الارض مختلفا الوانه ، ان في ذلك لاية لقوم يذكرون ... وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى

الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .... وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم » من سورة النحل من اية ٥ الى ١٨ .

ولو اراد الواحد منا ان يجمع الايات التي وردت ، في هذا المجال ، لتجاوزت الالف اية ..! وكلها تشرح نعم الله ، وآلاءه ، على الانسان، وتؤكد أن الله سبحانه اراد لهذا الانسان ، ان يتحرك في جو كامل من الحرية ، فزرع في نفسه بذرة الحرية ، وسخر الكون كله في خدمته ، حتى تمكن أن يغزو الفضاء ، ويغوص في اعماق الطبيعة ، ويفجر الذرة ، ويفلق الخلية ..!

« .. الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .. » .

هذا من الناحية الكونية اما من الناحية التشريعية — فقد انزل الله الانبياء وزودهم بالكتاب — القوانين — والميزان — الهيئة التنفيذية — وانزل معهم الحديد ، (القوة الضاربة) فيه بأس شديد على الظالمين ، والمستكبرين ، وفيه منافع للناس ، المحرومين ، والمستضعفين !

وكل هذا ، من اجل ان يقوم الناس بالقسط .

« .. ليقوم الناس بالقسط .. » .

اي : يعيش الانسان في جو الحرية ، ومناخ العدل !

فلا ظلم ، ولا ظالمون !

ولا فقر ، ولا مجرمون !

ولا جهل ، ولا مفسدون !

وانما عدالة اسلامية ، تزرع السعادة ، والراحة في النفوس .

وحاكم اسلامي ، يسيل قلبه حنانا ، وعطفا ، على شعبه ، ويـذوب رقة في بناء المجتمع ، لانهم ، صنفان ، اما اخ له في الدين . او نظير لـه في الحق .

وكذلك : فالاقتصاد الاسلامي ، بتوزيعه العادل للثروة ، وبأحكامه الرائعة ، في العمل ، والارض ، يقضي على الفقر ، قضاء كاملا ، وايضا ، يحافظ على حقوق الاخرين ، حتى يعم الرخاء الاقتصادي ، البـلاد ، فتختفي الجريمة ، باختفاء الفقر ، ومن اراد المزيد من الاطلاع ، فعليه بمراجعة التاريخ ، ليرى الاقتصاد الاسلامي ، كيف استطاع ان ينشر الغنى بين الناس ، كما ينشر السحاب المطر ، بين الحقول ..!

ولان الامة الاسلامية ، مطلوب منها ان تقرا ، وتقرا ، وتقرا .. فحتما يموت الجهل ، ويعيش العلم احلى ايامه ، وساعاته ..

ومن يطالع التاريخ ، يجد أن البلاد الاسلامية كانت قلعة العلم ، ومهد العلماء .. على طول التاريخ الاسلامي .. اخذا من جابر بن حيـان وابن سينا ، ومرورا بالعلامة الحلي ، والمجلسي ! ، وانتهـاء بالعلامة الطباطبائي والامـام الخميني .

كانت المساجد ، تغص بحلقات العلم ، على مختلف انواعها ، فـي المدينة المنورة ، والكوفة ، والبصرة ، والقاهرة ، والمغرب ، والف مكان ، ومكان !

اذن : فرسالة الانبياء ، جاءت من اجل اعطاء الحريات للناس، من اجل كسر القيود ، وتحطيم الاغلال .

فوظيفة النبي ، هي اعطاء الحرية !

« .. ويضع عنهم اصرهم ، والاغلال التي كانت عليهم .. » .

والنبي — اي نبي — بعد ذلك رحيم بالمؤمنين عزيز عليه ما يعاني الناس ، من مشكلات ، وازمات .

« .. لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم .. » .

والحرية هي المسؤولية الثقيلة التي طوقت عنق الانسان ، منذ البداية .

« انا عرضنا الامانة على السموات والارض ، والجبال فأبين ان يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا .. » .

والفرد لا تتحقق انسايته ، وكرامته ، الا في الحرية .. فهو عندما يقرر أن يكون حرا ، يؤكد وجوده في الحياة ... والحرية ، تولد من العبودية المطلقة لله ، الواحد القهار . وذلك ان الانسان ، اذا كان عبدا لله ، يكون حرا ، اما اذا لم يكن عبدا لله ، فهو عبد لشهواته ، واهوائه .

والعبودية لله ، افضل من الرسالة ، ولهذا فنحن : نقول : في الصلاة: اشهد ان محمدا عبده ورسوله .

ارايتم كيف قدمنا العبودية على الرسالة ؟!

لان محمدا صلى الله عليه واله وسلم كان عبدا لله ، قبل ان يكون رسولا ، نبيا !.

الحرية ، تعني أن تتحرر من عبادة الاشخاص ،

الحرية ، تعني أن تتحرر من عبادة الشهوات ، والاهواء .. الحرية تعني أن تكسر جدار الخوف من الناس ، لتذوب في خشية الله الغفـــور الودود .

ان الخوف من الله ، هو عين الحرية ، وقلب التحرر ،! « .. من ترك الشهــوات كان حرا .. » .

كلمتان في الحرية :

الكلمة الاولى لعمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم امهاتهم احرارا .. » .

والكلمة الثانية للامام علي عليه السلام : « .. لا تكن عبد غيرك وقـد جعلـــك اللـــــه حـــرا .. » .

والملفت للنظر ، هو : ان عمر ، يخاطب الاسياد دون العبيــد .. بينما الامام علي ، يوجه خطابه الى العبيد ، دون ان يشير الى الاسياد ..!

والفارق الرائع ، الذي يفصل بين الكلمتين ، واضح جدا .. وهو : ان عمر حين يكلم السادة قائلا : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهـــم امهاتهم احرارا .. » فانه يطلب منهم الامتناع عن استعباد الاخرين ، على أن هذا الطلب ، لم يأت بالصراحة المطلوبة في هذا المكان ، وذلك انـــه لم يأمرهم بعدم استعباد الناس بالقطع ، وانما فقط ، اكتفى بقولـــــه : متى استعبدتم الناس .. » ليس اكثر .

ويظل السؤال الاتي يلح علينا ، وهو :

ترى هل يسمع الاسياد كلام عمر ، فيكفوا ايديهم عن استعباد الغير .. ؟ ! أم انهم يكتفون بهز رؤوسهم امام هذا النداء العمري ؟

لا شك ان الاسياد ، لهم الحرية ، في ان يأخذوا بكلام عمر ، أو يتركوه ..

على أن طبيعة الانسان في السيطرة ، تقضي بدوام سيطرة الاسياد، على العبيد !

ولكننا عندما نلتفت الى الطرف الاخر ، نجد الامام عليا — عليه السلام — يتجاهل الاسياد ، ويخاطب العبيد مباشرة ، ! « .. لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرا ... » ! فالامام يخاطب المظلومين ، بينما عمر يخاطب الظالمين ، وخطاب المظلومين ، اعمق ، من خطاب الظالمين .

انه يزرع الثورة في الجذور ، وليس في الاغصان ..

ان نداء الامام هذا ، يشعل فتيل الثورة بين ضلوع العبيد ، فيهزهم هزا عميقا ، ويدعوهم الى القيام في وجه الاسياد المترفين ، الذين استعبدوهم وداسوا حريتهم ، وكرامتهم ، تحت الاقدام !

يا للروعة !!.

ما أروع النداء العلوي !

ما أروعك ، سيدي ، يا بطل الانسانية الخالد وانت تزرع فسائل الحرية ، في اعماق العبيد .

فكم أنت رائع ايها البطل العظيم ، حين تخلق من الرازحين تحت سياط

الجلادين ، ثوريين ، احرارا ، تتهاوى العروش بين اقدامهم ، ويتمـــرغ الطغاة تحت أرجلهم .

فما اروعك يا امير المؤمنين ، تبدأ رحلة الحرية من الجذور ،.. حـين تهجر الاسياد المترفين ، بالمرة ، وتتوجه الى العبيد تفجر طاقاتهم ، لتصنع منها ثورة عنيدة ، في وجوه الظالمين ، والمستكبرين !

اجل .. « لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرا » .

ولا يكتفي الامام علي ــ عليه السلام ــ بهذا القدر من الكلام ، وانما يخطو خطوات اوسع ، في هذا الميدان .. فهو يخنق العبوديـــة فـــي داخل الانسان أولا .. ثم يقضي عليها في الخارج ثانيا ..

ففي الداخل ، تبرز العبودية ، بصورة الشهوات والاهواء .. بينمـا في الخارج تتمثل العبودية في الالتحاق بركاب الظالمين ، والركوع أمـــام عروشهم المهزوزة .

يقول الامام علي عليه السلام !

١ ــ « عبد الشهوة اذل من عبد الرق » .

٢ ــ «من ترك الشهوات كان حرا .. » .

فالحرية ، عند الامام علي ، هي : حرية التقدم ، والاستقلال ، وليس حرية التحلل والاستهتار ..!

الحرية عند الامام ، حرية العقل ، والفكر ، حرية ، المنطق والوعي .

حرية ، الجهاد ، والكفاح ، والمسؤولية .

انها الحرية ، التي زرعها محمد ، وسقاها علي ، وقتل من اجلها الحسين ..

الحرية في الاسلام : تعني مراعاة ، الحقوق ، والواجبات ، وتعني اعطاء كل ذي حق حقه .

والحرية ، بعد هذا ، وذاك ، تعني تحطيم الظالمين ، وتهشيم رؤوسهم، والاخذ بأيدي المظلومين ، وانعاشهم ، ومساعدتهم .

من هنا ، كانت الحرية رسالة مقدسة ، ثقيلة ، تهيبت السماوات والارض ، من ثقلها ، فرضتها ، ولم تحملها ، وحملها الانسان ، الذي ظلم نفسه ، وجهل قدره ، لانه لم يعرف قيمة الحرية ، ولم يراع حقوقها !.

وتذكروا ، ابدا ، كلمة الامام الحسين — عليه السلام — يوم وقف اما صفوف الاعداء ، ينادي برفيع صوته :

« .. كونوا احرارا في دنياكم .. » .

لا شك ، انه نداء الحرية ، للبشرية ، جمعاء .. كونوا احرارا .!.

فما أحوج العالم ، لهذا النداء الطاهر في عصر ماتت فيه الحرية، خنقا ، بدخان الحضارة المادية !

انها صرخة الحرية ، في ضمير القابعين في الذل ، والهوان !.

انه نداء الحرية ، لكل المعذبين في الارض .. انه نداء يخشاه

الظالمون ، والمستكبرون ، وذلك لانه نداء ، ينطلق من قلب الامام الحسين .. ولان الظالمين ، يعرفون الحسين ، حق المعرفة ، فهم في فزع من هـــذا الصوت الحسيني ..

ومرة اخرى ، اعيدوا النداء مع الحسين :

« ... كونوا احرارا في دنياكم .. » .

ومن الذين ، استجابوا ، لهذا النداء ، كان الحر بن يزيد الرياحي احد القادة ، في الجيش الاموي ، الذي تحرك ، لسحق الحسين .

وها هو الحر .. يصغي لصوت الحسين ، فيغرق في الفكر ..!

الحق لا يتعدد ، وماذا بعد الحق الا الضلال .. وهل الحق الا مــع الامام الحسين عليه السلام .. الذي قال فيه جده الرسول الاعظم ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ : « حسين مني وانا من حسين .. » .

اذن ، لا بد من الذهاب الى الحسين ، وربط العمر به ..

هكذا كان يفكر الحر وسط المعركة ، وهو يعلمنـــا كيف نكـــون احرارا ..

وساد صمت على الجبهة ، كسره المهاجر بن اوس ، القائد العـام للكتيبة الثانية . بقوله : « ما بك يا حر ، اراك اخذتك مثل الرعدة ، والله لو سئلت ، من اشجع اهل الكوفة ، لما عدوتك ، فما هـــذا الــذي اراه منـــك .. ؟! »

فرد عليه الحر قائلا :

ويلك لست خائفا ، وانما اخير نفسي بين الجنة والنار .. ووالله لا اختار على الجنة شيئا .. ثم ضرب جواده في اتجاه خيام الحسين عليه السلام ، والتقى بالامام الحسين ، فاعتذر منه ، وتاب الى الله ، توبة نصوحا . ثم اخذ الاذن من الامام ، في النزول الى قلب المعركة فاذن له وراح يقاتل قتال الابطال حتى اذا سقط في المعركة ، كانت دموع الحسين تختلط بدمائه ، وكلماته تنداح في الظهيرة !

ما اخطأت امك اذ سمتك حرا !

فأنت حر في الدنيا ، وسعيد في الاخرة ، ولاحظوا جيدا :

ان هذا القائد التائب الذي رجع الى الطريق ، وخاف عذاب الحريق، انه يعلمنا درس الحرية ، فيجب ان نتتلمذ على يديه ، لنعرف كيف نكون احرارا ، في اخذ المزيد من دروس الحرية ، من خلال كلمته الحرة البطلة : « اني اخير نفسي بين الجنة ، والنار .. » .

والحر هو الذي لا يختار على الجنة شيئا ..

وهذه الصورة ، ذكرتني بقصة بشر الحافي ، مع الامام موسى بن جعفر عليه افضل الصلاة وازكى السلام !

وهذه القصة ، تعني لنا ان الحرية هي : الانعتاق الكامل ، من ذيول الشهوات والاهواء .

بشر الحافي

كان اسمه بشر الحافي ، فصار الشيخ بشار له قبر ببغداد يزوره

الشارد والوارد !

ولكي تعرفوا ، هذا الرجل ، جيدا ، خذوا خيوط القصة من أولها !

بشر الحافي ، اسم عرفته بغداد بالسكر والعربدة ، وملاحقة الاعراض ، في كل مكان !

كان بيته مسرح الغواني ، والراقصات !

لم يكن يعرف الفضيلة ، ولا الصلاة ! وانما كان هاجسه ، الفساد، ونشر التحلل بين أوساط الشباب المراهق !.

وهرع الناس الى الامام موسى بن جعفر — عليه السلام — يشتكون اليه بشر الحافي وينتقدون تصرفاته بشدة .

وأراد الامام الكاظم ان يقف بنفسه ، على الحقيقة ، فجاء ماشيا ، في الشارع الذي يقع فيه ، منزل بشر الحافي .

وما كاد يقترب من داره ، حتى سمع اصوات الغناء ، تنبعث من داخل الدار ، مصحوبة بجوقة الطبول ، والابواق ، فتشكل سحابة من ، الطرب ، تغطي المنطقة كلها !

اخذ الامام ،يدنو ، رويدا رويدا ، من الباب واصوات العربدة ،تتصاعد اكثر فأكثر !

وقبل أن يصل الامام الى الدار ، انفتحت الباب فخرجت جارية حسناء ، بيدها طبق مليء ببقية الفواكه التي توضع — عادة — على مائدة

الشراب تريد أن ترميها في الخارج .

وسألها الامام قائلا : لمن الدار ؟

قالت : الدار لسيـــــدي !

قال الامام : سيدك حر أم عبد ؟

قالت : لا .. بــل حـــر !

قال : صدقت لو كان عبدا لله لاستحى من الله !

ونزلت الكلمة ، مثل الصاعقة ، على قلب الفتاة ، فعادت داخــل الدار ، وهي ترتجف كالسعفة اذ تلاعبها الريح ..!

استقبلها بشر الحافي ، في استغراب ، وسألها : ما بالك ، ترتعدين، هكـــذا ؟

اجابته : ان رجلا عليه سمة الايمان والصلاح قال لي : كذا ، وكذا ..!

ولما اعطته مواصفاته .. عرفه بشر الحافي ، ! فصاح هذا سيدي موسى بن جعفر ، ! ثم خرج من الدار مسرعا في اثر الامام ، فأدركه وسط الطريق ، وتعلق بأذياله قائلا : سيدي كيف تقول ، انني لست عبدا لله ..؟ اجابه الامام في هدوء ، وحزم : لو كنت عبدا لله ، لخفت الله ، ولكنك لـم تعبد الله ، وانما عبدت شهواتك ، واهوائك .

« ارايت من اتخذ الهه هواه .. » .

ان العبودية لله ، هي ان تخشى الله ، وتتوب اليه ، ولا تلطخ نفسك بالمعاصي ..!

وفعلت ، هذه الكلمات ، فعلتها العظمى ، في قلب بشر الحافي ،فاهتز من اعمق اعماقه وتساقط على اقدام الامام يقبلها ، ويمرغ ، وجهه بالتراب، والدموع تجري من عينيه ، وهو يقول : انا تائب ، انا تائب ، انا تائب .. سيدي هل تر لي من توبة ؟!

قال : اجل ان تبت ، تاب الله عليك .

وعلى الفور ، احس بشر الحافي ، بدفقة الايمان تجري في عروقه ، وشرارة التقوى ، تلمع في داخله ..

ودع الامام ، أروع وداع ، ثم رجع مسرعا الى الدار ، فأخرج الغواني ، والراقصات وحطم زجاجات الخمر ، ورماها في البالوعة ، وصفى حسابه ، مع الشيطان ، بالكامل ، والقاه في المزبلة !! ..

وفجأة سمع الناس خبرا ، لم يكن في الحسبان .

ها هو بشر الحافي ، يتحول الى اكبر عابد ، واعمق زاهد في بغداد ! ويتحرر من شهواته !.

ها هو بشر الحافي ، لا تخلو منه المساجد ابدا ، ولا تفقده المحافل الخيرية مطلقا !!.

فلم يعد اسمه بشر الحافي ، وانما صار الناس يعظمونه في كل شيء ، حتى في اسمه ، فكانوا ينادونه : الشيخ بشار ..! لانه صار حرا ، عندما عبد الله .

جاء الشيخ بشار ، وراح الشيخ بشار ،وقال الشيخ بشار، في المسجد كذا ، وكـــذا !.

انه الايمـــان الـــذي يصنـــع المعجـــزة .

وبهذه السهولة ، تغير هذا الرجل ، من فاسق ، الى زاهد ، عابد، صالح ، ليس هو فقط وانما كل خلايا جسده ، وحتى جيرانـــــه ، واولاد جيرانه ، تأثروا به ، فصاروا يأمون المساجد زرافات ، زرافات !.

وهكذا عاش بشر الحافي ، حياة الصالحين ، فكان بيته مصدر خـير لكل الناس بعدما كان مصدر ازعاج وشر !!.

لقد صرف بقية عمره ، في العبادة ، وفي خدمة الناس ، وقضـــــاء حوائجهم ، فهو الرجل المبارك اين ما كان !.

كل ذلك بسبب كلمة الامام موسى بن جعفر عليه افضل الصـــلاة ، وأزكى الســـلام !.

وفي النهاية ، الم اقل لكم : كان اسمه بشر الحافي ، فصار الشيـــخ بشار ، بفعل الايمان والوعظ ، والارشاد !.

انه كان عبدا لشهواته ، فصار عبدا لله عند ذلك تحرر من اغـــلال الشهوة ، وقيود ، الشيطان .

« ان الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا .. » .

مهمة الانبياء

« ولقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وانزلنا الحديد ، فيه بأس شديد ، ومنافع للناس !!

نستطيع أن نفهم من الاية ، مهمة الانبياء ، بكل تفاصيلها .

فالانبياء جاؤا من اجل اعطاء الحرية للانسان ، والحرية لا يمكن الحصول عليها ، الا في ظل العدل ، والعدل لا يقوم الا تحت ظلال السيوف ..!

« ... ويصفع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم » .

هذه مهمة الانبياء ..! تكسير الاغلال وتحطيم القيود التي كبلت بها الايدي ، والافواه !.

« ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات (العلامات والبراهين التي تدل على نبوتهم) وانزلنا معهم الكتاب والميزان (النظام والتنفيذ — فالكتاب معناه القوانين والانظمة ، والميزان ، معناه الهيئة المشرفة على التنفيذ .. وانما سميت الهيئة التنفيذية ، بالميزان ، لانها تميز الحق من الباطل ، وتصدر احكامها وفق ميزان دقيق في القضايا والامور الاجتماعية !

لماذا ؟)

ليقوم الناس بالقسط ! (اي لتقوم الحياة الانسانية على اساس العدل ، ونور الحرية .

ولان العدل ، لا يتم الا بالقوة والسيف ، فقال القرآن) : وانزلنا

الحديد ، فيه بأس شديد ومنافع للناس (والحديد يعني القوة التي تفرض العدل فرضا على الناس ان هم ابوا تقبله طواعية ، ولذلك ، كان الحديد فيه بأس شديد — للظالمين — ومنافع للناس المحرومين — والمظلومين — !»

ومن هنا ، نعرف ان الانبياء جاؤوا لفرض العدل ، على الناس فرضا لا هوادة فيـــــه !

اذن : فالاية حددت مهمة الانبياء .. : وهي اقامة العدل في الارض ، بفعل القوة ، والسيف !

والسؤال الذي يقطع الطريق امامنا هـــــو :

كيف نوفق بين قول الله تعالى : (لا اكراه في الدين) وبين قولـــــه (وانزلنا الحديد) .. ؟ ثم الا يعني ذلك ان التناقض ظاهر في الايتين .. فتارة ينفي الاكراه في الدين ، واخرى يؤكده في العدل .. ؟

الجـــــــواب !

في الاسلام جانبان ، جانب العقيدة ، وجانب العدل .

الناس احرار في اعتناق الدين ورفضه ، ولكنهم اذا اعتنقوا الديـــــن ليس لهم الحق في الاخلال بما يقوله الدين من احكام .

اما العقيدة فالناس احرار فيها ، ان شاؤوا اعتقدوا وان شاؤا لم يعتقدوا « .. وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » .

فانت حر في ان تؤدي الفرائض اليومية ، او لا تؤدي وانت حر فـــي الصلاة وتركها ، وفي الذهاب الى الحج وتركه ، وكذلك انت حر فـــي ان

تذهب الى المسجد ، او الى السينما .

هذا في العقيدة ، في اعتناق المبدأ ، في اعتناق الدين ، فلك ان تعتقد ، ولك ، ان تكفر ..

اما في اقامة العدل ، فليس لك ان تتعدى الحدود .

ومثال واضح :

انت حر في بيتك ، تصلي او لا تصلي ، تصوم او لا تصوم ، تقرأ القرآن ، او تقرأ الانجيل ، في كل ذلك انت حر — لا اكراه في الدين ، هذا هو جانب العقيدة .

ولكنك اذا أردت ان تصعد على السطح ، وتلقي الاحجار فوق رؤوس الجيران .. فان القوة تقف أمامك وسيف العدل يشهر في وجهك ، لانك خرجت على الحدود الاجتماعية ! فهنا يأتي معنى قوله تعالى : ليقوم الناس بالقسط ..

فالاسلام في العقيدة ، اعطاك الحرية ، بينما في العدل لم يعطك الحرية ، وانما فرضه عليك فرضا ، ليقوم الناس بالقسط !

اذن : فالحرية ، في العقيدة ...!

والسيف في العدل ! .

الفصل الثامن

النُورُ مِن الله والظلامُ من الانسِان



(مسير أم مخير)

« والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء »

يولد سؤال على الشفاه ، هل الانسان ، مسير في اعماله او مخير ؟

وفي اعتقادي ان السؤال ، نشأ من كون الانسان وجد نفسه يتحرك — في حياته — بين بعدين :

الجبر ، والاختيـــــار ! .

فانت — مثلا — تجد نفسك في مكان ، مسيرا ، بينمـــــا ترى نفســـك في مكان اخر مخيرا .

ففي امكانك ان تختار شكل المسكن الذي ترغب فيه ، وموديل السيــارة التي تركبها .

وانت حر في ان تختار نوعية الطعام الذي تشتهيه ، ولون البذلة التي تلبسهـــــــــا .

بينما — في مكان اخر — ترى نفسك عاجزا عن التدخل في قضايا كثيرة، فرضت عليك فرضا،مثل طولك ، ولون بشرتك ، وذبذبات صوتك ، وكذلك

انت عاجز امام حركة دولاب الجسم ، الذي يدير كافة الاجهزة الداخلية ، من القلب والكبد ، الى المعدة والكلية .

والانسان يشعر في قرارة نفسه ، انه مخير ومسير .. وتلك حقيقة لا تحتاج الى دليل ..

والا فكيف تفسر وضع يدك في حالة الحمى ، ووضع يدك في حالة الصحة ... فيدك في الحمى ترتجف وفي الصحة لا ترتجف .

القاسم المشترك

هناك قاسم مشترك ، بين الانسان ، وبين بقية الكائنات الحية ، وغير الحية !

فالانسان يشترك — مثلا — مع الجماد ، بانه كتلة لها وزن ، وتشغل حيزا في المكان والزمان .. وتجري عليه كل القوانين التي تجري على المادة.

وهو يشترك مع النبات ، بالنمو ، فكما ان النبات ينمو ويكبر ، كذلك اجهزة الانسان ، وخلاياه ، وغدده — هي الاخرى تنمو وتكبر ! .

والانسان — ايضا — يشترك مع الحيوانات ، بالغرائز واثرها على الحياة ، فكما تلح الغرائز على الحيوان ، تلح على الانسان ..!

فغريزة النوم تلح عليه واذا لم يجبها ، اصيب بالانهيار الكامل وكذلك غريزة الجنس ، وغريزة الجوع والعطش .. فانها تجيش في اعماقه ، ولا مفر له من اجابتها ، والاقتراب من النساء ، والطعام والشراب ! .

وهنا نلتقي ، بقاعدة هامة وهي :

ان الانسان ، اشترك مع الجماد ، والنبات والحيوان في امور ، وافترق عنها في امور اخرى !

فالامور التي اشترك فيها مع الكائنات الاخرى ، كانت تتمثل في الجانب الجبري ، فهو مسير وليس له خيار ولا حرية فيها ..

جسده ، جسمه ، يجري تحت سيطرة القوانين الفيزيائية ، والكيميائية التي تتحكم حتى في الصخور والاحجار .

ومثل ما تخضع الجبال والمادة ، لقانون الجاذبة ، كذلك يخضع الجسم الانساني لنفس القانــون .

في حين افترق الانسان ، عن بقية الكائنات . بالعقل والارادة .
والعقل مقياس ،لاختيار البديلات ،فهو يستطيع ان يقول :لا ،ويستطيع ان يقول : نعم .

اذن ، منطقة العقل ، هي التي يكون فيها الانسان مخيرا ، ولديـــه القدرة على ان يعمل او لا يعمل ، .. يقبل او يرفض .

ولذلك صار العقل ميزان التكليف الشرعي .

فالذي لا يملك العقل ، يسقط عنه التكليف ، كالمجنون ، والطفـــل ، والسفيه ، فهؤلاء لا تجري عليهم الاحكام الشرعية .

وكأن المسؤولية ، معلقة بالعقل ، فاذا انحرف العقل سقطت المسؤولية، بينما تسقط ، المسؤولية ، بانحراف النفس .. !

في القرآن اية تقول :

«وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » يونس آية ١٠٠

ونظرة واعية ، على الاية ، ترينا ان المراد ، بالاذن ــ هو : العقل ،! يدل عليه قوله ! ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » فظهر واضحا ، ان الاذن ، هو العقل .

فاذا اردت ان يدخل الايمان ، قلبك فما عليك ، الا ان تعطي عقلك فرصة التحرك في النور ، لتشعر ــ بعدها ــ بشلال الايمان ، يتدفق في اعماقك !

من هنا ، كانت صفة المؤمنين ، انهم ، يتفكرون في خلق السموات ، والارض !

ومن هنا ايضا : كان القرآن الكريم يصرخ في آذان الذين لا يؤمنون ، قل انظروا ماذا في السموات وما ذا في الارض .

فالله شاء ان يضع مفتاح الايمان ، في يد الانسان ، فقال :

« من يؤمن بالله يهد قلبه » .

ان الفكرة الطويلة في الخلق ، والتوجه الكامل نحو الله سبحانه والخشوع المطلق ، هذه كلها ، تسبب زرع فسائل الايمان في القلب !

« ان الذين لا يؤمنون بايات الله ، لا يهديهم الله ، ولهم عذاب اليم » النحل اية ١٠٤

« .. ومن يؤمن بالله يهد قلبه .. »

اذن : فملاك الهداية ، الايمان بالله ، فالايمان اولا ، ثم تأتي الهداية ثانيا ، وكأن الايمان من الانسان ، والهداية من الله .

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

الهداية ، والضلال :

في الماضي كنت اقرأ القرآن ، وكانت سلسلة من الآيات ، تشدني اليها شدا عنيفا .

ومنها كانت هذه الآية التي تقول : « يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .. »

وكنت اتساءل في حيرة :

اذا كان الله هو الذي يوزع ، الهداية ، والضلال ، على الناس ، حسب ما يشاء .. فما ذنب العصاة الضالين ؟..

وكيف اضلهم الله ، ثم رماهم في الجحيم ؟!

وكنت اتراجع امام قصف السؤال !

لا .. فليس الامر ، بهذا الترتيب وانما لا بد ، من ان يكون هناك ، نور للمعرفة الحقة — في الاية — ولكنه اختفى عني وراء السحاب المتراكم في

رأسي . . . الا انني لم انهزم امام هذا الواقع ،بل رحت اقرأ الايات الكريمة، وأجمعها من القرآن بدقة وتدبر . . وسرعان ما انقشع امـــامي السحاب ، وبدت الحقيقة تتألف ناصعة مشرقة .

فها هي الايات ، في القرآن ، يذوب بعضها في البعض الاخر ، ويفســـر بعضهـــا بعضا .

صحيح : ان الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء . . .

ولكن من هم الذين يضلهم ، ومن هم الذين يهديهم الى سواء السبيل ؟

ويأتي الجواب صاعقا في حزمة الآيات التالية :

« ان الله لا يهدي القوم الظالمين » .

«ان الله لا يهدي القوم الفاسقين » .

« ان الله لا يهدي القوم الكافرين » .

« ان الله لا يهدي من هو صرف كذاب » .

« ان الذين كفروا بايات الله ، لا يهديهم الله ، ولهم عذاب اليم » .

ســـورة ٤ ــ ١٦٨

« ان الذين كفروا ، وظلوا ، لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ، الا طريق جهنم خالدين فيها ابدا »

فالظالم ، والفاسق ، والكافر ، هؤلاء ليس لهم نصيب من الهداية والرحمة وانما مصيرهم ، العذاب وقرينهم الشيطان .

في حين ، نجد القرآن — في الخط الاخر — يشير الى الذين يسبحـون في رحاب الله ، ويتذوقون هدايته . وهم الذين آمنوا بالله ، واخذوا مناهجه ، وطبقوها على انفسهم واهليهم ..

فهؤلاء ليس فقط ، يهديهم وانما هداية فوق هدايتهم وايمانا فـوق ايمانهم ..

« والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم » سورة محمد اية ١٧ .

« الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » .

« ومن يؤمن بالله يهدي قلبه » .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم ، من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » — المائدة ١٦ .

« هذه بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ٤٥ — ٢٠ .

« ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » — يونس ٩ .

« ويزيد الذين اهتدوا هدى » مريم — ٧٦

« ان الذين قالوا ، ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .. » الاحقاف — ١٣ .

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ، الا

تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدؤن » فصلت ــ ٣٠ .

« الذين يستمعون القول ، فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب » الزمر ــ ١٧ .

الهداية ماذا تعني ؟

وجاءت الهداية في القرآن في لونين من المعنى وذلك في خطاب القرآن لنبي الله الاعظم ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ في آيتين :

الآية الاولى : « ــ وانك لتهدي الى صراط مستقيم .. » والآية الثانية: « .. انك لا تهدي من احببت .. »

فاثبت الهداية له مرة ، ونفاها عنه مرة اخرى . و حسب القواعد العلمية .. فانه لا يجوز ان يتعلق النفي والاثبات . بموضوع واحد من جانب واحد .

فلا بد ان يكون الموضوع له جانبان :

جانب الهداية ، بمعنى الدلالة ، وجانب الهداية بمعنى الايصال الى المطلوب .

فالهداية التي بمعنى الدلالة ، لا تقتصر على طائفة من الناس معينة وانما تنسحب على الناس كافة ــ وهي ترمز الى عالمية الدعوة الاسلامية ، ــ وذلك ان الانبياء ، انما جاؤا من اجل هداية البشرية جمعاء ..

فقال الله سبحانه : « انك لتهدي الى صراط مستقيم .. » .

وفي آية اخرى ، مصداق لهذا المعنى :

« واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فاخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .. » فصلت ١٧

تأملوا جيدا كلمة : (فاستحبوا العمى على الهدى) اي اننا زرعنا في طريقهم شموع الهداية ، وقناديل الرحمة ، فاطفأوا الشموع ، وحطموا القناديل ، وساروا في الظلام ! .

لقد هداهم الله ، فاختاروا العمى والظلام ، ورفضوا النور والهداية فكانت عاقبتهم ، ان اخذتهم صاعقة العذاب الهون ومزقتهم شر ممزق ..

« قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انا عليكم بوكيل .. » ـ يونس ١٠٨

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم .. » يونس ٩

« افرايت من اتخذ الهه هواه ، واضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، افلا تذكرون .. » سورة ٤٥ ـ آية ٢٤ .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله ، من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » المائدة ١٦

اذن : فالهداية التي بمعنى الايصال الى المطلوب وتذليل العقبات والحمل

على الخير والمساعدة ، من الله للانسان انما تقتصر على الذين استمعوا لله سبحانه ، واقبلوا عليه ، وآمنوا به واخذوا مناهجه وطبقوها على انفسهم واهليهم .

اما الذين رفضوا مناهج الله ، وتركوا قرآنه وساروا في ركاب الشيطان ، واعتصموا بقلعته فان الله ، يرفضهم ولا يزكيهم ، ولا ينظر اليهم . ولهم عذاب اليم ..!

بينما في الهداية التي هي ، بمعنى الايصال الى المطلوب يقول الحق : « .. انك لا تهدي من احببت » .

فالذي يتقبل مناهج الله بقبول حسن يجعل النور في قلبه ، والذي يرفض مناهجه يجعل على قلبه غشاوة :

« انك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ، وما انت بهادي العمى عن ضلالتهم ــ ان تسمع الا من يؤمن باياتنا فهم مسلمون .. » ٢٧ اية ٨٠ ــ ٨١ .

ومن أجل الوضوح التقريبي ، نضرب لكم المثل التالي :

تصور انك في سيارة ، تريد التوجه الى مسجد الامام الحسين عليه السلام في القاهرة ، ولانك لا تعرف الطريق ، سألت رجل المرور ، عن الطريق المؤدي الى المسجد :

هنا رجل المرور ، يرشدك الى الطريق بقوله : خذ هذا الشارع مستقيما ، ثم سر في منعطف اليمين ، وبعدها اتجه نحو اليسار ، وستصل مسجد الحسين ..

رجل المرور ، هداك الى الطريق ، اي انه دلك على الطريق الصحيح .. فهنا الهداية معناها الدلالة ، فقط ..

اما اخذ الهداية ، او رفضها ، فيرجع اليك ، اولا واخيرا ...

فأنت تارة ، ترفض كلام رجل المرور ، وتقول له : انت على خطأ ، وليس الطريق من هنا ، وماذا تفهم انت .. فانه عندئذ ، يتركك رجل المرور لانك رفضت كلامه بدون سبب معقول .

ولكن من جانب اخر ، عندما تأخذ بكلام رجل المرور ، وتشكره على عمله هذا ، فانه يلتفت اليك في حب واحترام ! ويقول لك : احذر فان وسط الشارع حفريات عميقة ، ولا امن عليك من السقوط فيها ، فخذ حذرك ، وكن واعيا في الطريق ..

فهنا من الممكن ان يركب معك في السيارة ، ليساعدك على تخطي الصعاب ، فتكون الهداية بمعنى الايصال الى المطلوب .

كذلك القضية ، بالنسبة لامتثال اوامر الله سبحانه .

المشيئة :

« وما تشاؤون الا ان يشاء الله .. » الدهر اية ٣٠ .

يبدو من الاية ، ان اشائة الانسان ، تدور ضمن اشائة الله .. وبكلمة ادق : فان الله هو الذي اعطى الانسان الاشاءة ، وجعله يشاء الايمان ، او يشاء الكفر !.

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. » . (الكهف — ٢٩) .

ان المشيئة — الارادة — التي يتمتع بها الفرد هي ضحية وعطية ، من الله ..

والاشاءة هبة من الله للانسان ، وهي ، امانة ثقيلة تطوق رقبة الواحد منا ، وتصليه نارا ، اذا هو تراخى في اداء حقها على الوجه الصحيح !.

« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا .. » الاحزاب اية ٧٣ .

وفي الحديث : عبدي بمشيئتي كنت انت الذي تشاء .. !

مثلا : شاء الله ان يجعل يدك تتحرك ، حسب ارادتك .. وحينما تصفع يتيما بيدك ، تكون قد اغضبت الله ورسوله ، وصرت في عداد الاثمين ، بينما اذا حركت يدك بلطف فوق راس ذلك اليتيم اصبحت في مصاف الاولياء الصالحين ، وسجل الله لك ، بكل شعرة مرت عليها يدك سبعين حسنة !.

فالارادة واضحة ، وبارزة ، في ان ترفع يدك في الضرب والبطش بالضعفاء ، وفي أن ترفع يدك في مصافحة الاخوان ، ومساعدة الضعفاء .

ولتقريب المضمون خذ هذا المثال :

افترض ان رجلا يعاني من مرض ضغط الدم ، وهو لا يستطيع ان

يحرك يده ، بسبب الضغط البغيض ..

فناتي اليه بآلة الكترونية ، تتمكن من دفع اليد للحركة ..

ثم لنفترض اننا اخذنا سلكا كهربائيا وربطنا طرفا منه بيد المريض، والطرف الاخر بالالة الالكترونية .

وبفعل القوة الكهربائية ، استطاع الرجل المريض ، ان يحرك يده في خفة وسرعة .

والان يده ، حرة ، طليقة ، فهو في امكانه ان يدعو بهذه اليد دعاء ، وفي امكانه ان يضرب طفلا صغيرا ..

فاذا رفع يده ، وصفع الطفل ، فهل يقع اللوم على القوة الكهربائية ام عليه هو ؟!

لا شك ان اللوم يقع عليه .. لانه وجه تلك القوة الى الفساد ، وليس للبناء .. فقد كان في مقدوره أن يدعو الله بيده ، وكان بوسعه أن يكتب كلمة طيبة بيده ، وكان في استطاعته ان يطعم جائعا بيده !.

كل ذلك كان مطلوبا منه ، وكان هو قادرا عليه .. ولكنه تصرف تصرفا شاذا فصار مسؤولا عن تصرفه هذا .

ومن خلال هذا المثال نستطيع ان نرى نور المعرفة يتلألا في افق المسألة المسألة ... فالله سبحانه ، اعطانا القوة ، وامرنا ان نصرفها في طريق الخير والبناء ..

واذا حدث ، وصرفناها في طريق الشر ، فذلك يعني اننا مارسنا

المعصية بقوة الله .. مع مراعات ان الله لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعبادة المعصية .

جاء في كتاب قرب الاسناد عن البيزنطي قال : قلت للامام علي بن موسى الرضا عليه السلام :

« ان اصحابنا بعضهم يقول بالجبر ، وبعضهم يقول بالاستطاعة ، فقال لي : اكتب :

« قال الله تبارك وتعالى : يا ابن ادم .. بمشيئتي كنت انت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبقوتي اديت الي فرائضي ، وبنعمتي قويت على معصيتي ، جعلتك سميعا بصيرا قويا ..

ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك ، وذلك لاني أولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني .. » .

وكان الامام الرضا عليه السلام يقول : في مناجاة ربه :

« اللهم يا رب انا قويت على معاصيك ، بنعمتك » .. بنعمة العضلات ، وبنعمة الطعام وبنعمة الحياة !.

ان الله خلق الانسان ، واعطاه الحرية ، ليختار الطريق بنفسه.. اما نحو الخير ، واما نحو الشر . « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (الانسان ــ ٣) .

اذن : كيف نصرف تلك القوة ؟!

مثال :

الاب جاء بالزيت والكبريت والطعام ، ووضعها في البيت تحت تصرفنا — وفي امكاننا ان نأكل ونستفيد من هذه الادوات ، وفي امكاننا ان نأكل ونستفيد من هذه الادوات وفي امكاننا ان نحرق البيت ، ونحترق معه .

والخلاصة ، ان القوة من الله ، والتوجيه منك انك .. تصلي بقوة الله، وتزني بقوة الله ولكنك مسؤول عن صرف هذه القوة ، في غير محلها .

ولكي تتضح الصورة ، اكثر ، اضرب لكم المثال التالي :

جهاز التلفزيون ، فيه قناتان ، قناة فيها حفلة راقصة ، وقناة فيها حفلة تربوية دينية .

واطفالك جالسون ، يستمعون الى الحفلة التربوية الدينية .. وفي هذه الاثناء اردت ان تخرج من البيت ... فأوصيت اولادك قائلا :

اولادي ، انا سأخرج في عمل سريع ، وارجع ، وكل الذي اطلبه منكم هو ان لا تديروا الموجة على قناة الرقص .. فقال الاطفال : نعم يا بابا نحن لا ندير الموجة على قناة الرقص ..

ولكنك عندما رجعت الى الدار ، وجدت الاولاد ، كانوا قد اداروا قرص الجهاز نحو موجة القناة الراقصة .. فما كان منك الا ان ثرت وغضبت وضربت الاولاد .

والان ، لماذا ضربت الاولاد ؟

هل ضربتهم لانهم خلقوا الموجة التلفزيونية ؟ كلا .. وانما ضربتهم لانهم وجهوا الموجة نحو حفلة الرقص ..

واذا عرفت ذلك ، ادركت ان الله سبحانه لا يحاسبنا الا لاننا وجهنا الفعل نحو الشر ، وصرفنا القوة في طريق الشر ..!

ويقرر القرآن ، في البداية — ان اعمال الناس ، تجري في الحياة، حسب ما يختارونه لانفسهم ، ووفق ما يشاؤون ، من دون ان يكون الاختيار خروجا ، على مشيئة الله ، ومن دون ان يكون الانسان مكرها على فعله .. !

« لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي .. » (البقرة ٢٥٦)

« ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها .. » ! السجدة ١٣ .

« ولو شاء الله لهدى الناس جميعا » الرعد ٣١ .

لقد رفض الله ان يكره الناس على الطريق الهداية وكان في امكانه ذلك — ولكنه اراد لهذا الانسان ان يختار طريقة بنفسه ، دون اكراه ، ولا جبر .

« ولو شاء ربك لامر من في الارض كلهم جميعا . افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. » يونس ٩٩ .

« من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى ... » . الاسراء ١٤ .

« فاما من اعطى واتقى ، وصدق بالحسني ... فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » الليل ٥ — ١٠ .

وهنا يؤكد القرآن حقيقة هامة ، وهي : ان الله سبحانه ، قد جعل تيسيرات الانفعال ، مطابقة تماما ، لدخائل القلوب بحيث يجد المجرم العاصي، تيسيرات الشر موفرة ، ويجد المؤمن المطيع تيسيرات الخير موفرة ايضا !.

والذي فيه بذور الهداية يشرح صدره للايمان والذي فيه بذور الشقاء يتركه للشياطين تضله ، وما ربك بظلام للعبيد .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين .. » .

« كل نفس بما كسبت رهينة » المدثر ٣٨ .

« كل امرىء بما كسب رهين » الطور ٢١ .

« ومن اهتدى فانما يهتدي لنفسه » .

« ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك » .

« بل طبع الشيطان على قلوبهم فانساهم ذكر الله العظيم .. » .

« كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب » المؤمن ٣٤ .

« فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم .. » .

« ولا تكونوا كالذين نسوا الله ، فانساهم انفسهم .. » .

« ليهلك من هلك عن بنية ، ويحيى من حي عن بنية » . الانفال ٤٣ .

« ما اصابكم من سيئة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير .. » الشورى ٣٠ .

ابو حنيفة ـــ والامام الكاظم عليه السلام

خرج ابو حنيفة من عند الامام الصادق ، فاستقبله الامام الكاظم ، وكان شابا لم يبلغ الحلم .

فقال له : يا غلام : ممن المعصية ؟

قال الامام الكاظم : لا تخلو من ثلاثة امور :

اما ان تكون من الله عز وجل وليست من الانسان ، فلا ينبغي للكريم ان يعذب عبده بما لم يكتسبه ، واما ان تكون من الله عز وجل ومـــــن العبد ، فلا ينبغي للشريك القوي ان يظلم الشريك الضعيف ، واما ان تكون من العبد وهي منه ، فان عاقبه الله فبذنبه وان عفى عنه فبكرمه وبجوده» البحار المجلــد الثالث ص ٩ .

مع البهلول

كان الخطيب فوق المنبر ، يتدفق الكلام ، كالسيل من فمه .. وكـــان يتحدث عن الله ، وعن الانسان والجنة ، والنار والشيطان ..

وكان فصيحا بليغا ..!

ويبدو ان البلاغة ، زرعت الغرور في راسه بحيث اصبح يتخيـــــل نفسه ، وقد تربع على قمة العلوم الاسلامية ، وحاز على قصب السبق فيهـــــا ..

آه من الغرور !

اخذ هذا الخطيب المغرور ، يذكر اقوال الامام الصادق ، ويفندها بأدلة اوهن من بيت العنكبوت ... كان قد عدل هندامه فوق المنبر ، وهو يتحدث للناس عن مسألة في الفلسفة ، ذكرها الامام الصادق ، وكان يرد على الامام بقوله :

قال الصادق : ان الانسان مخير ، وانا اقول انه مسير ..

وقال الصادق : ان الخير من الله ، والشر من الانسان وانا اقول ، الخير والشر من الله .

وقال الصادق : ان ابليس في النار ، وتحرقه النار ، وانا اقول : ان ابليس خلق من النار فكيف تحرقه النار ؟!

وبينما هو غارق في الفلسفة ، والناس مجتمعون حوله كربيضة الغنم ، اذ مر عليه البهلول الشخصية المعروفة ، في ايام الرشيد العباسي.

فوقف البهلول ، يسمع كلام الخطيب .. ثم التقط حجرا مدببا من الارض ، وقذفه نحو الخطيب ، فشج جبهته وسالت الدماء منها ، فأخذ يصرخ من الالم ، ويقول : انه البهلول ، امسكوه .. قاتله الله : والان تعال معي ، لنستمع ، الحوار الساخن الذي جرى بين البهلول والخطيب :

قال الخطيب ، والدم يجري من جبهته ، ويلك يا بهلول ، لماذا ضربتني هكذا ؟

قال البهلول : لست انا الذي ضربتك ، وانما هو الله ..! الم تقل ان الخير والشر من الله ، فهذا الحجر من الله ، وليس مني !

ثم تابع البهلول في كلامه :

وانت ايها الخطيب ، الم تقل ان الانسان مسير وليس بمخير .. فها انذا مسير .. لانني — حسب ادعائك — وجدت نفسي مكرهاً ، على التقاط الحجر ، وتذفك به في جبهتك الكريمة .

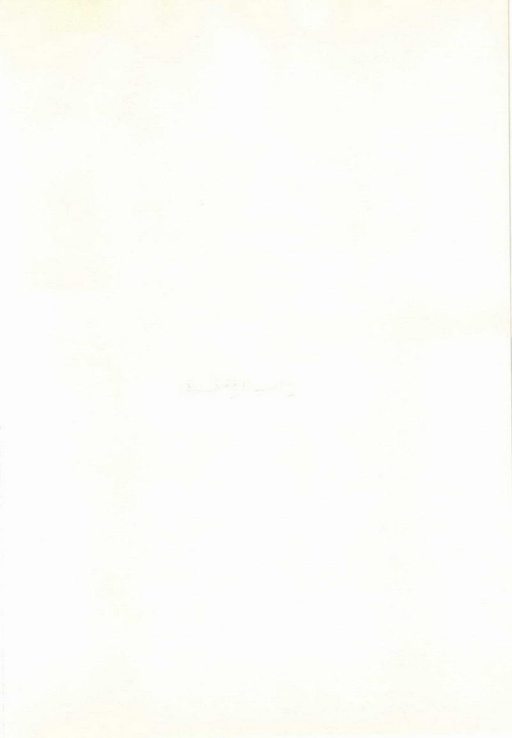
هذا والخطيب يصرخ من الالم ، والبهلول ما زال يواصل كلامه قائلاً :

اولست انت الذي قلت — قبل لحظات — ان ابليس خلق من النار فكيف تحرقه النار ..

وانت خلقت من الطين فكيف جرحك الطين وادماك ..؟

وانتهت المسرحية الواقعية ، بانتصار البهلول ونقل الخطيب الى الطبيب !

وَقفة مَعَ الروح



بسم الله الرحمن الرحيم

« .. ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما اتيتم من العلم الا قليلا .. » قرآن كريم .

الكلام حول الروح ، حلو جميل ، ولكنه يحتاج الى مقدمات لفهم الموضوع .

فالماديون مثلا يقولون : انه لا وجود للروح ، وليس هناك الا المادة ، وحتى اذا امنوا بالروح ، وعالم الارواح ، فانهم يردونها الى الفكر ، والفكر مادة تترشح من خلايا الدماغ ، كما تترشح الصفراء من الكبد .

ولماذا عدم الايمان بالروح ؟

ــ : لانها غيب لا نحسه ؛

ــ : وهل كل شيء في الكون ، يمكن ان نحسه ونشعر به ..؟

فما هي الكهرباء ؟

وما هي الجاذبيـــة ؟

وما هـــي الحيـــاة ؟

ان العلم استطاع ان يحلق في ارفع المستويات الاكتشافية والاختراعية،

ولكنه عجز عن معرفة ابسط الامور !

فالعلم لا يعرف من الكهرباء ، الا انها قوة تدخل الاجهزة التكنولوجية ، فتحركها ، وتدخل الشمعة ، فتعطيها الضياء والنور .

والعلم لم يستطع ان يعرف الجاذبة ، وماهية الجاذبة ـــ فحتى اسحق نيوتن ، ابو الجاذبة الكبير ، لم يقدر ان يجد تفسيرا مقنعا للجاذبة ، ولا عرف لونها ولا طعمها ولا رائحتها .. فهي قانون عملاق يسيطر على الكون كله، دون أن يعرف شكله احد من البشر ، وكما في الكهرباء ، والجاذبة ، كذلك في الحياة ، ولونهـــــا ..

فالحياة مجهولة ، والموت ، ايضا ، مجهول .!

كان في الماضي التصور : ان الموت شيء معدوم لا وجـــــود له في الخارج .. باعتباره في مقابل الحياة .

في حين يحدثنا القرآن بصراحة : ان الموت مخلوق كما الحياة تماما !.

« هو الذي خلق الموت والحياة .. » فالموت ليس عدما ، وانما هـــو شيء موجود .!

والمادة ، تارة ، تكون ميتة ، وطورا ، تتفاعل مع الحياة !.. يقول القرآن : « .. يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .. » . واذا اردنا ان نعرف مضمون الاية جيدا .. فينبغي لنا ان نعرف الفرق الدقيق الذي يفصل بين ساحة الموت ، وعالم الحياة .

في مراجعة سريعة للقرآن ، ونظرة .. فاحصة لفكر اهل البيـــت

عليهم السلام — يظهر لنا واضحا .. ان كلمة الحياة تعني التناسل والتكاثر والنمو ، بينما كلمة الموت تعني الحركة دون ان يكون فيها نمو، وتفاعل حيوي !

فالحياة موجودة ، في الخلية ، وليست في الذرة ، فالاولى حية ، بينما الثانية ميتة — وهذا هو — بالضبط — ما تؤكده العلوم الحديثة ، بكل فروعها .

وبالمثل : ذرات التراب ميتة .. في حين خلايا النبات حية ! وذلك ان الذرة فيها حركة وليس فيها نمو ، ولا تناسل .. في حين الخلية ، فيها حركة ، ونمو وتناسل ، وتكاثر .. لان الخلية الواحدة تنفلق في تكاثر وتصاعد حتى تصل المليارات ، بينما الذرة الواحدة ، تظل واحدة دون زيادة ، ولا نقصان. والامثلة والشواهد العلمية كثيرة ، وسيأتي ذكرها ان شاء الله ، في المحاضرات القادمة .

وبعد هذه المقدمة ، نرجع الى الاية :

« ويسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربي .. » .

امام الروح ، يقف العالم في خطين متعاكسين : خط مادي يكفر بالروح ، وخط معنوي يؤمن بها ... اما الذين يؤمنون بها ، فلا كلام لنا معهم — وانما كلامنا يدور مع الماديين الذين يرفضون الاعتقاد بالروح ، وما يدور في بروجها ..!

لا يختلف احد مع نفسه ، في ان الانسان يتألف من نصفين متقابلين.. وظيفيا ، ومختلفين ، طبيعيا .. يتألف من جانبين :

جانب غارق في الزمان والمكان .. وجانب متمرد وخارج على الزمان

والمكـــــان ..!

فالجانب الغارق في الزمان والمكان .. هو الذي يمثل الجسم — ويتمثل به — فالجسم يجري وفق حسابات الزمان ، ومساحات المكان ... :

سواء كنت قائما ، او راكعا ، او ساجدا ، فانت لا تستطيع ان تتحرر من قيود الزمان والمكان .

الزمان — يعني انك جالس — الان — في الساعة العاشرة — مثلا — والمكان ، يعني انك تشغل مساحة نصف متر — في جلستك .. وهل تستطيع ان تخرج جسدك ، من الزمان والمكان ؟

كـــــلا .. والف كلا ..

اذن ، فالجسم واقع في حدود الزمان ، والمكان .

والان تعالوا معي ، الى الجانب الثاني !

ان الواحد — منا — يشعر في قرارة نفسه ، ويحس احساسا حادا ، ان في اعماقه شيئا دقيقا ، ليس له ثقل ، ولا وزن ، وغير خاضـــــع للزمان والمكان ..

فانت تضع راسك على الوسادة ، وتسلم نفسك في نوم عميق ، وخلال النوم ، ترى نفسك في رحلة سياحية ، وعلى جناح السفر .. فها انـــت حزمت حقائبك ، ورتبت متطلبات السفر ، ثم حجزت التذكرة ، وخرجـت الى المطار ، وحلقت بك الطائرة في الافاق البعيدة .. فنزلت في مطــــار القاهرة ، ولندن ، وباريس ، ثم اخترت فندقا فخما . وسكنت فيه فتـرة

لا يستهان بها .. ثم رحت في تنقل من مطار الى مطار ، ومن بلدة الى اخرى .. واستغرقت السفرة قرابة ثلاثة اشهر .. رجعت — بعدها — محملا بالهدايا الثمينة ، للاهل ، والاصدقاء .

ويوم العودة ، وجدت الاحباب ، في انتظارك في المطار ، ثم تجمعوا حولك في البيت ، وانت سادر في القصص المثيرة ، التي تخللت الرحلة تنقلها لهم ، وهم يستمعون في شوق بالغ .

وفجأة ، استيقظت من النوم ، لترى ان نومك استغرق ، فقط خمس دقائق ليس اكثر .!

والسؤال هو :

من الذي سافر في هذه الرحلة ؟

هل هو جسمك ، ام روحك ؟

اذا قلت : جسمي سافر .. فان ذلك يستدعي أن تكون قد نمت — ثلاثة اشهر — في حين انك لم تنم اكثر من خمس دقائق ..

اذن : ظهر جليا . ان الذي ارتحل من خارج الزمان ، هو : روحك وليس جسمك ، وذلك لان الروح خارجة على الزمان والمكان ، ولا تتقيد بها .. لانها لم تكن مادة ، وانما هي جسم رقيق — كما — جاء في رواية الامام الصادق عليه السلام :

« الروح جسم رقيق ليس لها ثقل ولا وزن .. » .

ولكي نصل الى احاطة معقولة بالموضوع نضرب المثال التالي :

الماديون قالوا : ان الفكر مادة .!

ونحن بدورنا نطرح السؤال التالي :

هل الفكر من صنف الروح ، او من صنف الجسم ؟ من خواص المادة، أو من خواص الروح ؟

هذا هو السؤال الذي يعطينا الصورة الكاملة لمسألة الروح !

والان تعالوا . نرى القضية .

لو فرضنا ان الفكر من خواص المادة فان ذلك يعني ، ان الفكر مشدود بالجسم ، وهو يتأثر بكل شيء يتأثر به الجسم ..

وبالطبع فالجسم . يجري رويدا رويدا للضعف والانحطاط .. « هو الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا ، وشيبة » .

الجسم — تبعا لتقدم العمر — يمر بمراحل الضعف والشيب ... ولو كان الفكر من جنس الجسم ، لكان هو الاخر يمر بأدوار الضعف والشيب.. ولكن الواقع يخالف هذا تماما .. وذلك اننا نجد الرجال العظام ، والعباقرة، والعلماء ، مهما ترامت بهم الايام ، وضعفت اجسادهم . تصبح افكارهم قوية عملاقة ، لا تعرف الضعف .. فالجسم في ضعف وهزال ، والفكر في تدفق وكمال .

وخير مثال على ذلك ، مراجع التقليد . وبقية العلماء الاعلام .. فهذا مرجع ديني قد هدمت الايام جسمه ، وارخت حاجبيه على عينيه ، بحيث

لم يعد باستطاعته القيام دون ان يعتمد على شيء ، في قيامه وقعوده .. ولكن فكره بحر عميق تزدحم فيه أمواج العلم ، والمعرفة .. فجسمه يزداد ضعفا — يوما بعد يوم — في حين ان عقله ، وفكره ، ووعيه يزداد قوة اكثر فأكثر .

والله يقول : « ومن نعمره ننكسه في الخلق » وليس في العقل والفكر... بل فقط ننكسه في الخلق ، اي في الجسم وتوابعه .

الضعف الجسدي :

دخل حيكم على الحجاج ، فسأله : كيف انت في قيامك وقعودك ؟

قال : اذا قمت لصقت بي الارض ، واذا قعدت كانما اهوي في واد سحيق ! وفي المشي تقيدني الشعرة ، وتسقطني البعرة !

وفي مقطوعة شعرية رائعة ، لابن الرومي :

كأني ، وقد جاورت سبعين حجة خلعت بها عني عذار لجامي ..

على الراحتين مرة ، وعلى العصر انوء ثلاثا بعدهن قيامي

رمتني نبات الدهر ، من حيث لا ارى فكيف بمن يرمى ، وليس برامي

وشاعر اخر يقول :

ولي عصى عن طريق الذم امدحها بها اقدم عـــن تأخيرهـــا قدمي

كأنها وهي في كفي اهش بها على الثمانين عاما لا علـــى غنمـــي

كأنني قوس رام ، وهي لي وتر ارمي عليها زمان الشيـــب والهرم

واخر يقول :

حملت العصى لا العجز اوجب حملها علي ، ولا اني انحنيت من الكبر

ولكنني عودت نفسي حملها لاعلمها انـــي مقيم علـــى سفـــر

اذن : فالجسم يضعف طبيعيا . بخلاف الفكر الذي كلما مضى بـــه الزمن ، اشتد قوة وازداد انطلاقا ، كما مر علينا في المقدمة .

واعتقد ان الامر ، يتضح اكثر فأكثر عندما نسمع الدليل التالي :

لو اننا اخذنا خلايا الدماغ ، وفرشناها ، فانها لا توازي بحجمها عدة اوراق ..!

واذا كتبنا عليها شعرا او نثرا .. فلا تتسع الا لقصيدة واحدة ، او مقالة واحدة .. في حين ان بعض الافراد ، يحفظ اكثر من عشرة الاف بيتا من الشعر اضافة الى حفظ القرآن الكريم ، ونهج البلاغة والصحيفة السجادية ، وجمهرة من القصص ، والمتون العلمية .!

والسؤال هو : اين يختزن الفكر ، هذا الموكب الرهيب من المحفوظات، وكيف يحفظها ، خلال رحلة العمر ، دون ان تتساقط اعمدتها ، وتخر على عروشها وتذبل وتموت !؟ .

ان هذه الاحزمة الضخمة ، من المحفوظات تبقى عالقة ، في الذهن، ومنقوشة في صفحة الفكر ، طيلة حياة الانسان ، وبالاخص اذا كان الانسان عبقريا . فانها تزداد تألقا وانتشارا .

نخرج من كل ذلك ، بأن الفكر لو كان مادة ، لما اتسع لاكثر من قصيدة او عشر قصائد ، زد على ذلك ان المادة لا تقبل الا صورة واحدة في نفس الزمان والمكان ، — كما هو معروف في العلوم الفيزيائية — !

فكيف — اذن — تقبل الفكر ملايين ، الصور ، واحتفظ بها ، بأرشيفه ، دون ان تختلط فينسخ بعضها بعضا .!؟

واذا كان الانسان مؤلفا من الجسد المادي فقط ، وكل ما فيه يرجع الى المادة ، — كما يدعي الماركسيون — فكيف نفسر الارادة التي ، تدوس الجسم المادي ، وتتعالى على الشهوات والغرائز ...؟!.

ومن أين انبعثت هذه الارادة ؟

وأين مقرها ؟ ومن اي شيء ، اخذت قوتها ؟ هل اخذت قوتها من الجسم ، ام من الروح ؟

واذا كانت قد اخذت قوتها من الجسم .. فكيف تسحق الجسم وتكون اقوى من الجسم ؟

لا بد ان الارادة ، ترجع الى الروح ، وهي من صنف الروح ، وليس من صنف الجسم .. كما أن الفكر من خواص الروح ، وليس من خواص الجسد ..

وذلك . لان الفكرة ، بحد ذاتها لا تتحدد بحدود الزمان ، ولا المكان .. فهي — اذن — قطعة من الروح ،ولم تكن ابدا من الجسم !.

وللتدليل على وجود الروح ، انقل لكم هذه القصة التي حدثت في البرازيل ، وتناقلتها ، وكالات الانباء ، في حينها : (١)

القصة حدثت في البرازيل :

فتاة متزوجة ، تركت طفلها في المنزل ، وخرجت لشراء بعض الحاجيات من السوق .. وفي اثناء الطريق لاح لها — في الهواء — شبح امراة عجوز، اخذت طفلها وطرحته ارضا وانهالت عليه بالضرب الشديد ..!

فما كان من الام الا وهجمت على المرأة العجوز ، ولكن العجوز اختفت ، وذابت في الهواء — وهنا ، رجعت الفتاة تركض الى الدار واللوعة تطل من عينها ، والالم يعتصر قلبها ، وما ان دخلت الدار ، حتى وجدت طفلها الصغير قد سقط من المهد ، وتكسرت رجلاه ، وانشجت جبهته !

١ — راديو الكويت ٢—١١—١٩٧٥ .

حملت الطفل على صدرها ، وهو ينزف الما ودما ، وراحت به الى اقرب عيادة طبيب في المنطقة ..

وكم كانت الصدمة قوية ، عندما وجدت الصورة المعلقة على راس الطبيب هي نفسها صورة العجوز الجانية !

واهتز جسمها من هول الاتفاق ، وكاد الطفل يسقط من يدها ، لو لم يسارع الطبيب لاخذه منها !

ولما سألها الطبيب عن القضية ، قصت عليه تفاصيلها ... فرد عليها الطبيب قائلا :

اجل ، يا سيدتي .. لقد حدثت الحادثة قبل نصف ساعة ، اليس كذلك ؟

قالت بلى .. والهول يكبر في وجهها .

وسألته ، ايها الطبيب ، بحق السماء ، كيف عرفت ذلك ؟

فأجابها في هدوء :

اعلمي ايتها السيدة ، ان هذه الصورة ، هي لوالدتي العجوز المتوفاة قبل عشر سنوات ، والصورة معلقة فوق راسي ، منذ سبع سنوات ، ولم يحدث ان انقطع الحبل ، وسقطت الصورة ، الا قبل نصف ساعة فقط .

وانتشر خبر الحادث ، فاجتمع علماء النفس ، والميتافيزيقيون ، لدراسة الحادثة !

والسؤال هو : كيف يفسر الماديون هذه الواقعة التي اهتزت لها الجامعات العلمية في الغرب ..؟

انهم لا يؤمنون بالغيب !.

وهل الحياة ، الا غارقة في الغيب !

والا فما هي الكهرباء ؟

وما هي الجاذبة ؟

لا أحد يعرف ذلك ، على الاطلاق ودعني اسألك ، اذا كان كل طبيب يتعامل مع عضو معين من اعضاء الجسم فمع أي عضو يتعامل طبيب النفس ؟

انه يتعامل مع شيء غيبي ، ومع ذلك فعلم النفس حقيقة ثابتة ، ترفض الجدل .

والان ، وبعد ان تجزءت الذرة ، وتحولت الى خمسمائة مليون موجة ضوئية ، فقد تبدلت الامور ، وهزم الماديون امام زحف العلم الهادر.

وعندما نقرا الفكر الاسلامي ، فاننا نلاحظ الاحاديث المقدسة ، الواردة ، عن اهل البيت عليهم افضل الصلاة وازكى السلام ، تؤكد وجود الروح ، وانها ليس فقط في الجسم ، وانما حتى بعد مغادرتها الجسم ، فانها تظل في الوجود ، ولا يعتريها فناء ابدا . مثلها مثل الطاقة ، التي لا يعتريها الفناء .

جاء حديث عن رسول الله ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ .

« .. ان الارواح تأتي في ليالي الجمع ، فتقف على شرفات البيوت . اذا رأت أهلها بخير استأنست واسترت واذا رأتهم بسوء تألمت ، وهي تقول : يا اهلينا اذكرونا قبل ان تكونوا مثلنا فلا يذكركم احد .. » .

ويحدثنا التاريخ : ان الامام علي عليه السلام :

كان قد خرج — ذات يوم — الى الجبانة (المقبرة) وكان معه « حبة العرني » وهو احد اصحابه .

يقول حبة العرني : رأيت سيدي ، وقد اطال في الوقوف ، ونظرت الى شفتيه تتحركان ، فقلت له : سيدي دعني افترش لك ردائي ، فقال الامام : يا حبة ان هي الا مزاحمة مؤمن !

يقول حبة : قلت سيدي ما ارى احدا يزاحمك ،! قال : يا حبة لو كشف لك عن بضرك لرأيتهم حلقا ، حلقا ، يتحدثون حول القبور ! قلت : سيدي أرواح ام اجساد قال : لا . بل ارواح ..

فهذه وثيقة ، تدل على وجود الروح وللمزيد من الادلة على وجود الروح ، يستحسن مراجعة كتاب : على حافة العالم الاثيري ، وكتاب : الانسان روح لا جسد .. وهناك جمهرة من الكتب في هذا المجال ، لا يستهان بها .

الصـراط المستقيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » قرآن كريم .

عشر مرات في اليوم ، نطلب من الله فيها ، خلال صلاتنا ، ان يهدينا الصراط المستقيم : « اهدنا الصراط المستقيم .. » .

فما هو ، هذا الصراط المستقيم ، واين مكانه ؟

للاجابة نتحدث بوضوح :

الصراط ، في اللغة ، الطريق ، الجادة ، الخط المستقيم !.

ونحن نعرف : «ان الخط المستقيم هو اقصر خط موصل بين نقطتين .. » كما تقول القاعدة العلمية في الهندسة .

واذا كان الصراط المستقيم ، هو الخط المستقيم ، الذي يعتبر اقصر الخطوط في الوصول الى الهدف فاننا نطلب من الله ، ان يضعنا على الصراط المستقيم ، لانه اقصر خط يوصلنا الى رحاب الله ، ورضوانه ولا يخفى ، ما في ذلك من السعادة ، والهدوء ، والطمأنينة في الحياة ...

فما أحوجنا الى السير على الصراط المستقيم ، في عصر ماتت فيه كل المعنويات ، وتساقطت فيه كل اعمدة الضمير والوجدان ، حتى صار القلق والخوف هما العملة المتداولة في هذا العصر !.

على ان الاية ذكرت الصراط المستقيم ، مفردا بينما ذكرت الطرق الاخرى بصيغة الجمع ، فقالت :

« وان هذا صراطي مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

واللفتة الذكية في الاية ، التي تستحق الوقوف هي : ان الله سبحانه ، ذكر الصراط ، وركز عليه مرتين ، في صيغة المفرد ، مرة حين قال : « .. صراطي مستقيما .. »ومرة اخرى ، عندما قال : « ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله .. فجاءت سبل الباطل جمعا ، بينما جاء سبيل الحق مفردا ..

ولان الصراط المستقيم ، هو النور الذي يمشي به الانسان في الحياة ، فقد جاء النور مفردا ، في حين جاء الظلام جمعا .. وذلك ان النور واحد، وهو طريق الله ، والحق لا يتعدد ، وماذا بعد الحق الا الضلال ؟. بينما الطرق الاخرى متعددة ، ولهذا جاءت في صيغة الجمع .. وتلك ظاهرة ملفتة للنظر وردت الاشارة اليها في أكثر من مكان في القرآن الكريم !.

« الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى (النور) والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من (النور) الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

ففي القرآن ، النور واحد ، والظلمات كثيرة ، ملتوية ، ومتعددة !.

والسؤال الان هو :

هل الانسان وحده ، مطلوب منه ان يمشي على الصراط المستقيم ،ام تشاركه بقية الكائنات في رحلته هذه ..؟.

ان نظرة علمية عميقة نلقيها على ما يدور حولنا ، من المخلوقات ، تعرفنا ان كل الكائنات تجري على سكة الصراط المستقيم ، دون ان تميل عنه مثقال ذرة !.

فالكل يسبح في فلك الصراط المستقيم !.

اخذا من الذرة ، والخلية ، والدابة ، ومرورا بالنبات ، والحيوان ، والانسان ، وانتهاء ... بالشمس والقمر ، والنجوم ، واكبر المجرات الكوكبية العملاقة في الفضاء !

«فالشمس تجري لمستقر لها » حسب القوانين التي زرعها الله سبحانه ، في الكون . وجريها انما هو خاضع لتقدير العزيز العليم ... فلو اقتربت الشمس من مدار الارض ، لاحرقت الارض واهلها ، خلال ثوان معدودة .. ولو ابتعدت قليلا ، لخلفت ورائها عصر الجليد ، والصقيع، وانجماد البشرية .

ولكنها مشدودة بقلب النظام ، والسنن الكونية ... والشمس من الدقة الحسابية بمكان ، بحيث تعطي الدفء والحياة ، والحرارة ، والطاقة، ضمن مقادير ، ووفق معادلات رياضية ، لا تزيد شعرة ، ولا تنقص شعرة !

اذن : فالشمس تجري على الصراط المستقيم ، اي انها تسير على ضوء الطريق المرسوم لها من قبل الله العزيز العليم .. دون اي مخالفة !

وكما الشمس ، كذلك في القمر ، لان : « الشمس والقمر بحسبان» فالقمر مطلوب منه ان يدور حول حزام الارض ، يرش ضوئه الفضي اللامع على صدر امه الارض ، ليرتضع من ثديها الجاذبة ، ويأخذ من عين الشمس النور وهو بهذا يحافظ على توازنه بين الشمس والارض .

والقمر — بعد ذلك كله — مطلوب منه ان يدور حولحزام الارض، لحفظ المعدل الطبيعي للمد والجزر في البحار ، وكذلك فهو يحفظ معدل النمو عند النبات ، كما انه يشكل اثرا فعالا ، في الحفاظ على نسبة الاوكسجين ، في الهواء ، وفي القشرة الارضية ، فيمنعها عن التطاير والاختفاء في الجو .

وبالمثل ، لو اقترب القمر من الارض ، لسبب الفوضى والدمار ،حيث ترتفع امواج المد في البحر حتى تغرق الحرث والنسل ، ويؤدي اقترابه من الارض ، الى اقتلاع قشرة الارض وقتل ذرات الاوكسجين ، وخنقها في التراب بالاضافة الى مئات المضاعفات العكسية التي يذكرها العلم الحديث بالارقام والاعداد !.

وما ينطبق على الشمس والقمر ، ينطبق على الليل والنهار ، حيث انهما في تعاقب مستمر ، وفي مطاردة حثيثة .

وفي الصور التي التقطت للارض ، خلال الرحلات الفضائية ، ظهرت صورة الليل والنهار ، واضحة بشكل يبعث على الخشوع والرهبة من الله العزيز العليم ، فقد شاهد الناس ، في الافلام العلمية ، حركة الليل والنهار .. وقد ظهر واضحا ، ان النهار يلاحق الليل ، والليل يطارد النهار ، نتيجة حركة الارض حول الشمس ، ولكن دون ان يذوب احدهما في الاخر ..

والملفت للنظر ، هو : ان القران ينقل لنا هذه الصورة العلمية ، في دقة

ونظام ، حينما يقول « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا .. » .

وتأملوا كلمة : (يطلبه حثيثا) فان فيها يكمن السر الخفي .. انها نفس الصورة التي رآها رواد الفضاء ، يوم صعدوا الى القمر .. فقد شاهدوا مسرحية الليل والنهار ، وكأنهما في ساحة السباق ، غير انه لا يستطيع اي منهما ان يسجل رقما ضد الاخر ... وصدق الله سبحانه حيث يقول : لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » .

انها كائنات تجري على الصراط المستقيم .

ونفس الشيء يقال ، بالنسبة لبقية الكواكب ، وسائر النجوم الغارقة في احضان الفضاء ..

والايات العلمية في القران ، التي تحدثت عن هذا الجانب ، بلغت أكثر من الف اية !

وفي توحيد المفضل ، نجد الامام الصادق عليه السلام ، يحدث المفضل بن عمرو ، عن النجوم ومساراتها قائلا :

« فكر يا مفضل ، في النجوم ، واختلاف مسيرها فبعضها لا تفارق مراكزها ، من الفلك ، ولا تسير الا مجتمعة ، وبعضها مطلقة تنتقل في البروج وتفترق في مسيرها .. فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين ، احدهما عام مع الفلك نحو المغرب ، والاخر خاص لنفسه ، نحو المشرق !.

كالنملة التي تدور على الرحى ، فالرحى تدور ذات اليمين ، والنملة تدور ذات الشمال !.. والنملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين : احدهما

بنفسها فتتوجه امامها ، والاخرى مكرهة ـ مشدودة ـ الى الرحى تجذبها الى خلفها .. » .

وكما في الفضاء كذلك في الارض ، فالنبات والذرة ، والخلية هذه كائنات كلها ساجدة لله ولا تعصي الله طرفة عين ، وانما تسبح لله وتقدسه ، وهي تسير على الصراط المستقيم .

« وان من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. » .

فالالكترون في الذرة ، يتنقل في مداراته حول النواة ، وهو لا ينتقل من مدار الى اخر ، حتى يأخذ حزمة من الطاقة ، تساوي سرعة انتقاله ، وبعد حركته .!. اذن : فبناء الذرة قائم على الصراط المستقيم .

وبناء الخلية ، لا يخرج عن الخط المستقيم ، مقدار شعرة واحدة .. فالخلية تعرف غذائها ، فتهتدي اليه عن طريق الدم ، وهي تعلم حجم المقادير الكيماوية ، التي تحتاجها ، فتأخذها عنصرا ، عنصرا ، تحت ضوء اعقد العمليات الحسابية ، وادق المعادلات الرياضية .

وهكذا بالنسبة للنبات والشجر ، والدواب والجبال ، والطيور ...

وهاكم حزمة من الايات الكريمة التي تضعنا على مقربة من فهم القضية !

بالنسبة للجماد والنبات ، يقول القران : « .. والشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان .. » والنجم يعني النباتات الرقيقة الناعمة ..

وبالنسبة للحيوانات يقول : « وما من دابة الا هو اخذ بناصيتها ان

ربي على صراط مستقيم » .

لاحظوا هذه الاية جيدا ، وافتحوا قلوبكم لها .. « يقول الحق : كل دابة ، كل حشرة ، تدب على الارض ... ناصيتها بيد الله .. » .

« وما من دابة الا هو اخذ بناصيتها » اي ان الزمام بيد الله ، والله يهديها ، الى الصراط المستقيم بدليل قوله تعالى في اخر الاية :« ان ربي على صراط مستقيم » .

والاية الاخرى تقول بصراحة :

« الم تر ان الله يسبح له من في السموات ، والارض والطير صافات كل قد علم صلاته ، وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون » النور اية ٤١ .

وفي اية اخرى ، تبدو المسألة في غاية الوضوح حيث يقول الحق سبحانه :

« الم تر ان الله يسجد له من في السموات ، ومن في الارض ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب .. » سورة الحج اية ١٨ .

لاحظوا جيدا قوله تعالى ، بالنسبة لمن في السموات ومن في الارض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والشجر والدواب ... تلك اصناف من المخلوقات ، واجناس من الكائنات ـ بأجمعها ـ ساجدة لله العزيز العليم ، مطيعة له ، فلم يستثني منها شيئا .. ولكنه حين جاء الى الانسان، لم يأت بذلك الاجماع ، وانما قال : وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ـ وكان المفروض ان ينسجم الانسان مع الكون في طاعته لله،

وفي سيره على الصراط المستقيم ، غير ان الانسان ، شذ عن القاعدة فجاء منه العاصي ، وجاء منه المطيع ..!

وهذا ما نلمحه في الايات الاخرى ايضا ، تلك الايات التي تحدثت عن الصراط ، فمثلا في قضية الحيوانات ، قال الله : « وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم .. » بينما في قضية الانسان .. لم يقل وما من انسان الا هو آخذ بناصيته ... ابدا لم يقل مثل ذلك .

وانما قال : « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. » !

اي يا محمد ، اخبر الناس ، قل لهم ان هذا صراط الله مستقيم ، فاتبعوه .

اذن : اتضح جليا ان الفارق الوحيد الذي يفصل بين عالم الانسان ، وعالم الحيوان ، هو ان الانسان خلق حرا . يستطيع ان يختار الطريق بنفسه ، في حين ان الحيوان لم يتوفق للحصول على الحرية ، وليس الحيوان فقط وانما الكون كله ، لا حرية له ، وانما هو مجبر على ان يجري وفق الخط المستقيم .

واكد انشتين : ان كل شيء في الكون يجري على خط مستقيم .. ومن هذه الاشياء ، الضوء فالضوء يجري على خط مستقيم ، لان الخط المستقيم هو أقصر خط موصل بين نقطتين ..!

فالكون يسير في صورة جبرية ، من الذرة الى السديم .

وفي الانسان — ٧٠٪ سير جبري على الصراط المستقيم ، و ٣٠٪ اختياري .

والان اضرب الامثلة التالية :

الانسان ، وهو جنين ، يقبع في بطن امه ، ويتدرج في النمو حسب مناهج الصراط المستقيم :

فالنطفة تستقر في الرحم ، ثم تتحول الى علقة والعلقة الى مضغة ، والمضغة تتحول الى عظام ثم ترتدي العظام ثوب اللحم ، ثم تتحرك الروح، في الجنين ، دون ارادته ، ودون ارادة الام .. وانما يتم كل ذلك بوحي من الله ، وامره ..

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا اخر ، فتبارك الله احسن الخالقين .. » المؤمنون اية ١٤ .

اذن : فالمراحل التي يقطعها الجنين في ظلام الرحم . يقطعها على ضوء الصراط المستقيم ، وهو مجبر على كل حركة يتحركها ، من النطفة، الى الولادة .!

ويوم الولادة .. كذلك ، يأتي الى الدنيا وفق قوانين وانظمة دقيقة . تمثل الصراط المستقيم .

والانسان ليس له يد ، في تشغيل اجهزته الداخلية . فهو لا يعرف كيف يتم عمل الكبد ، ولا كيف يقوم الكبد بـ ٥٠٠ عملية كيماوية ، فسجلية، في غاية الدقة والتعقيد ..!

والانسان لا يعرف كيف يقوم القلب ، بتوزيع الدم على كل خلايا الجسم ... ولا يعرف كيف تقوم الكليتان بتنظف الدم من الاحتراقات

الكيماوية والترسبات العالقة في جدار المعدة ..!

وهو لا يعرف كيف تقوم المعدة بعملية الهضم وكيف يتم تحويل اللقمة الواحدة من الغذاء ، الى اكثر من ٥٠ عنصر طاقوي ، ويتم توزيعها في الدم، عن طريق شبكة الاوعية الدموية ..

ليس في وسع كل الناس ان يعرفوا كيفية التفاعل الكيماوي فـــي داخل الجسم .. كما انه ليس في امكان الانسان ان يعرف السر الدفــين فــي الاعمــاق ..

واذا عرف العلماء ، كيف يتحرك دولاب الاجهزة في الجسم .. فذلــك لا يعني ان الاجهزة تعمل بارادة الانسان .

ابـــــدا ..

فأنت تذهب الى البيت ، وتضع راسك على الوسادة ، وتسلم نفسك في نوم عميق .. من دون ان تأمر اجهزتك بالعمل خلال النوم .

فأيكم يوصي قلبه قبل ان ينام ، بالعمل ؟كأن يقول له : « يا قلبي انــا سأنام وارجوك أن تعمل خلال فترة النوم ، وتضخ الدم ، وتوزعه على كل خلايا جسدي ..؟! » .

لا اعتقد ان واحدا ، يستطيع ان يوصي قلبه ، فيسمع قلبه كلامه ، ويقول له : سمعا وطاعـــة ..

ابدا .. انه من المستحيل ان يحدث مثل هذه المهزلة ..

وانما القضية تتلخص في : انك تضع راسك على المخدة، وتغرق فــي

النوم .. بينما قلبك يعمل ودماغك يبعث الامواج الفكرية ، ملايين الموجات في الساعة الواحدة ، وكذلك المعدة ، وكافة الاجهزة ، تدور في فلكها ، بأمر الله سبحانه لانه هو الذي خلقها ، وأمرها بالعمل ، فهي لا تتوقف ، ولا تسمع كلام احد ، الا الله تعالى .. « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .. » !! .

اذن : فالانسان ، جسمه يعمل ، وفق الصراط المستقيم جبرا ، وبلا تدخل من الانسان نفسه ..! بينما يكون الانسان حرا ، في المجال الارادي فقط — فهو في امكانه ان يسير على نور الصراط المستقيم ، وفي امكانه ان ينحرف عنه ، ويسقط في الظلام ..

قال الله سبحانه : « وان هذا صراطي مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله .. » .

ومن اجل الايضاح اكثر ، اسمعوا هذا المثال :

الانسان يعيش وسط ثلاثة افعال وهو لا يستطيع ان يخرج من دائرتها :

فعل يقع عليه !

وفعل يقع فيه !

وفعل يقع منه !

اما الفعل الذي يقع عليه ، فليس عليه مسؤولية ، من جرائه .. وذلك لانه فعل خارج عن ارادته ، مثل عاصفة ضربتني ، او هزة ارضية ،اطاحت

بالبيوت وشردت الناس ، او مثل سيارة دهستني ، او حجارة سقطت على راسي ، فأدمتني .. وهكذا فأنا لست مسؤولا عن هذه الافعال ، لانها خارجة عن ارادتي ، وليس باستطاعتي ردها والتخلص منها ..

أما الثاني ، فهو الفعل الذي يقع في :

وهو تماما مثل الاول . لا مسؤولية فيه علي وذلك لان الافعال التي تقع في ، اي في داخلي لا املك ناصيتها ، وليس زمامها بيدي ..

وهي كما تقدم . افعال القلب ، والدماغ والمعدة ، وبقية الاجهزة المزروعة في اعماقي .

فهذه اجهزة تقوم بأفعال ، واعمال خارجة عن ارادتي ، فأنا غير مسؤول عنها ..

اما الفعل الثالث ، وهو الفعل الذي يقع مني ، فانا مسؤول عنه ، وهو الذي يتأرجح بين الصراط المستقيم وبين الغواية ... والفعل الذي يقع مني ، معناه كل عمل اقوم به باختياري ، وبحريتي :

فمثلا : اللسان !

انه جهاز في الجسم يؤدي ثلاث وظائف هامة .. اثنتان خارجتان عن ارادتي ، وواحدة واقعة تحت ارادتي ...

والوظائف الثلاث هي :

١ ــ الدورة الدموية في عروق اللسان .

ب ــ خلايا الاحساس في طرف اللسان .

ج ــ عملية النطق والكلام .

اما الوظيفة الاولى والثانية ، فليس لي فيها يد لا من قريب ولا من بعيد .. فانا مثلا ، لا املك ان اجمد الدورة الدموية في لساني ، لمجرد انني احب تعطيلها مثلا ــ وحتى لو صرخت بها ، بأعلى صوتي قائلا ايتها الدورة الدموية توقفي عن العمل .. فلا شك وانها تهزأ بي ــ عمليا ــ وتسخر مني .. ولا تلتفت الى ندائي ، لانها تعمل بارادة الله ، والدم تجري في العروق ، بوحي الصراط المستقيم !.

اما الثانية وهي : خلايا الاحساس فهي كأختها في الرفض .

ان في طرف اللسان ، اكثر من مأة مليون ، خلية مميزة ، زرعها الله الحكيم القدير ، في أول طرف اللسان ووظيفتها ، نقل الاحساس والشعور الذي يعتري الانسان حال تذوقه للطعام ... انها الخلايا الذائقة التي تقوم بدور الحراسة ، على الطعام قبل ان يدخل المعدة .. فهذا حلو، وذاك مر ، وذلك مالح .. ومن الممكن ان الملوحة الكثيرة تسبب لك ارتفاعا في الضغط ، وهكذا .

وجرب ان تضع قطعة من الملح على لسانك وتطلب منه أن يبعث برقية الى مركز الاحساس في الدماغ ، ويخبره ، بأن هذه قطعة عسل وليست قطعة ملح ... فلا اعتقد ان اللسان يوافقك على ذلك ، وانما ينقل للدماغ ، ما يحسه ويشعر به ، ملحا كان ، او عسلا .

فاللسان ــ اذن ــ في هذه الوظيفة الثانية ، لا يخضع لك ، وليس تحت ارادتك ...

اما الوظيفة الثالثة للسان ــ وظيفة النطق والكلام ــ فهي الوحيدة التي يملكها الانسان ، ويأخذ بناصيتها .

فانت ، في امكانك ان تتكلم وفي امكانك ان تسكت .. واذا تكلمت فتستطيع ان تقول الصدق ، وان تقول الكذب ..

وفي امكانك ان تستعمل لسانك في الاصلاح والبناء .. وفي مقدورك ان تستعمله ، في الفساد والهدم .

وهذا الجانب هو الذي يمثل الارادة في الانسان ...

من هنا ، فانت مسؤول عن الكلام ، بينما لست مسؤولا عن مجرى الدم ، ولا عن نقل الاحساس الى الدماغ .. لان اللسان يكشف لك عن المرارة ، والحلاوة ، والحموضة ، والملوحة ، دون ان يأخذ رايك في ذلك .

وكما في اللسان ، كذلك في القلب .. فلو امرت قلبك بالتوقف عن العمل ، لسخر منك ــ عمليا ــ ولم يلتفت اليك .. لانه لا يعمل بارادتك ، وانما بارادة الخالق الحكيم سبحانه

« رجل سأل الامام الصادق عليه السلام عن الصراط » فقال ابو عبد الله عليه السلام : « هو الطريق الى معرفة الله عز وجل ، وهما صراطان صراط في الدنيا ،وصراط في الاخرة ،واما الصراط الذي في الدنيا فهو الامام، من عرفه في الدنيا ، واقتدى بهداه ، مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الاخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الاخرة ، فتردى في جهنم » .

ويظهر من خلال هذا الحديث ، انالصراط ممتد عبر الدنيا وعبر الاخرة .. فكما ان الصراط في الاخرة جسر على جهنم ، كذلك الصراط في

الدنيا جسر على الشهوات والاهواء .

ولكي أعطيكم صورة متكاملة الاضلاع عن مفهوم الحديث حول الصراط .. لا بد من ضرب الامثلة التالية :

جاء في تعريف الصراط ، انه جسر على نار جهنم وهو احد من السيف، وادق من الشعرة ، وان الناس يعبرون عليه ، بأشكال متفاوتة ، وهيئات متفاوتة : فطائفة تعبر عليه ، مثل البرق الخاطف ، وطائفة تعبر مثل سرعة الخيل وطائفة اخرى تعبره في تباطىء وثقل ، ورابعة تترنح يمينا وشمالا حتى تسقط في الجحيم ..

وفي اعتقادي ، ان هذا الحديث ، يكفي لاعطائنا اروع دليل ، واجمل مثال ، على ان الصراط نفسه موجود في الدنيا ايضا .. مع فارق واحد، وهو : انه في الاخرة ممتد على جسد الجحيم ، بينما هو في الدنيا ممتد على جسد الشهوة ، ونارها ..

اجل .. انه العبور على نار الشهوة بسلام .

اي شهوة ؟.. شهوة الجنس ، وشهوة المال . وشهوة الجاه، وشهوة السلطان !

فاذا استطاع الواحد منا في الدنيا ، ان يعبر شهواته واهوائه ، الى جنة الايمان والتقوى .. فانه — ولا شك — سيعبر ، في الاخرة الصراط الى جنة المأوى ..!

ان القران يقول في شهوة المال : « .. ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم .. ».

ويقول في شهوة الجنس : « ... والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين .. » .

الى كثير من الايات التي تهدف الى تنظيف الانسان ، من كل مـــا يشينه ، وجعله على الصراط المستقيم ..

ولعل المثال التالي هو خير مثال في هذا المجال ، لانه مثال يشرح لنا معنى التلازم والترابط بين الصراط في الدنيا ، والصراط في الاخرة ، وانهمـا في النهاية يشكلان صراطا واحدا .. بحيث اذا استطاع الانسان من العبور على صراط الدنيا ، فانه يتمكن من العبور على صراط الاخرة ، الى الجنــة ايضا ، وتتلقاه الملائكة بالتحية والسلام !.

واليكم المثال :

لنفترض ان جريمة قتل ، وقعت في حي من احياء المدينة .. ولنفترض ان القاتل معروف ، ولكنه هرب من وجه العدالة .. ولان لا يثبت الجـرم على القاتل واهله ، فقد قام اهله بالصاق التهمة بانسان بريء ليس لـــه علاقة بالحادث .

تصوروا ، ان هذا الانسان البريء ، وقع بين قضبان السجن ، بحجة انه هو القاتل الاصلي .. وعبثا يحاول ان ينفي التهمة عنه فهو يصرخ : ايها الناس انا بريء ، ولكن دون جدوى ، ودون ان يسمع صوته احد « ومثـل هذه الحوادث تقع بكثرة ساحقة ، خصوصا في المجتمعات التي تموت فيهـا العدالة ، ويغيب فيها الوجدان والضمير .. فيأخذ البريء بالمجرم .. ويقبع الاحرار في السجون ، ويظل اللصوص والخونة ، في الشوارع يأكلـــون ويتمتعون » .

المهـــم :

قرروا يوما معينا ، لمحاكمة الرجل البرىء .. ولان المحكمة تطلب شهودا ، يشهدون على المجرم بالجريمة .. فقد قام اهل المجرم الهارب بترتيب قضية الشهود ، بأن اخذوا معهم عشرة الاف دينار ، وراحوا يدورون حول من يشهد لهم مقابل هذا المبلغ الضخم من المال .. فيأخذ احدهم المال ويلتقي بأربعة أصناف من الرجال . وهؤلاء الاربعة اصناف ، يمثلون الطوائف الاربع التي تمر على الصراط ، كما جاء في الحديث الذي قراناه عليكم قبل لحظات :

تصوروا ان الرجل يحمل معه عشرة الاف دينار ويفتش عن شاهد زور يشهد في المحكمة باطلا من أجل اعدام انسان بريء ..

والان — التقى بأول شخص ، وكان هذا الشخص من المؤمنين الاخيار، وبمجرد ان قال له ، ذلك الرجل ، بالحادث ، وطلب منه الشهادة مقابل اخذه المبلغ بالكامل .. انتفض الرجل المؤمن وصاح به ، ابعد عني لا تحرقني بنارك يا خائن !. في لحظة واحدة رفض الطلب وذكر الله .. اذن : فهذا الرجل الذي رفض ان يشهد شهادة الزور .. عبر على صراط شهوة المال، مثل البرق الخاطف .. وهو في الاخرة يصبر على الصراط كالبرق الخاطف ايضا ..

اما الشخص الثاني الذي يمثل الطائفة الثانية . فحينما طلبوا منه ان يشهد بهتانا وزورا في المحكمة ، ويأخذ المبلغ لقاء ذلك ، قال لهم : اعطوني فرصة التفكير ، وغدا صباحا ، ارجع لكم القول وكان الجواب — في الغد — جوابا سلبيا .

تأملوا : انه لم يمر على صراط شهرة المال كالبرق الخاطف وانما مر ماشيا . لانه لم يرفض الحرام رأسا .

وانما قال : اعطوني فرصة التفكير !

وهل في الحرام تفكير ؟..

الحرام حرام ، وانتهى كل شيء . اما الشخص الثالث ، فعندما طلبوا منه أن يحضر في المحكمة ويدلي بشهادته ، مقابل المبلغ الضخم ، قال لهم : الا يمكن ان احضر المحكمة ولكن دون ان اشهد .. انه متردد ، يتمايـــل فوق نار شهوة المال .. فهو كذلك يوم القيامة يتمايل على الصراط فـــوق الجحيـــم ..

والشخص الرابع .. بمجرد ان طلبوا منه الشهادة الخائنة ، وافـــق راسا ، واخذ المبلغ ، وشهد بالزور والبهتان ..!

أجل شهد شهادة الزور ، وسبب اعدام البرىء ...

انه سقط في الشهوة ، ولم يخش الله ، وكان ضميره ميتا ، ووجدانه مسحوقا والان عرفتم كيف يسقط الانسان في الجحيم ؟

انت في الدنيا ، تعرف حالك جيدا .. اي انك تعرف فيما اذا كنـــت تعبر الصراط ، بسرعة الضوء ، او تترنم مثقلا بالذنوب ..

« بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو القى معاذيره .. » .

اذن : فعبور الصراط المستقيم ، في القيامة ، يعتمد على عبور الصراط المستقيم في الدنيا .. وذلك لان كل فرد منا ، يحمل جنته وجحيمه معه !

« ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها .. » .

وهو احد من السيف ، وادق من الشعرة على الكافر ، وليس عـــلى

المؤمن ، كما يقول الامام عليه السلام .

وصمام الامان ، هو الالتزام بالقران ، وبأهل البيت عليه السلام ، لانهما يشكلان حبل الخلاص ــ كما قال الرسول الاعظم ــ صلى الله عليه والــه وسلم : « أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله ، وعتري اهل بيتي ، مــا ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي .. » .

فالالتزام بالقرآن ، وبأهل البيت عليهم السلام ، يعني الاعتصام بالله سبحانه وتعالى :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .. » .

« وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالاخــرة ، عن الصراط لناكبون .. »

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم » .

«وانك لعلى خلق عظيم» قران كريم

من الايات الكثيرة التي مررت ، في مجال الخطاب للنبي الاكرم ــ جاءت ايتان كالتالي :

« وانك لعلى خلق عظيم .. » والاية الثانية قوله تعالى « وقل رب زدني علما » .

والسؤال ، ما هو الفرق بين الاخلاق والعلم ، ولماذا ، قال في العلم

وقل رب زدني علما ، وفي الاخلاق وانك لعلى خلق عظيم .. ؟ !

الجواب : عندما يأمر الله نبيه الكريم ، بطلب المزيد من العلم .. فانه يريد ان يلفت انظارنا الى ان العلم ليس له حدود ، انه بحر من وراءه سبعة ابحر من وراءها بحور ، وابحر الى ما لا نهاية فكلما تعمق الانسان ، في العلم ، ظهر له ، انه لم يستطع ان يقطع الا مساحة قصيرة جدا في هذا المجال .

فالاحاطة الكاملة بالعلم ، لا وجود لها الا عند الله سبحانه وتعالى .. والا فهي لم تكن يوما ، عند نبي ولا ولي ، ولا عند احد من ابناء البشر .. وذلك ان علم البشر محدود ، وعلم الله مطلق — وهذه حقيقة ظاهرة للعيان ..

من أجل ذلك ، امر الله نبيه الكريم ، ان يطلب المزيد من العلم — لان العلم لا يعرف الحدود ..

في حين لم يأمره بطلب المزيد من الاخلاق ، وانما قال له : وانك لعلى خلق عظيم .. » وذلك لان الاخلاق معروفة الاحجام ومحددة بأبعاد خاصة ..

فالنبي محمد كان قد بلغ القمة في الاخلاق ، الشجاعة ، الامانة ، الاخلاص ، الصدق وغير ذلك ، وليس هذا فحسب وانما الاخلاق تعني الطريق الافضل في مناهج الحياة ، وافضل طريق في العالم ، هو طريق رسول الله ، طريق الاسلام .. ولهذا فقد خاطبه الله بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » .

والملاحظة التي تجدر الاشارة اليها ، هي : ان التقييم البشري ، انما يجري وفق المقاييس المادية التي يعيشها الانسان في الارض .. فمثلا عندما

اقول ، فلان كريم ، وفلان شجاع .؛ فانني أقيس الشجاعة والكـــرم، بالمقاييس المادية في الحياة المعروفة لدى الناس ، اي انني اعتقــد فلانــا شجاعا وفلانا كريما ، لانني قسته على المقاييس العادية ، في المجتمع ..

هذا هو المقياس المعروف لدى الانسان ، اذا اراد ان يقيم انسانــا اخـــر ..

أما حين يريد الله سبحانه ، ان يقيم انسانا فانه لا يقيمه ، حسـب المقاييس المادية التي نعرفها نحن ــ البشر ــ وانما حسب المقاييـــس الكونية التي يعرفها الله تعالى ..

اذا عرفنا ذلك .. عرفنا عظمة التقييم الالهي للرسول محمد ــ عندمــا يخاطبه : وانك لعلى خلق عظيم ..

وبعد ذلك ، فان العجب يساورني ، واني لاتعجب ، في اسف شديد ، يوم اقرا بعض الكتب في التفسير القراني ، وهم يفسرون اية عبس وتولى، بأنها نزلت في النبي الاكرم !!.

واتساءل في حيرة وذهول :

كيف يمكن ان نوفق بين عبس وتولى ، وبين وانك لعلى خلـــق عظيم ..؟

وهل من الاخلاق ان يعبس النبي في وجه الفقراء والمساكين ــ كمـــا تقول الرواية الكاذبة ؟..

لا شك ان عبس وتولى ، لم تكن ــ ابدا ــ تقصد النبي ، ولا تشـير اليه ، لا من قريب ولا من بعيد .. بل انها نزلت في غيره من الناس ، كمـا

أن هناك روايات كثيرة تؤكد هذا المعنى ... ولكن الحقد الاموي يفعل ما لا يفعله الحقد الكافر .

ان الله ، عندما يخاطب النبي الاعظم يضعه في الذرى الشاهقة ، من المراتب العالية ، التي تتناسب مع مقامه الكريم ..

والدليل على ذلك ، خطاب القرآن للنبي .

انه خطاب فريد في نوعه .. فلم يحصل على شرفه نبي ، ولا رسول .. وانما هو خاص برسول الله محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ وللتوضيح اكثر اعطيكم الشواهد التالية :

طريقة القران في مخاطبة الانبياء ، طريقة واحدة ، فهو يخاطبهم بأسمائهم ، مجردة عن كل تعظيم فيقول :

« يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة » .

« يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » .

« يا نوح اهبط بسلام » .

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .

« يا زكريا انا نبشرك بغلام » .

ويقول : « يا موسى اني أنا الله رب العالمين » .

« يا عيسى أانت قلت للناس .. »

ارايتم كيف يخاطب الله انبياءه ، بأسمائهم المجردة ، دون الالقاب وما شابـــــه .

ولكنه اذا جاء ليخاطب نبيه وحبيبه محمد فانه لا يقول له يا محمـــد، او يا احمد ، وانما يخاطبه بصفته الالهية فيقول : « يا ايها النبي ، يا ايهـــا الرسول .. وهو خطاب يدل على عظمة الرسول ، وانفراده بمواصفـــات لا توجد في الانبياء الاخرين .

والجدير بالذكر ، هو ان يصدر كتاب في الغرب ، خلال هذا العـــام ـــ ١٩٧٩ ـــ يتحدث عن مأة عظيم في العالم الذين تمكنوا ان يغيروا مجـــرى التاريخ ، ويسيطروا على الدنيا بأفكارهم العملاقة .

فقد اجتمع ثلة من العلماء ، في جامعة هارفارد في امريكا ، وقاموا بدراسة مأة عظيم استمرت قرابة خمس سنوات ، خرجوا بعدها بالنتائج الصادقـــة اللامعة في وهج الشمس .

ورقموا العلماء ، حسب الارقام الحسابية ، التي كانت خاضعة لدقة العقول الالكترونية ، بحيث يأخذ كل عظيم ، رقما خاصا به يتناســـــب مع افكاره واعماله الضخمة ، ومدى تأثيره في اتباعه ، وعمق قدرته عـــلى التأثير في العالم ..

والان ، اتدرون من هو العظيم الاول الذي تصدر القائمة وكان قمـــة القمـــــــم ؟

انه نبينا العظيم محمد ـــ صلى الله عليه واله وسلم ـــ .!

اجل لقد خرجت الصحف في اليوم الذي اعقب صدور الكتاب ، وهي تحمل في صفحاتها الاولى ، تقريرا كاملا عن الكتاب ، وعن العظماء المأة ،

وكان اول عظيم في الكتاب هو محمد بن عبد الله .

والغريب ان مؤلفي الكتاب ، يتحدون كل من يستطيع أن يغير الارقام ، كأن يجعل اسم النبي محمد ، الرقم الثاني ، بدل الاول ، او المسيح في الخامس بدل الثالث . وهكذا ..

الرقم الاول محمد ، بينما جاء المسيح في الرقم الثالث ، وانشتاين في الرقم الخامس ، وهكذا .

وانها لظاهرة من الاهمية بمكان ، بحيث لو تحرك المسلمون في الدعوة الحقيقية الى الاسلام ، لاستطاعوا ان يدخلوا نور القران ، الى قلب كل قطعة من العالم .

فالنبي في القران مقدم على الانبياء ، وفي الغرب اول شخصية عالمية ..

انها فرصتكم ايها الدعاة الحقيقيون فلا تفوتنكم .

انها فرصة التبليغ الاسلامي ، ونشر الاسلام في الغرب والشرق .. وفي الجامعات الاوربية الغربية والشرقية .

الاخلاق نجاح الحياة :

الاخلاق طريق الحياة ، ومنهاج العمل .

اما كيف يستطيع الانسان ان يحصل عليها ، فذلك يأتي بالتمرين، والتواضع ..

ان التواضع ، اخصب ارض لنبات الاخلاق . فالاسلام ، انبتها من التواضع نباتا .

وفي الحديث : من ساء خلقه ضاق رزقه .

وفي حديث اخر : من ساء خلقه عذب نفسه ولا شك انها احاديث تؤكدها الوقائع اليومية الخارجية — فنحن — مثلا نعرف تاجرين يعملان في السوق ، في مدينة واحدة ، وتحت ظروف واحدة ، ومع ذلك ، فالذي يملك اخلاقا ، يعمل بنجاح اكثر ، والناس عليه اشد ازدحاما من الذي ليس لديه اخلاق ، لان الناس — عادة — يهربون من ذوي الاخلاق السيئة.. « ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك .. » فالفظاظة والغلظة، تسببان انفضاض الناس من حول الانسان ..

وواضح ، ان التاجر الذي يتعامل مع الاخرين ، باخلاق رفيعة ، يجتمع الناس حوله ، في حين يتفرقون عن السيء الاخلاق .

وكما في التاجر كذلك ، في الموظف ، والعامل وحتى الرئيس .. فهذا امير المؤمنين عليه السلام ، يوصي مالك الاشتر قائلا : « ... واشعر قلبك الرحمة للرعية ، واللطف بهم ، والحنان لهم ، ولا تكونن ، عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم ، فانهم صنفان اما اخ لك في الدين ، واما نظير لك في الخلق » .

الغرور عدو الاخلاق الوحيد

ليس في استطاعة شيء ، القضاء على الاخلاق ، مثل الغرور .

فاذا تسرب الغرور الى رأس الانسان ، ماتت الروح الاخلاقية فيه،

ولم يعد قادرا على حمل رسالة الاخلاق الطيبة ..

والغرور قد يصل الى درجة في النفس ، تجعل من صاحبها ، (زقـا) منفوخا ممسوخا يدعي السلطة على الكون ، وادارة النجوم . وامتـلاك الشمس والقمر .

الذباب يتحدى الرئيس

تسلم احد الملوك منصب الرئاسة ، فازدحم الشعراء على باب داره، في سباق القصائد العصماء وكلما كانت الهدية ادسم ، كانت القصيدة اطول واعرض ، واتـم ..!

ووقف احد الشعراء ، امام الملك المتربع على العرش ، وانشاء يقـول مخاطبا له :

ما شئـت لا ماشاءت الاقـدار

فاحكم فانت الواحد القهار ..

وفعلت هذه الكلمات فعلها الساحر ، في قلب الملك ، وصبت الغرور في رأسه صبا .. فتركته يترنح في سكرة الخيلاء ، ويتمايل زهوا وطربا ..

وبينما هو سارح في خيال البيت : فاحكم فانت الواحد القهار ..!

جاءب ذبابة متمردة . وحطت على انف الواحد القهار !!. فكشها عن انفه ، ولكنها عادت بشراسة المحارب ، وداست باقدامها القذرة (انـف الواحد القهار) ومرة ثانية دفعها فعادت عليه في تحد صـارخ ، ودارت

معركة ، غير متكافئة القوى بين الذبابة والملك ، وانتهت المعركة بسقوط الملك على الارض ينزف غيظا ، وعربدة بينما راح تاجه يتدحرج وسط البلاط الملكي .

حدث ذلك ، عندما اراد في المرة الثالثة ان يدفع الذبابة بكلتى يديه ، فانقلب من عرشه على وجهه .. وخسر الجولة بالضربة القاضية .

ومن محاسن القدر ، ان كان يقف ورائه احد القراء ، فوصل الى هذه الاية :

« وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

على أن هذه الاية كانت وما تزال ، وستظل معجزا للعلم والعلماء ... وهي تردد قول الله تعالى : « .. وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .. » .

فاذا سلبتك الذبابة صحتك ، بمرض تنقله اليك ، فمن يعيد لك الصحة ؟!

ان الذبابة الواحدة ، تطرح على الطعام ، اكثر من مليون جرثومة بغيضة ..!

واذا سلبتك الذبابة ، ذرة واحدة ، من النشا (الحريرة) فان عباقرة الكيمياء في العالم لو اجتمعوا على استرجاع تلك الذرة ، لما استطاعوا ، لان ذرة النشا ، تتحول الى سكر ــ خلال ثوان ــ بفعل الخمائر الهاضمة في امعاء الذبابة ..

« وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب .

الذبابة والرشيد

مر الرشيد في الشارع ، فسمع البهلول ، يناديه برفيع صوته : هارون .. هارون .. هارون ..! فوقف الرشيد والغضب يتطاير من عينيه، وقال موجها كلامه الى البهلول :

اتعرفني من انا ..؟

— : نعم اعرف — « انت الذي اذا ظلم شخص في اقصى الارض ، مسؤول عنه امام الله .. » !

فأراد الرشيد ان يكسر حدة اللقاء ، الساخن ، فقال : يا بهلول الك حاجة اقضيها لك ..؟ قال : نعم ، ولكنك لا تقدر على قضائها .. فقال الرشيد في قوة وثقة : ويلك يا بهلول ، كيف تقول لا اقدر عليها .. انا الذي اخاطب السحاب ، فأقول لها : اذهبي فأين ما تمطرين ففي ملكي ...؟

قال البهلول : حاجتي ان تمنع الذباب عني ، لانه يزعجني هذه الايام ..!

فبهت الرشيد ، وقال ، اما الذباب فلا اقدر على منعه عنك ..

فرد عليه البهلول : اذن : لا خير في ملكك وقوتك ، اذا كنت لا تستطيع منع ذبابة ضعيفة !

ويذكر التاريخ ، ان الامام الصادق عليه السلام ، كـــان جالسا عند المنصور الدوانيقي فجاءت ذبابة ، وحطت على وجه المنصور ، فانزعـــج منها ، وتأثر ، وسأل الامام قائلا : يا ابن رسول الله ، لماذا خلق اللـــه الذباب ..؟

فأجابه الامام قائلا : ليذل به الجبابرة !

وما اروعه من جواب ، وسلام الله عليك ايها الامام الصادق ، يـــوم ولدت ، ويوم تموت ، ويوم تبعث حيا ..

اجل ، ليذل به الجبابرة ، امثال المنصور .. من الطغاة والجلادين.. ولا يعلم جنود ربك الا هو ..

واخيرا ، اعود الى الحديث الشريف الذي يقول : من ساء خلقـــه، ضاق رزقه .. » .

اعود لهذا الحديث ، من اجل ان انقل اليكم قصة ، معبرة عن محتـــوى الحديث السالف الذكر ..!

القصـــة :

كان هناك ، اخوان اثنان ، وكان احدهما ، يبيع الخل ، بينما الاخر، كان يبيع العسل . ولكن مع فارق .. وهو : ان بائع الخل ، كان النـــاس يزدحمون على (دكانه) يوما بعد يوم ، اكثر ، فاكثر . وكانت حياته حلوة جميلة تسير ، بنجاح ، فيالبيت ، كما في السوق .. في حين كانت حيـــاة اخيه ، بائع العسل تسير في ركود ، والم ، وشقاء !، اذ لا احد يمـــر

عليه ، لشراء العسل ، وكان بيعه قليلا جدا .

وذات مرة : سالته زوجته :

لماذا حياتك ، في نفق مظلم ، في الوقت الذي تسير فيه ، حياة اخيك ، في راحة ، وسعادة ؟!.

فاجابها : من المؤسف ان الموازين قد اختلت واصبح الناس ، لا يدركون الحقيقة .

ولكن الجواب لم يكن كافيا ، لاشباع جوع الزوجة الى معرفة الحقيقة ، وكشف السبب الواقعي ، الكامن وراء تأخر زوجها ، وتقدم اخيه.

وقررت ان تذهب هي ، الى السوق ، لكشف الحقيقة ... وهكذا فعلت !.

دكان الزوج كان يقع على مقربة من دكان اخيه بائع الخل .

وما كادت تلقي النظرة الاولى ، على وضع البيع والشراء ... حتى لاحت لها الحقيقة ، مشرقة ، في افق الواقع .. فها هو بائع الخل ، وقف غارقا في زحام الناس الذين تقاطروا عليه ، من اماكن قريبة ، ونائية من اجل شراء الخل .. وكان يبيع الخل لهم ، ويوزع ابساماته عليهم ويطبع نظراته العميقة على وجوههم ، وكانت لباقته ، في الكلام تساعده ، على شد القلوب اليه ... وكانت كلماته الحلوة العذبة ، تداعب الاسماع، وتنزل على القلوب ، نزول الربيع ، على اديم الارض !. فالكل ، يرشهم بعطر المعاملة الطيبة ، وعبير الاخلاق .. على انه لم يفوته : ان يزرع بين الحين ، والحين ، طريفة ، ظريفة ، ترتاح لها القلوب ، فيضحك الناس ، ثم ينصرفون ، والخل في ايديهم ، والفرحة على وجوههم .

وهنا ادركت — هذه المراة — سر نجاح هذا الرجل في عمله !.. انها الاخلاق ، وليس غيرها !.

هي الاخـــلاق تنبـــت كالنبات

اذا سقيت بمـــاء المكرمات

تركت بائع الخل ، وسارت في اتجاه زوجها ، لتراه وقد جلس عـــلى كرسي من الخشب الرفيع ، وراح ينفث دخان سيجارته في عصبية طائحة .. وكان لا يستعمل عود الثقاب وانما يشعل سيجارة ، من سيجارة اخرى، والعبوس يلف وجهه .. بينما امسك في يده عصى صغيرة ، ينقر بهـــا على تناني العسل المصفونة امامه ، في واجهة الدكان .. وكان جالسا ، وحده، دون ان يمر عليه احد من الناس !!.

ظلت زوجته ، واقفة ، في زاوية من السوق تنتظر ، لعل احدا ، يأتي لشراء العسل ، فتكتشف طريقة زوجها في المعاملة ، وتعرف اخلاقه !.

وفي النهاية : جاءه رجل يسعى لشراء تنينة من العسل المصفى .. وهنا فرحت المراة ، ووقفت ترقب المسرحية عن كثب :

وقف الرجل المشتري ، امام بائع العسل .. — مسلما عليه — غير انه لم يرد عليه ، الا بربع التحية . ومن ولاء انفه ايضا !

ساله الرجل : ممكن اعرف سعر ، هذه التنينة من العسل ؟.

وبدل ان يخبره بالقيمة ، رفع صوته بوجهه قائلا : اسمع يا هذا ، لقد اعطاني الله قوة في العقل والفراسة ، والبصيرة ، بحيث استطيـــع ان اعرف الاشخاص وما يدور في خاطرهم ، من النظرة الاولى !.. ثم تابـــع

يقول ولكن بصوت أرفع ــ هذه المرة ــ : اسمع كلامي يا غبي ــ موجهـا خطابه الى الرجل المشتري ــ انني اتمتع بفراسة حادة ، ونظرة ثاقبـة ، واعرف الناس من أول نظرة .. اعرفهم اذا كانوا في مستوى اكل العسل ام لا !!.

ولذلك فقد عرفتك ، بالنظرة الثاقبة ، انك لا تصلح لاكل العسل ، لان شكلك ، ووجهك لا يتناسب مع استعمال العسل ، اضف الى ذلك ، انـك قصير القامة وانفك اغطس ، انطس ، وشعرك مجعد ، كانك خارج للتو، من السجن ، فاعرض عني ، وابتعد عن وجهـي ، والا هشمت انفك ، وحطمت راسك بهذه العصى .

واخذ يلوح له : بالعصى في الهواء ، ولما احس الرجل بالخطر يهدده، ولى مدبرا ، ولم يعقب !. ورجعت الزوجة الى الدار ، لتخبر زوجها في المساء : ان السبب المباشر ، وراء تاخره ، في الحياة ، وتقدم اخيه هـو : ان اخاه يبيع الخل حلوا بأخلاقه الحلوة وهو يبيع العسل مرا بأخلاقه السيئة ايضـا !! .

الفصل التاسع

في القيا



مبحث القيامة :

ا ــ موت الفرد « كــل نفس ذائقة الموت » ورد ذكــر الموت ــ في القرآن الكريم ــ على ثلاثة اقسام وهي كالتالي :

واحد : موت الفرد : « كل نفس ذائقة الموت » آل عمران آية ١٨٥ .

اثنين : موت الامة ــ المجتمع ــ : « ولكل امة اجل .. » الاعــراف آية ٣٤

ثلاثة : موت العالم : « كل من عليها فان » الرحمن اية ٢٦ .

والسؤال : كيف يحدث الموت ؟ ! .

لم يكن الموت غولا تابعا في اعماق الانسان ، فينقض عليه ، من الداخل وانما هو يحدث ، بسبب عوامل خارجية ! .. وتلكم العوامل هي التــي تخلق الموت ، وبفعلها يموت الانسان ، ويمــوت المجتمع ، وايضا يموت العالــم ! .

ومن باب المثال : فالدم في الجسم يعتبر احد العوامل الرئيسية فــي الحياة ، وفي الموت ايضا ! . ففي الوقت الذي يحافظ ــ فيه ــ الدم علــى حياة الفرد ، نجد ان اي اختلال ــ ولو بسيط ــ في الدم ، يؤدي الــى مضاعفات خطيرة ، في الصحة العامة للجسم ! .

ان الدم يتالف من الكريات الحمر ، والكريات البيض وهذه الكريــات

تجري في شبكة الاوعية الدموية ، وهي محملة بالغذاء ، لكل خلايا الجسم والملفت للنظر : ان الكريات الحمر ، هـــي التي تقوم ، بتوزيع الغذاء ، والطاقة ، على هذا الموكب الخلوي الرهيب في البدن !..

.. في حين ان الكريات البيض ، تقوم — هي الاخـرى — بـــدور الحماية ، والحراسة ، للكريات الحمر ! .. وهي بذلك تشكل قوة دفـــاع تعمل ، في حذر ، ويقظة ، من اجل المحافظة الدقيقة ، على سلامة الكريات الحمر ! .. تحسبا من كل هجوم مباغت يشنه الاعداء من الخارج علـــى الداخل ، — والمراد بالاعداء — هنا — الميكروبات القاتلة — فالعجيب ان الميكروب عندما يدخل الجسم يتوجه على الفور نحو الكريات الحمر المحملة بالغذاء ، — وكانه يعرف ان الطعام في داخلها — وهو بهذا العمل ، اشبـه بالقطة التي تدخل الدار ثم تتوجه راسا الى حجرة المطبخ ، ! .

ومجرد ان يدخل (الميكروب) في الجسم ، تحاصره قوات الدفـــاع المؤلفة من الكريات البيض ، وتبدأ باطلاق الغازات السامة عليه حتى تقضي عليه بالمرة ! . وهكذا تكون قد انتهت المعركة بانتصار قوات الكريـــات البيض وسلامة الكريات الحمر وهزيمة الميكروب البغيض ! .

والطلاب الذين يدرسون الطب في الجامعة يدركون اهمية هذا الموضوع بالكامل وذلك لانهم قد اخذوا صورة علمية دقيقة للمعركة الدائرة بيـــن الكريات البيض وبين الميكروبات المهاجمة من خلال الافلام العلمية التـــي تعرض في كليـــة الطب .

ولولا جيش الدفاع هذا الذي يطرد الجراثيم المهاجمة ويقضي عليهـا قضاء تاما .. لما استطاع الانسان ان يستمر في الحياة بالمرة ! .

وفي سرطان الدم ، تنقلب المعادلة هذه المرة حيث تقوم الكريـــات البيض بشن هجوم عنيف ضد مواقع الكريات الحمر ! فيختل نظام الـــدورة

الدموية وتبعا لهذا الاختلال تختل كل الموازين الكيماوية والفسلجية داخل الجسم فتضطرب الاعضاء وتزرع الفوضى في دولاب الاجهزة وهنالك تنبع المأساة نبعا طبيعيا حيث يتفاقم المرض فيأخذ طريقه من البيت الى المستشفى وبالتالي : الى القبر ! .

ولكي يظل الانسان على قيد الحياة لا بد ان يأخذ الدم مستواه الطبيعي ويحافظ على معدل العناصر الكيماوية في كرياته الحمراء حتى يعيش الواحد منا مرتاح البال طيب السريرة بعيدا عن معاناة ارتفاع ضغط الدم وانخفاضه .

على ان وظيفة الاطباء — هنا — هي اعادة الجسم الى موازينه الطبيعية من قبيل الحفاظ على درجة الحرارة داخل الجسم — في المعدل الطبيعي وهو : ٣٧ ٪ درجة ، وكذلك الامر في بقية الاجهزة العاملة داخل البدن ، .

اذن : فالاطباء ، وظيفتهم : اعادة الجسم الى الموازين الطبيعية ، تماما كما ان الانبياء ، وظيفتهم ، اعادة المجتمع الى الموازين الشرعية !

ب — موت المجتمع : « ولكل امة اجل .. » .

وعندما نبحث العوامل التي تؤدي ، الى موت الامة (المجتمع) .. نجد ان العامل الاساسي ، في موت المجتمع يشبه الى حد بعيد العامل الاساسي في موت الفرد ، مع فارق بسيط وهو !

ان العامل في موت الفرد ، كان يتمثل ، في فقدان الدم ، واختلال موازينه .. بينما العامل في موت المجتمع ، يتمثل في انعدام الايمان ،

واختلال الاقتصاد ! لان الاسلام يعطي مناهجه بعدا روحيا بالاضافة الى البعد المادي ! .

ونظرة واحدة في القرآن ، ترينا ان السبب المباشر في تحطيم الامم ، وتمزيق المجتمعات ، هو : انعدام الايمان بالله في نفوس المترفين الذين راحوا (يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع) بحيث اشاعوا الفقر بين الناس ، وسببوا اختلال الموازين الاقتصادية في المجتمع !

وللتقريب ، لا بد ان نعرف — اولا — من هم المترفون ؟ .

المترف في اللغة :

« جاء في المنجد : ترف يترف ترفا ، فهو ترف وتريف ... اترفه المال ، اي افسده ، وابطره ، واطغاه !

« ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

والمترف : الطاغي السفاك ، المتغطرس الجبار ! .

وفي اللغة : المترف ، يعني : الغني الذي افسده المال وابطره .. »

اذا عرفنا ذلك ، ادركنا مدى العمق ، الذي يشير اليه القرآن الكريم في اياته المباركة ، — مؤكدا — ان المترفين هم العامل الاول في تحطيم القرى واهلاك المجتمعات ، وذلك ، لانهم فقدوا الايمان بالله .. فاحرقوا الموازين الاقتصادية ، ونشروا الفوضى ، والتحلل الخلقي .. فحقت عليهم كلمة العذاب ، بسبب ترفهم .

وهاكم اقراؤا معي الآيات التالية :

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » آية ١٦ سورة الاسراء .

امرنا مترفيها ، بالطاعة ، ففسقوا فيها .. من باب امرتك فعصيتي.. فكان الله سبحانه ، امرهم بالطاعة ، واتباع مناهج الشريعة الاسلامية ، في النظام الاجتماعي ، ولكنهم عصوا الله ، ففسقوا في القرية (المجتمع) فحقت عليهم سنن الله ، فدمرتهم تدميرا !.

ويقول ايضا : « وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال (مترفوها) : انا بما أرسلتم به كافرون » سبأ اية ٣٤ .

وتبلغ معارضة المترفين للانبياء ، على أشدها ، في الاية التالية :

« وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير ، الا قال : (مترفوها) انا وجدنا ابائنا على امة وانا على اثارهم مقتدون .. قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه ابائكم ، قالوا انا بما ارسلتم به كافرون .. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين .. » سورة الزخرف اية ٢٣ ـ ٢٥ .

والنهاية المتوقعة ، التي يسير اليها المترفون ، هي في هذه الصورة اللاهثة التي يطبعها الله سبحانه ، بوجه كل غني مترف ، يقول الحق فيها :

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وانشانا بعدها قوما اخرين .. فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما (اترفتم) فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون . قالوا : يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » سورة الانبياء

اية ١١ ــ ١٥ .

فلما احسا بأسنا اذا هم يركضون !.

صورة متحركة ، للناس الذين ينزل عليهم العذاب ، وهم يركضون وتكاد انفاسهم تختنق ، ويلاحقهم النداء الساخر من ورائهم : لا تركضوا ، وارجعوا الى ما اترفتم فيه ، ومساكنكم لعلكم تسئلون !

وهنا يشعرون بقسوة النداء ، تلدغهم في قلوبهم الهواء وكأن الكلمات سياط ملتهبة ، تعبث في ظهورهم !.

قالوا : يا ويلنا انا كنا ظالمين .. اجل : انه اعتراف صريح ، ولكنه جاء متأخرا ، بعد فوات الوقت ، فما يغني من العذاب شيئا ... وانك حين تقرأ الاية المباركة ، تخال كما لو انك تشاهد المسرحية المأساوية امامك .. فها هم يلهثون في ركضة سريعة ، ويرددون ، بأصوات تخنقها الغصة ، والالم : يا ويلنا انا كنا ظالمين .. حتى جعلهم الله حصيدا خامدين .

والمترفون ، هم : اول طائفة تحمل السلاح في وجه ، الانبياء ، والمصلحين ، ففي مكة ، كان المترفون في طليعة جبهة الشيطان ، حيث وقف ابو جهل ، وابو لهب ، وابو سفيان ، وامثالهم من (الارستقراطيين) المتخمين ذوي (الكروش المندحقة) بوجه النبي الاعظم ــ صلى الله عليه واله ــ وانزلوا به انواع الاذى ، وصنوف الاضطهاد !

في الحديث الشريف : « لا تجالسوا الموتى ! قيل : يا رسول الله ، وكيف نجالس الموتى ؟!.. قال : كل غني مترف !. » .

ولكن ، لماذا سماهم النبي بالموتى ؟!

لانهم فقدوا الحياة ، بمعناها الاسلامي : « يا أيها الذين امنـــوا استجيبوا لله ، وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » سورة الانفال اية ٢٤ .

اجـــل :

انهم موتى ، فقد ماتت الانسانية في داخلهم ، واختنقت المسؤولية بقسـوة قلوبهم ، فهي اشد قسوة من الحجارة ، ـ لقد ماتت الرحمة في نفوسهم ، فلا انين المحرومين تحت سياط الجوع ، يحركهم ، ولا بكاء اليتاما ، يشعلهم ! (واذا رايتهم تعجبك اجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم اللـــه انى يؤفكون) قران كريم ـ المنافقون اية ٤ .

ولكي يظل المجتمع ساخنا بالايمان ، والحياة ، والعطاء فقد جعلـــه الاسلام بين قمتين متعاكستين :

قمة الوعد ،

وقمـــة الوعيد !

وذلك لان الوعيد هو الحد الادنى الذي لا يوجد ، دونه جهد مؤثـر ، بينما الوعد هو الحد الاعلى ، الذي يصبح الجهد بعده مستحيلا ، فكأنه وضع الضمير بين حدين ، اقصى الشمال ، واقصى اليمين .

الاية في الوعيد « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » (١) .

والاية في الوعد « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (٢) .

---

١ ـ الاعـــراف ايـــة ٩٩ .
٢ ـ يوسف ايـــة ٨٧ .

وبين هذين الحدين ، تقف القوة الروحية ، في الضمير المسلم ... متناسقة مع الجهد الفعال الذي يبذله ، مجتمع اسلامي يعمل طبقا ، لاوامر رسالية ، تسير نحو الغاية والهــدف .

فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص .. هذا بالاضافة الى ان غريزة الجماعة مزروعة في طينة كل احد ، والناس بدافع هذه الغريزة الاجتماعية، يشكلون المجتمعــــات !.

ولان المجتمع ــ وفق مناهج علم الاجتماع ــ يعني عملية التغيير وليس الركود ، فكل مجتمع راكد ، لا يطلق عليه اسم مجتمع !.

وهناك غاية ،يندفع اليها المجتمع ــ بحركته الساخنة ــ فهو اما الى القمة ، او الى السقوط .

والمجتمع الاسلامي ، يفور بالروح النضالية الملتهبة ، وبالعطــــاء الساخن .. في هذه الحالة الروحية ، صبر بلال الحبشي تحت صخــــور التعذيب ، وعندما يصل الى قمة المحنة ، كان يرفع اصبعه قائلا : احد .. احد .. احد .!

فلم تستطع قوة الارض ، ان تخفض اصبعه ، وذلك لان روحه في تلك اللحظة ، غارقة في فيض نوراني الهي ، لا يوصف ابدا ، فهو تحت التعذيب، ولكنه كان يتذوق طعم الحرية ويستنشق عبير الحق !.

وفي الطرف الاخر ، تأتي قصة المراة التي طلبت من الرســـول ان يطهرها ، اي يجري عليها الحد ، لانها كانت زانية .

وهذه القصة ، تبرز لنا قيمة الوعيد في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة ... ففي قصة بلال ، تتجلى لنا عظمة الوعد في خلق الانســـــان

الواعي المؤمن ، الذي يذوب تحت عجقة السياط ، دون ان ينحرف عن الخط المستقيم ، قيد انملة .. وفي قصة المراة تبدو لنا قوة الوعيد في الالتزام الكامل ، بالمنهج الاسلامي !.

فاذا انطفأ الايمان في ضمير المجتمع ، انطفأت هاتان القوتـــــان : الوعد ، والوعيد ، في آن معا ، وعندها يسقط المجتمع في هوة الظـــلام، والضياع ، وتحل المأساة محل السعادة !.

اذن : فالاقتصاد ، والايمان ، عاملان اساسيان ، في حياة المجتمع، وكذلك في موته أيضا !.

فاذا تصدع الاقتصاد في البلد ، تلا هذا التصدع ، تدهور في الاخلاق، والجريمة ، كنتيجة طبيعية لوجود الفقر والبطالة في هذا البلد .

يقول ابو ذر الغفاري : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخـــرج على الناس شاهرا سيفـــه » !!.

فالاسلام يقول : « من لا معاش له لا معاد له » .

وكما ان اختلال الموازين الطبيعية في الجسم ، تؤدي الى مـــوت الفرد ، كذلك اختلال الموازين الاجتماعية ، والاقتصادية والاخلاقية فـــي الامة ، تـؤدي الى موت المجتمع ، وذلك لان الامـــة تعتمد على الموازيـــن الاجتماعية ، فاذا اختلت الموازين ، ماتت الامة !.

ومن باب المثال : كما ان درجة الحرارة في الجسم ، وعمل دولاب الاجهزة ، من القلب ، والكبد ، والمعدة ، والكلية ، والدماغ ، هذه كلهـــا اذا تاثرت ، واختل ميزانها ، يموت الانسان ..

كذلك ، بالنسبة للمجتمع ، فاذا اصيب بالتدهور الاخلاقي والتحلل الخليع ، واصيب بالازمات الاقتصادية الخانقة ، والنوبات القاتلة في الشهوة، وكسر الفضيلة ، فان النهاية الحتمية لهذا المجتمع ، هي الموت ، لان هذه الازمات ، والامراض الاجتماعية هي وحدها التي تقضي على الامة، وتمزقها شر ممزق ، شانها في ذلك ، شأن الامراض الجسدية التي تقضي على حياة الانسان ! والقرآن يقول : « وما اهلكنا من قرية الا واهلها ظالمون » .

على ان هناك ، قدرا مشتركا ، للعلاج السريع ، وتقديم الاسعافات الاولية ، في الانسان ، وفي المجتمع .

ففي الانسان ، الاطباء .. وفي المجتمع ، الانبياء :

وظيفة الاطباء هي : اعادة الجسم الى وضعه الطبيعي ، حسب الموازين الطبية ... في حين ان : وظيفة الانبياء هي : اعادة المجتمع الى وضعه الطبيعي ، حسب الموازين الشرعية .

ودائما المجتمع المنحل اخلاقيا ، يسقط في اول الطريق !.. في الحرب العالمية الثانية ، سقطت فرنسا في اول المواجهة ، وفي الايام الاولى لبداية الحرب ، طلبت فرنسا ، المساعدة العسكرية من الدول الاخرى ... والسبب — بالطبع — هو التحلل والذوبات ، وانغماس الجنود في الشهوة ، والملاهي الرخيصة .. في حين ان الجنود الالمان ، كانوا يقتحمون خطوط النار ، في المعركة ، مثل السيل المتدفق ، ولهذا ، تغلبت المانيا على فرنسا ... والسبب في ذلك يرجع ، الى ان الجنود في المانيا ، كانوا — في الغالب — يذهبون الى دور العبادة اكثر !.

الشهوة عندما تحكم ، يصير العلم في ترابها ، ويحترق المجتمع

بنارها .. وكما ان المحرار في الجسم ، يعكس الصحة ، ويكشف مكامن المرض ، كذلك المحرار في المجتمع هو : « الشهوة ، ام العلم ؟ » فاذا رايت المجتمع يلهث وراء الشهوة،فاعلم بأنه مجتمع مريض ، يقترب من القبر، خطوة ، خطوة . اما اذا كان المجتمع يمشي بنور العلم والايمان ، فهو يتمتع بصحة في الجسم ، وسلامة في الروح ، والعقل !

وجربوا ذلك في النظرة التالية :

محاضرة في الاخلاق .. وحفلة راقصة !

وهنا تتحدد هوية المجتمع ..! فاذا مال المجتمع الى محاضرة الاخلاق ، فقد اكد وجوده ، واعطى صورة تدل على صحته وسداده .. اما اذا اسرع الى حفلة الرقص ، فانه — من دون شك — مجتمع يسرع الى البلى ، ويركض نحو الهاوية !.

وتصوروا — من باب المثال — طائرة تهبط في المطار وعلى متنها ، قرابة مأة من العلماء ، في الذرة ، والخلية ، والفيزياء ، والكيمياء ... ولكن لا احد يذهب لاستقبالها !!.. بينما في الوقت ذاته ، تهبط طائرة اخرى ، فيها جوقة غناء ، وفرقة رقص قادمة ، من مصر ، او من بلد اوربي اخر ... فترى الكل يذهب لاستقبالها ، خصوصا اذا كان برفقتها، المغني الفنان (فلان بن فلان) او الفنانة المطربة (الجهنمية) (فلانة الفلانية) !!.

هذا الموقف ، هو وحده الذي ، يكشف عن هوية المجتمع — اي مجتمع — فهو اما ان يتربع على قمة السعادة بفضل الأيمان او تهوي به الشهوة في واد سحيق !.

ج ــ **موت العالم** : « كل من عليها فان » .

الحياة تعتمد على وجود الشمس ، فاذا انطفأت الشمس ماتت الحياة في الارض ... وذلك لان الكائنات الحية ، تتغذى بالطاقة الشمسية .. ولولا هذه الطاقة ، لما تمكن النبات ان يصنع الغذاء (ضمن عملية التمثيل الضوئي) ولما مشت الحياة فوق سطح الارض ..!.

والقرآن الكريم ، يؤكد في اياته ، نهاية العالم ، يوم تنفطر السماء ، وتتكور الشمس ، ففي سورة الانفطار يقول القرآن :

« اذا السماء انفطرت . (اي انشقت) واذا الكواكب انتثرت .. واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت » الانفطار من ١ الى ٤ .

وتفجير البحار يتم بتفجير عناصرها ، من الهيدروجين ، والاوكسجين، فاذا انفصل هذا العنصر ، عن ذاك العنصر ، تحولت ، البحار الى اتون ملتهب ، لا يعرف مداه ، الا الله ، والراسخون في العلم !! .

وفي سورة التكوير :

« اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت ، واذا البحار سجرت » (اي : فجرت نارا) (التكوير من ١ الى ٦) .

اذا الشمس كورت .. اي يتكور ضوئها ، وتنطفأ شعلتها .. فاذا تكور ضوء الشمس ، تلاشت الحياة ، بالمرة !.

ويتلو هذا التكوير ، انفجار هائل ، في النظام الشمسي ، وذلك،

بسبب تحطم اعمدة الجاذبة ، التي تشد الكواكب بحزام الشمس !.

فالكرة الارضية ، والجبال ، تتمزق ، مثلما يتمزق جناح الفراشة عندما يحتك بالصخور الشرسة !

« وحملت الارض والجبال ، فدكتا دكة واحدة » (الحاقة اية ١٤) .

اما القمر فينشف ، ثم يتحول الى ذرات تائهة !

« اقتربت الساعة ، وانشق القمر » (سورة القمر اية ١) .

وتأملوا : دقة التعبير العلمي في القرآن الكريم :

ففي سورة التكوير قال : « اذا النجوم انكدرت » .

وفي سورة الانفطار قال : « اذا الكواكب انتثرت » !.. بحيث اعطى لكل آية لونا من التعبير ، يختلف عن سابقه ، وذلك : لسبب علمي دقيق ، وهـو :

ان هناك فرقا يفصل بين معنى النجوم ، ومعنى الكواكب ، والفرق هو : ان النجوم تعني الشموس الملتهبة العملاقة ، الغارقة في احضان الفضاء .. في حين ان : الكواكب — في القرآن — معناها الاجرام السماوية ، التي تدور حول الشموس ، مثلها في ذلك ، مثل زحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة !.

من هنا ، فان الشمس تمثل نجما عملاقا ، يجر قطار الكواكب ، في سرعة هائلة ، نحو الاعماق الكونية السحيقة ! « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم » يس آية ٣٨ .

اذن : فالنجم مصدر الطاقة ، ومبعث الضوء .. بينما الكوكب مجرد جرم سيار ، يدور في الحزام الجاذبي للنجم ، ليس فيه ضوء ، ولا طاقة ، وانما هو يتغذى بالطاقة الشمسية ، ويسبح بضوئها !.

وعندما تنطفأ النجوم ، تموت الجاذبة .. فتتساقط الكواكب ، هنا ، وهناك ، في تبعثر شديد .

ولهذا نجد القرآن يقول في النجوم :

«واذا النجوم انكدرت » اي انطفأت واظلمت .. بينما في الكواكب ، لم يقل : انكدرت .. وانما قال : « واذا الكواكب انتثرت » اي : تساقطت في الفضاء ، وارتطم بعضها بالبعض الاخر !.

وفي النهاية : يصرح القران الكريم : بأن الانفجار الكوني ،الذي سيحدث انما يقع في المجموعة الشمسية ، دون غيرها من النجوم ، — هذا في البداية على الاقل — وذلك في قوله تعالى :

« اذا السماء انشقت » اي انصدعت .

فقد ورد في الاخبار ، عن الامام علي — عليه افضل الصلاة ، وازكى السلام — في قوله تعالى : « اذا السماء انشقت » .. قال : تنشق من المجرة .. اي انها تنفصل عن مجرة درب التبانة — علما بأن المجموعة الشمسية ، بالنسبة الى المجرة ، لا تشكل سوى نقطة صغيرة ، في اسفل درب التبانة ، المجرة العملاقة — ! (١) .

---

(١) تفسير شبر صفحة ٥٥٢ .

وايضا يقول القرآن في ختام الجولة :

« ونفخ في الصور فصعق من في السموات ، ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون ، واشرقت الارض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (الزمر ــ ٦٨ و ٦٩) .

وهكذا يموت العالم ،كمايموت المجتمع ، ويموت الانسان وصدق الله سبحانه حيث يقول :

« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

الحياة بعد الموت

الحياة ، بعد الموت ، حقيقة قائمة ، تكره الجدل ، وترفض النقاش ، لان الادلة تقف في صفها .. من العقل ، والمنطق ، والعلم ، الى الفطرة والعدل ، واخيرا : الى الادلة العلمية الاخرى !.

ومن باب المثال التقريبي :

القضايا تجاه الانسان ، على ثلاثة اقسام :

١ ــ قسم مع العلم ،

٢ ــ وقسم ضد العلم ،

٣ ــ وقسم سكت عنه العلم ، لا نفيا ، ولا اثباتا .

فالقضايا التي توافق العلم ، هي الامور التي تتناسب مع العقل ، ولا تخالفه .. واما القضايا التي هي ، ضد العلم ، فتلك الامور النفسية ، التي يرفضها العقل ، ولا يعترف بها العلم ، مثل المحال الرياضي ،واجتماع الضدين وما شابه ذلك .. فهذه مرفوضة ، في الشكل ، والتفصيل ، من قبــل المجالات الثلاثة : العلم .. المنطق .. العقل .

بقي امامنا ، القسم الثالث ، وهو الذي سكت عنه العلم ، ولم يتدخل ، لا في نفيه ، ولا في اثباته ، وهذا القسم ، يشكل القضايا التي لا تخالف العلم، ولا تناقض العقل .. مع ملاحظة : ان العلم ليس في امكانه ان يرفضهـا ، وليس في استطاعته ان يثبتها ، ويؤكدها ، بل ظل ساكتا عنها !.

وما دام العلم سكت عن تلكـم القضايا ، فليس من حق احد ، ان يرفضها لمجرد سكوت العلم عنها ، وذلك لان العلم ، لم يصل الى نهاية العالم بعد ، وانما هو ما زال ، في بداية الطريق !.

على ان القضايا التي وقف العلم الحديث ، امامها حائرا ، ولم يعرف هويتها ، هي اكثر بالاف المرات ، من التي عرفها العلم ، وتوصل اليها !.

ولكي تطلع صورة البحث ، اكثر وضوحا لا بد لنا من طـرح النماذج التاليــة :

اولا : نحن نعرف ان هناك جاذبة ، وندركها من خلال سنننها .. اما ، ما هي الجاذبة ؟ فلا نعرف عنها اي شيء على وجه التحقيق ، ولكن فقط عن طريق السنن الكونية القاطعة !.

وكذلك الذرة .. بحيث تكفي الطاقة التي تطلقها ، كمية من الذرات ، لاضاءة مدينة كبيرة لايام عديدة !.. ولكن ما هي الطاقة ؟ لا احد يعرفهـا على وجه التحقيق ايضا !.

ثانيا : سأل المعلم احد التلاميذ : هل تؤمن بالله يا بني ؟

ـــ : نعم فأنا مؤمن بالله .

ـــ : وكيف تؤمن باله ، لا جسم له ، ولا راس ، ولا يد ، ولا رجل ، ولا عـــــين ؟!.

ورد التلميذ الفطن على استاذه قائلا :

ـــ : وهل تؤمن بالعلم ؟ .. اجابه : نعم ، اؤمن بالعلم .. فقال التلميذ : وكيف ـــ اذن ـــ تؤمن بعلم ، لا جسم له ، ولا راس ، ولا يد له ، ولا رجل ، ولا عين .. فحار الاستاذ ، ولفه الصمت ، والخجل .

واذا طرحنا السؤال التالي : ما هو العلم ؟. فهل هنا من يقدر علـــى الاجابة الحقيقية ؟ لا اعتقد .

العلم شيء مجهول ، وكذلك الفكر ، وكذلك الروح ، وكذلك النفس !..

ومن باب المثال : اذا كان كل طبيب يتعامل مع عضو معين ، مــــن اعضاء الجسم البشري .. فمع اي عضو يتعامل طبيب النفس ؟!.. انه يتعامل مع شيء مجهول غيبي ، وبالرغم من ذلك فهو حقيقة ثابتة ، لا تقبل النقـــــاش !.

وبالتالي : ما هو الالكترون ؟ لا جواب .. وما هو الكهرباء ؟ لا جواب !. وما هي الجاذبة ؟.. لا احد يعرف .. لانها لا لون لها ، ولا رائحة ، وانما هي شيء مجهول !.

انظروا : كل عالم يعرف اختصاصه ، وعمله ، الا عالم النفس !..

وعندما نسأل عالم النحو : ما هو تعريف علمك ؟ يقول : الكلمة والكلام .. من حيث الاعراب والبناء .

وعندما نسأل : طبيب القلب ، عن اختصاصه ، في الامراض القلبية ، فانه يسرع الى الاجابة ، وشرح النوبات التي يتعرض لها القلب ، والدورة الدموية ، وفي امكانه ان يخبرنا حتى عن عدد ، الدقات القلبية ، في الدقيقة الواحـــدة !. ونفس الشـــيء بالنسبة لبقية الاطباء والدكاتـــرة في اغلب المجالات الجسدية .. ولكن عندما نطرح نفس السؤال ، على عالم النفس ، او طبيب النفس فانه يعجز عن الاجابة ، بالمرة !.

ـــ : انت عالـــم نفسي ؟

ـــ نعـــم .

ـــ : بأي شيء مختص ؟.. بمعالجة الامراض النفسية .. وهل تعرف حقيقـــة النفس ؟!.

كلا .. ثم كلا ..! لان حقيقة النفس مجهولة ، ولا يعرفها الا اللـــه الخالق القدير ..

وبعد هذا ، وذاك ، فما هو العقل ؟

وما هي الروح ؟ وما هي النفس ؟ وما هو النوم ؟. وما هي اللذة ؟ وما هو الالم ؟ وفي خلال النوم ،اين تذهب ارواحنا ، وكيف تعمل اجهزتنا فـــي الداخـــل ؟.

لا جـــواب !.

ثالثا : « اما موقف العلم ، من هذه الاسرار المحيرة ، فهو باختصار : انه لا يعلم ، ولا يعقل ! » .

« وبعض الظواهر ، التي هي من قبيل السحر .. كالتنويم المغناطيسي يعترف بها العلم ، دون ان يجد لها تفسيرا .. لا يعرف العلم ، الى الان ، كيف تتسلط ارادة المنوم ، على الوسيط ، وكيف يتصل عقل الاثنين ، فيصبحان كعقل واحد ، ما يراه المنوم ، يراه الوسيط ، النائم ، وما يطلبه المنوم ، يستجيب له الوسيط ، فورا ولو كان امرا بالشلل او الغيبوبة ، او الارتفاع في الهواء !. كل ما فعله العلم ، انه اطلق على هذه الاشياء اسماء ومصطلحات ، مثل الايحاء والوساطة ، ونشاط العقل الباطني .. مجرد الفاظ .

وبالمثل : ظاهرة الجلاء البصري ، والكشف ، والهواتف .. كل هذه حقائق اغرب من السحر ، يسجلها العلم ، ثم لا يعرف لها تفسيرا ، ولا يعقلها (١) » .

والانسان تغلب على الطبيعة ، الا انه لم يتمكن من التغلب على النفس ، وذلك لانه عرف قوانين الطبيعة ، ولم يعرف قوانين نفسه ،اضافة الى ملايين القوانين التي ما زالت ملفوفة ، في غطاء المجهول !.

فمثلا : الخلية ، عندما فكوا اجزائها ، تصوروا انهم ، عثروا على السر الغامض ، وراء الحياة .. ولكن الخيبة صدمتهم ، يوم اعادوا تركيبها من جديد ليجدوا انها رجعت خلية ميتة لا حياة فيها ، ولا حركة !.. وبذلوا المستحيل في محاولة لارجاع الحياة الى اجزاء الخلية ، غير انهم كانوا ،

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري صفحة ١٦٨ .

يعملون في طريق مسدود !.

والامثلة على ذلك كثيرة .. ولكن يكفي ان تعرف ان العلماء ، صرحوا ان العلم الحديث ، لم يعرف من الطبيعة الا بمقدار ٢٠ بالمئـــة فقط ، واما الـــ ٨٠ بالمائة الباقية ، فمن الصعب التكهن ، بالوصول اليها ، لا في المستقبل القريب ، ولا في المستقبل البعيد ، علما بأن العشرين بالمئة هذه لـــم تكـــن ابدا ، جهـــود العلم والعلماء ، خـــلال القـــرن العشريـــن فقط ، وانمـــا هي حصيلة معاناة البشرية ، وكفاحها في طريق العلم منذ اكثر من عشرة الاف سنة ، والى اليوم .. فكل ما توصل اليه العلم — اليوم — انما هو بفضل الجهود الجبارة التي انفقها العلماء في هذا المجال ، العلماء اليونان ،والاغريق، والهند ، واخيرا علماء الاسلام ، وجامعات المسلمين ... والشيء الملفـــت للنظر في هذا المضمار هو انه : رغم الجهود المتواصلة ، منذ فجر التاريخ الانساني ، والى اليوم لم يكتشف العلماء الا جزء يشيرا في مجال الكـــون ، والحياة ، والانسان ، على ان هذا الجزء اليسير ، انما هو مقصور في الجانب المادي فقط .. فما بالكم بالجوانب الروحية والعقلية ، والفكرية ، والنفسية التي هي نوع من الالغاز المحيرة — بالنسبة للعلم الحديث — وكم تحتاج من الوقت حتى تتم المعرفة الكاملة بكل ما يدور حول هذا الانسان ؟! وبالمثل: ان اعظم ما خلق الله — وكل خلقه عظيم — الدم الذي يجري في اجسامنا فرغم تقدم العلم الا انه لا يستطيع ان يخلق قطرة واحدة من الـــدم .. والعلم لا يستطيع ملاحقة ذبابة في خفتها ، وفي قدرتها على التدمير !. من أجل هذا فالبشرية ، بحاجة الى هدي الانبياء ، ورسالات السماء .. لان الرسالة السماوية ، توفر الوقت على البشرية ، حيث تضع الانسان امام الحقائق ، وتعطيه منهجا يتناسب مع جسمه ، ويتلاءم مع نفسه بالكامل !.. (وهذا الموضوع سنذكره في وقته) .

اذن : فالمسائل التي لا تخالف العلم ، لا مكان للنقاش فيها ، وكذلـــك التي يرفضها العلم والعقل ، واما المسائل التي سكت عنها العلم ، ولـــم يرفضها الميدي لاحد ان ينكرها ، ولا ان يسخر منها ..

ومن هذه المسائل .. مسألة الحياة بعد الموت ، وقضية القيامة .. فهي مسألة يقرها العقل ، ولا يعارضها العلم .. وانما يدعمها بأدلة قاطعة كما سيمر علينا ، خلال البحوث القادمة .

وبالتالي : فالعقل يدل على الحياة بعد الموت ، لانه يقتبس نوره من الاســـلام .

الادلة الباقية :

ا ــ عدالة الله تقضي بالحياة بعد الموت !..

في الحياة ظالم ، ومظلوم ، ويموت الاثنان دون ان ياخذ المظلوم حقه من الظالم ..

فحاكم مثل الحجاج بن يوسف الثقفي .. الذي هو : يداه غارقتان بالدم .. وقلبه مطبوع بالحقد الاسود .. وفي عينيه اصرار على الجريمة تذوب منه الجبال !. كيف يمكن ان ينتهي الحجاج هذا ــ مجرد ان يموت ويضاجع التراب ــ دون ان تكون هناك محكمة عادلة ، تضعه في حجمه ، وتذيقه الموت غصة بعد غصة ، في نفق الحساب العسير ، العسير ، العادل ؟!.
انها تكون مجرد عبث في عبث ..

والا فما معنى ان يموت ظالم ، مثل الحجاج ، الذي كان قد صنع تلالا من الجماجم ، بالاضافة الى سجنه البغيض الذي كـــاد ان يختنق بالناس العزل .. اقول : ما معنى ان يموت وينتهي كل شيء ؟!.

ان عدالة الله ، تأبى الا ان يقدم الظالمون الى المحاكمة العادلة ، التي تنتصر للمظلوم ، من الظالم .

ولو حسبنا بالورقة والقلم ، شروق الشمس وغروبها .. والمعادلات الرياضية ، التي تقوم عليها المجرات ، وتنام النجوم .. لاذهلتنا النتيجة !.

ولو اخذنا الابعاد والمساحات التي تسهل مرور الالكترون في منعطفات الذرة .. لتوقف الدم في قلوبنا من شدة العجب !. ولو فتحنا ملف الكيمياء العضوية ، ودرسنا سلسلة الاحماض الامينية .. لادهشنا النظام الدقيق الذي تجري وفقه هذه الاحماض .. وكذلك ايضا ، لو فككنا الخلية الحية ،

وقطعنا أوصالها .. لاكتشفنا ان الخلية تلتقط ذرات الكيمياء من الدم، حسب ادق القوانين واتقن الانظمة ، فهي اكثر اتقانا في سحب العناصر الكيماوية في الجسم الانساني !.

اقول : لو فعلنا كل ذلك واكثر .. بحثا عن شيء اسمه العبث في هذا الكون .. لانقلبنا خاسئين ، حاسرين ، نرتطم بالفشل الذريع ، ارتطام الامواج بالصخور الشرسة !.

وما هذا النظام العادل ، الذي يلف الكون الا دليل قاطع ، على عدالة الله سبحانه وحكمته البالغة من وراء الخلق ، والكون ، والحياة !.

نفهم من ذلك : ان يوم القيامة قادم ، لا محالة ، وهو اليوم الذي يعض فيه النظام على يديه !.

ولو راينا صورة القيامة ، لاذهلتنا المفاجئة ولصعقنا المنظر الرهيب .. فهذه النار ، امامنا تتميز من الغيظ ، لانها رات الظالمين من مكان بعيد وسمع الظالمون تغيظها ، وزفيرها ، فردوا على اعقابها خاسرون !.

وهل تعتقد : ان الله خلق الدنيا ، والقى حبلها على غاربها .. وترك الظالمين على هواهم — هكذا .. يسحقون الشعوب ، ويقتلون الناس بغير حق ، وينشرون الفساد في الارض ؟!.

كلا .. والف كـلا .

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » سورة آل عمران ١٩٦ — ١٩٧ .

ويقول ايضا :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، انمـا يؤخرهم ليـوم تشخص فيه الابصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء .. » سورة ابراهيم آية ٤٣ .

اجـل :

انما يؤخرهم ليوم !.. لساعة .. للحظة ..

ففي النهاية ، مستحيل ان يفلت الظالم من قبضة الله ، وعدالته .. فالله يمهل ولا يهمل ، وسلفا قال الامام علي بطل الاسلام الخالد — عليه السـلام — :

« ولئن امهل الله الظالم ، فلن يفوته اخذه وهو له بالمرصاد .. » .

ب — الدليل الحسي :

« كما تنامون تموتون ، وكما تستيقظون تبعثون » .

هكذا تحدث الرسول الاعظم — صلى الله عليه وآله — مع اصحابه الغر الميامين .. حول الحياة بعد الموت .. وبهذه البساطة ، وهذا الاسلوب الواضح ، يريد الرسول ، ان يقرب المعنى الى الاذهان !.

فالقضية لا تحتمل الطرح ، والحساب ، وانما هي واضحة كل الوضوح ... فالواحد منا ينام ، ويستيقظ وممكن ان تتكرر هذه العملية . خلال اليوم الواحد مرتين عند البعض ..

والسؤال المحير هو : كيف يتم النوم ، وكيف تحدث اليقظة ؟ ! .. لا احد يعرف على وجه التحقيق !.

انها من المسائل التي ما زالت ، موضع اعجاز للعلم ، وحيرة للعلماء : فكل ما يعرفه العلم عن النوم هو :

حين يضع الواحد منا ، راسه على الوسادة ـ بعد رحلة التعب الشاق خلال النهار ـ نبدأ الغدد بافراز الهرمونات .. فهرمون معين ، يخلق دفقة استرخاء مخدرة ، في أوصال الجسم .. بينما هرمون معين ثان ، يسبب ثقل العيون حتى تنطبق ، فينام الانسان ..! هذا هو كل ما يعرفه العلم الحديث عن مسألة النوم !.

اما كيف يتم التنسيق بين تلك الغدد ، وبين نشاط الهرمونات من جهة .. وبين دخول الجسم في النوم ، من جهة ثانية .. فلا احد يعرف !. وليس هناك جواب علمي محدد في هذا المجال .. والاعجب من ذلك ، ان يستيقظ المرء ، من هذا السبات العميق وقد ارتوى نوما ، وشبع احلاما ، سافر خلالها حول العالم ورجع ، ولكن دون ان يغادر السرير !.

انها مجرد الغاز محيرة .. ولكن بالرغم من ذلك فالعلم يؤمن بها .. على انها حقائق دامغة ، لا مكان فيها للشك .

وعندما نقرأ الحديث الشريف : « كما تنامون تموتون ، وكما تستيقظون تبعثون » .. نصير على مقربة ، من الاستيعاب الكامل للموضوع !.

فالنوم ، يشبه الى حد بعيد ، الموت وكما ان اليقظة تتلو النوم مباشرة من دون ان يكون للانسان دخل فيها .. كذلك الحياة بعد الموت ، فهي تكون بأمر الله القادر على كل شيء .. اضف الى كل ذلك ، ان الحكمة التي زرعها الله في قلب الطبيعة ، تقضي بأن تكون هناك حياة اخرى افضل واجمل ، من هذه الحياة الدنيا .. وذلك : لان الله الذي خلق الانسان في احسن تقويم ، وصوره في اجمل صورة ، وزوده بالعقل والفكر ، وسلحه بقوة البيان ، والقلم لا يمكن ان يدسه في التراب ليكون طعما للديدان ، والهوام .. وانما لا بد ان يبعثه مقاما محمودا !.

وهكذا يكون النظام العادل ، الذي يلف الكون كله .. اكبر دليل على وجود القيامة ، والحياة بعد الموت :

« ليجزي الله الذين اساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين احسنوا بالحسنى .. » قرآن كريم . يقول الاما مالباقر — عليه السلام — « قال لقمان لابنه : يا بني ان تك في شك من الموت ، فادفع عننفسك النوم ، وان تك في شك من البعث ، فادفع عن نفسك الانتباه » . .

ج — الدليل الفطري :

في اعماق الانسان ، فطرة ترش الضوء في داخله ، وايضا في اعماق الانسان محكمة وجدانية مستقرة فيالضمير الانساني .. تحاسبه على الكبيرة والصغيرة .. حتى اذا ارتكب الواحد منا جريمة ، او اقترف ذنبا .. احس بلدغة الضمير تصليه نارا ، وتزرع الجحيم قلبه !.

اصحيح هذا الذي انقله لكم أم لا ؟!.

اجل : انه الواقع .

اذا كان هذا هو الواقع .. فان محكمة الضمير .. المزروعة في ساحة الوجدان الاخلاقي ، الفطري ، تشكل دليلا قاطعا على وجود المحكمة الكبرى ، في القيامة .. في الحياة بعد الموت .. وانتخاب النفس اللوامة ، في القسم بيوم القيامة ، يكشف عن الترابط الوثيق بين الاثنين ! . وذلك في قوله تعالى : « لا اقسم بيوم القيامة ، ولا اقسم بالنفس اللوامة » القيامة ١ — ٢ .

وللتقريب ، نسوق المثال التالي :

كما ان العطش الى الماء ، يدل على وجود الماء ، والجوع يدل على الطعام .. كذلك الحنين الى العدل ، يدل على وجود العدل .. والحنين الى الحق ، يدل على وجود شيء اسمه الحق .. ونفس الشيء .. يقال بالنسبة لحساب الضمير .. ومن هنا يتبين لنا ان وجود محكمة الضمير في اعماقنا ، يدل على وجود محكمة الله في القيامة — خصوصا اذا عرفنا ان احكام الله سبحانه وقوانينه في الحياة ، قد جمدت تجميدا كاملا ، واعرض الناس عنها تمام الاعراض !.. على ان احكام الله ، يجب ان تطبق في الدنيا والاخرة .. وعدم تطبيقها في الحياة الدنيا لظروف خاصة يعرفها الحكام الخونة الذين عاهدوا الاجنبي ، على خنق الاسلام ، واضطهاد المسلمين ، وفي ايران وافغانستان خير شاهد ، واكبر دليل على ذلك !.

اقول : عدم تطبيق الاسلام ، لا يعني — بالضرورة — تجميد الاحكام الالهية وتعطيلها في الدنيا ، وفي الاخرة .. فاذا شرد المجرم من محاكم الدنيا ، فانه لن يقدر على الهرب من محكمة العدالة الالهية ، يوم الحساب !.

المهم : ان محكمة الوجدان هذه تدل بالقطع ، على محكمة القيامة .. وفي القرآن الكريم : اشارة دقيقة الى هذا المضمون ، في قوله تعالى : « لا اقسم بيوم القيامة ، ولا اقسم بالنفس اللوامة .. » فجاء القسم بالقيامة مقرونا بالقسم بالنفس اللوامة — وهي التي تلوم صاحبها على الذنب — .

على ان القرآن — هنا — يجعل من النفس اللوامة ، دليلا قويا ، على يوم القيامة .. ولا يخفى على القارىء النطن الواعي ، ما في ذلك من دقة في التعبـــير !..

د — الدليل الغريزي :

لم يخلق الله سبحانه ، في الكون ، شيئا بلا غاية ، وانما خلق كـل شيء لهدف حكيم .. فمثلا : الغرائز نبتت في النفس ، تحت خطة حكيمة .. فكل غريزة توجه طاقة معينة ، من الانسان ، نحو البناء في المجال المختص بها .. ولنأخذ غريزة حب البقاء ، وحب بالذات .. وظيفة هذه الغريزة ، تتمثل في المحافظة على حياة الانسان ، في الابتعاد عن الخطر .. ولولا هذه الغريزة ، لما تمكن البشر ان يستمر في الحياة .. وكل واحد منا يشعر في قرارة نفسه ، بوجود هذه الغريزة .. وهل هناك من يحب الموت ، ويسعى الى القبر ؟!.. لا بالطبع .. اللهم الا في حالات استثنائية ، مثل الاندفاع في المعركة ، طلبا للشهادة ، وحتى هذا الاستثناء نابع من غريزة حب الذات .. وذلك لان الشهيد ، حين القى بنفسه في احضان الموت ، كان يطمع في الحصول على جنة عرضها السموات والارض .. اي انه باع الدنيا ، بحياة افضل واجمل .. بدافع التقرب من الله العلي الحكيم !.

ويستدل العلماء بهذه الغريزة اي : غريزة حب البقاء ، وكذلك حـــب الذات ، على الحياة بعد الموت .

وهم يقولون : ان الله الحكيم ، عندما زرع حـــب البقاء في الانسان ، كان يريد الخلود له في الحياة الاخرى ، وليس في الحياة الدنيا — ولو لم تكن هناك حياة ، فكيف اذن خلق الله هذه الغريزة — .. واذا كان الله حكيما — وهو كذلك — فلا بد من وجود عالم اخر ،يتم فيه اشباع غريزة حب البقاء عند الانسان ! لان هذا العمر الدنيوي القصير لا يتناسب مع الغايـــة

السامية ، من خلق هذه الغريزة اي غريزة حب البقاء ..

والنتيجة التي ظهر بها العلماء هي : ان غريزة حب البقاء ، تشير الى البقاء الابدي في الدار الاخرة !.

هـ ـ الدليل الكوني :

يوم القيامة ، يعني نهاية عمر العالم ، حيث يتوقع العلماء ، حدوث انفجار هائل ، في الطبيعة ، يؤدي الى تناثر النجوم ، وتمزق الارض ، والقمر ، وانطفاء الشمس .. بالاضافة الى ما يصاحب ذلك الانفجار ، من اشتعال البحار ، ونسف الجبال الى حد القاع الصفصف !.. وهذا ـ بالضبط ـ ما يؤكده العلم ، الحديث بالارقام ... يقول العلم : ان الكون ركب تركيبا ، لا يمكن معه ان يستمر الى الابد ، هكذا ، في الحياة والحركة .. فهناك قوانين في الفيزياء اثبتت ان الكون يسير نحو النهاية المحتومة ، وهو يقترب منها يوما بعد يوم ، اكثر فاكثر !.

ومن باب المثال :

هناك قانون الطاقة المتاحة ، في الحرارة الدينامكية في الفيزياء .. هذا القانون يؤكد ان الكون اخذت حرارته تقل شيئا فشيئا .. فهو يسير من حرارة اشد ، الى حرارة اقل .. بحيث ان الارقام العلمية في هذا المجال ، مذهلة جدا !.

ويكفي لاستيعاب ذلك ، ان تعرف : ان الشمس ، وحدها ، تفقد من الطاقة ، في الثانية الواحدة ما يوازي كل طاقة صرفها الانسان ، منذ وجوده في الارض ، والى اليوم !.. فالشمس تطرح فوق المتر المربع الواحد في الفضاء .. ما يعادل ٥٠٠ مليون طن من الاشعة ، في الساعة الواحدة !.

واثبت العلم : ان الشمس سائرة الى الصفر المطلق ، اي : الـى انعدام الطاقة ، وعندها سوف تنطفأ الشمس وتنطفأ الحياة معها .. فتقع الواقعة ، وتقوم القيامة !.

وفي القرآن الكريم ، اشارات علمية ، صريحة الى هذا المجال بالذات اي وقوع القيامة ، ونهاية الكون .. وذلك في السور الثلاثة التالية :

١ ــ سورة التكوير .

٢ ــ سورة الانفطـــار .

٣ ــ سورة الانشقاق .

على ان في القرآن الكريم ، قرابة ..١٥ آية مباركة ، تتحدث عن وقوع القيامة .. وتعطي ملامح الانفجار الهائل الذي سيعصف بالكون في المستقبل القريب ، او البعيد !.

و ــ الدليل الجسدي :

ان نظرة علمية واحدة ، نلقيها على جسم الانسان .. وما يجري فيه ، من الانظمة الدقيقة في الخلايا ، والغدد ، والاجهزة ، والمعامل الضخمة .. تكفي للكشف عن امكانية وقوع الحياة بعد الموت ، ووقوعها بالفعل !.

فالخلايا تجري في الجسم .. تماما مثل الماء في النهر .. وادق تعبيـــر علمي في هذاالمضمار .. هو : ان الجسم البشري ، نهر يجري بالخلايـــا ، على مدار الساعة .. فخلايا تموت ، واخرى تحيا .. وخلايا تحترق ، واخرى تبدأ الحياة .. وهكذا دواليك !.

ففي كل ثانية تموت الملايين من الخلايا القديمة الهرمة .. لتحل محلها .. خلايا جديدة شابة !.

والملفت للنظر ، من الناحية العلمية ، هو : ان جسم الانسان ، يجدد نفسه بالكامل ، خلال كل عشر سنوات .. ففي هذه الفترة ، تتغير كل ملامح الانسان ، حيث تلبس البشرة ثوبا جلديا جديدا .. وكذلك تلبس بقيـــــة الاجهزة داخل الجسم اثوابا جديدة .. بل وحتى العظام ، ايضا هي الاخرى تستبدل ثوبها ، في غضون كل عشر سنوات .. باستثناء الجهاز العصبي ، وخلايا الدماغ التي تظل محافظة على نفسها ، من الاحتراق ، والتلـــف .. فاذا اصيبت خلايا الدماغ بتلف عارض ، فانها لا تقدر على بناء نفسها مـــن جديد .. !

اما بقية الاجهزة — في البدن — فلديها القدرة الكافية على صنع الخلايا الحية ، مكان الخلايا المحترقة الميتة ! وعلى ضوء ما تقدم يكون الانسان قد عاش ،في سلسلة متلاحقة من الموت ، والحياة ، الذين يطارد احدهما الاخر!

ومن هنا فقد اكد العلم — البايلوجي — ان الواحد منا يلبس فـــي عمره عدة اثواب من الحياة .. لا ثوبا واحـــدا .. وذلك : لان كل انسان — خلال كل عشر سنوات — يكون قد مات مرة واحدة ، ثم ارتدى ثـــوب الحياة مرة اخرى .. بسبب دولاب الخلايا الدائر بـــين الموت والحياة .. « بل هم في لبس من خلق جديد .. » قرآن كريم .

والرجل ذو الخمسين عاما ..الذي نشاهده يمشي ، امامنا في الشارع يكون قد مات خمس مرات خلال عمره هذا .. حسب القانون الفسلجي ، في علم وظائف الاعضاء (البيولوجي) وللتوسع في المزيد من المعلومـــات ، راجعوا كتاب الاسلام يتحدى « لوحيد الدين خان » بالاضافة الى المجلات العلمية ، مثل مجلة (ريدر دايجست) العلمية الشهيرة ، فان فيها ما لذ وطاب ، في هذا المجال العلمي الدقيق الشيق !.

اذن : فاذا كان الانسان ، يتعامل مع الموت والحياة ، يوميا ، وبشكل مستمر .. فما باله لا يؤمن بالحياة بعد الموت ؟!.. ان الايمان بالقيامة يدل على وعي المرء ، وثقافته الواسعة العالية ..

وبالتالي : فالايمان بأن وراء العالم هذا ، عالما اخرا وان بعد الحياة هذه ، حياة اخرى ، اجمل ، واكمل ، وافضل .. من شأنه ان يعطي الانسان قوة في الشخصية وانطلاقة في التفكير ، في حين ان الذين لا يؤمنون بالاخرة .. قلوبهم مسودة !.

المبدا .. والمعاد :

الايمان بالمبدا ، والمعاد ، يشكلان طرفي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. فالله الذي اعطانا الحياة في البداية .. هو وحده ، القادر على ان يبعثنا من جديد ، ويعيدنا الى الحياة مرة اخرى .. « .. كما بدأكم تعودون .. » قرآن كريم .

وايضا يقول القرآن :

« هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا .. » ؟!. انه سؤال عنيف حقا .. هذا الذي يطرحه القرآن بين ايدينا ! .. اجل .. ايها الانسان . لقد اتى عليك حين من الدهر ، ما كنت فيه شيئا مذكورا .. وانما كنت مجرد ذرات قابعات في ثنايا التراب .. هذا في احسن الفروض يوم انبتك الله من الارض نباتا ــ اما قبل ذلك فكان يلفك العدم ، اذا لم تكن شيئا مذكورا .. على الاطلاق !

فمن الذي اخرجك من التراب ، واعطاك الحياة ؟!.

انه الله القادر على كل شيء .

وهل تتصور ان خلق الانسان من التراب ، مقصور على ادم وحده ، دون غيره من البشر ؟ ! .

اذا كنت ، كذلك ، فانفض هذا التصور ، من خيالك .. واقترب من الحقيقة العلمية ، التي يعرضها القرآن الكريم ، في الايات التالية في سورة الحج (٥ — ٧) .

« يا ايها الناس ان كنتم في ريب (اي في شك) من البعث (اي الحياة بعد الموت) فأنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ثم من مضغة، مخلقة ، وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا .. وترى الارض هامدة ، فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت ، وربت وانبتت من كل زوج بهيج .. ذلك بأن الله هو الحق ، وانه يحي الموتى ، وانه على كل شيء قدير .. وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور » سورة الحج من اية ٥—٧ .

فالارض هامدة ، لا زرع فيها ، ولا ضرع .. حتى اذا مطرت السماء..! اهتزت الارض ، فأعطت من كل الثمرات ، زوجا بهيجا !.. واذا بالصحراء الجرداء ، تتحول الى واحة خضراء ، تموج بالعشب ، وتفيض بالعطاء .. من الجنات المعروشات ، وغير المعروشات ! واذا بالارض تبدو بثوبها الاخضر الجميل .. وكأنها بدوية مراهقة ، خرجت للتو ، من الاودية العجاف لتدخل الواحات السمان وفي اية اخرى يقول القرآن :

« ومن اياته انك ترى الارض خاشعة (يابسة) فاذا انزلنا عليها الماء، اهتزت ، وربت ، ان الذي احياها ، لمحي الموتى » فصلت ٣٩ .

اجل : ان الذي احياها ، لمحي الموتى .

الم تكن الارض ميتة ، قبل هطول المطر ..؟!

ــ : نعم كانت خاشعة ، وكانت هامدة !.

ــ : اذن .. فان الذي تمكن من احياء الارض الميتة ، هو نفسه قادر على ان يحي الموتى .

فالانسان ــ اذن ــ جاء من التراب ، وهو يستمد وجوده من التراب ايضا بسبب احتياجه المستمر الى الطاقة الحيوية ، على ان هذه الطاقة ، توجد في املاح التربة ، التي تشكل جزءا كبيرا .. من البدن .. حيث يدخل في تركيب الجسم اكثر من ١٦ نوعا من الاملاح، الموجودة في التربة ، مثل الاوكسجين ، والجير ، والكالسيوم ، وغيرها . من العناصر الكيماوية التي تمتصها جذور النبات ، لتحولها عبر اللحوم، والخضروات ــ طعاما سائغا ــ للانسان ! يقول الامام الصادق ــ عليه السلام ــ : « ان كل عنصر في الارض ، موجود في بدن الانسان » !.

فسبحان الله الذي خلق الانسان ، من التراب ثم من النطفة ، ثم سواه في احسن تقويم ، واعطاه الطعام من التراب ــ ايضا ــ ثم يعيده الى التراب ، وبعد ذلك ، سوف يخرجه من التراب تارة اخرى !!.. «منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » سورة طه اية ٥٥ .

ويقول القرآن :

« .. يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحي الارض بعد موتها .. وكذلك تخرجون .. » الروم اية ١٩ .

واية اخرى :

« وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا ، سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى .. » سورة الاعراف اية ٥٧ .

البــــرزخ :

.. فاذا جئنا الى البرزخ :

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » (المؤمنون ١٠٠) .

ذلك البرزخ الذي يفصل ارواح الاموات ، عن دنيا الاحياء ، فـــان القران يعود فيلقي الضوء على معناه في ايتين منفصلتين :

« وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (الفرقان ــ ٥٣) .

والحجر المحجور هو المنع ، الممنوع ، المحظور .

والاية ، تتحدث عن احواض البحار ، والمحيطات الملحة ، وانهـــار المياه العذبة ، كيف تلتقي ، ويصب الواحد منها في الاخر ، دون ان تمتزج ، ودون ان تتلوث الانهار العذبة بالملوحة .. فتظل الانهار عذبة ، والمحيطات ملحة ، بما اقام الله ، من برزخ .. (فاصل او حاجز) بينها .

ويتكرر الكلام نفسه في اية اخرى بسورة الرحمن : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » . (الرحمن ١٩ ، ٢٠) .

ومن الواضح هنا ، ان البرزخ ليس مجرد الارض الفاصلة ... فالارض الفاصلة لم تمنع من مسيل الانهار لتصب في المحيطات .. وانما في القوانين التي جعلت المحيطات في الخفض من الارض ، والانهار تنزل اليها من عوالي الجبال ، ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة .. ثم ان الله جعل مياه المحيطات ترتفع في المد (بفعل جاذبية القمر) ولكن بمقدار .. ولو كان القمر اقرب الى الارض مما هو .. لكان المد العالي الذي يحدث كفيلا بأن تصب المحيطات في الانهار فتلوثها ولما وجدنا قطرة ماء نشربها .

ان البرزخ ، والحجر المحجور .. والمنع الممنوع .. كلها اشارات الى القوانين الفيزيقية ، التي تمنع وتضبط ، وتحفظ لكل شيء حدوده ومكانه .

وهذا يفسر لنا ما قاله القران عن الموتى :

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » .

فليس معنى البرزخ — هنا — فاصل مكاني ، يفصل ارواح الموتى، عن دنيا الاحياء .. وانما معناه القوانين المانعة .. فالارواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة .. ولهذا يستحيل علينا ان نخاطبها .. ويستحيل عليها ان تخاطبنا . لان بيننا برزخا . هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الارواح .. مع انها قد تكون حولنا في ذات اللحظة والمكان. ولكن الاتصال يظل مستحيلا ، ومعدوما لاختلاف قوانين وجودها ، عن قوانين وجودنا ، وهذا هو البرزخ ... » (١) .

---

١ — القران محاولة لفهم عصري صفحة ١٦٨ .

هذا الراي حول البرزخ ، كان للدكتور مصطفى محمود نقلناه ــ هنا ــ للتوضيح ليس اكثر .. فمن شاء اخذ به ، ومن شاء لم يأخذ .

والبرزخ حقيقة ثابتة ترفض الجدل العقيم الذي لا يفضي الــى نتيجـــة ..

وعالم البرزخ ، معناه المحطة الروحية ، الفاصلة بين عالم الدنيا ، وعالم الاخرة .. فأرواح الاموات تسرح في ظلال البرزخ الى يوم القيامة، والظل البرزخي اما ان يكون روضة من رياض الجنة ، او قطعة ملتهبـــة من الجحيم !.. فقد أفادت الروايات ، والاخبار الواردة عن النبي الاعظـم، والعترة الطاهرة ، ــ في هذا المجال ــ ان البرزخ يشكل مرحلة دقيقـــة ، قائمة بذاتها ، تقع بين مرحلتين رئيسيتين هما : مرحلة الدنيا ، ومرحلـــة الاخرة .. على ان الارواح الطيبة تسرح في ظلال الجنة ، وتستظل ، بظـل رحمة الله .. بينما الارواح الطيبة ، تفور في عذاب الجحيم .

وفي القرآن ، اشارة رائعة ، الى جنة البرزخ .. والى نار البرزخ . ايضا !.. وذلك قوله تعالى :

« جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا .. لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما .. ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » مريـم ٦١ ــ ٦٢ .

ومن خلال قوله « .. ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » يبدو واضحا، ان هذه الجنة ، خاصة بالبرزخ ، وليس بالاخرة .. لان الجنة هنـــاك، ليس فيها بكرة ، ولا عشيا .. فحدوث الصباح ، والمساء ، انما ينشأ بسبب حركة الارض حول نفسها ، في مواجهة الشمس .

ونحن نعرف ، أن الشمس ، يوم القيامة ، تكون قد تكورت ، وماتت

شعلتها .. والارض تدك دكة واحدة والجبال ، ينسفها الله سبحانه نسفا !.

اذن : فالاية المباركة ، تشير الى جنة البرزخ لا الى جنة الاخرة ..

هذا بالنسبة الى الجنة ، في البرزخ .. اما بالنسبة الى نار البرزخ .. فقد وردت الاشارة اليها ، في قوله تعالى :

« ... وحاق بآل فرعون سوء العذاب .. النار يعرضون عليها غدوا ، وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب »
(سورة المؤمن ــ ٤٦) .

يقول الامام الصادق ــ عليه السلام ، في تفسير قوله تعالى : «..النار يعرضون عليها ، غدوا وعشيا .. » : يقول الامام : « هذا في الدنيا ، دون القيامة ، لان ، النار ليس فيها « غدوا ، وعشيا » وانما هي نار البرزخ .. يدل على ذلك قوله :ويوم تقوم الساعة .. اي : ان هذا العذاب قبل يوم القيامة .. فاذا قامت القيامة ، يقال لهم : « .. ادخلوا آل فرعون اشد العذاب .. » .

ويطلع علينا القران الكريم ، بصورة رائعة ، للانسان الظالم ، الذي احرقت نار البرزخ اصابعه . فراح يستغيث طالبا العودة الى الحياة الدنيا، ليعمل الصالحات .. ويأتيه الجواب حادا ، وعنيفا .

كلا .. (وهي اداة نفي ، تستعمل في اشد حالات الرفض) .. انها كلمة هو قائلها .. وذلك امعانا في السخرية ، من عقلية هذا الظالم الخائن ، الذي خان الامانة ، فظلم نفسه ، وظلم الاخرين ايضا .. والله يعلم ان هؤلاء الظالمين ، لو ردوا الى الدنيا لعادوا الى ما نهو عنه .. لان

نفوسهم ركبت على الخيانة ، والجريمة .. ومن هنا كانت الشدة معهم ، تعني العدالة الاسلامية ، في احلى مظاهرها .

يقول القران :

« .. حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون .. لعلي اعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يـــوم يبعثون .. فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ، ولا يتسائلون .. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذيــن خسروا انفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.. الم تكن اياتي تتلى عليكم ، فكنتم بها تكذبون .. قالوا ربنا غلبت علينـــا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون . قـــال اخسئوا فيها ولا تكلمون .. انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا امنـــا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين .. فاتخذتموهم سخريا ، حتـــى انسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون .. اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهـم هم الفائزون » سورة المؤمنون (اية ٩٩ ــ ١١١) .

وقوع القيامة :

الساعة ذروة الغيب .. وعلمها محجوب عن الكل لان الله سبحانه، اختص به نفسه ، دون العالمين .. ولكن ذلك لا يمنع من ان يحدثنا القران الكريم ، عن اشراط ، وعلامات لهذا اليوم ، ويعطينا صورة متحركة ، لبعض تلــك العلامات :

« فارتقب يوم تأتي السماء ، بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون .. انى لهم الذكرى ، وقد جاءهم

رسول مبين .. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . انا كاشفوا العـذاب قليلا انكم عائدون ، يوم ، نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » (الدخان — من ١٠ الى ١٦) .

انا ، امام عقبة كؤود .. ينطلق من بطنها اعصار فيه نار ، ودخـان هائل كثيف ، سوف يلف الارض ويحجب الشمس .. ويتعذب الناس ، بـه عذابا شديدا ، لاجل محدود ، ثم يكشف الله عنهم !.

والقران الكريم ، يخبرنا ، بأن القيامة ، ستقع في وقت تكون فيـه الارض ، قد بلغت قمة ازدهارها ، ووصلت الى ذروة الحضارة ، والتطور التكنولوجي !..

فالارض ، تكون قد اخذت زينتها من كل شيء واستطاع الانسـان ، ان يزرع الصحاري ، ويتحكم بالامطار ، ويفجر الذرة ، ويقطع اوصـال الخلية ، ويعبر المحيطات ، في غضون دقائق ، ويسافر الى الكواكـب ، كما يسافر الى المدن في الارض .. في هذا الجو .. سوف تقع القيامة ! :

« حتى اذا اخذت الارض زخرفها ، وازينت ، وظن اهلها انهم قادرون عليها ، اتاها امرنا ليلا ، او نهارا .. فجعلناها حصيدا كأن لم تغـن بالامس » (يونس — ٢٤) .

وفي الاية المباركة ، لطف ، وخفاء .. فالله يقول ان الساعة تأتـي ليلا ، او نهارا ، وليس في الامكان تفسير ذلك ، الا ان تكون الارض كرويـة دوارة نصفها غارق في الليل ، ونصفها سابح في النهار .

فاذا جاءت الساعة ، وهي تأتي في لحظة :

« وما أمر الساعة الا كلمح البصر او هو اقرب » (النحل — ٧٧) .

وهكذا ، يكون نصف سكان الارض، في الليل ... بينما يكون النصف الاخر في النهار ، عندما تقع القيامة فتهلك الحرث ، والنسل !.

وبداية القيامة ، تكون صيحة عظيمة ، عنيفة . تنخلع منها القلوب، وتتهاوى الابدان .. وفي ذلك يقول الله العظيم : « ما ينظرون الا صيحة واحدة ، تأخذهم وهم يخصمون .. فلا يستطيعون توصية ، ولا الى أهلهم يرجعون » يس اية ٤٩ — ٥٠ .

يا للهول : تأخذهم الصيحة ، وهم يخصمون اي : يتعاملون في الاسواق ، وأملهم أن يعودوا الى البيت . عند الظهيرة للاستراحة ، ثم يستأنفوا العمل من جديد ، في المكاتب ، والمتاجر ، والدوائر .. فلا يستطيعون توصية ، اي لشدة المفاجأة التي تخلقها لم يعد في امكانهم ان يكتبوا وصاياهم ، ولا الى اهلهم يرجعون ..

اي لا يستطيعون العودة الى البيت ، لتناول طعام الغداء — او العشاء! مثلا ..

فقد جاء في الحديث الشريف :

« تقوم الساعة ، والرجلان قد نشرا ثوبهما ، يتبايعانه ، فما يطويانه حتى تقوم القيامة .. » .

وفي حديث ثان ايضا :

« ان المرء يرفع لقمته الى فيه (فمه) فما تصل الى فيه حتى تقوم القيامة » .

الصيحة ماذا تعني ؟!

الحديث عن الصيحة في يوم القيامة ، يقودنا الى الحديث عن تأثير الصيحة ، والصوت ، على الانسان بالذات .

فقد اثبت العلم الحديث : ان للضوضاء ، والصخب ، تأثيرا عكسيا على المخ ، والنشاط الذهني ، — والهدوء العقلي — فكما ان الصمت والعزلة يهددان ، الدماغ ، فكذلك ، ارتفاع الصوت ، والضجيج يهدد المخ ، ويربكه ، ويزعجه . فالدماغ الذي يعمل بنسق ذبذبات موجية معينة .. تحدث في خلاياه تغيرات ضارة .. اذا ما تلقى ذبذبات صوتية قوية ، حادة !! .

وقد اخترع ، البوليس الامريكي ، صفارات هائلة الحجم ، توجه نحو المتظاهرين ، بزعيق شديد .. والصفارات هذه ، بمجرد ان يوجهها البوليس ، الى المتظاهرين .. فانهم سرعان ما يشعرون بالخمول ، والتعب ، والانهيار ! .

وحتى تحيط بالمسألة علما .. فقد تأكد بالطب الحديث ، ان الصوت القوي الهائل ، يؤدي الى مضاعفات جسمية خطيرة ! . منها تمزق الكلية في الجسم ، اضافة الى انه يحدث انشقاقا عميقا ، في طبلة الاذن ، واذا خرج الصوت عن المألوف ، فانه قد يؤدي الى توقف القلب عن العمل بالمرة ! .

وقد يستغرب البعض ، من قدرة الصوت على تمزيق الكلية ، وشق طبلة الاذن ، وربما توقف القلب ايضا ! .. ولكن الاستغراب سرعان ما يتبخر ، ويذوب ، حين نعرف ان اوقاتا كثيرة ، يحدث فيها ، ان يتكرر

زجاج المطار ، ويتحطم بسبب الصوت القوي ، الذي تخلقه ، بعض الطائرات العملاقة ، ساعة هبوطها في المطار .. وفي الانفجارات العنيفة التي تحدث في الجو ، فالكل يعرف الاضرار التي تتركها تلكم الانفجارات من التحطيم ، والتكسير ، والتهشيم ! بسبب صوتها الحاد القوي !.

ما وراء الصوت :

قدرة الاذن ، على تلقي الصوت ، والتقاطه ، تأخذ حجم الموجة الصوتية، وتتوافق مع قوتها .

فهناك حدان ، لحجم الصوت : الحد الادنى ، وهو ١٦ موجة في الثانية الواحدة .. والحد الاعلى ، وهو ١٦ الف موجة في الثانية الواحدة ايضا .. والاذن — حسب الارقام العلمية بالطبع — لا تأخذ اقل من ١٦ موجة صوتية في الثانية ، ولا تقبل اكثر من ١٦ الف موجة صوتية خلال الثانية الواحدة ايضا !.. اي : ان الاصوات التي قوتها اقل من ١٦ ذبذبة في الثانية ، يستحيل التقاطها عن طريق الاذن .. ونفس الشيء ، بالنسبة للاصوات ، التي يصل حجم ذبذباتها الى اكثر من ١٦ الف موجة في الثانية الواحدة اذ تعجز عن استيعابها الاذن وهي حقيقة علمية ثابتة ، يعرفها كل من قرأ الفيزياء ، بدقة واتقان .

على ان الشيء الملفت للنظر ، هو : ان الامام عليا — عليه السلام — كان قد اشار الى كشف هذه الحقيقة ، قبل اكثر من (١٣٥٠) سنة ، في مسجد الكوفة ، في العراق .. يومها كان يتحدث عن لطيف العلم الالهي حيث قال — في معرض خطبته — مشيرا الى هذه الحقيقة العلمية ، التي لم يتوصل اليها العلم الحديث الا مؤخرا .. قال الامام :

« .. وكل سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات .. ويصمه

كبرها ... ويذهب عنه ما بعد منها .. » (نهج البلاغة ، من الخطبة رقم ٦٥) .

وهذه المقطوعة العلمية الرائعة ، التي وردت ، في خطبة الامام علي — عليه السلام — تدلنا على أشياء بالغة الاهمية وهي كالتالي :

اولا : العمق العلمي ، الذي اختص بأهل البيت دون غيرهم من البشر .. اضافة الى الترابط الوثيق بينهم ، وبين القرآن ، بحيث لم يعد في الامكان ، فصلهم عن القران ، ولا فصل القران عنهم ، فهما رافدان متعانقان ، وسبيكة واحدة ، كما اكد ذلك حديث الثقلين الشهير .

ثانيا : النظرة البعيدة المدى ، الثاقبة التي تجعل من كلمات اهل البيت، واحاديثهم نورا ، يلقف الظلام ، فينفتح الافاق ، تلو الافاق ، امام البشرية الضائعة الحائرة !.

ثالثا : ان عمر الكلمة ، يتناسب مع قوتها ، فكلما كانت الكلمة قوية، كان عمرها اطول .. وذلك لان الكلمة . تعيش بفعل المحتوى العميق ، والمعنى الجيد ! .

وعمر الكلمات ، مختلف مثل عمر الكائنات الحية ، يتراوح بين اللحظة الواحدة ، وبين الخلود الابدي !.

ففي الوقت الذي ، تولد فيه ، كلمات على الشفاه العبقرية ، لتعيش الاف السنين ، حية تعطي حلاوتها كل حين ، في الوقت نفسه ، نجد أن قسما من الكلمات تموت على شفاه قائلها ، قبل أن تصل الى اسماع الاخرين .. وهناك كلمات تأخذ من الوقت يوما ، وليلة وبعضها الاخر، يأخذ الاشهر ، والاعوام ، في حين ان القسم الثالث ، يبقى ما دام صاحبه على قيد الحياة .. فاذا مات القائل ، ماتت الكلمات معه .

ولكن العظمة ، والشأن الرفيع ، تكمن في ان يموت الانسان ، وتظل كلماته حية ، مأتلقة تستمد بقائها ، من وهج الشمس ، وزرقة الفجر .. وكلما امتد بها حبل الايام ، ازدادت قوة ، واشعاعا .. واكتسبت قدرة على فتح الافاق امام هذا الانسان الضائع المحروم .

وهذا ، بالضبط ، ما نلمسه ، ونشاهده في التراث الاسلامي العظيم ، الذي خلفه لنا ، اهل البيت — عليهم السلام — وتلك ظاهرة، ليس في الامكان ، اغفالها ، والتحايل عليها .

رابعا : اراد الامام على ان يضع ايدينا ، على الحقائق العلمية التالية :

أ — قوله : « .. وكل سميع غيره — اي غير الله سبحانه — يصم عن لطيف الاصوات .. » ومعنى ذلك :

ان هناك اصواتا لطيفة ، خفيفة ، لا يشعر بها الواحد منا ، ويكون حجمها — في العادة — أقل من الحد الادنى ، الذي هو ١٦ موجة في الثانية الواحدة ... وهي اصوات ليس في المقدور سماعها ، رغم تواجدها، حولنا ، في كل الاوقات !.. مثل اصوات النمل ، واصوات الذرات في الهواء ، واصوات الكثير من الكائنات الحية ، التي تعجز الاذن عن التقاطها ! .. ومن باب المثال :

هناك حيوان ، في حجم الجرادة ، يسمى (ابو النطيط) يستطيع ان يتصل بأنثاه ، على بعد عشرات الكيلومترات ، فيدعوها اليه ، — ضاغطا على موجة معينة من الهواء — دون ان يسمع احد صوته على الاطلاق — والذي يأخذ بمجامع القلوب الى الايمان ، هو ما اكتشفه العلماء في داخل هذه الحشرة العجيبة ، حيث وجدوا ، ان الله سبحانه قد زرع في بطن هذا الحيوان ، جهازا اليا دقيقا ، يشبه الى حد بعيد جهاز الرادار ، على ان

حجمه لا يساوي حجم الحمصة ، وهذا هو الابداع الذي لا يعرف الحدود .. (وللاطلاع راجعوا كتاب الاسلام يتحدى) !! .

وكذلك الاصوات التي لا يمكن ، ان يهتدي اليها ، الانسان الا من خلال اثارها في الفيزياء ، والطب .

اذن : فقد بدا واضحا : ان الامام عليا كان قد كشف هذه الحقيقة، عندما اكد في كلمته هذه ، ان الاصوات اللطيفة التي تقل درجتها عن ١٦ موجة ليس في امكان الاذن ان تسمعها !.

ب — واضاف الامام قائلا : « .. ويصمه كبيرها » .. اي : ان كبير الاصوات الهائلة ، يسبب الصمم في اذن الانسان .. وهو عين ما اكده العلم الحديث ، على وجه التحقيق ، حيث اثبت العلم : ان الاصوات القوية الهائلة ، تؤدي الى تمزق طبلة الاذن ، ومن ثم الى الصمم الكامل بالاضافة الى تصدع الكلية داخل البدن .. هذا وقد مر علينا ، كيف ان الاصوات، الحادة الزاعقة ، تسبب انهيار الجسم ، وفقدان الوعي .. واحيانا تصل الى درجة ، ان يتوقف القلب عن العمل نهائيا !.

ج — ثم يتابع الامام قوله : « .. ويذهب عنه (اي عن الانسان) ما بعد منها .. (اي من الاصوات) .. » وهذا يدل بوضوح ، على انفي الكون أصواتا ، هي من القوة،والضخامة ، بحيث لو وجهت الى الارض، لمات الناس في الحال ! .

والسؤال المطروح امامنا هو :

من اين تنطلق تلكم الاصوات المهولة ، ولماذا لا نسمعها نحن ؟!.

ولان الاجابة السهلة ، تتطلب شيئا من الدقة ، فلا بد من طرح سؤال

ضمن هذا السؤال ، حتى تبدو الصورة ، اكثر وضوحا ، والسؤال هو :

هل الكرة الارضية لها صوت ، في أثناء حركتها في الفضاء .. ام لا ؟.

والجواب — ببساطة — معروف سلفا ، فالارض — بلا شك — تحدث صوتا هائلا ، وعظيما بحيث يفوق حد التصور !. وذلك لاننا نشاهد المروحة السقفية ، تدور امامنا ، فتحدث صوتا ، ونرى السيارة منطلقة في الشارع، فنسمع صوتها وأيضا ، فنحن نلاحظ القطار ، حين يمشي على السكة الحديدية ، يترك صوتا قويا وراءه ... ونلقي نظرة على الباخرة التي تجري في البحر ، فنسمع صوت الامواج المتكسرة يلهث خلفها .. وكذلك نسمع صوت حفيف الشجر ، وصوت خرير الماء ، وزقزقة العصافير ، وقصائد البلابل في الصباح ، وصوت الديكة في السحر ... كل هذه الاصوات يسمعها الانسان ، لانها تنطلق من اجسام متحركة .. والجسم المتحرك ، يخلق صوتا يتناسب مع حجمه ، ومقدار ، قوته ، حسب القواعد العلمية في الفيزياء — والذي يعرف حجم الكرة الارضية .. ويعرف السرعة الهائلة ، التي تدور بها حول نفسها ، وحول الشمس يدرك — على الفور — كم هو هائل ، وعظيم ذلك الصوت الذي تحدثه الارض ، نتيجة حركتها العملاقة ، في الفضاء الواسع المهول ! .

والسؤال : لماذا لا نسمع صوتها ؟!.

ببساطة : لان الاذن مركبة تركيبا ، لا يسمح لها ، باستقبال الاصوات التي تتجاوز الحد الاعلى ، وهو ١٦ الف موجة صوتية في الثانية الواحدة.. ولان الكرة الارضية ، تطلق صوتا ، حجمه اكبر من هذا المعدل بملايين المرات فقد غاب صوتها القوي الهائل ، الاسطوري ، عن سمع الانسان .. حتى كأنه لم يكن هناك صوت للارض ، ولا لبقية الكواكب الاخرى !!.

وهذا من لطف الله علينا ، ومن رحمته التي وسعت كل شيء .. والا،

فلو كان البناء ، ان تظهر اصوات الكواكب ، والنجوم — على حقيقتها — في الفضاء لما تمكن الانسان ان يستمر في الحياة ، دقيقة واحدة !

فسلام الله عليك يا بطل الاسلام الخالد يا ابا الحسن والحسين، يوم ولدت ، ويوم تموت ، ويوم تبعث حيا .. سيدي ما أروعك ، حين تضع ايدينا على حقائق هذا العالم الغامض . وحين تفتح قلوبنا على نور الايمان بالله العلي العظيم .

اذن : فالصوت ، له قدرة تفوق الخيال ، على زرع الهلاك ، والدمار في العالم !.

ونلمح هذا الواقع ، في القرآن الكريم ، عندما يقص علينا ، من اخبار الامم الماضية ، والحضارات الغابرة ، وكيف ان الله سبحانه ، قد اهلكهم بذنوبهم — لما ظلموا — وقضى عليهم بصيحة واحدة ، والصيحة في القرآن ، معناها الصوت الكبير الهائل ، الذي يوجهه الله ، نحو القوم الظالمين ، فيصفيهم في الحال !.

والقران يحدثنا عن ثمود قوم صالح وكيف تم القضاء عليهم ، بفعل الصيحة : « .. واخذ الذين ظلموا (الصيحة) ، فاصبحوا في دارهم ، جاثمين — اي ميتين — كأن لم يغنوا فيها ، الا ان ثمودا كفروا الا بعدا لثمود .. » (سورة هود اية ٦٧ و ٦٨) .

وفي القوم الذين عاشوا منبعدنوح ، وارسل الله فيهم الرسل ، فكذبوا الرسل ، فحق عليهم العذاب .

يقول القرآن :

« ... فأخذتهم (الصيحة) بالحق ، فجعلناهم غثاء ، فبعدا للقوم

الظالمين » (سورة المؤمنون — ٤١) .

وتتكرر صورة القضاء على ثمود :

« انا ارسلنا عليهم (صيحة) واحدة فكانوا كهشيم المحتظر .. » سورة القمر اية ٣١ .

واخيرا ، في اصحاب الاحزاب الذين تعالوا على الحق ، والعـــدل، يقول القـــرآن :

« وما ينظر هؤلاء الا (صيحة) واحدة ما لها من فواق .. » سورة ص ايــــة ١٥ .

وأيضا في أهل مديـــــن :

« والى مدين اخاهم شعيبا ، فقال يا قوم اعبدوا الله ، وارجوا اليـــوم الاخر ، ولا تعثوا في الارض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم (الرجفـــــة) فأصبحوا في دارهم جاثمين » العنكبوت ٣٦ — ٣٧ .

والسبب في القضاء على هؤلاء القوم ، هو اعتصامهم بقلعـــــة الشيطان ، وابتعادهم عن رحاب الله الواسعة .. فكان الاجرام والفســاد يتفشى فيهم ، كما يتفشى الوباء في الماشية .. وهكذا اخذهم الله بذنوبهم ، فتبا لهم وسحقا ..

ويتابع القرآن رحلته الاخبارية عن القرى المحطمة :

« .. (فكلا اخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) ريحا عاصفا فيها حصباء كقوم لوط (ومنهم من اخذته الصيحة) كثمود ومدين (ومنهم

من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من اغرقنا) كقوم نوح ، وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمـــــون .. » العنكبوت ايـــة ٤٠ .

والان ، وبعد ان امضينا هذه الجولة ، السريعة ، مع مواكب الصيحة، وجحافل الاصوات واثرها العكسي على الانسان .. نرجع الى اصــــل الموضوع ، وهو بحثنا حول الصيحة يوم القيامة .

يقول القرآن :

(واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون (الصيحة) ، بالحق ، ذلك يوم الخروج ، انا نحن نحي ونميت والينا المصير يوم تشقــق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير » سورة ق ٤٠ — ٤٤ .

ويقول ايضـــــا :

« ان كانت الا (صيحة) واحدة فاذا هم خامدون .. » يس ٢٩ .

وايضا : « ان كانت الا (صيحة) واحدة فاذا هم جميع لدينــــا محضرون » يس ٥٣ .

« ما ينظرون (الا صيحة) واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فـــلا يستطيعون توصية ، ولا الى اهلهم يرجعون » يس ٤٩ .

ثم تتلاحق الصور امامنا ، حتى نرى الصورة التالية :

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة .. وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة .. وانشقت السماء فهي يومئذ واهية»

(الحاقة ــ ١٣ ــ ١٦) .

« ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون » يس ــ ٥١ .

وهكذا يصل بنا القرآن ، الى العلامة الاخيرة ، من علامات الساعة، وهي نفخة الصور ، وقيام القيامة .

والمشاهد التي يرويها القران للقيامة ، رهيبة يتثلج لها الدم في العروق .. فالشمس تخسف ، والقمر يكسف ، والجبال تنسف ،والنجوم تنكدر ، والبحار تنفجر ، والارض تتزلزل ، وكل الاحياء ، في الارض والسماوات تصعق الا من شاء الله ان يحفظه ، ليشهد هذا اليوم !.

يحدث هذا مع النفحة الاولى .. ومع النفخة الثانية ، يبعث الكل ويبدأ الحساب .

« ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض ، الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون .. » الزمر ــ ٦٨ .

والجدير بالملاحظة ، هو ان القرآن الكريم ، حين يتحدث عن القيامة، واهوالها ، يستعمل ــ في حديثه ــ كلمات ذات جرس ، ورنين .. بحيث تأتي الكلمة ولها دوي يقرع القلوب ، ويدق الاسماع ، وذلك مثل كلمة : الصاخة .. والازفة .. والقارعة ، انها كلمات مدببة جارحة لها صلصلة، وجنجلة ، تكاد تخرق طبلة الاذن ، حتى يخيل اليك ، وكأنك وسط طوفان من جلجلة الحرب ، وفرقعة الخيل ، وصرير السيوف والحديد ، والرماح... وهذا كله من اجل هز الضمائر الميتة ، وايقاض النفوس الخاملة التي غطست ، في حمأة الشيطان .. فنسيت القيامة ، ونسيت حساب الله العادل .!..

ولا يتركنا القرآن هكذا .. وانما يعرض علينا ، بعض المشاهد الرهيبة ، لذلك اليوم الذي تشخص فيه الابصار :

« اذا السماء انفطرت ، (اي انشقت) واذا الكواكب انتثرت . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت .. » (الانفطار — من ١ الى ٤) .

وفي سورة التكوير :

« اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت . واذا البحار سجرت (اي فجرت نارا) » (التكوير — من ١ الى ٦) .

المواطن الثلاثة :

وفي حديث الامام الرضا — عليه السلام — :

« اوحش ما يكون هذا الخلق ، في ثلاثة مواطن :

يوم يولد ، ويخرج من بطن أمه ، فيرى الدنيا ، ويوم يموت فيعاين الاخرة ، ويوم يبعث فيرى احكاما لم يرها في دار الدنيا .. » وذلك لان موازين الحياة ، تختلف عن موازين الاخرة ، اختلافا جذريا .

ويقول الامام علي بن الحسين زين العابدين — عليه السلام — : «ثلاث ساعات من أصعب الساعات على ابن ادم . الساعة التي يعاين فيها ملك الموت والساعة التي يقوم فيها من قبره ، والساعة التي يقف فيها بين يدي الله عز وجل ، فأما الى الجنة ، واما الى النار .. » .

والانسان يلبس اربعة اثواب ، خلال حياته الطويلة ، عبر الدنيا ، والاخرة ، ثوب التراب ، وثوب النطفة ، وثوب الرحم ، وثوب الدنيا ، وثوب الاخرة .. فهو يتنقل عبر هذه المحطات الاربعة .. وبالتالي يستقر به المقام في المحطة الاخيرة — وهي محطة القيامة ، ومحطة ما بعد الموت .!.

على ان الشيء الذي يستأهل الاهتمام ، ويستقطب الانتباه ، هو : ان لكل مرحلة ، من تلك المراحل الاربعة ، قوانينا ، وموازينا خاصة بها دون البقية .. فمثلا ، حين يكون الانسان ، في ثوب التراب .. اي انه في عالم الذر فانه يتحرك وفق موازين ذرية معينة .. لا تنطبق ، على موازين النطفة ، وكذلك ، عندما يتحول الانسان من التراب ، الى ثوب النطفة (مادة البروتيلازم) فانه يعيش حسب قوانين مقصورة على النطفة ، ولا علاقة لها بقوانين الرحم .. وهو يوم يستقر في رحم الام ، فانه يقابل سننا وانظمة تختلف بالشكل ، والتفصيل عن سنن التراب ، والنطفة .. ونفس الشيء يقال ، بالنسبة لدار الدنيا ، فهو (اي الانسان) عندما ينزل — طفلا — الى الحياة ، يجد قوانينا غير التي كان يعيشها في ظلمات الرحم ... وهنا تجدر الاشارة الى نقطة بالغة الاهمية ، وهي : ان الطفل عندما يحصل على الغذاء الكامل في بطن امه ، من دون ان يتعرض لازمات حادة ، بسبب الخوف ، او القلق الذي يسيطر على الام ، في بعض الحالات، ودون ان تتناول الام — خلال فترة الحمل — بعض العقاقير ، والحبوب .. لان ذلك يؤثر على سلامة الطفل .. وربما تناولت المراة الحامل ، حبة واحدة من (الاسبرو) فجلبت العمى والشلل للجنين في بطنها .. اقول : اذا حصل الطفل — في بطن امه — على كل مقومات الحياة ، من الغذاء الكامل والهدوء من جانب الام .. فانه يولد طفلا ، سليما ، جميلا، هندامه رشيق ، وعيناه ساحرتان وكل شيء فيه تام وكامل ، فهو مخلوق في احسن تقويم .. اذا كان كذلك .. فانه سوف يعيش ، حياة مليئة بالسعادة والراحة ، لمدة سبعين عام مثلا ... ولكن اذا لم يحصل الجنين على الغذاء الكامل ، في بطن امه ، اضافة الى انه قد تعرض لصدمات وازمات حادة ، فانه يولد مشلولا ، أو مصابا بالعمى ، او تولد معه عاهة

مستديمة ، بسبب انعدام الغذاء الكامل ، والهدوء النفسي .. اقول : اذا حصل ذلك .. فان الطفل يظل يعاني المرارتين من الحياة ، فحياته جحيم لا يطاق ! .

اذن : فمرحلة الرحم ، تحدد نوع الحياة في ، الدنيا ، وتقرر السعادة ، او الشقاوة للانسان .. ولعل الحديث الوارد عن الرسول الاعظم — صلى الله عليه واله — والذي يقول فيه : « السعيد من سعد في بطن امه ، والشقي من شقي في بطنها » .. لعل هذا الحديث يشير الى السعادة، والشقاء ، المادي ، الجسدي ، الذي يصاحب الطفل يوم ولادته ...

وما ينطبق على عالم الارحام ، ينطبق على عالم الدنيا .. فكما ان السعادة في الرحم (اي الحصول الكامل على الغذاء) تقرر السعادة في الحياة .. فكذلك السعادة في الدنيا (اي الحصول على الايمان الكامل) تقرر السعادة في الاخرة .. « فالذي يعيش في غطاء عن ذكر الله ، يحشر يوم القيامة اعمى .. » .

« ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى ،واضل سبيلا » الاسراء ايـة ٧٢ .

ويقول ايضا :

« ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة اعمى .. قال رب لم حشرتني اعمى ، وقد كنت بصيرا .. قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . » طه — ١٢٤ — ١٢٦ .

« وفي التفسير : انه ينسى في نار جهنم » .

اذن : فهذه مواطن ثلاثة ، يمر بها الانسان ، وهي من اوحش

المواطن .. ولذلك ورد في القرآن الكريم قوله :

« والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا » مريم (٣٣) .

الحساب العادل :

ويفتح القرآن الكريم ، مشهدا اخرا ، من مشاهد يوم القيامة ، الا وهو مشهد الحساب العادل ، في ساحة المحشر .

« ونفخ في الصور ، فصعق من في السموات ومن في الارض . الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون .. واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون .. ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون .. وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم ، يتلون عليكم ايات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .. قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ... وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها . وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ، واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين .. وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » الزمر ٦٨–٧٥ .

هيئــة الحساب :

من خلال الايات القرآنية التي تتحدث عن القيامة .. ومن خــــلال الاحاديث الشريفة ، يلوح لنا ، ان يوم القيامة هو اخر نقطة ، في طريق التكامل .. حيث تصل فيه الاشياء الى قمة الكمال .. بحيث الارضــــ تتحدث ، والجلود تشهد على اصحابها .. والبصر يصبح بقوة الحديـــد، وايضا قوة العقل عند الانسان ، تصل الى اقصى درجاتها !

أ ــ حديث الارض :

« اذا زلزلت الارض زلزالها .. واخرجت الارض اثقالهــــــا (اي اخرجت ما على ظهرها ، وما في بطنها من كائنات ، حية ، وغير حية) وقال الانسان ما لها .. يومئذ تحدث اخبارها ، بأن ربك اوحى لها .. يومئذ، يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومــن يعمل مثقال ذرة شرا يره .. » سورة الزلزال .

ونحن هنا ، امام أرض تتحدث ، بصوت يسمعه ، الجميع ، وتخبــر بدقة ، عن كل ما ارتكبه الانسان فوق سطحها من اعمال حسنة وسيئة !!.. ولا تفسير لذلك ، الا ان تكون الارض ، قد وصلت درجة ، من التكامل ، بحيث لم يعد يعجزها التحدث بطلاقة يفهمها الكل .

وكما في الارض المتحدثة ، كذلك في الجلود ، الشاهدة ، فيـــــوم القيامة ، لا حاجة لاحضار الشهود ، لان كل ذرة ، وكل خلية ، في الجسم، تشهد بما رات من جرائم خلال الحياة ! وفي هذا الصدد يقول القرآن :

« ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم ، وابصارهم ، وجلودهم بما كانوا يعملون .. وقالــوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شـــيء . ! . »

سورة فصلت اية ١٩ ــ ٢١ .

وهذه المرة ، يصرح القرآن ، بأن الجلود ، لم تكن وحدها في ساحة الشهادة ، وانما تشاركها بقية الاعضاء ، مثل السمع ، والبصر والالسن والايدي ، والارجل .

« يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم ، وارجلهم بما كانوا يعملون » النور آية ٢٤ ــ « اليوم نختم على افواههم ، وتكلمنا ايديهم ، وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون » ــ سورة يس ٦٥ .

وقد ثبت بالعلم الحديث ، ان الانسان ، يستطيع ان يعرف الحقيقة ، من خلال نظرة واحدة ، يلقيها على الشيء .. وذلك لان العين تبعث امواجا نفسية ، مؤثرة ، وبفعلها يتمكن المرء من معرفة الاشياء الغامضة .. واذا لم تصل العين ، في الدنيا الى هذا المستوى من الرقي ، فانها بالتاكيد سوف تبلغه يوم القيامة !.

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد .. لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » سورة ق آية ٢١ ــ ٢٢ .

وحتى يصل الواحد منا ، الى مستوى رفيع في الحساب والرياضيات ، فانه يحتاج الى وقت من الدراسة ، والبحث العلمي .. بينما في الحياة الاخرة ، يرتفع الى درجة من الفهم للحساب ، بحيث يقال له : « .. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .. » .

ويقول الحق سبحانه :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه

من حبل الوريد .. اذ يتلقى ، المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد .. ما يلفظ من قول ، الا لديه رقيب عتيد » سورة ق آية ١٦ — ١٨ .

ويقــول ايضا :

« وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » الانفطـــار آية ١٠ — ١٢ .

فالاسلام اكد ، بأن الاعمال باقية ، ولا يعتريها الفنـــاء .. وبقطـــع النظر ، عن الايمان بوجود الملائكة الحافظـــين ، الذين يكتبون ما يفلعـــه الانسان — كما هو الواقع — الا ان العلم الحديث اثبت — بشكل قاطع — ان الصوت والصورة يظلان على قيد البقاء ، ولا يزولان من الفضاء ابدا .

والارقام العلمية تقول : ان الصورة التي تنطلق من الجسم ، تظل ترتحل فيالفضاء ، الى ملايين السنين ، دون ان تتعرض للزوال ، والتلاشي .. والجدير بالذكر ، ان جسم الانسان — كما هو الحال في سائر الاجسام المادية — تصدر منه امواج حرارية ، كل موجة تحمل ملفا ضخما من الصور ، التي بدورها ، تنتشر في الفضاء ، كانتشار الهواء في الجو .. على ان هذه الصور تبقى حية ، لا تموت بالمرة .. والذي يدل على صحة هذه النظرية ، هو ان العلماء توصلوا — مؤخرا — الى اختراع جهاز للتصوير ، يشبـــه الكاميرا لكنه اكثر دقة من الكاميرا ، بحيث يستطيع هذا الجهاز ان يلتقط الصورة من الجو ، بعد مرور ايام على وقوعها ونفس الشيء بالنسبـــة للصوت !وفي الفيزياء : ان المادة ، والطاقة لا تنعدمان مطلقا ، وانما همـــا باقيتان في الكون الى ما شاء الله .

اذن : فالعلم الحديث ، يؤكد ان الصور ، والاصوات لا تموت في الجو ، وانما تبقى قابعة في احضان الطبيعة ، تنتظر ساعة الانطلاق والولادة ، حيث

تتجمع هذه الصور ، وتلكم الاصوات ، فتؤلف كتابا ينطق بالحق ، امـــام محكمة العدل الالهي ، في ساحة المحشر ، يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ، ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم !..

يقول الحق : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » .

وكم تكون المفاجأة قاسية ، حين يتحدث الكتـــاب ، حتى عن دقائق الامور ، في حياة الانسان ..! وهنالك يتعجب المرء ، ويقول « .. مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها » .

وهنالك ــ ايضا ــ يكون الندم بحجم الدنيا ، حيث لا يفيد الندم !..

ولكي لا تفوتنا الفرصة ، علينا ان نسارع الـــى الاعمال الصالحة ، البناءة ، الهادفة .. حتى ننال جنة عرضها كعرض السماء ، والارض اعدت للمتقين العاملين .

يقول الله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء ، والارض » سورة الحديد آية ٢١ .

دقة الحساب :

يقول القرآن : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة ، يضاعفها، ويؤت من لدنه اجرا عظيما » النساء ــ ٤٠ .

وايضا يقـــول :

« ونضع الموازين القسط ، ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئـــا ، وان كان مثقال حبة من خردل ، اتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » سورة الانبياء

آيـــة ٤٧ .

وحدة الحساب التكويني .. هي نفسها في الحساب ، التشريعـــي ، وكما ان مثقال الذرة ، له مكان في الحساب التكويني .. كذلك مثقال الذرة له مكان في الحساب التشريعي .. ففي مجال التكوين ، نجد حركـــة الذرة خاضعة للحساب الدقيق .. بحيث ان الالكترون لا يدور حول النواة ، الا بعد ان يأخذ حزمة من الطاقة تعادل سرعة انتقاله من مدار ، الى مدار في منعطفات الذرة ! .

وفي الطب .. وزن الميكروب اقل من مثقال ذرة .. ولخطورة الموضوع، يكفي ان تعرف بأن مثقال ذرة من ميكروب الملاريا ، يكفي لقتل العشرات مـــن النـــاس !.

وحتى نعرف ، وندرك بعمق ، ان الخطر الذي يشكله مثقال الذرة في المجال التكويني ، هو نفس الخطر الذي يشكله مثقال الذرة ، في المجـــال التشريعي .. فقد كان لا بد للقرآن الكريم ، ان يصرح بذلك في آياته المباركة، وبالفعل فقد صرح القران في قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (سورة الزلزلة آية ٧ ــ ٨) .

وفي مكان اخر يقول :

« .. ان الله لا يظلم مثقال ذرة .. » النساء ــ ٤٠ .

وايضا في مكان ثالث يقول :

« .. وان كان مثقال حبة من خردل ، اتينا بها وكفى بنا حاسبين .. »

الانبياء ــ ٤٧ .

ويتكرر التأكيد في مكان رابع ، ولكن هذه المرة بصورة اشد :

« يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة، او في السموات او في الارض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير .. » لقمان — ١٦ .

اذن : فنحن هنا ، امام وحدة حسابية تنطبق على المجال التكويني ، بمقدار ما تنطبق على المجال التشريعي !.. وذلك لان الله سبحانه ، الذي وضع السنن الكونية في الطبيعة ، هو نفسه الذي وضع السنن التشريعية في القرآن .. فالقانون الالهي واحد ، في الكون ، وفي الحياة .. على ان النظام الواحد ، الذي يلف الكون ، يدل على الخالق الواحد .. وحتى يعيش الانسان في انسجام ودي ، مع القوانين التكوينية ، فقد ارسل الله اليه قوانينا تشريعية ، تسير على خطة واحدة مع السنن الكونية !.

وتكفي لاستيعاب ذلك .. مراجعة سريعة لايات القرآن الحكيم .. فما ان يبدأ الواحد منا ، في القراءة ، حتى تطالعه الصور العلمية ، التي تشد الحساب التكويني ، والحساب التشريعي ، برباط الحكمة الالهية الواحدة .

ومن باب المثال : فان القرآن يعرض علينا ، لوحة رائعة ، تؤكد هذه الحقيقة ، وذلك من خلال الايات التالية :

« الرحمن .. علم القرآن .. خلق الانسان .. علمه البيان الشمس والقمر بحسبان (اي يجريان بحساب مضبوط لا تفاوت فيه) .. والنجم والشجر يسجدان .. والسماء رفعها ووضع الميزان .. الا تطغوا في الميزان .. واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان .. » الرحمن ١ — ٩ .

على ان الشيء الملفت للنظر ، الذي يشد القلوب ، ويستحق التأمل والوقوف ، هو : الربط الوثيق ، بين الميزان التكويني ، والميزان التشريعي !

فهذه القطعة القرآنية الرائعة ، كلها تدور في فلك الحساب ، ودقة الحساب ، في الشمس والقمر ، والنجم . (اي النبات البري ، الذي نجم من الارض ، اي طلع بلا ساق) والشجر يسجدان ، وهكذا يستمر العرض القـرآني ، حتى يصل الى الميزان الذي قامت على كفتيه السموات ،والارض ..والميزان هنا .. يعني ميزان العدل ، والحساب الدقيق ، في المعادلات الرياضية التي يجري عليها ، نهر النجوم ، والمجرات ، حيث يقول الحق : والسماء رفعها ووضع الميزان ..

على ان الاهمية تكمن في ان الله سبحانه ، يقول مباشرة بعد هذه الاية ، وبلا فاصلة : (ألا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميـــزان) .

والنتيجة التي نطلع بها من كل ما تقدم هي :
أن القرآن جعل الميزان التكويني ، والميزان التشريعي ، في طبق واحد .. حتى كأن الدقة الحسابية في الميزان التكويني الذي يسير الكون ، هي نفسها موجودة في الميزان التشريعي الذي يسير الحياة !.

وفي البداية : حركة الحساب لم تكن تتعدى اصابع اليد الواحدة ، لان ثقافة الانسان ، كانت محدودة جدا ، في العصور الحجرية ، وما بعدها ، بحيث عجز ان يكون في مستوى ثقافة الغراب !. « قال اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب !.. » ..

اما اليوم ، فقد وصلت قدرة الانسان على الحساب ، الى درجة انـه اخترع عقولا الكترونية عملاقة ، يستطيـع الواحد منها ، ان يحل ملايين المسائل الرياضية ، في اقل من الدقيقة الواحدة .. الامر الذي جعل رواد الفضاء في السفينة (ابولو ١٧) يقدمون اوراق اعتذارهم لبرج المراقبة في الارض ، بسبب تأخرهم ثلاثين ثانية عن الموعد المقرر لهبوطهم على سطح

القمـــر !.

٣٠ ثانية ؟ يا للفجيعة !؟.

اجل .. ثلاثون ثانية ، لها قيمة ، ولها ثمن ومكان ، في سجل حساب الغرب والشرق ، (اما نحن المسلمين ، فنهدر الساعات الطوال ، والايام والاعمار ، في ملاعب كرة القدم ، وعلى اعتاب الملاهي والليالي الحمراء ، في مسارح الرقص الخليع .. وبعد ذلك نصفر في ايدينا ، ونقول : ماذا قدم لنا الاسلام !؟) .

فاذا كانت حفنة من الثواني ، لها حساب دقيق في العالم .. فما بالكم بحساب الله العزيز العليم ؟!..

« سألوا النبي الاعظم — صلى الله عليه وآله وسلم — : ما اطـــول هذا اليوم ، يا رسول الله ؟. فقال : والذي نفس محمد بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون اخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا ! » .

وفي الاخبار : يحاسب الخلائق كلهم بمقدار لمحة البصر !.. وهذه الرواية في مجمع البيان .

ويستدل الامام علي — عليه السلام — على ذلك : بأن الله سبحانه ، لا يشغله شأن عن شأن ، فاذا حاسب واحدا ، فهو في تلك اللحظة محاسب للكل وانما يتم حساب الكل ، بحساب الواحد وهو قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة .. وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كـــن فيكـــــون » .

وهناك روايات تقول : ان الله يحاسب المؤمنين بالملاطفة والرفق .. اما المشركون ، والكافرون فلا يحاسبهم الله ، ولا ينظر اليهم .. وانما يوكلهم

الى الملائكة يحاسبونهم !.

والتاريخ ينقل الينا ، ان الرسول الاعظم ذات مرة ، كان يخطب فوق المنبر ، ويلقي موعظة للمؤمنين ، واذ كان يذكرهم بأهوال القيامة وشدة الحساب ، والفزع يوم المحشر ، قام اليه اعرابي ، وسأله :

ــ : يا رسول الله ، اخبرنا هل الله سبحانه هو الذي يحاسبنا بنفسه .. ام ان الملائكة هم الذين يحاسبوننا ؟!.

فقال له النبي :

ــ : لا .. بل الله هو الذي يحاسبنا بنفسه . فلمعت عين الاعرابي بالفرح ، وهتف من اعماقه قائلا :

ــ : اذن : نجونا ورب الكعبة ، لان الكريم اذا ملك صفح . وهنا القى النبي نظرة حانية عميقة ، ملئها الصدق ، والرحمة ، على الاعرابي ثم قال : لقد فقه الرجل !. اي هذا الاعرابي لم يكن فردا عاديا ، حين قال كلمته الرائعة هذه ،وانما صار في مصاف الفقهاء ، وفي عداد العلماء الذين يفقهون معنى قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » الزمر ــ ٥٣ .

وحتى لا يشط بنا الخيال ، فنسرح مع الذنب في حظيرة الشيطان ، اعتمادا على المغفرة .. تعالوا نسمع الاحاديث الشريفة التالية :

جاء في تفسير قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .. » عن النبي الاعظم انه قال : ان الاب يطلب من ابنه حسنة

واحدة ليضيفها الى حسناته كي يدخل الجنة .. فيقول الوالد : لا والله يا أب ، اني اخاف مما خفته انت .. وكذلك الام تقول لولدها : بني ان ذنوبي قد اثقلتني ، فيقول : اليك عني فاني مشغول بنفسي فترجع عنه باكية ، وذلك تفسر الاية : « فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتسائلون » .

انه يوم الحسرة ، اليس كذلك ؟.

اجـــل .

يقول الامام علي : ان اشد الناس حسرة يوم القيامة ، من راى ماله في ميزان غيره ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : تعب وجمع ، ولكنه لم يقدم شيئا من اجل الله !. اي لم يذكر اليتيم ، ولا الضعيف ولا المحروم ، فالاموال له ، ولكنها ادخلت غيره الجنة ، حيث جاء الثاني ، فانفقها في سبيل الله ، بينما الاول لم ينفق منها شيئا !.

وفي النهاية : حتى نرفض الظالمين ، والمستكبرين ، ولا نركن اليهم .. وايضا ، فلكي نحضر دائما عند المظلومين ، والمستضعفين ، ونكون ابدا في صف المحرومين ، والمعذبين في الارض ، فلا بد لنا ، ان نفتح قلوبنا على هذا المشهد القراني الثائر التالي : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء .. وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل او لم تكونـــوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال ، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال .. وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام ، يوم تبدل الارض غير الارض ، والسموات وبرزوا لله الواحد القهار .. وترى المجرمـــين يومئذ مقرنين في الاصفاد

سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب ، هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولوا الالباب » — سورة ابراهيم آية من ٤٢ الى ٥٢ .

الفصل العاشر

الاسلام: دين العصر



القسم الأول

الحاجة إلى الدين

الانسان : ذو البعدين :

« كل مولود يولد على الفطرة ... » .

يولد الانسان حاملا بعدين اثنين .. هما : البعد الطبيعي ، والبعد الفطري .. فالاول معناه ان الانسان ابن الطبيعة ، اي انه يتحرك وفقا لقوانين الطبيعة ، في هذا المجال طبعا .. في حين ان البعد الثاني معناه : ان الانسان ركب تركيبا بحيث لا يستطيع معه ، الا ان يؤمن بشيء ما .. اي انه جائع فطريا الى العقيدة الدينية .. حتى انه اذا لم يؤمن بالله عز وجل ، فسوف يؤمن ـ حتما ـ بالخرافات ، والاساطير .

ولكي تبدو الصورة اكثر وضوحا ، لا بد من شرح البعدين ، بشيء من التفصيل الذي يعطي البحث حجمه الحقيقي .

البعد الطبيعي ، ماذا يعني ؟

البعد الطبيعي ، يعني ان الجانب المادي ، في الانسان ، يسير ، بنفس القوانين التي تسير عليها الطبيعة ، اخذا من ولادة النطفة في الرحيم ، وانتهاء بموت الانسان نفسه .. ففي داخل الرحم يتخلق الجنين ، ويقطع مراحله ، في بطن امه ، حسب السنن الطبيعة المزروعة في قلب الكون !.

والقرآن الكريم ، اعطانا صورة رائعة ، للجنين في بطن امه ، وهو يتنقل من مرحلة الى مرحلة ، ومن قانون الى اخر .. وذلك من خلال الاية المباركة التالية :

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة .. فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا ، العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا اخر فتبارك الله ، احسن الخالقين » سورة المؤمنون — ١٢ — ١٤ .

اذن : فالانسان خاضع لناموس الله الطبيعي .. فانعقاد النطفة — مثلا — يتم وفق قانون الطبيعة .. وبقاءها في الرحم ، يتم على نفس القانون . « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق .. » قرآن كريم .

وهكذا تكون فترة الحمل ، وما يلازمها من اشياء معينة .. والولادة وما يرافقها من امور ، ومضاعفات .. والرضاعة وما يصاحبها من تغيرات فسلجية تطرأ على جسم الام .. هذه كلها انما تجري وفقا لقوانين طبيعية محضة ، ليس للانسان علاقة بها ، بالمرة !.. فهو يأكل .. ويشرب .. ويتنفس . .وينام .. ويحس .. ويتألم حسب السنن الكونية التي لا يعرف عنها اي شيء ، بالاضافة الى انه ، اي الانسان ، ليس له دخل بادارتها !.. شأنه في ذلك شأن الوجود كله .

اذن : فمن المستحيل ، ان يتحرر الانسان من البعد الطبيعي ، على الاطلاق ، وذلك لسبب بسيط ، وهو : ان التحرر من هذا البعد يعني انعدام البشر بالكامل !.. والا فكيف يمكن التصور ان الجنين في بطن امه — فرضا — لا يمشي على المعادلات الرياضية الدقيقة ، التي تنظم التفاعلات الكيماوية ، وترسم الخطط الفسلجية ، في طريق السير التكاملي لادوار الجنين ؟!.

وايضا ، كيف يمكن التصور ان الاجهزة داخل البدن ، خارجة على القانون ، وتعمل بوحي الانسان وارادته ؟!.

انه يكون مجرد هراء سخيف .

فالواحد منا ، حين يتربع على المائدة ، ويبدأ بأكل الطعام .. لا يدري بالضبط ، كيف تتم عملية الهضم . فيتحول الطعام الى طاقة .. وايضا فهو لا يدري ، كيف يتم توزيع تلك الطاقة على خلايا الجسم كافة ، من خلال الاجهزة البدنية العملاقة .. وكذلك حين ينام الانسان ، لا يعرف كيف تستمر تلك الاجهزة في نشاطها ، وعملها الهادف .

وهل هناك من يوصي قلبه ، بالعمل ، خلال النوم ؟!. وهل هناك من يطيب له ان يوصي الكبد ، والمعدة ، بجودة العمل في غضون النوم ؟!.

ابدا .. ابدا ..

مجرد ان يضع الواحد منا ، راسه على الوسادة ، يسقط في قاع النوم العميق !.. وهو بعد ذلك ، لا يشعر بحركة دولاب الجسم ، ما دام نائما بالمرة .. حتى اذا استيقظ واحس بالحركة البدنية ، دون ان يكون له علم كامل ، بالطريقة التي تتيح للاجهزة ان تمارس نشاطها الفسلجي ، على احسن ما يرام !.

ولا تفسير لهذا ، الا ان نؤمن بأن الجانب المادي الجسدي ، في الانسان، يجري في ظلال البعد الطبيعي .. اي ان القوانين التي تسير الطبيعة ، وتحكم الكون ، هي نفسها التي تسير البشر ، وتحكمه في هذا المجال طبعا !.

كان هذا بالنسبة للبعد الطبيعي .. اما بالنسبة للبعد الفطري .. فانه يعني انْ البشر قد ركب تركيبا فطريا ، يشعر معه بجوع حاد عميق ، الى الاعتقاد ، بشيء ما .. ولهذا فالانسان ، اذا لم يعتقد بالله عز وجل ، فانه سوف يعتقد بالاصنام ، والاشباح وشؤم الايام ، ونحوسة الارقام ! من قبيل نحاسة الرقم (١٣) وما شابه ذلك .

ولتقريب الفكرة ، لا بد من ذكر النقاط التالية :

١ — ليس في امكان الانسان ، ان يعيش دون عقيدة ، وبلا دين ، وذلك لان فكر الانسان ، يشبه الى حد بعيد ، الكرة التي يستحيل افراغها من الهواء ، والا سيؤدي بها ذلك الى التحطم الكامل .. وكذلك فكر الانسان ، فانه يحتاج الى غذاء .. والعقيدة هي الغذاء المفضل للمفكر .. وبالتالي : فانه ما من انسان يستطيع ان يكون غير مؤمن ، فقد ركب الانسان من الناحية النفسية ، بحيث اصبح ، مضطرا ، الى الايمان بالله ، او بغيره .. لان الايمان الايجابي اذا مات في النفس ، فان الايمان السلبي يحل محله .. تماما كالطفل الذي يلتهم التراب في غياب الحليب !.

٢ — اثبت علم الحفريات ، والاثار ، بالقطع ، انه ما من مدينة ، ولا قرية اثرية ، تم اكتشافها لحد الان الا ، ووجدوا فيها معبدا للصلاة ، او تمثالا يلجئون اليه عند الحاجة !.. وهذا يعني — بالضرورة — استحالة ان يعيش الانسان بلا دين ، وبلا عقيدة ، وذلك لان الدين ، في اعتباره اشباع حاجة سيكولوجيه فطرية ، تابعة في اعماق النفس البشرية ! « وان من قرية الا خلا فيها نذير » قرآن كريم .

٣ — لقد اثبتت التجارب العلمية ، ان اعمق غريزة في الانسان ، هي الغريزة الدينية .. انه يحن — ابدا — الى الدين .. والفطرة في اعماقه تلح عليه ، حتى لم يعد في امكانه ، ان يقاومها .. وهنا يكون الانسان مضطرا ، الى اعتناق دين ما .. ليشعر ، بالهدوء ، والطمأنينة .. يدل على ذلك وضع الانسان السيكولوجي في الارض . فقد اكدت ، البحوث العلمية بالارقام .. انه لا يوجد انسان واحد ، على سطح الارض ، يستطيع ان يتحرر من قبضة الفطرة ، والميل نحو الدين .

فالكل يعتقد بالدين ، مع فارق واحد هو تلون الدين ، واختلاف العقيدة ... ففي الوقت الذي يوجد فيه ملايين من الناس المؤمنين بالله عز وجل ، نجد في المقابل ملايين من الناس الاخرين الذين يؤمنون بالاصنام والخرافات البغيضة .. فالبعض يعبد — من دون الله — الشمس ، والقمر ، والبعض

الاخر يعبد السحاب والمطر ، واخرون يعبدون البقرة ، ويسجدون امـام موضع المراة .. وايضا في الوقت ذاته نجد الكثير ممن يعبد الشيطان ، ويركع للنار ، هذا بالاضافة الى الذين عبدوا المـال ، والسلطان ، ونسوا الله فانساهم انفسهم !.

والنتيجة واحدة ، لابد ـ في النهاية ـ للانسان ، من دين يعتقده ، مع ملاحظة : ان الدين مرة يكون صحيحا منزلا من قبل الله تعالى ، ومرة يكون من عمل الشيطان ، ليس اكثر .

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على ان البشرية ، تحتاج الـى الدين ، كما تحتاج الى النور والهواء .. وايضا يدل ـ في الوقت ذاته ـ على ان الغريزة الدينية ، مزروعة في فطرة البشر كما يقول الرسول الاعظم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

« كل مولود يولد على الفطر ... » .

٤ ـ نظرة خاطفة ، نلقيها على الوضع ، الديني في العالم ، تكفـي للكشف عن حقيقة ان الانسان اسير الفطرة والدين !.

ومن باب المثال : في اكثر ولايات الهنـد .. البقرة مقدسة ، وتتمتع بحصانة دبلوماسية ، لان الهندوس ـ وهم يشكلون نسبة كبيـرة مـن السكان ـ يحرمون ذبح البقرة ، واكل لحمها خصوصا عند المتطرفين منهم .. فليس هناك من يجرؤ ان يمسها بسوء !..

والمنظر المألوف ، في الهند ، هو ان يقف الشباب الهندوس ، عندما تمر البقرة في الشارع ، فيحنون رؤوسهم اجلالا لها ، ثم يتبركون ببولها !.

المجاعــة

ذات مرة ، حدثت مجاعة في الهند ، حــــدت بالحكومة ان تستعين بالمساعدات الخارجية .. على الرغم من وجود ما يقارب الـ ١٥ مليون بقرة مقدسة (بنظر الهندوس) !..

ويوم وصلت المعونات الخارجية ، الى الموانىء الهندية ، حدثت هناك مفاجأة تستوقف العقول وتأخذ بالالباب !. وهــي عندمـــا ارادت الحكومة الهندية ان توزع الطعام على الجيــــاع .. خرج الملايين من الناس ، في مظاهرات ضخمة ، مطالبين بتقديم الطعام الى البقرة اولا .. باعتبارهــا (الاها مقدسا) !.. اي الاله يأكل قبلنا ثم نحن نأكل بعده !.

يا للهول !.. واذا اكلت الالهة الشرهة (البقر) .. فهل يبقــى من الطعام شيء ؟. ان هذا العدد الهائل ، من البقر سوف يلتهم كل المساعدات، في وجبة واحدة .. فماذا تأكلون ؟.. لا شيء ! نريد ان نموت جوعا ، من اجل حياة البقرة المقدسة (...) !.. وكادت ان تنزل كارثة بالناس لولا الحكمة التي تصرفت بها الحكومة حينذاك .

واطرافـما يروي ، في هذا المجال، القصة التي ذكرتها الصحف في وقتها، عن الزعيم الوثني جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند السابق .. فبالرغم من الشهادات العالية ، والثقافة الواسعة ، التي كان يتمتع بها ، هذا الرجل الوثني ، الا ان درجة العلم هذه ، تحطمت امام جبروت العقيدة ! فقد ذكروا ان جواهر لال نهرو ، كان يتناول قطرات مـــن بول البقرة ، ليرشها على الطعام ، في المناسبات الدينية !.. ولما سأله مراسل احدى الصحف العالمية، عن السبب الذي يدفعه لاستعمال بول البقرة ، في هكذا مناسبات ؟ اجابه :

« انها طقوس دينية ، وليس في الامكان ، التخلي عنها !.. ثم اضاف يقول : عندما اشعر بالمشاكل تضغط على صدري اسرع الى ضريح غاندي ،

فأركع امامه !.. » .

ويبدو واضحا ، من هذه القصة ، كيف فشل العلم ، وعجزت الثقافة ، في اخماد الصرخة الدينية ، المنطلقة من اعماق الانسان .

فالافئدة ، لما فرغت من الايمان بالله ، واليوم الاخر ، امتلأت ايمانا بأمور اخرى ، اختلقتها اختلاقا .. وعندما يمـوت الايمان الايجابي ، فان الايمان السلبي يحل محله . وهكذا لم تستطع الثقافة ان تقضي على وثنية (نهــرو) .

والحقيقة ان الانسان ، حين يدير ظهره لعبادة الله ، فانه في الوقـت ذاته ، يقبل بوجهه على عبادة غير الله ، (انما تعبدون من دون الله اوثانا ، وتخلقون افكا ..) .. وبالمثل : فان الذي يستكبر عن عبادة الله ، تراه يتواضع لعبادة الاشباح ، والخرافات ، والاصنام الامر الذي يدفع الكثير ، الى عبادة الطالع ، من قبيل ان يؤمن بسعادة الرقم (١٧) ، ونحوسة الرقم (١٣) !. ويعادي بعض الايام ، ويصادق بعضها الاخر .. وهكذا حتى يتورط في نفق مظلم من الخرافات ، والاوهام والخزعبلات .. في حين انه كان في مقدوره ، ان ينفض الغبار من قلبه ، ويختار العقيدة الصحيحة ، فيتجه الى الله عز وجل ، ليعيش في رحا بالايمان العظيم .. حتى يشعــر بالنور يغمر نفسه ، والفيض الالهي يتدفق في فطرته فيسكن ، ويرتاح لهذا الدين الاسلامي الحنيف .

وحصيلة البحث ، هي ، ان الانسان له جانبان .. جانب مادي ، يرتبط بقوانين الكون ، وجانب روحي يرتبط بالعقيدة ، والدين ، اي بعلاقــة الانسان بالله سبحانه .. على ان الجانب المادي يمثل القوانين الطبيعيـة في الجسم ، بينما الجانب الفطري ، الروحي يمثل الارادة عند الانسان .. يمثل العودة الى الله في العبادة والنظام ، والحياة ، حتى ينسجم الانسان في فكره ، وعقله ، وروحه ، بقوانين الكون ، ونظام الطبيعة ، وهذا هــو

المعنى الحرفي ، للدين ، اي ان الدين محاولة لاشبـــاع جوع الانسـان في البعد الفطري ، حتى يتساوى مع البعد الطبيعي !.

محكمـــة الضمـــير :

يقف الانسان ، خلال مراحل حياته ، امام خمس محاكم : هي كالتالي :

١ ـ محكمة : الضمير .

٢ ـ محكمه : القضاء .

٣ ـ محكمة : المجتمع .

٤ ـ محكمة التاريـــخ .

٥ ـ محكمة الاخـــرة .

ومن الممكن للانسان ، ان يتخلص من المحاكم الثلاثة الوسطى ، عن طريق الرشوة في القضاء ، والاحتيال على المجتمع ، والتزوير في التاريخ .. ولكنه من المستحيل ان يفلت من قبضة محكمـــــة الضمير ، ودقة محكمة الاخـــرة !..

والتاريخ حافل بالامثلة ، والشواهد والادلة على ذلك .. ولكي تتضح الصورة اكثر .. نأخذ نموذجين من الامثلة :

الاول : ان التاريخ ، لا ينسى المجزرة ، الدموية الرهيبة ، التي دلقها معاوية بن ابي سفيان ، في مصرع حجر بن عدي ، واصحابه ، حين اخـذ

يطاردهم في كل سهل ، وجبل ، امثال عمرو بن الحمق الخزاعي ، ومحمد بن ابي بكر ، واخوانهم الذين تعاقدوا على المنية ، وركبوا طريق الحق ، والشهادة ، وابرد برؤوسهم الى الفجرة !..

وكانت اكثر هذه المجازر ، ايلاما للقلب تلك التي تمت فيها تصفية البطل الثائر الصحابي الجليل حجر بن عدي ، واصحابه ، حيث قتلهم معاوية ، شر قتلة !..

ولكن هل نزلت السكينة على قلب معاوية ، بعد مصرعهم ؟!.
بالطبع .. لا ..

ان معاوية استطاع ان يفلت من محكمة القضاء والمجتمع ، ولكنه لا ، ولم ، ولن يقدر على الخلاص من محكمة الضمير ، التي كانت تصليه نارا .. فقد كان اذا جن عليه الليل يصبح في فزع ، ورعب :

« ليلى منك يا حجر طويل .. » !

اي انه كان يتعذب بنار الضمير . فيفر النوم من عينيه !.

اما المثال الثاني ، فهو ولاية هيروشيما ، التي اكلت القنبلة الذرية صدرها ... لقد اختاروا واحدا ، من كبار الضباط المتفوقين ، في القدرة الجسدية ، والعقلية .. وانتدبوه للقيام بهذه الجريمة المروعة البشعة ، وهي ان يلقي قنبلة ذرية ، على مدينة هيروشيما ، وبالفعل حلق هذا الضابط الخائن بطائرته فوق المدينة ثم القى القنبلة فوق سماء هيروشيما فنزل العذاب والدمار ، على الناس جميعا ، بحيث كانت الاجسام الممزقة ، تتطاير مع الشظايا في الهواء .

وبعد مرور دقائق ، كان هناك قرابة المليون جثة ، بين مشوهة ، وهامدة ، فضلا عن الدمار المادي الذي تركه تفجير القنبلة .

وحين رجــع الضابط الى قاعدته العســكرية .. وجــد الاوسمة ، والدرجات الرفيعة ، في انتظاره هناك .. ليعلقوها علــى صدره ، تقديرا لجهوده الجبارة (...) .

والسؤال هــو :

هل انتهى كل شيء ، عند هذا الحد ؟ او هل استطاعت (الاوسمة) العسكرية الرفيعة ان تقضي على محكمة الضمير ؟!..

ــ : كلا ثم كلا !.

في اليوم التالي ، عندما خرجت الصحف ، تحمل العناوين البارزة ، عن الدمار الفظيع الذي خلفته ، القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما .. بالاضافة الى صور الاطفال والنساء ، المشوهة اجسادهم عندئذ كان الزلزال هائلا ، وعميقا .. وكان صوت الضمير ، يهز ذلك الضابط ، هزا مريرا ، افقــده السيطرة على نفسه ، وعقله .. فكان يحمل الجرائد اليومية ، بيــده ، ويركض في الشارع العام ، يصيح برفيع صوته : انا مجرم .. انا خائن .. انا قاتل انا سفاك .. اقتلوني .. اقتلوني .. انا لا استحق الحيــاة .. ويلي ماذا صنعت .. ماذا عملت ، ما هذه الجريمة البشعة التي اركبتها ؟!.

هكذا يركض في الشارع ، والاطفال ، من خلفه يركضون في هرج ، ومــــرج !..

ولاحقته سيارات الاسعاف ، والنجدة ، بعد ان اصيب بانهيار عصبي حاد ، بسبب سماعه الانباء التي تحدثت عن الدمار الذي حل بالسكان !.

وفي النهاية : ثم نقله الى مستشفى الاعصاب ، حيث العلاج ، بطريق العقاقير الملائمة ، والنوم الاصطناعي .

والشيء الملفت للنظر : ان كل الاوسمة والنياشين والتقديرات ، التي تلقاها من كبار القادة في الجيش .. خارت ــ بالتالي ــ امـام جبـروت الضمير ، وصرخة الوجدان من الداخل !.. وهكذا فلم يتمكن من الخروج ، من نفق المحكمة هذه ، الا بعد ان اصبح جثة هامدة ، قطعت اوصالهـا بالنار والحديد ، نار الضمير .. وحديد الوجدان !

وهذه القصص ، تشكل اقوى الادلة ، على قدرة الدين ، واثـره في السلوك ، والتربية ، وفي توجيه البشرية نحو منابع الخير ، والجمال .

اذن : فالواحد منا ، واقع بين محكمة الضمير ، وبين محكمة الاخرة ، اذ ليس في الامكان الهروب من هاتين المحكمتين .. وفي القـرآن الكريم ، اشارة رائعة الى ذلك :

(.. لا اقسم بيوم القيامة ، ولا اقسم بالنفس اللوامة .. » !.

على ان ذلك ، لا يعني ــ بالضرورة ــ ان الانسان في استطاعته ان يتهرب ، من محكمة القضاء ، والمجتمع والتاريخ .. وعلى فرض انه تمكن من الخلاص ، من عدالة القضاء .. فانه لا يتمكن من الهرب ، من محكمة المجتمع .. وذلك لان الناس ــ عادة ــ يشيرون اليه بأصابع الاتهـام .. وما يقال في المجتمع ، يقال في التاريخ ايضا .. فالظالم يبقى ظالما في التاريخ .. اذ لا بد للاجيال اللاحقة من كشف الحقائق ، ومعرفة الخونة والسفاكين!.

من هنا ، كان الدين ، خير سفينة يبحر بها الانسان الى ضفة السعادة والاستقرار ، بعيدا عن السقوط في تلكم المحاكم المخيفة .

الطعام الروحي

في الاسلام .. اهمية الطعام الروحي ، تفوق اهمية الطعام الجسدي ،

وذلك للاسباب التالية :

اولا : ان الله عز وجل ، كان قد انتدب الانسان ، ليقوم بدور البناء الحضاري في الارض .. فالحيوانات ليس لها دور في الحضارة ، فهي تحمل حضارتها في ملفات الغرائز ، وتسير وفقا لمتطلبات الحياة الغرائزية .. ولهذا لم يكن الحيوان بحاجة الى قوة العقل ، بمقدار ما هو بحاجة الى قـــوة الجسد والعضلات ، في حين ان الامر ، يختلف تماما بالنسبة للانسان ، الذي هو خليفة الله في الارض !.

والسبب ان الانسان مطلوب منه ، القيام بدور الابداع ، والخلق ، في بناء الحضارة ، في حين ان الحيوان لم يكن مطلوبا منه القيام بمثـــل هـــذا الـــــدور .

وفي الحقيقه ، ان الحضارة المادية ، تقدمت تكنولوجيا ، ولـــم تتقدم انسانيا ، بمعنى انها تخطت ملايين الاميـــــال في الساحة العلمية ، للمادة والتكنولوجيا ، ولكنها لم تحقق مثل تلك الخطوات في طريق الانسانية .

ان الحضارة المعاصرة ، استطاعت ان تحل المعادلات الرياضية المعقدة ، في (النظرية النسبية لانشتين) معادلات نيوتـــن في قوانين الجاذبية .. ولكنها عجـــزت وفشلت في حـــل مشلات الانســـــان .. الاقتصاديـــــة .. والاخلاقية ، والسياسية ، والتربوية .

من هنا نعرف ، ان الحضارة ، درست علم المادة اكثر من دراستها لعلم الانسان !..

وهكذا يبدو الفرق واضحـــا .. بين التربيـــة الاسلامية ، والتربيـــة المادية ، وهو : ان الاسلام يربي الطفل على اساس العمق ، فـــي دراسة علم الانسان .. بينما التربية الغربية والشرقية ، تركزان على الجانـــــب

المادي فقط !. ولذلك ، نرى الحضارة المعاصرة .. ابعدت (الام) عن طفلها بحجة الحرية والمساواة ، وبهذا جردت الطفل من اهم حقوقه ، وجعلته يعيش جوعا عاطفيا .. وحرمانا عائليا قاتلا بينما الحضارة الاسلامية ركزت على ان يكون الطفل بجوار امه .. في غضون الحولين الكاملين ، على اقل تقدير .. والاسلام بهذا المنهج الرضاعي .. انما يريد النمو المتامل للطفل ، من الناحيتين البايلوجية الجسدية ، والسايكلوجية النفسية !..

يقول القرآن الكريم :

« والوالدات يرضعن اولادهن حولين ، كاملين .. » والسبب واضح ، فالطفل البعيد عن الام ، يشعر بالجوع العاطفي والحرمان النفسي ، ثم يشعر بالخوف الذي يمزقه من الداخل ، بينما في جوار امه يغرق بالحنان ، والحب ، والاطمئنان ، وهذه الفترة ، تكون على اشدها من اليوم الاول لولادته ، حتى نهاية العام الثاني ، كما هو معروف لدى علماء النفس والاجتماع والتربية !.. فجاء التركيز على ان تكون فترة الرضاعة حولين كاملين لسببين هما :

ان الطفل خلال هذه الفترة يحصل على غذائين : الغذاء البايلوجي

المتمثل بحليب الام ، والغذاء النفسي المتمثل بالعطف والحنان ، المتدفق من الام على طفلها .. فمن عجيب صنع الله عز وجل ، ان ثدي الام جاء مزودا بجهاز دقيق لاعطاء الطفل وجبات من الحليب ، تتناسب مع نموه .. فقد اثبت العلم الحديث ، ان الثدي يقدم للطفل كل مرة .. وجبة تختلف عن سابقتها .. تركيبا .. وطعما .. وحرارة . بحيث تتمشى مع نموه ، في حين لا يمكن الحصول على التفاوت العلمي في وجبات الحليب عن طريق القنينة ــ طبعا !.

من هنا ، جاء التركيز ، على ارضاع الطفل من ثدي امه .. وما

السائل الاصفر الذي يتدفق عادة ، قبل اول رضاعة ، الا نوع من المادة ، التي تشكل مناعة للطفل ضد جميع الامراض !..

ولان الحليب يشكل مصدرا ، من مصادر تسرب الامراض .. فقد حرص الاسلام على سلامة الام ، وسلامة حليبها .. وقد ذهب الاسلام ، الى ابعد من ذلك ، عندما اعلن ان الطفل يتأثر بأخلاق امه ، عن طريق الحليب ، فقد قال الامام علي ــ عليه السلام ــ :

« لا تسترضعوا الحمقاء ، فان اللبن يعدي » .

وجاءت الدراسات العامية ، لتؤكد هذه الحقيقة مائة بالمئة ، فقد جاء في تقرير علمي :

« ان الذرات التي يتألف منها الحليب ، تحمل بين طياتها ، صورة كاملة لاخلاق الام ، وميولها واحاسيسها ، وهي بدورها تؤثر على الطفل !.

وثانيا : ان ولد الحيوان يأتي مزودا بقوى عضلية وجسدية فائقة بينما لا يمتلك القوة الفكرية ، العقلية ، في حين ان الامر يختلف تماما ، بالنسبة لطفل الانسان فهو يأتي مزودا بقوى عقلية ، فكرية واعية ، اكثر بألف مرة ، من قوته العضلية الجسدية !.

والسبب واضح ، علميا : .. وهو ان طفل الانسان ، انما جــاء للحياة ، من اجل بناء حضارة ــ كما مر علينا ــ وبناء الحضارة يعتمد على القوى العقلية والفكرية ، اكثر من القوى الجسدية .. في حين ان ولــد الحيوان ، لم يأت لبناء الحضارة ، وانما جاء مجهزا بغرائزه التي تسيره ، وفق النظام الغرائزي في الحياة .. ولذلك ، فاننا نجد التقدم ، والتطــور في حياة الانسان ، في الوقت الذي لم نجد فيه اي تطور في حياة الحيوان !..

فالنحلة — مثلا — منذ ملايين السنين ، كانت وما تزال ، وستظل ، تبني بيتها بشكل سداسي ، والاسماك تلقي بيضها في احضان الماء ، ثم يفقس ، فتنساب الاسماك الصغيرة بين ثنايا الامواج ، دون ان تكون لها علاقة بجحر الام.

والغزال تضع ولدها في الغابة ، بينما الفهد ، يتربص بها الدوائر .. يتلصص خلف الاشجار الكثيفة بغية الانقضاض عليها .. وبمجرد ان تشعر، بالخطورة — وقد يكون ذلك في لحظة الولادة ! — تلوذ بالفرار ، وكذلك ولدها الرضيع يركض في اعقابها .. في حين ان طفل الانسان يحتاج الى سنة كاملة ، لكي يستطيع المشي ، والى اكثر من سنة ، لكي يستطيع الركض ..

من هنا فقد أكد الاسلام ، على أن تكون فترة الرضاعة ، حولين كاملين !.. ولان دور الانسان في الحياة ، دور الابداع ، فالله سبحانه سخر للانسان قوى الكون ، ليعمر الارض ، في تطور وابداع ، وحضارة !..

الدين : غذاء العقل والجسم :

الانسان مؤلف من جسم مادي ، وعقل روحي .. ولكل واحد منهما، طعام وشراب ، يتناسبان مع معدن الجسم ، ومعدن العقل !.

ومن أجل ايصال الطعام الجيد ، الى الجسم ، وكذلك من أجل ايصال الطعام الطيب ، الى العقل ، فقد فتح الله سبحانه طريقين لهما ، اي : للجسم ، والعقل !.. وزرع في كل طريق عدة نقاط تفتيش دقيقة للغاية ، تحسبا من دخول الطعام غير المرغوب فيه ، الى الجسم والعقل .

ولكي تبدو الصورة واضحة ، لا بد من تقريبها على الشكل التالي :

يقطع الطعام رحلته ، الى الجسم ، والعقل من خلال اربعة طرق : اثنان للغذاء المادي الجسدي .. واثنان للغذاء العقلي الروحي !.

في البدن طريقان ، لعبور الطعام ، وهما :

أ ــ الفم .

ب ــ الانف .

وحتى لا يصل الطعام الفاسد ، داخل الجسم ، فقد جعل الله عز وجل، اجهزة دقيقة ، تراقب مجرى الطعام ، ونوعيته ، بغاية الدقة ، والحذر والعناية ! .

ومن باب المثال :

أولا : هناك الرقابة الانفية ، الشامة ، ووظيفتها ، تقضي ، باستنشاق رائحة الطعام ، لمعرفة ما اذا كان الطعام متعفنا ، وعندئذ تبعث برقية، الى مركز القيادة ، في الدماغ ، تخبره بعفونة الغذاء ، وهذا بـــدوره يمنع الانسان عن تناول الطعام !.

ثانيا : هناك ، الرقابة الذائقة ، ومركزها ، في اول طرف اللســان، حيث ترقد هناك ، قرابة مائة مليون خلية ، تميز الطعام الجيد ، من الطعام الرديء !..

ولنتصور : ان لقمة واحدة ، افلتت من سيطرة الرقابـــة الشامة ، والذائقة ، فدخلت المعدة ... ماذا يحدث بعد ذلك ؟!..

بالتأكيد ، ستقع عدة افعال ، داخل الجسم ، لطرد اللقمة ، والتخلص من ثقلها ، والقضاء عليها بالتمام ، وهي كالتالي :

أ ـــ المعدة مزودة بقدرة دفاعية هائلة ، تحسبا لدخول الطعام الفاسد، فهي مفروشة بخلايا قادرة ، على طرد الطعام في الحال ، وذلك عن طريق التقيأ ، الذي يقع عندما تنقلب المعدة ، وتدفع الطعام الفاسد ، الى الخارج !..

ب ـــ اذا حدث ، وافلت الطعام ، من المعدة ، فان مركز الكبد يقف له بالمرصاد ، حيث يقبض عليه ، ويمتص منه المواد السامة كلها ـــ والجدير بالذكر هو ان الكبد تقوم بأكثر من عشر وظائف ، فسلجية كيماوية معقدة ـــ وواحدة من وظائفه الرئيسية هي : التصفية ، والمراقبة الدائمة في الجسم !.. وعندما يأخذ الكبد ، المادة السامة من الطعام ؛ فانه يحولها ـــ على الفور ـــ الى الكلية حيث تقوم هي الاخرى ، بدورها ، في تحويل السموم الى الحالب وبالتالي ، يخرج عن طريق البول !.

وفي اسوأ الاحوال ، ان يرتد الطعام المسموم في المعدة ـــ وفي هذه الحالة ، يستطيع الواحد منا ، ان يذهب الى المستشفى ، لاجراء عملية غسيل المعدة ، ثم يخرج ، بعدها ، في صحة وعافية .

كان هذا ، بالنسبة للطعام المادي الجسدي ، وكيفية عبوره داخل البدن .. اما بالنسبة للغذاء العقلي الروحي ، فهناك فارق واحد ، ولكنه دقيق جدا .. والفارق هو : ان الغذاء الروحي ، يدخل العقل ، بلا رقابة، ولا تفتيش !.

وفي نظرة خاطفة ، نكتشف ان هناك ، طريقين لعبور الغذاء الفكري، الى العقل ، والروح ، وهما :

أ ـــ العين .

ب ـــ الاذن .

طريق العين ، يتلخص في القراءة ، والمطالعة ، والنظر ، بينما طريق الاذن ، يتمثل في الاستماع ، والاصغاء .

على ان الخطورة تكمن في انعدام الرقابة المادية ، التي تمنع الغذاء الفكري الفاسد ، من الدخول الى العقل !.

والدرجة واحدة ، مع فارق ، هو ان الغذاء ، المادي يدخل الجسم ، في حين ان الغذاء المعنوي يدخل العقل ، وكما ان الغذاء المادي ، فيه الطيب والخبيث .. كذلك الغذاء العقلي ، فيه الطيب ، والفاسد ، ايضا .

اذن : فليس هناك مشكلة ، بالنسبة للبدن ، طالما ، في امكاننا الخلاص من الطعام الفاسد ، بسهولة .. الا ان المشكلة تولد في الغذاء الفكري ، حين يكون فاسدا ، وذلك ، لانه ، من الصعب جدا ، الخلاص منه ، اذا لم يكن من المستحيل ، احيانا !..

والمؤلم ، ان الواحد منا ، تراه احرص ما يكون على طعام طيب ، وشراب سائغ ، في الوقت الذي لا يولي فيه ، اي اهتمام ، لطعام عقله ، وشراب روحه .. فهو يختار غذاء بطنه بعناية فائقة .. بينما لا يلتفت الى غذاء فكره بالمرة !!...

يقول الامام الحسن المجتبى — عليه السلام — !

« عجبت لمن يتفكر في ماكوله ، ولا يتفكر في معقوله ، فيجنب بطنه ما يؤذيه ، ويودع صدره ما يرديه .. » اي : ان العجب كل العجب ، للانسان الذي يفتش عن الطعام الجيد ، ولا يفتش عن العلم الجيد ، والفكر الجيد ، فهو ، يبتعد عن الماكولات ، العفنة ، خشية المرض ، ولكنه لا يبتعد عن الافكار المهترئة العفنة ، خشية السقوط في حبائل الضياع والشيطان !.. وعندما يذهب الواحد منا الى المطعم تراه يدقق في نظافة الاناء ، وطهارة

الملعقة ، وتعقيم الكؤوس .. بحيث اذا راى نقطة صغيرة من الوساخة على الماعون ، فانه يملأ الدنيا عجيجا ، وصياحا ، على صاحب المطعم ، ولكنه في الوقت نفسه ، لا يعير اي اهتمام لوساخة طعامه الفكري !..

وبالمثل : خذ بيدك حفنة من الطعام الفاسد ، ثم اجعل بيدك الاخرى، مجلة خليعة ، لترى انك تحمل في يدك غذاء البدن ، وغذاء العقل ... فالطعام للبدن ، والمجلة للعقل ، وكلاهما ، يؤدي الى التسمم ، والضرر .. ولهذا جاء في تفسير قوله تعالى :

« فلينظر الانسان الى طعامه » عن الامامين الصادق ، والباقر ، ـ عليهما السلام ـ : « اي فلينظر الى علمه الذي يأخذه عمن يأخذه » .

والنتيجة التي نطلع بها من هذا البحث هي : ان قوة الشخصية ، انما تنبع من قوة العقل ، والروح وبمقدار حرص الاسلام على تقديم غـذاء كامل للجسم ، بمقدار ما يحرص ، على تقديم غذاء كامل ، للعقل والروح ..

والورطة التي سقط فيها المجتمع ، هي التعامل مع الجانب المادي في الانسان ، ليس أكثر ، والسبب في ذلك ، يرجع الى ان المجتمعات الحديثة فقدت الرؤية الروحية بالمرة ، حتى تحولت الى المادة البحتة .. وبالمثل : يذهب الواحد منا ، الى السوق ليشتري لاهله الطعام الجيد ، والفواكه الناضجة الطيبة ، ولكنه في الوقت نفسه ، لا يتورع عن شراء المجلات الخليعة ، والكتب المسمومة الكافرة ..

وعلينا ان نعرف ، ان الاطفال ، اذا اصيبوا بالتسمم نتيجة الطعام الفاسد ، فان هناك مستشفى ومصحة لغسل بطونهم ، وتعقيمها .. اما اذا اصيبوا بالفساد الفكري ، نتيجة الكتب المنحرفة ، فهل هناك مستشفى يتم فيه غسل عقولهم ، وتنظيفها من الافكار العفنة ؟!..

والقرآن الكريم يضع المسؤولية ، على عاتق الاباء ..! « يا ايها

الذين امنوا قوا انفسكم ، واهليكم نارا ، وقودها الناس ، والحجارة .. »

من هنا ، ندرك عمق الاثر الهدام ، الذي تتركه الافلام الخليعة ، والاغاني الداعرة ، على الاسرة ،والابناء .

الدين ماذا يعني ؟

يقول القرآن الكريم :

« ارايت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين » .

هذه الاية المباركة ، استوقفتني ، وشدت انتباهي ، فاخذت اتسائل في حيرة : ما علاقة دع اليتيم ، وجوع المسكين ، بالكذب ، بالدين ؟!.. ثم ماذا يعني ان يكون الانسان متدينا ؟!..

ولم تدم فترة السؤال ، حتى بدت ، الحقيقة تتلالا امامي .

والحقيقة هي : ان الدين ، معناه بناء الفرد ، جسديا ، وفكريا .. وكان القرآن ، اراد ان يلفت انظارنا ، الى هذا المعنى الدقيق .. فدع اليتيم يشير الى البناء الفكري ، لدى الانسان ، بينما عدم الحض على طعام المسكين ، يشير الى البناء الجسدي .. وهكذا يصبح الدين محاولة جادة، وصادقة ، لبناء الانسان ، جسديا .. وفكريا ، ونفسيا !.

والمأخذ العميق على الحضارة المادية المعاصرة ... انها سعت الى بناء الجسد ، دون ان تسعى الى بناء العقل ، والروح ، في حين ان الدين يصب اهتمامه في كلا الجانبين ، المادي ، والعقلي .

والطفل اليتيم ، هو دائما ، في وضع لا يحسد عليه ، وذلك لانه ، بفقد ابيه ، فقد القلب الدافىء الذي كان يمده بالعطف والحنان ، حتى اصبح يعاني الجوع العاطفي ، القاتل ، فالطفل بقدر ما يحتاج الى الغذاء الجسدي ، يحتاج الى الغذاء العاطفي الروحي .. وقد اثبت العلم الحديث، ان الجوع العاطفي ، يخلق من الطفل الذي فقد اباه ، مجرما خطرا ، في المستقبل ، كما اكدت ذلك ، الارقام ، في الابحاث ، النفسية والجنائية ، ان ٨٠٪ من المجرمين يترددون على السجون ، هم — في الاغلب — ابناء بيوت محطمة ، اما بسبب الطلاق ، او بسبب فقدان الاب ، وبقاء الاولاد في قسوة اليتم ، والحرمان العاطفي .. ولذلك يقول الامام علي — عليه السلام — : « الله الله في الايتام ، فلا تغبوا افواههم ولا يضيعوا بحضرتكم .. » اي حذار من ضياع الايتام بين ايديكم ، احذروا الله في الايتام ، وفروا لهم ما يحتاجونه من طعام ، واحسان .. خصوصا وان الرسول الاعظم — صلى الله عليه واله وسلم — يقول :

« اياكم ودمعة اليتيم ، فانها تسري في الليل والناس نيام .. » !.

ان اهم شيء يحتاجه البشر ، هو توفير : الامن ، والطعام .. لان الامن يتكفل بالغذاء العاطفي بينما الطعام يسد حاجة الجسد المادية ..

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم :

« .. فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع ، وامنهم من خوف .. » .

والخلاصة : ان الدين يوفر ، الطعام ، والامن .. ويبني الانسان جسديا ، وفكريا ، ومن اراد المزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع فما عليه الا ان يقوم ، بدراسة — ولو خاطفة — للاسلام ليجد ان الاسلام ، دين

الحياة ، دين الانسانية ، دين الحرية والاستقلال ، دين الخلاص من العذاب والحرمان ، دين المجاهدين ، والشرفاء .. وبالتالي يجد القارىء ، ان الاسلام ، دين العقل ، والفكر ، والوعي .

ولا خلاص للبشرية ، الا بالعودة الى الاسلام .

١ — نظرة في الشفاعة :

في القرآن الكريم هناك قرابة ثلاثين اية ، تتحدث عن الشفاعة ، ودورها في خلاص الانسان من عذاب الله عز وجل .

ويعتقد المسلمون جميعا ، بشفاعة الرسول الاعظم — صلى الله عليه واله — وشفاعة الانبياء ، والاولياء الصالحين ، يوم القيامة .. فكما نستفيد من هدي القرآن ، والنبي ، في الدنيا ... كذلك في الاخرة .. والاحاديث الواردة ، عن أهل البيت ، في موضوع الشفاعة ، تفوق الحصر .. وقد كتب علماء المسلمين ، على اختلاف مذاهبهم ، في الشفاعة ، بحيث حتى ابن تيمية ، افرد رسالة خاصة له ، في الشفاعة ، وابعادها في الاسلام !..

٢ — الشفاعة ماذا تعني ؟

معنى الشفاعة ، مأخوذ من الشفع ، اي القرين (والشفع والوتر) والشفع يعني العدد اثنين ... فاذا صار الشفع مقابل الوتر ، يكون الشفيع معنى القرين ... يقال : قرينك ، شفيعك ، وصديقك شفيعك ، فهو شفيع لي ، لاني انا وهو ، صرنا شفعا !.. هذا — طبعا — في اللغة.. اما في الفكر الاسلامي ، فالشفاعة تعني ضم صوت الشفيع ، الى المشفوع،

لاكمال النقص الموجود ، اي ان الشفاعة ، مأخوذة من انضم اليه ، وعاونه، فصار شفيعا له .. فالشفيع : المساعد .

٣ ــ لماذا الشفاعة ؟

من أجل اكمال النقص ، طبعا !. فنحن نريد الوصول الى قمة الكمال، ولاننا لا نستطيع الوصول ، وحدنا ، فلا بد لنا من شفيع مساعد ، حتى نصل القمة .

ومن باب المثال : هناك نقصان اثنان ، في الفرد الذي يحتاج الى الشفاعة، وهما : الذنب ، والشرك !.

نقص يمكن اصلاحه ، ونقص لا يمكن اصلاحه ، فمثلا : هناك انسان كامل في العقيدة ، ولكن لديه ، بعض الذنوب من الصغائر ــ لانه ليس معصوما عن الذنب ــ هذا الانسان تناله الشفاعة ، ليلتحق بركاب اهل الجنة .

أما في المقابل ، فهناك نقص عريض ، ليس في الامكان اصلاحه ، من قبيل الشرك ، والظلم ، والقتل ، وذلك : لان المشركين ، والقتلة ، والظالمين ، لا مكان لهم في ارض الشفاعة على الاطلاق :

٤ ــ الفرق بين الشرك والذنب :

هناك برزخ معنوي ، ولفظي ، يفصل بين الذنب وبين الشرك .. والفارق بينهما ، ان الذنب يمكن اسقاطه ، بالشفاعة ، والمغفرة ، في حين ان الشرك خيانة عظمى ، لا يمكن التسامح بها من قبل الله عز وجل ..

وفي نظرة خاطفة للقرآن .. نحصل على الصورة الكاملة للموضوع :

يقول القران الكريم :

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. » (النساء ــ ٤٨) .

وايضا يقول :

« قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا .. » (الزمر ــ ٥٣) .

ومن خلال الايتين ، يظهر لنا ، ان الشرك ليس من الذنوب ، وانما هو من الخيانات العظمى ، التي لا تغتفر !.. يدل على ذلك ، ان الاية الاولى ، اخرجت الشرك ، وافرزته عن قائمة الذنوب .. حيث قالت : «ان الله لا يغفر ان يشرك به .. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » فما دون ذلك، معناه الذنوب .. والذنوب مغفورة بالشفاعة من الله عز وجل ... حيث تقول الاية الثانية : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا .. » ومن هنا ، صار واضحا، ان الشرك لم يدخل في ساحة الذنوب ، لانه جريمة تفوق كل الذنوب .. وعندما نقرأ القرآن ، نجد التركيز على هذا الجانب بالذات ، وهو ان الشرك من اعظم الخيانة واكبر الجريمة !..

يقول القران :

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. ومن

يشرك بالله فقد افترى اثما ، عظيما » (١) على ان الاثم العظيم ، خاينة ليس فوقها خيانة !..

وايضا يقول : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله، ان الشرك لظلم عظيم » (لقمان اية ١٣) .

وايضا : « أن الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١١٦) .

وهذه المرة يؤكد لنا القران ، ان الشرك ضلال ، وانه جريمة ما بعدها جريمة . بحيث يقول الله سبحانه :

« .. انه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من انصار .. » (المائدة ٧٢) .

وفي النهاية : يطلع علينا القران ، بصورة مرعبة ، للمشرك ، تقطع الانفاس ، وتزرع الرعب في القلوب :

« .. ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، او تهوي به الريح في مكان سحيق » . (سورة الحج اية ٣١)

اذن : فالشرك خيانة للامانة ، ولله وللانسان .. ولهذا ليس في الشرك شفاعة ولا مغفره ، وانما غضب ، وخلود في النار تحت ثقل العذاب الاليم.

---

١ ــ سورة النساء اية ٤٨ .

وكما في الشرك ، كذلك في الظلم ، والقتل ، يقول القران الكريم : « .. من قتل نفسا بغير نفس ، او فساد في الارض ، فكأنما قتل الناس جميعا .. » (المائدة — ٣٢) .

وايضا يقول : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا ، فجزاءه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه ولعنه ، واعد له عذابا عظيما » (سورة النساء ٩٣) .

ونفس الشيء ، بالنسبة للكافرين .. حيث يقول الله عز وجل :

« ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه ، ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ولهم عذاب اليم » (سورة المائدة اية ٣٦) .

٥ — الاحسان يقضي بالشفاعة :

في اختفاء الشفاعة ، يختفي الاحسان من رحاب الله عز وجل . وذلك لان الله محسن ، جعل الشفاعة تتدفق من بحر احسانه — ولان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى .. · فلا بد من الشفاعة .

ان عدم الاعتراف بالشفاعة ، معناه عدم الاعتراف باحسان الله .. والا فكيف نوفق بين : ان الله محسن ، ويأمر بالعدل والاحسان ، وبين عدم الايمان بالشفاعة !!..

ولكي تصبح القضية اكثر وضوحا ، لا بد لنا من ضرب المثال التالي :

لو فرضنا ان احد العمال ، اشتغل عنك بعشرين دينارا في اليوم الواحد .. وحين يفرغ من العمل ، في اخر النهار ، يكون لك ثلاث حالات، حيال هذا الرجل العامل ، وهي حالة الظلم ، وحالة العدل ، وحالة الاحسان .

فأنت اذا اعطيته عشرة دنانير ، بدل العشرين دينارا ، تكن قد ظلمته ، لانك قطعت من حقه عشرة دنانير .. بينما اذا اعطيته العشرين دينارا كاملة .. صرت عادلا معه ، لانك لم تنقص من حقه شيئا ... اما اذا دفعت له ثلاثين دينارا بدل العشرين ... فانك ــ هنا ــ تصبح محسنا له ، لانك احسنت اليه ، بعشرة دنانير ، اضافة الى حقه .

ونفس الشيء في الشفاعة ــ ولله المثل الاعلى ــ فالله سبحانه محسن ، وعنده احسان ، ويريد ان يحسن لعباده المذنبين ، عن طريق الشفاعة .. فاذا اوقف الشفاعة ، لم يكن محسنا حينئذ . وحاشا لله !..

فالله يقول : « .. كتب ربكم على نفسه الرحمة » (١) .

٦ ــ من هو الشفيع ؟

الله يشفع ، ومن اعطاه الله الاذن بالشفاعة ، ايضا يشفع هو الاخر !..

ووفقا لسير الايات في القران ، وسياق الاحاديث الاسلامية ، تكون

---

١ ــ سورة الانعام اية ٥٤ .

الشفاعة .. لله ، وللرسول ، وللانبياء ، والائمـــة من أهل البيت ، والشهداء ، والصالحين .. فهؤلاء كلهم يشفعون ، لمن ارتضى الله دينه ، يــوم القيامـــة .

وفي القران الكريم ، مرحلتان من الشفاعة ، مرحلة لله عز وجل ، ومرحلة لمن اذن الله له بالشفاعة !..

المرحلـــة الاولـــى :

« .. قل لله الشفاعة جميعا » (الزمر اية ٤٤)

ويقول أيضا :

« .. ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون .. » (سورة السجدة اية ٤) .

ومرة ثالثة يقول : « وانذر به (اي بالقران) الذين يخافـــون ان يحشروا الى ربهم ، ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون » (سورة الانعام اية ٥١) .

ورابعة يقول :

« وذكر به (بالقران) ان تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع .. » (الانعام اية ٧٠) .

أما في المرحلة الثانية ، فيقول القران الكريم : ان الشفاعة تقع باذن الله ، للانبياء ، والائمة ، والاولياء والصالحين ، والشهداء .

« .. وخشعت الاصوات للرحمن ، فلا تسمع الا همسا ، يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا .. » (طه — ١٠٩) .

« ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له .. » (سبأ — ٢٣) .
« لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا .. » (مريم — ٨٧) .

« وكم من ملك في السموات ، لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن لمن يشاء ويرضى » (النجم — ٢٦) .

« .. ما من شفيع الا من بعد اذنه » (يونس ٣) .

« .. من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » (سورة البقرة ٢٥٥) .

« ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (الانبياء — ٢٨) .

يقول الامام الرضا — عليه السلام — : لا يشفعون الالمن ارتضى دينه .

اذن : فالشفاعة لله ، ولمن اعطاه اذنا ، بالشفاعة .

ورب سؤال يعترض طريقنا يقول :

الا يعني ذلك ، اننا نمارس نوعا من الشرك ، عندما نطلب الشفاعة ، من الانبياء والصالحين ؟!..

وللاجابة ، لا بد من ضرب المثال التالي :

الاستشفاع ، يعني طلب الشفاعة ، وكذلك الاستشفاء يعني طلب الشفاء .. وطلب الشفاء يكون — عادة — عن طريق الطبيب .. بينما طلب الشفاعة يتحقق ، عن طريق النبي ، او الولي !..

على أن الشفاء ، من الله ، (واذا مرضت فهو يشفيني) ولكن مع ذلك ، فالله سبحانه ، يأمرنا ان نأخذ الشفاء من الطبيب ... واذا ذهبنا الى الطبيب .. فهل يعني ذلك اننا مشركون ؟!..

بالطبع لا ..

وما ينطبق على الطبيب ، ينطبق على الشفيع .. فالله كما اذن لنا ، ان نذهب الى الطبيب ، بغية الشفاء ، كذلك اذن لنا ، ان نتوسل بالانبياء والاولياء الصالحين ، من اجل الشفاعة .

والنتيجة واحدة .. فكما ان الشفاء من الله ، كذلك ، فالشفاعة من الله عز وجل ..

٧ — ثلاث طوائف :

دخل رجل على الامام الصادق — عليه السلام وسأله : ايصلح السجود ، لغير الله ؟

قال : لا .

قال : فكيف أمر الله الملائكة ، بالسجود لادم ؟!.

فقال له الامام الصادق : من سجد بأمر الله ، فقد سجد لله ، فكان سجودهم لله ، اذ كان بأمر الله !..

ابو حمزة الثمالي ، الشخصية الاسلامية المعروفة ، يقول : دخلت على الامام علي بن الحسين زين العابدين — عليه السلام — وقلت لـه : حدثني بحديث ينفعني ، فقال : يا أبا حمزة : « كل يدخل الجنة ، الا من ابى » !.. قلت : ومن يأبى يا ابن رسول الله ؟ .. قال : «من لم يقل لا اله الا الله ، فقد أبى أن يدخل الجنة !.. » .

وفي الحقيقة .. ان الامام السجاد — هنا — لا يقصد الجانب اللفظي، في الكلمة، وانما يقصد الجانب المعنوي ... والجانب المعنوي ... والجانب المعنوي في كلمة : لا اله الا الله .. معناه الرفض الكامل ، لكل طواغيت الارض .. لكل الظالمين .. لكل القتلة .. لكل الاصنام المنحوتة من الظلم، والجور .. وذلك لان الايمان بالله ، يعني ان ترفض الكفار والمنافقين .. ان ترفض الالهة المزيفة اولا .. وتؤمن بالله ثانيا ..

على ان القران يركز على هذا الجانب بالذات ، في العديد من الايات المباركة !... فتراه يقول : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها .. » فالايمان ، كفر بالطاغوت، ورفض للشيطان قبل، ان يكون صوما ، وصلاة !..

وفي القران الكريم نقرأ سورة قل يا ايها الكافرون .. قبل سورة قل هو الله احد !.. اي : مطلوب منا ان نعرف (سورة الكافرون) قبل ان نعرف سورة (التوحيد) وذلك لان الاعتصام بالتوحيد ، من دون معرفة مسائل الكفار ، لا يؤدي الى التمسك بالعروة الوثقى !..

اذن : فكلمة التوحيد هذه ، لا تقتصر على اللسان فقط ، وانما يجب ان تقولها كل خلية في الجسم الانساني .

وحتى نبدأ قمة الايمان ، علينا ان نصبغ كل اعمالنا بصبغة التوحيد .. « صبغة الله ، ومن احسن من الله صبغة » .

يقول القران الكريم في هذا الصدد :

« قل ان صلاتي ونسكي ، ومحياي ، ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » (الانعام ١٦٢ — ١٦٣) .

والناس ، حيال الشفاعة ، ينقسمون الى ثلاث طوائف :

١ — طائفة اتخذت الله شفعاء من دون الله ، وكفرت بالله ! . ٢ — وطائفة اتخذت الله شفيعا ، ولم تتخذ الشفعاء الذين ذكرهم الله ، واعطاهم اذن الشفاعة ! .

٣ — في حين ان : الطائفة الثالثة ، اتخذت الله شفيعا لها ، في الوقت الذي تمسكت فيه ، بالاولياء الصالحين ، الذين لا يشفعون الا لمن ارتضى الله دينه ، وفقا لمبادىء القران الكريم .

فالطائفة الاولى ، اتخذت شفعائها من المترفين ، والظالمين ، والاغنياء !

« اتخذوا احبارهم ، ورهبانهم اربابا من دون الله .. » (سورة التوبة اية — ٣١ —) .

ويتحدث القران ، عن مصير هذه الطائفة :

« .. يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون ربنا انا اطعنا سادتنا ، وكبرائنا فاضلونا السبيلا ، ربنا اتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعنا كبيرا » (الاحزاب ــ ٦٦ ــ ٦٨) .

وهذه الطبقة من الناس ، تتمثل ــ في العادة ــ في ضعيف النفس ، في الجبان .. في الخائن .. الذي يعيش على التبعية ، في المسحوق الضمير ..

وعندما ننظر في المجتمعات الحديثة ، نجد جماعات كثيرة ، من هذا الصنف ، المعدوم الوجدان .. وهؤلاء هم وحدهم ، الذين يقومون بتنفيذ أوامر الطغاة !.. فاذا امرهم الرئيس او الملك ، او الحاكم ، بقتل فلان، واختطاف فلان .. واغتيال فلان ، وملاحقة الاعراض .. والتجني على المقدسات ، اسرعوا يمرغون ايديهم بدماء الابرياء ، واقتراف الجرائم التي يندى لها جبين الشيطان !!..

ولكن أمامهم ، حساب عسير ، في الدنيا ، والاخرة ، حساب الشعوب ، وحساب الله ! ..

يقول القران :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم من شفعائكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بنيكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (الانعام اية ٩٤) .

وايضا يقول :

« وانذرهم يوم الازفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (غافر ـــ ١٨) .

انها عبادة الالهة المزيفة من دون الله !.

« أأتخذ من دون الله الهة ، ان يردن الرحمن بضر لا تغني عنـــــي شفاعتهم شيئا ، ولا ينقذون » (يس اية ٢٣) .

« ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ، ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعائنا عند الله » (يونس ١٨) .

« ام اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل اولو كانوا لا يملكون شيئـــــا ولا يعقلون » (الزمر ٤٤) .

وفي النهاية ، يعرض ـــ علينا ـــ القران الكريم ، صـــــــورة لهؤلاء المجرمين ، الذين اتخذوا من دون الله شفعاء ، فاضلوهم عن السبيل ..! انها صورة مخيفة ، حقا !..

« وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم اين ما كنتم تعبدون مـــــن دون الله ،هل ينصرونكم او ينتصرون ،فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنودابليس اجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله ان كنان لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين ، وما اضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعـــــين ولا صديق حميم » (الشعراء من ٩١ ـــ الى ١٠١) .

والخلاصة : ان الشفاعة واردة ، في الاسلام ، واكدها القران ، في اكثر من خمس وعشرين اية ، وكذلك ركز عليها النبي الاعظم ـــ صلـــــى الله عليه واله ـــ تركيزا عميقا ، في احاديثه الشريفة ، ثم استمر التأكيــد عليها ، من قبل اهل البيت ـــ عليهم السلام ـــ .

ولكنها شفاعة ، مختارة بعناية فائقة ، بحيث تجري وفقـــا لأدق الانظمة والقوانين ، في الاسلام .. وليست الشفاعة غوغائية ، وفوضوية، بلا حساب ، ولا اهلية .. كما يطيب للبعض أن يتصورها ، فنظرة واحدة، على اهل البيت ، وسيرة حياتهم تكفي لاعطائنا ، الف دليل ، ودليل عـــلى ان الشفاعة ، لا توزع — هكذا — بالمجان على الذين اكتفوا باســـــلام (الهوية الشخصية) .

يقول الامام الصادق — عليه السلام — :

« ان العبد ليجلس على ذنب من ذنوبه مأة عام .. وانه لينظر الـــى ازواجه ، واخوانه في الجنة يتنعمون .. »

ويقول الامام علي — عليه السلام — :

« لا تتكلوا على شفاعتنا ، فان شفاعتنا قد لا تلحق باحدكم الا بعد ثلثمائة سنة .. » .

ودعني اذكرك ، بأن اهل البيت ، يقولون : « ان شفاعتنا لا تنال مستخفـــــا بالصلاة »

ولكي لا نقف على حافة القنوط واليأس جاء حديث رسول الله ، يصب السكينة في قلوبنا ، ويفسر لنا الاحاديث السابقة ، تفسيرا يوافق الذوق ، والعقل ، والوجدان .. يقول الرسول :

« اتخذت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي » . ويقول : « يا فاطمـــة

انت تشفعين للنساء ، وأنا أشفع للرجال » .

والحالة الطبيعية ، للمؤمن ، هي : ان يكون ــ دائما ــ بين الخوف والرجاء ... فاذا وضع نفسه ، في هذه الدرجة .. اصبحت الشفاعـــة قريبة منه ، جدا ، جدا ..

القسم الثاني

في دنيا الغرائز

جولة في دنيا الغرائز :

حتى نعرف هوية الغرائز ، ونسمع خلجاتها داخل النفس علينا ان نفهم اولا ، نوع فصائلها وشكل وظائفها .. وهذا ما نحاول طرحه ، في هـــذه الصفحات !

ومن خلال مراجعة سريعة ، لسجل الغرائز نكتشف انها الوان شتى في الانسان .. فمنها ما يولد مع الفرد ، ويظهر في الايام الاولى من الطفولة، ومنها ما يتأخر بعض الوقت ثم يبرز على المسرح ، وبعض الغرائز يظهر بفعل الاحداث التي تجري في المجتمع .. اضف الى هذا ان الغرائز حيـــال التربية ، تنقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول ، لا يحتاج الى تربية ، ولا الى توجيه ، وانما هو ينبع نبعا طبيعيا مع الولادة ، ويشب مع الطفولـــة، بلا حاجة للتعهد ، والمسافات ، وهذا القسم يتمثـــــل في غريزة الجوع ، والعطش ، وغريزة النوم ، والبكاء ، وحب المال ، وما اشبه ذلك !. فهذه الغرائز ، لكي تظهر على السطح ، فانها لا تتطلب اي مداراة ، ولا اي عناية ولا اي جهد وانما هي تنمو في النفس ، تلقائيا ، كما تنمو الازهار في الربيع!.

في حين أن القسم الثاني من الغرائز ، لا يظهر في الانسان الا بعـــد اجراء العوامل التربوية ، بصورة مركزة .. ومن باب المثال :

غريزة النطق والكلام ، على الرغم من انها جاءت في الاهمية ، بعـــد مرحلة الخلق مباشرة ، حيث يقول الحق سبحانه : « خلق الانســـــان علمه البيان » اي : اعطاه القدرة ، على الكلام .. الا ان هذه القـــدرة ،

لا تكشف عن نفسها ، الا بواسطة التوجيه ، والتعليم !.. بحيث ان الطفل اذا لم يحصل على من يعلمه طريقة الكلام فانه سـوف يبقى اخرسا ، لا يستطيع ان يقول كلمة واحدة .. حتى ان العلماء ، في حقل النفس والتربية، قالوا : لو اخذنا ، طفلا صغيرا ، وتركناه في الغابة مع الوحوش ، ثـم رجعنا اليه ، بعد فترة خمس سنوات ، لوجدناه ، عندمـا يحاول الكـلام يخرج خليطا من الاصوات المكثفة ، يشبه الى حد بعيد ، اصوات الحيوانات في الغابة !!..

ونفس الشيء بالنسبة ، الى غريزة حب الغير ، انها راقدة في أعمـاق الانسـان ، وتحتاج الى من يوقظها ، وايقاظها انما يتم عن طريق التربيـة الاسلامية ، ولهذا فقد وضع الاسلام مناهجا في التربية ، من شأنها ان تهز هذه الغريزة ، وتعطيها الطاقة ، وتمنحها النشـاط !!.

ولتقريب الصورة ، اعرض عليكم بعض الاحاديث التربوية ، في هـذا المجال :

« اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك فاحبب له ، ما تحب لنفسك ، واكره له ، ما تكره لها » .

« من اصبح ولم يهتم بأمور المسلمين ، فليس بمسلم .. » .

« ما امن بي من بات شبعانا وجاره جائع » .

« من سمع رجلا ينادي يا للمسلمين ، فلم يجبه ، فليس بمسلم .. » .

« الخير كله ، في ان تحمل الخير لكل الناس » .

وامثال هذه الاحاديث ، التي وردت ، عن الرسول الاعظم ـ صلى الله عليه واله ـ وعن اهل بيته الطيبين الطاهرين ..

بينما القسم الثالث من الغرائز ، يطفح على سلوك الانسان ، من خلال الاحداث التي تجري في المجتمع احيانا .. وهذه الغرائز ، تمثل الشخصية السبعية في الانسان .. والتربية تلعب دورا فعالا ، في خنق هذه الشخصية ،ودفنها في المهد .

وبالمثل : فالشر ، غريزة مزروعة في طينة الانسان ، مثلها في ذلك ، مثل غريزة الخير ، الموجودة لدى النفس ... كما يقول القران الكريم : « ونفس وما سواها فالهمها فجورها ، وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها .. » .

هذا بالاضافة الى غريزة التخريب ، والهجوم القابعة في الاعماق ، وهي تشكل ـ مجتمعة ـ الجانب السبعي عند الفرد ، وتظهر عند اول فرصة ، تجدها !.

يقول الامام علي ـ عليه السلام ـ : « الشر كامن في طبيعة كل احد ، فان غلبه صاحبه بطن ، وان لم يغلبه ظهر » !! .

وفي غياب السلطة الدينية ، يطلع الهرج الشامل ، وتنتشر الجريمة، بفعل غرائز الشر ، والتخريب ، والهجوم ، والانتقام ، التي كانت راقدة في الداخل ، ولكنها طفحت بمجرد ان وجدت الفرصة سانحة !.

ويقول علماء النفس ، والاجتماع ، ان الغرائز السبعية ، في الانسان، تبرز ـ عادة ـ في الحرب ، ارضاء لغريزة الانتقام الدموية ، في الفرد

!.. وفي الواقع .. قد اشار القران الكريم الى هذه الحقيقة ، في قوله تعالى : « .. ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين » (سورة البقرة ١٥٥) .

وفي الحقيقة .. ان الخوف ، والجوع ، وضياع الاموال ، والانفس... أحسن مكان ، لكشف الشخصية على حقيقتها .. وهذه الامور الاربعة ، لا تحدث الا في حالة الحرب .

فالغريزة الطافحة ــ حينئذ ــ هي غريزة العدوان ، والانتقام .. وهي تنشأ ، عادة ، في غياب التربية الدينية ــ مثلها في ذلك مثل ــ الطفيليات التي تنبت بين الحشائش والاشجار ، نتيجة الاحوال الجوية السيئة ، وحتى تموت هذه الغريزة في المهد ، على الواحد منا ان يحاربها اشد المحاربة ، وفقا لتوجيهات الدين الاسلامي الحنيف .

قال رسول الله ــ صلى الله عليه واله وسلم ــ :

« الانتقام من شيم اللئام » .

وايضا يقول : « اقبح افعال المقتدر الانتقام » .

ومرة ثالثة يقول :

« دع الانتقام فانه من أسوأ افعال المقتدر .. » .

وايضا يقول الامام علي ــ عليه السلام ــ : « اذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه ، شكرا للقدرة عليه .. » .

والسؤال المطروح هو :

هل تكفي التربية وحدها ، في توجيه المجتمع وتنظيف الغرائز ؟!

بصراحة : لا ..

لتوجيه المجتمع ، والفرد ، لا بد من الدين والحكومة !.

في حوار جرى بين المأمون العباسي ، والامام الرضا — عليه السلام — سأل المأمون ، الامام قائلا : لماذا نحن بحاجة الى الحكومة .؟ فقال له الامام : انا لا نجد أمة من الامم ، ولا ملة من الملل عاشوا ، وبقوا .. الا بقيم ورئيس ، فيما لا بد لهم فيه من أمر الدين ، والدنيا .. » .

فالدين ، ضرورة ملحة ، تفرضها ، حتمية وجود العلاقة بين الله ، والانسان !.

سارتر والانسان :

(جان بول سارتر) هو واحد من اليهود الذين نفختهم الصهيونية العالمية ، حتى جعلت منهم جسرا تعبر عليه ، الى اغراق العالم ، بالجنس والحرب ، والالحاد كما هو معروف ، في خطوات اليهود ، للقضاء على الاخلاق ، والانسانية !.

وبصراحة ، لا اريد التحدث حول سارتر ونظرياته الالحادية الماجنة .. فيكفي للكشف عن شخصية هذا الرجل ، القاء نظرة خاطفة على كتبه في هذا المجال .

انه يهودي ، بالمعنى الحرفي الدقيق لكلمة اليهود ! .

الا ان ذلك لا يمنع ، من معرفة افكار هذا الرجل .. وافكاره تتلخص في الاجابة على السؤال التالي : من يحرك الفرد ؟.. ويجيب سارتر : ان المحرك الاساسي للفرد ، غريزة حب الذات .. وليس بعدها شيء اخر .. علما بأن سارتر لا يؤمن بالله على الاطلاق — شأنه في ذلك ، شأن اخوته الثلاثة من قبل : ماركس ، وفرويد ، ودركايم .

والمؤلم ، ان افكار هؤلاء اليهود الهدامة تدخل في بيوتنا ، وتدرس في الجامعات ، والمدارس ، لابنائنا ، على مسمع وبمرأى من القادة المسلمين اصحاب الحل ، والعقد !..

المهم سارتر يقول : ان غريزة حب الذات ، هي الاله المقدس ، لدى الانسان .. وعليه فالانسان له الحق في اشباع غرائزه ، وشهواته ،في كامل الحرية ، اخذا من الشذوذ الجنسي ، وانتهاء بالانتقام، والعدوان ، والاثم!.

صحيح ان غريزة حب الذات لها أثر فعال في توجيه الكثير من الطاقات .. ولكن ذلك لا يعني — بالضرورة — انها تشكل كل شيء في حياة الانسان .. لان هناك غرائز شتى ، وطاقات هائلة ، ومواهب لا يستهان بهـا ، في توجيه الفرد .. هذا بالاضافة الى وجود العقل ، والوعي ، والوجدان الاخلاقي .. وعلى راس الجميع الارادة القوية ، التي يسحق الانسان بها ، كل نوازع الشر وغرائز النفس !..

العقـــل والشهوة :

« اقوى الناس من غلب هواه » حديث شريف . يقول غاندي : لعلني لا اعدو الحقيقة ، اذا قلت : ان قهر العالم بحد السيف ، اسهل من قهـر شهوات النفـــس ! ..

اجل .. ان اكتشاف الذرة ، وغزو الفضاء ، اسهل من الغلبة ، على الهوى !.. يدل على ذلك وضع الانسان الحاضر ، فانه تغلب على الذرة ، والطبيعة ، ولكنه لم يتغلب على شهواته ، وعلى نفسه ! .

ولكي يصبح الفرد قادرا ، على كبح جماح الشهوة ، والتغلب على الغرائز ، والنزوات .. فانه يتحتم عليه اخضاع غرائزه ، لسلطة العقل وقوة الارادة ، عن طريق الممارسة المستمرة لاعمال العقل ، والاستفادة من الفكر ، والوعي بالاضافة الى استعمال الارادة ، بحيث يسقط زمام الشهوات في قبضة الارادة ، ويسير تحت ضياء العقل ، وارشاداته .

ان اخطر ما يصيب الانسان هو السقوط في الشهـوة !. وذلك لان سيادة الانسان ، تعتمد على سيادة العقل ، بينما سقوطه يرتبط بسقـوط العقل ، وانتصار الشهوة عليه !.

يقول الامام علي ــ عليه السلام ــ : « كم عقل اسير ، عند هـوى امير .. .وعبد الشهوة اذل من عبد الرق » .

من هنا ، كان الواجب يحتم علينـــا ، ان نسعى في محاولة جادة ، لاخضاع الغريزة ، للعقل وذلك عن طريق الارادة الحرة التي يتمتع بهـــا الانسان .

والمثل يقول : اينما تكون الارادة .. يكون الطريق !.

وفي النهاية يقول الامام علي :
« من غلب شهوته ، صان قدره » .

ويقول ايضا : « زوال العقل بين الشهوة ، والغضب » .

كيف يحل الاسلام مشكلة الغرائز ؟

يقول القرآن الكريم :

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر النـــاس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن اكثـــر الناس لا يعلمون » الروم ـــ ٣٠ .

الدين نابع من الفطرة ، والوجدان ، ولذلك ، فقوانين الاسلام ، تناسب الفطرة وتوافق الوجدان لان الخالق واحد ، فالله عز وجل ، هو الذي خلق الانسان ، وهو الذي انزل له نظاما ، يسير حياته ، وفقا لموازين الفطرة ، والعقل .. وحين ندرك هذا المضمون جيدا ، فاننا نستوعب المعنى الدقيق لموقف الاسلام ، من الغرائز .

ان أهم وظيفة قام بها الاسلام ، حيال الغرائز .. هـــو اشباعها ، بشكل يتناسب ، تناسبا طبيعيا مع موقع الانسان في الحياة ، بحيث لم يضر بها ، ولم يطلقها .. وذلك لان ضرب الشهوة ، وقمعها معناه السير فـــي الاتجاه المعاكس لطبيعة الفرد ، في حين ان اطلاقها ، هكذا من دون ضوابط يؤدي الى اهلاك الحرث والنسل !.

وحتى لا تضطرب الغرائز في النفس ، بين القمع ، والانفلات ، فقـــد جعل الاسلام لها مناهج معينة في التربية .

وفي الحقيقة .. ان الغريزة ، تشبه الى حد بعيد ، النهر الجـاري ، الذي اذا طغى الماء فيه افسد الزرع ، واذا غاض ماءه ، ادى الـــى موت الارض وهمودها .. وكذلك الغريزة ، اذا طغت فانهـــا تؤدي الى افساد الفرد ، والمجتمع . ونفس الشيء اذا غاضت بطريق الكبت .. تنتهـي

الى موت الانسان غريزيا !..

والنتيجة واحدة .. فكلاهما محجور ، وممنوع في الاسلام .

الطريقة الاسلامية في الحـــل :

الاسلام نظم الغرائز ، وامر باشباعها بالشكل المعقول .. ولكي نحيط بالقضية من كل اطرافها ، لا بد لنا من ضرب الامثلة ، في بعض الغرائز !..

ولان الانسـان ـــ باعتباره ـــ ابن الطبيعة .. فان احسن حياة له ، هي تلك التي تناسب الطبيعة .. وذلك لان مخالفة الطبيعة ، لا تـــؤدي الا الى الحسرة والتمزق والضياع !..

الجـــــوع :

ومن باب المثال : لكي يعيش الانسان ، عليه ان ياكل .. فلـــو ترك الطعام ، فانه سوف يقترب من الموت خطوة .. خطوة .. وكذلك الامـــر ، في الاسراف في الاكل ..

اذن : فغريزه الجوع مزروعة في النفس ، وهي بحاجة الى الاشباع المعقول ، حتى تحافظ على وجودها ... وهنا يأتي دور الاسلام ، في وضع القانون الطبيعي لهذه الغريزة ، بعيدا عن الافراط ، والتفريط ..

يقول القـــرآن الكريـــم :

« .. وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » سورة الاعراف — آية ٣١ .

الغضب :

الغضب ، غريزة خلقها الله فينا ، من اجل الدفاع ضد الاخطار .. وهي تتعاون مع غريزة حب الذات ، في سبيل الحفاظ على النفس !.

وعندما نستجمع خيوط الغضب ، في الاسلام ، نجد ان وظيفة الغضب الرئيسية تتلخص في الدفاع عن مبادىء الله وحقوق الانسان !..

هذا اذا عرف الفرد ، كيف يستفيد من الغضب في طريق الله سبحانه .. اما اذا لم يعرف الاستفادة من هذه الغريزة ، فتراه ، يفيض غيظا ، ويقطر غضبا ، من اجل التوافه والمهاترات ، وليس من اجل القضايا المصيرية !.

فالغضب مع الاسرة ، والاولاد ، والمجتمع مرفوض في الاسلام .. يقول القرآن الكريم :

« .. والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » آل عمران — ١٣٤ .

والقرآن يخاطب الرسول الاعظم — صلى الله عليه وآله — بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ... » سورة ال عمران آية ١٥٩ .

وفي المقابل ، يوجه الاسلام ، الغضب ضد الكفار ، والمنافقين ، والظالمين .

يقول القرآن الكريم في خطابه للنبي :

« يا ايها النبي جاهد الكفار ، والمنافقين واغلظ عليهم ... » سورة التوبة آية ٧٣ .

وايضا يقول : « .. وليجدوا فيكم غلظة .. » التوبة — ١٢٣ .

وقد اعطى القرآن ، مواصفات المؤمنين بأنهم : « .. اشداء على الكفار ، رحماء بينهم » الفتح — ٤٩ .

وانهم : « اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين » المائدة — ٥٤ . اي يتعاملون مع المؤمنين في رقة وخشوع ، بينما مع الكفار في غلظة ، وكبرياء ، وهذا يعني توجيه الغضب ضد الظالمين ، والمستكبرين دفاعا عن مبادىء الله ، وحقوق الانسان .

ونقرأ في دعاء الافتتاح : « .. وايقنت انك انت ارحم الراحمين ، في موضع العفو ، والرحمة ، واشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة .. » .

وفي واقعة الخندق ، يوم جلس بطل الانسانية الخالد ، الامام علي — عليه السلام — على صدر الشرك ، عمرو بن عبد ود العامري .. كان قد تأخر عن قتله لحظات ، ثم بعدها قطع راسه ورجع به الى رسول الله ، ولما سأله النبي عن سبب تباطئه في حز راس عمرو ، اجابه الامام علي قائلا : يا رسول الله ، عندما جلست على صدره ، شتمني ، وبصق في وجهي فأثار غيظي وغضبي ، فما احببت ان اقتله شفاء لغضبي ، وانما

اردت ان يسكت الغضب عني ، فيكون قتلي اياه ، غضبا للـــه ، وليس غضبـــا لنفسي ! ..

والامام هنا يعلمنا كيف نستعمل الغضب في طريق الله ، ومن اجـل تطبيق مناهجه !.

ويطلع علينا القرآن الكريم ، بلوحة رائعة .. توجهنا لصرف الغضب ، في مكانه السليم وذلك من خلال قصة موسى عليه افضل الصلاة وازكـى السلام : « ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي ، اعجلتم امر ربكم ، والقى الالواح واخذ براس اخيه يجره اليه ، قال ابن ام ان القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بـــي الاعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين ، قال رب اغفر لي ، ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين .. ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين .. والذين عملـــوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها ، لغفور رحيم .. ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ، ورحمة للذيـن هم لربهم يرهبون » سورة الاعراف من آية ١٥٠ الى ١٥٤ .

اذن : فغريزة الغضب ، انما خلقها الله في الانسان ، من اجل الدفاع عن العقيدة ، والحقوق في ساحة المعركة طبعـــا ، لا في البيت مع النساء والاطفـــال ..

والطريقة التي ينصح بها علماء النفس ، للخلاص من موجة الغضب التي تلف الواحد منا ، احيانا في البيت ، في المكتب ، في المدرسة .. هـي تغيير الهيئة ، كأن يغير الانسان حالته من القيام والجلوس ، او يأخذ كتابا يفتحه للمطالعة وهكذا !.

وقد اثبت العلم الحديث ، ان الانسان العاقل ، الهادىء ، الرزين ،

هو الذي لا يستسلم لنوبة الغضب بالمرة ، ولا يلبس همومه فوق عينيه ، وانما يدفنها في صدره .. وهذا لا يحصل الا لمن اوتي قوة في العقل ، ونفاذا في البصيرة .. والغضب ــ دائما ــ يدل على ضعف العقل ! .

تكيــف الغريزة ، مع الطبيعة :

احذروا قمع الغرائز ، فانها نداءات فطرية ، لا بد من اجابتها ... وهل في امكان الانسان ان يقاوم غريزة النوم مثلا ؟.. بالطبع لا .. لان ذلك يؤدي الى الانهيار الكامل لبناء الجسم !.

وكما في النوم ، كذلك في الجنس ، اذ ليس في الامكان تجاهل الجــوع الجنسي ، بل لا بد من الاشباع المعقول ، عن طريق الزواج ، طبعا .. والا فان رد الفعل ، سيكون عنيفا عندما تستولي حالات بغيضة على مشاعــر الشباب مثل : الانزواء ، والارق ، والقلق ، والخوف .. والاخلاق السيئة .. حتى تصل العربة الى محطة الجنون !..

احســاس الفطــرة :

وهناك احساسات خاصة بالانسان ، مثل البحث عن السبب ، ومعرفة العلة ، وهذه كلها تنبع من الفطرة ، نبعا طبيعيا ، فالطفل مثلا يسأل امه ، واباه عن السبب ، وعن العلة بقوله : لماذا صار هذا الشيء هكذا ؟. ولماذا حدث ذلك الامر ؟!.

وهذا شعور منطلق من فطرة الانسان ، فحتى يوم كان البشر يعيش في العصر الحجري ، وفي الكهوف والجبال كان ــ ايضا ــ يبحث عــن

السبب ويعرف العلة من الاثر .. ولنتصور : انه كان نائما مع زوجته في الكهف ، ومطرت السماء ، خلال الليل ، فان الانسان القديم حين يخرج في الصباح ، وينظر الى الطين بباب الكهف ، يلتفت لزوجته ، ويقول لها : لقد مطرت السماء البارحة ، ثم ينظر الى الارض ، فيرى آثار اقدام لحيوان وحشي عندئذ يقول لزوجته : ومر من هنا حيوان وحشي ، يدل على ذلك ، اثر اقدامه المطبوعة على الطين !.. اذن : فهو يدرك ان الاثر يدل على المسير !.

غريزة اللهو :

لم يكن الاسلام ، دينا من صنع البشر .. حتى يغفل بعض الجوانب النفسية ، وانما هو دين الله القيم ، الذي اختارته السماء ، بعناية فائقة ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويحل كل المشاكل المزروعة في طريق الانسان . .انه الاسلام دين العصر .

من هنا ، فان الدين معناه نور الله في الارض ، واذا كان كذلك — وهو كذلك بالفعل — فمن المستحيل ان تفوته فرصة واحدة ، في توجيه البشرية نحو الخير ، والسعادة ، والاستقرار وحتى لا تطغى غريزة اللهو ، على العقل ، والفطرة فتجر الانسان الى الهلكة .. فقد شرع الاسلام مناهجا تربوية ، تنظم سير اللهو ، في الحياة !..

يقول الرسول الاعظم :

« اجعلوا لانفسكم حصنا من الدنيا ، باعطائها ما تشتهي من الحلال ، واستعينوا بذلك على امور الدنيا .. » .

ويقول الامام علي :

« ان للقلوب شهوة ، واقبالا وادبارا فاتوها من قبل شهوتها واقبالها .. فان القلب اذا كره عمي ! (1) » .

وايضا يقول : « للمؤمن ثلاث ساعات : فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم (يصلح) معاشه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها ، فيما يحل ويجمل ، وليس للعاقل ان يكون شاخصا الا في ثلاث : مرمة لمعاش ، او خطوة في معاد ، او لذة في غير محرم » (نهج البلاغة صفحة ٥٤٥) .

وفي الحقيقة .. من خلال هذه المناهج الاسلامية .. يبدو ان الاسلام ، حريص اشد الحرص ، على استثمار اقصى طاقة في الانسان ، وتوظيفها في طريق البناء ، والتكامل .. فحتى اللهو ، يجعله في عداد العبادات التي يتقرب الفرد بها الى الله عز وجل .

يقول الامام الباقر — عليه السلام — :

« لهو المؤمن في ثلاثة اشياء : التمتع بالنساء .. ومفاكهة الاخوان .. والصلاة بالليل .. » !..

يا لروعـــــة الاسلام ! .

اي روعة هذه التي تجعل لذة الصلاة بالليل ، مثل لذة التمتع بالنساء ؟!.

---

١ — نهج البلاغة صفحة ٥٠٣ .

انه الاسلام دين الحياة ، والسعادة .

او في الحديث الاخر الـذي يقول : « السرور يبسط النفس .. ويثير النشاط » !..

اذن : فاللهو ، مباح في الاسلام ، شريطة ان يكون في طريق البناء ، والتكامل ، لا في طريق الهدم والتحلل .. في الملاهي ، والسكر ، والعربدة ، وملاحقة الاعراض ، وعرض الافلام الخليعة الرخيصة .. والتسكع على دور البغاء ، وتعاطي المخدرات .. فهذه ليست مع هدف الانسان في الحياة ، وانما هي ضد الانسان وضد كرامته ..

القسم الثالث
في النفس والشيطان

ورد فـــي الدعــاء :

« .. وان خذلني نصرك عند محاربة النفس .. والشيطان ، فقد وكلني خذلانك الى حيث النصب ، والحرمان .. » من دعاء الصباح ، للامام علي بن ابي طالب ــ عليه السلام ــ .

البحث في النفس ، والشيطان ودورهما في اخضاع الانسان ، لسلطة الغرائز ، يحتاج الى مقدمة ، تضعنا على مقربة من البحث .

والمقدمــة هــي :

في داخل كل واحد منا ، قوى متصارعة ومتضاربة ، مكونة ، مــن العقل ، والغريزة ، والنفس والارادة !.. وهي بهذا الصراع ، تتمكن من بناء نفسها .. الامر الذي يجعلك تشعر بأن التضارب انما هو من اجــل الغلبة ، وانزال الهزيمة ، بالطرف الاخر .. وهذا هو بالضبط ، ما يحدث في اعماق الانسان .. فالعقل ، والفطرة وجنودهما ، هؤلاء يشكلون جبهــة الانسانية بكل ابعادها واعماقها .. وفي المقابل ، يقف الشيطان وقبيلــه ، مع النفس وغرائزها ، في صف واحد ، يشكل جبهة الحيوانية ، بكــل نزواتها الطائشة ، وشراستها النزقة !.. ثم ينفجر الصراع ، في معركة لا هوادة فيها ، ولا رحمة ، حتى اذا تغلبت احدى الطائفتين على الاخــرى ، اخذت زمام الفرد ، وساقته الى حيث تشاء !..

وحين يسقط المرء ، في حبائل الشيطان يسوقه الى الهاوية ، حيــث الحرمان . والتشرد .. والضياع !.. اما اذا استطاع الانسان ، ان يتسلق سلم الارادة والوعي ، مستعينا بنور العقل وتوجيه الفطرة .. فانه بــلا شك سيصل الى رحاب الله عز وجل ، حيث السعادة ، والامن والاستقرار .

والســـؤال الان هو :

من اجل ماذا يحدث هذا الصراع ؟!

الجواب ببساطة : يحدث الصراع ، من اجل ان يستكمل الواحد منا ، رحلته في الحياة .. وفي الحقيقة ، ان التكامل لا ينمو ، الا في ظل الصراع ، والمنافسة !.. يدل على ذلك النظام الطبيعي الذي يسير الكون ، والحياة ، والانسان .

وفي الواقع ، ان نظرة عميقة ، نلقيها على ما يدور ، حولنا من جماد ، ونبات وحيوان تكفي لاعطائنا القناعة الكاملة ، بأن التكامل في الحياة ، قائم على اساس الصراع والتحدي ، والمنافسة !..

ومن بـــاب المثال :

قانـــــون الاضــــــداد :

فالذرة ، تجري وفقا لقانون الجذب والطرد في الفيزياء !.

والخلية ، قائمة على الضد ، في النظام الكيماوي !.

والسحاب المسخر بين السمـــاء والارض ، يسير حسب السالب ، والموجـــــب !.

والنجوم ، تسبح في افلاكها ، وفقا لقانون الجاذبية ، الذي يتألف ، من القوة الجاذبة ، والقوة الطاردة عن المركز ــ كما هو معروف في الفيزياء ــ ! وعلى هذا القانون ، تحلق الطيور في جو السماء ، وتطير الطائرات فـــي الهواء .. وتنطلق السفن الفضائية في عمق الفضاء .. والاقمار الصناعية ،

تدور حول الارض !..

اجـــل ..

انه قانون الاضداد ، الذي يسير الحياة .. فحتى الوحوش في الغابة ، لا بد ان تتكيف حياتها مع نظام الاضداد ، فالغزال لكي يستعيد قوتـه ، ويفجر طاقته ، لا بد له من مطاردة الفهـــد .. والحمار الوحشي ، عندما يطارده الاسد ، يحصل على قوته الكاملة .. وهكذا يصبح الصراع في الغابة منبع الكمال ، للوحوش .. وفي الحياة منبع الكمال للبشرية !..

ويوم اخرج العلماء ، قسما من الوحوش ، من الغابة ، خوفا عليها من الانقراض ، وجعلوها في مكان امين تأكل وتشرب ، براحة ، وحرية ، وطمأنينة .. كانت النتيجة مذهلة ، ومدهشة بالنسبة لعلماء الاحياء ، وذلك لانهم ، وجدوا ان الحيوانات ، بلغـت في التكاسل والضمور حـدا — لو استمر — لا يسمح لها في البقاء على قيد الحياة ، لانها فقدت — في مكانهـا الهادىء هذا — كل انواع الصراع ، والمطاردة التي كانت تعيش عليها في الغابة !.. وهكذا كاد الضمور ان يقضي عليها بالكامل .. لو لم يسارع العلماء ، الى ارجاعها الى الغابة ، وتركها تعيش على الطبيعة بين مطاردة الوحوش لها ، ومعاناة الجوع ، والمناخ .

وبمجرد العودة ، الى حياة الغابة ، استعـادت الحيوانات قوتها ، وصحتها الجسدية !..

المنافســـة طريق النجاح :

من هنا ندرك اهمية الصراع ، بالنسبة للتكامل ، في الحياة .. اذ لولا

الاضداد ، لما حدث تقدم ، ولا تطور بالمرة .. لان الاشياء تعرف باضدادها .. وفي الماضي قال المتنبي :

« لولا المشقــــة ســاد النـاســـ كلهم

الجود يفقر ، والاقـــدام قتــــال »

فلولا الجوع ، والغربة ، لما استطاعت الجامعات ان تصنع العباقرة ، والعظماء ، من العلماء الذين غيروا وجه الحياة ، كما يقول الحديث القدسي: « جعلت العلم في الجوع ، والغربة ، والناس يطلبونه ، في الشبع ، والحضر فــلا يجدونـــه » !.

وبالمثل : من الذي جعل البشرية ، تصل الى هــذه الدرجة الرفيعة فـــي الطـــب ؟!.

انه الميكروب ، العدو اللدود للانسان فلولاالميكروب ، لما تقدم الطب !. ولولا الظلام الذي يلف العالم ، لما انبثق نور الكهرباء ، من بين اصابع (اديسـون) .

ولولا الحوار ، والمناقشة ، لما عاش العلم ، لانالعلم يحيا بالنقد ، والرد! — على حد قول الامام علي عليه السلام — وفي الحياة .. المنافسة طريق النجاح !.. يقول القرآن الكريم :

« ... وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .. » المطففين آية ٢٦ .

فلولا المنافسة الحادة ، بين الطلاب .. لما تفـــوق احد في النجاح ، بالنهايـــــة !.

وايضا ، فلولا المنافسة الشديدة بين التجار ، لما ركضت التجارة بسرعة في ربح وانتعاش !.

ولولا التفاوت في الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والفطنة والغباوة ، لما استقامت الحياة !.. ولولا تفاوت الاصابع ، لما تمكن الانسان ان يسمو في الابداع !.

ولولا التدافع الاجتماعي ، لما قامت المجتمعات الانسانية في الحياة ، وهو التدافع الذي اشار اليه القرآن في المجال الاجتماعي وذلك من خلال الآيتين التاليتين :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (سورة البقرة آية ٢٥١) .

ويقول ايضا :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » (سورة الحج آية ٤٠) .

التفسير :

(صوامع) للرهبان (وبيع) كنائس للنصارى .. و « صلوات » كنائس لليهود ، تسمى صلوات لانه يصلى فيها ، (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) وهذه مواصفات للتعظيم ، جاءت تشريفا للمساجد .

اذن : فالتكامل في الحياة ، قائم على اساس الاضداد ، والصراع بين جبهتين ، متعاكستين .. واحدة في الشمال ، والاخرى في اليمين !.

وهذا يذكرني بالشاعر ايليا ابي ماضي ، عندما يخاطب البحر بقوله :

« يرقص الموج وفي قاعك حرب لن تزولا

تخلق الاسماك لكن تخلق الحوت الاكولا »

« قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا

ليت شعري انت مهد ام ضريح — لست ادري ! »

وفي الحقيقة ، ان ايليا ابو ماضي ، عندما قال هذه الرباعية الشعرية ، فاتته حكمة الله سبحانه ، الكامنة وراء هذا الصراع في الحياة !..

وليت شاعر المهجر ، ادرك ان الحكمة السماوية من الصراع ، والاضداد في الحياة ، هي التكامل ، والابداع ... ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة !..

المهم : ان ما ينطبق على الكائنات الحية ، ينطبق على الانسان ، فكما ان الله سبحانه ، قد جعل الكون يسير على كفتين متجاذبتين ، متعاكستين ليقوم النظام .. كذلك جعل الله تركيب الانسان قائما ، على التجاذب ، والتضاد ، ليحدث الصراع ، بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، وبين النور والظلام ، حتى يأخذ التكامل الانساني دورته الابداعية الرائعة .

وهكذا ، يكون الله عز وجل ، قد زرع في داخل الانسان غريزة الخير ، وغريزة الشر من اجل ان يندلع الصراع في اعماق النفس ، ليخلق من البشر ، اما قدوة حسنة ، واما شرارة سيئة !.

يقول القرآن الكريم :

« ونفس ما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

وايضا : فقد خلق الله ، الانسان واعطاه العقل ، والفطرة ، في الوقت الذي زرع في طينته فضيلة الغرائز !.

هذا بالاضافة الى وجود الشيطان ، وقبيله .. اذن : فالعقل والفطرة، والوجدان ، في صراع مع الغرائز والشهوات ، والنفس من جانب ، ومـــع الشيطان وقبيله من جانب اخر !.

ولكي تأتي الصورة ، واضحة ، فلا بد في هذاالمجال ، من معرفـــة المكامن التي يكمن فيها الشيطان وقبيله .. ولا بد ــ ايضا ــ مـــن كشف المنعطفات التي تقبع فيها النفس ، ووسوتها ، والغرائز وعربدتهـــا ، وهذا ما سنحاول طرحه في الصفحات القادمة .

هويـــــة الشيطـــــان :

الشيطان يجري في ابن آدم ، مجرى الدم في عروقه !.. فمن هو هذا الشيطان ؟ وكيف أستطاع ان يحصل على كل هذه الصلاحيات ، التي جعلته قادرا ، على زرع الجحيم ، في صدر الانسان ؟!.

وحتى نعثر على هوية الشيطان ، ونقرأها ، فقد كان لزاما علينا ، ان نرجع الى القرآن ، لكي نتمكن من اخذ الصور ، وجمـــع المعلومات ، عن هذا القريـــن الخبيث، !.

ان اخطر ما يواجه الانسان ، في الحيـــــاة هو : ان يسقط في هاوية الشيطان ، وحبائله ، فيفقد شخصيته ، ويدفن ارادته في التراب ، وبالتالي : يخون امانته ، ويدنس كرامته ، ثم يذبح ضميره على دكة الشهوة الرخيصة ، والنزوة العابرة !..

ومرة ثانية : من هو الشيطان ، وكيف يتم التغلب عليه ؟.

الشيطان كان من الجن ، ففسق عن امر ربه ، وطرده الله مـــــن رحمته .. ويروي القرآن الكريم القصة كالتالي :

« اذ قال ربك للملائكة ، اني خالق بشرا من طـين .. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا ابليس استكبر وكان من الكافريـــن ، قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي ، استكبرت ام كنت من العالين ، قال انا خير منه خلقتني مـــن نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك لعنتي الى يوم الدين ، قال رب فانظرني الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يو مالوقت المعلوم قـــال فبعزتك لاغوينهـــــم اجمعين ، الا عبـــادك منهم المخلصين » (سورة ص آية ٧١ — ٨٣) .

التخطيـــــط الدقيـق :

و في الحقيقة ، كان الشيطان دقيقا في تخطيطه بمقدار ما كان متكبرا ، ولعينا .. فالشيء الملفت للنظر في القصة ، وهو : ان الشيطان ، حين طرده الله من رحمته ، طلب الخلود في الحياة ، الى يوم القيامة .. « قال رب فانظرني الى يوم يبعثون » اي طلب المهلة في الاجل ، وان لا يجري عليه قانون الموت .. وفي المقابل اخذ ابليس بغيته ، عندما اعطاه الله عز وجل ، ما اراد ، من طول العمر .

« قال : فانك من المنظرين ، الى يوم الوقت المعلوم » .

وهنا ، وجد ابليس ، الفرصة تسعى اليه ، حيث اخذ العهد من الله ، على البقاء في الحياة .. فلما اطمأن من الامر ، قال : « فبعزتك لاغوينهم اجمعين .. » !.

ومراجعة خاطفة ، للآية المباركة ، تكشف عن الحقيقة التي تجمع التعبير كله ، وهي ان الشيطان حينما اقسم بعزة الله سبحانه ، على ان يغوي الانسان ، فقال : « فبعزتك » .. انما اراد ان يقول : اي رب ، بما انك عزيز عن الخلق .. خلقتهم احرارا ،« فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر» فان في مقدوري ، ان ادخل عليهم من هذا الباب ، اي باب الحرية في العقيدة .

تأملوا جيدا كلمة : « فبعزتك » ، لتجدوا انها قد جمعت خيوط القصة ، بالكامل !. وهذا يعني ان الله سبحانه خلق الخلق ، حين خلقهم ، غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم لانه ، لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من اطاعه ، فهو — اذن — عزيز عن الخلق .. تركهم احرارا ، في اختيار لون العقيدة ، ولهذا فالشيطان يستطيع الدخول على الفرد ، من خلال نافذة الحرية .. ولكن ذلك ، لا يعني ان ابليس ، في امكانه اغراء كل واحد منا .. ابدا .. فهناك المخلصون ، والاتقياء ، والصالحون ، من المؤمنين الذين عاهدوا الله ، على ان لا يتساهلوا مع الشيطان في كبيرة ، ولا صغيرة .. وهؤلاء المؤمنون ، هم وحدهم الذين يستطيعون ، التمرد على الشيطان ، والخروج على جبهته .. وذلك لانهم ، بلغوا حداً من الصلابة ، والقوة ، والحزم ، في الايمان بالله .. بحيث حتى الشيطان نفسه ، كان قد استثناهم من عمله ، واسقطهم من لوحة الاغراء ، والغواية .. وذلك

يوم قال : « .. ولاغوينهم اجمعين .. الا عبادك منهم المخلصين » (١) .

والذي يشد الانتباه اكثر ، هو ان ابليس كان قد اختار وظيفته هذه ، بعناية فائقة ، وهي وظيفة الاغراء ، والغواية عن طريق دعوة الناس ليكونوا من اصحاب السعير !.. فقد اتخذ موقعا دقيقا للقيام بنشاطه الهدام .. فما هو ذلك الموقع ؟ ! .

الموقع : هو الصراط المستقيم :

يا للفجيعة .. ابليس يقطع علينا الطريق المستقيم ليوقعنا في حباله ؟.. اجل .. اسمعوه ، كيف يحدد مكانه ، وهو يتحدث مع الله عز وجل قائلا .

« .. لاقعدن لهم صراطك المستقيم » (سورة الاعراف ١٦) .

ولان الخط المستقيم ، وهو اقصر الخطوط الموصلة ،بين نقطتين — كما في الفيزياء — فالشيطان يتخذ معه كمينا مناسبا ، يقبع فيه للانقضاض على الانسان في اللحظة المناسبة ! .

ان القرآن الكريم ، يهيب بالعباد ، ان يأخذوا حذرهم ، من مصايد الشيطان ، لانه يزرعها — دائما — في طريق الخير ، ثم يقعد ، على الدرب ، في انتظار ضحيته ! .. « لاقعدن لهم صراطك المستقيم » .

ان وظيفة الشيطان ، تقضي بأن يكون حاضرا عند الصلاة ، والدعاء ،

---

١ — سورة الحجر آية ٤٠ .

وفي قراءة القرآن .. وعند بناء المساجد ، وفي طبع الكتب الاسلامية .. وفي احتضان اليتيم ، ومسح دموعه ، وبالتالي ، فابليس حاضر في كل مكان ينطلق منه الخير ، والصلاح ، لا للمشاركة ، وانما للتخريب .. فحين يريد الواحد منا ، ان يقوم بعمل اسلامي ، فان الشيطان يأتي — هنا — فيكسر عزم الفرد ، ويثبط اندفاعه نحو الخير ، ويطفأ الحماس ، ويقتل الهمة !.. وجرب ان تقوم الى الصلاة ، دون ان تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لتشعر بتيار الهواجس ، والافكار يتدفق في داخلك !.

انه الشيطان ، وليس غيره .

وايضا ، جرب ان تقرأ القرآن ، ليأتي الشيطان فيصرف انتباهك عن القراءة ، ويشدك الى الافكار التافهة الرخيصة ، ولذلك يقول الله عز وجل :

« فاذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .. » .

فالشيطان — اذن — لا يتعامل مع الساقطين في حمأة الجنس والرذيلة ، وانما هو يتربص بالمؤمنين الدوائر ، اما اولئك الذين ، جرفهم التيار فقد تركهم الشيطان مع شهواتهم ، واهوائهم ! .

ولان الشيطان يعرف حجمه ، وحدوده ، ويدرك مدى قدرته على الغواية ، والاغراء ، فقد كان لزاما عليه ان يستثني طائفة من الناس الذين لا يصل الى ساحتهم .. ولا يطال شأوهم .. وبالفعل فقد جاء هذا الاستثناء المنتظر على لسان ابليس نفسه حيث قال :

« ... الا عبادك منهم المخلصين » .

واكد الله عز وجل ، هذا الاستثناء ، قائلا :

« ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ، وان جهنم لموعدهم اجمعين » (الحجر — ٤٢) .

ومرة ثانية ، يأتي التأكيد حادا :

« فاذا قرات القرآن ، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم ، يتوكلون ، انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » (سورة النحل اية ٩٨ — ١٠٠) .

ويقـــول ايضا :

« واما ينزغنك من الشيطان نزغ ، فاستعذ بالله من انه سميع عليم .. ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » . (الاعراف ٢٠٠ — ٢٠١) .

ثم يأتي تحذير شديد :

« انه يراكم هو وقبيله ، من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطـــين اولياء للذين لا يؤمنون » (الاعراف ٢٧) .

ثم تحذير اخر ، ولكنه اكثر شدة هذه المرة :

يقول القران : « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ، ليكونوا من اصحاب السعير » (سورة فاطر آية ٦) .

احتيـــال الشيطان :

جاء في بعض التفاسير ، للقرآن الكريم في قصة آدم — عليه السلام — في الجنة : ان ابليس دخل الجنة ، ليوسوس لآدم عن طريق الاحتيال ، فهو ، اي الشيطان ، احتال في انه ارتدى ثوب الحية .. ولبس جلد الطاووس .. باعتبار ان الحية ، اجمل الزواحف ، والطاووس اجمل الطيور !.

فماذا نستفيـد من هذه الرواية ؟

في الواقع ، ان هذه الرواية ، ترمز الى معنى دقيق جدا ، وهو : ان وظيفة الشيطان ، تتمثل في الغواية .. ومعروف ، ان الغواية لا تخرج الا من خلال الجمال ، والزينة ، باعتبارهما مصدرين ، من مصادر الفتنة !.

اذا عرفنا ذلك ، ادركنا ان الشيطان يعتمد اعتمادا كبيرا ، في طريق الاغراء ، والغواية ، على الزينة والجمال !. فهو من خلال الزينة ، يقـدر على اسقاط الناس في المنحدر .. « .. وزين لهم الشيطان اعمالهم (١) » .. وذلك يعني ان الشيطان ، يزين الاعمال القبيحة ، المنفرة للانسان ، حتى تبدو جميلة ، فاتنة في اعين الاخرين .. « قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولأغوينهم اجمعين » قرآن كريم ، (سورة الحجر آية ٣٩) .

اذن فوظيفة ابليس ، تجميل السيئـات حتى تبدو حسنات في نظـر الغـير !..

يقول القرآن الكريم : « .. افمن زين له سوء عمله ، فرآه حسنا »

---

١ — سورة النمل آية ٢٤ .

.. ويحدث ذلك ــ عادة ــ فيغياب الايمان ، وضعف العقل .. اما حين يعتصم الانسان بالله ، ويستضيء بنور العقل ، فان الشيطان ، حينئذ لا يستطيع الدخول على الانسان ، ولا يقترب منه اطلاقا .

ولكي ينتصر الواحد منا ، على نوازع الشر ، ونزغات الشيطـــان ، فانه يتحتم عليه ، ان يتسلح بالارادة الواعية ، ويستعين بالايمان العميق ، بالله عــز وجل ..

هويــــة النفســـــ :

النفس متعددة الجوانب في الانسان .. وحتى نحصل علـــى صـــورة مستوعبة ، للموضوع ، فانه يجدر بنا ان نأتي البيوت من ابوابها .. والباب الافضل ، لهذاالمجال هو الامام علي امير المؤمنين ــ عليه افضل الصلاة ، وازكى السلام ــ .

يقول كميل بن زياد ــ رضوان الله عليه ــ : قلت لسيدي امـــير المؤمنين علي بن ابي طالب : يا مولاي اريد ان تعرفني نفسي .. فقال له : يا كميل واي نفس تريد ؟!..

قال كميل : قلت يا مولاي ، وهل هي الا نفس واحدة ؟!.. فقال : يا كميل انمـــا هي اربع :

١ ــ النامية النباتية ، ٢ ــ والحسيـــة الحيوانية ، ٣ ــ والناطقة القدسية ، ٤ ــ والكلية الالهية .. ولكل واحدة ، من هذه ، خمس قوى ، وخاصيتـــــان !..

١ ــ اما الناحية النباتية ، فلها خمس قوى :

أ ــ الماسكة .. ب ــ الجاذبة .. ج ــ الهاضمة .. د ــ الدافعة .. هـ المربية ! ..

أ ــ الماسكة ، وهي القوة التي تحفظ الطعام ، وتضبط الغذاء .

ب ــ الجاذبة ، هي التي تجذب الطعام من جدار المعدة ، الى الكبد .

ج ــ الهاضمة ، التي تحول الطعام ، الى خلايا حية في الكبد . حيث يتم توزيعها على الجسم .

د ــ الدافعة التي تدفع الفضلات ، والاحتراقات !

هـ ــ المربية ،وهي القوة التي توجد في الخلية ،فتربيها ، وتنظمها ... ولها خاصيتان : الزيادة والنقصان .

٢ ــ وأما الحسية الحيوانية ، فلها خمس قوى :

أ ــ السمـــــع .

ب ــ والبصـــــر .

ج ــ والشـــم .

د ــ والـــــذوق .

هـ ــ واللمــــــــس .

ولها خاصيتان ، الرضا ، والغضب ، وانبعاثها من القلب !..

٣ ــ والناطقة القدسية ، فلها خمس قوى :

أ ــ الفكـــــــر .

ب ــ الذكـــــــر .

ج ــ العلـــــــم .

د ــ الحلـــــــم .

هـ ــ النباهـــــــة .

.. وليس لها انبعاث ، وهي اشبه الاشياء ، بالنفوس الفلكية . ونها خاصيتان : النزاهة ، والحكمـــــة .

٤ ــ والكلية الالهية : لها خمس قوى :

أ ــ بقاء في فناء .

ب ــ ونعيم في شقاء .

ج ــ وعز في ذل .

د — ونفقر في غنى .

هـ — وصبر في بلاء .

ولها خاصيتان ، الرضا ، والتسليم .. وهذه التي مبداها من الله ، والى الله تعود .

قال : والعقل ، وسط الكل !..

ومن هنا نفهم كلام الامام الصادق — عليه السلام — !

« موضع العقل الدماغ .. » و « القسوة والرقة في القلب » ، يريد أن يقول : ان العقل يؤثر على هذه النفوس الاربع .

وهكذا ظهر ، ان النفوس الاربع ، ما هي الا الغرائز القابعة في الداخل ..

على ان النفس هي مجموعة ، الغرائز في الانسان ، يدل على ذلك قول القران الكريم :

« ان النفس لامارة بالسوء .. » فالغرائز — اذن — هي التي تأمر بالسوء ، ومما يؤكد ذلك ، قول الامام علي عليه السلام : « وايم الله لاروضن نفسي رياضة ، تهش معها الى القرص مطعوما ، وتقبل بالملح مأدوما ، ولادعن مقلتي كعين ماء ، نضب معينها ، مستفرغة دموعها .. » ومن قوله : — تهش الى القرص مطعوما — نعرف ان المراد بالنفس ، هنا مجموعة الغرائز .. وذلك لان كلمة الطعام ، تشير الى غريزة الجوع ، ونفس الشيء ، بالنسبة للبكاء !..

والقران الكريم ، يطلق على سلم الغرائز في الانسان ، اسم النفس.. وهي تبدأ من قاعدة السلم ، حتى تصل الى الذروة الشاهقة ، في القمة .

يقول الامام علي :

« وانما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي ، امنة يوم الفزع الاكبر ..»

وفي الحقيقة .. ان منهج التربية في الاسلام ، يتخذ من التقوى ارضية صلبة ، لتهذيب الغرائز ، وتوجيهها نحو البناء .. فاذا وصلت النفس ، الى هذا المستوى من الكمال ، تحولت الى نفس مطمئنة .. يأتيها النداء ، في ساحة الاخرة :

« يا ايتها النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية ، وادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي .. » .

وقد اشار الامام علي ، الى هذه النفس مرتين : مرة : حين قال : « .. لتأتي (اي النفس) امنة يوم الفزع الاكبر .. » .

ومرة ثانية :

حين قال : « وهذه (اي النفس) مبدأها من الله والى الله تعود ..»

والسؤال الان هو :

متى تصل النفس ، الى درجة الاطمئنان ؟

بصراحة : النفس تكون مطمئنة ، عندما يسيطر العقل على الغرائز ، هنالك فقط يشعر المرء بوجوده الانساني ، لانه حينئذ ، يعود الى منبعه

الصافي ، وهو الانسان الذي سجدت له الملائكة ، في البداية .

وفي الحديث الشريف : ان الله يحب المؤمن القوي !.

القوي امام الشيطان .. والقوي امام الشهوات ، والغرائز ، والمغريات ، ولا يمكن ان يصل الانسان ، الى هذا المستوى من القوة دون ان يحكم العقل على الغرائز !..

وعندما تصبح الغرائز ، في خدمة العقل ، يصبح الفرد ، مناقبيا من الطراز الرفيع .

اما حين يسقط العقل ، تحت ثقل الغرائز ويصير في خدمة الشهوات، فساعتئذ ، يسقط الانسان ، وتنهار اعمدته المعنوية وتتهاوى شخصيته !!..
اذ فلا مكان في الحياة للضعيف امام الغرائز ، والشهوات .

يقول القران :

« واما من خاف مقام ربه ونهى ، النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » .

ويقول الرسول الاعظم :

« ان اخوف ما اخاف عليكم اثنان ، اتباع الهوى وطول الامل .. فاما اتباع الهوى ، فيصد عن الحق ، واما طول الامل ، فينسي الاخرة .. » .

وفي الحقيقة .. ان المسالة تتلخص في الكلمة المعروفة ، (تكون او لا تكون ، ذلك هو السؤال) .

فالمهم أن يقرر المرء ، اما ان يكون ، واما ان لا يكون .. فاذا قرر أن يكون شيئا مذكورا ، عند الله ، عز وجل .. وفي خدمة الناس ، فلا بد له من اخذ زمام المبادرة ، باشعال نور العقل ، واطفاء لهب الشهوات، والغرائز ، على الفور ، وتصفية الحساب مع الشيطان ، مستعينا بالله ، ومتكئا على صخرة الارادة !.

والله سبحانه ، خلق البشر ، وجعله حرا في اختيار الطريق .. « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا .. » ومن خلال هذه الـ (اما) نعرف ان الانسان يتمتع بالارادة ، والعقل ، والفطرة ، والوعي .. والا . فلو لم تكن هذه الميزات موجودة عند البشر ، لما قال الله في مواصفاته : « اما شاكرا ، واما كفورا .. » ولكنها تعني مسؤولية الانسان في اختيار الطريق !..

ومن باب المثال : نجد القران ، في الانسان يقول : اما شاكرا ، واما كفورا .. » بينما في الحيوان ، لم يقل (اما) وانما قال : « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ، ومما يعرشون » .

تأملوا جيدا .. انه لم يقل ، واوحى ربك الى النحل ، اما ان تتخذي من الجبال بيوتا ، واما ان لا تتخذي !!.. ابدا ، لم يقل مثل ذلك .

والسبب واضح ، وهو ان الانسان ، يتحمل مسؤولية اعماله ، لانه هو الذي اختارها ، في كامل الحرية .. في حين ان الحيوان لا يتحمل اية مسؤولية ، وذلك لانه لا يمتلك العقل ، ولا الارادة !.

من يحرك النفس ؟

١ ــ ماركس : الاقتصاد !.

٢ ــ فرويد : الجنس ! .

٣ ــ سارتر : حب الذات ! .

٤ ــ دركايم : المجتمع ! .

٥ ــ الاسلام : العقل وجنوده ، والجهل وجنوده ..

ومن اجل اعطاء الموضوع حقه من البحث العلمي ... علينا ان نسير، في ظلال هذه النظريات خطوة ، خطوة ، حتى ترتسم الصورة امامنـــا ، بوضوح .

ونعود الى السؤال من جديد ، من يحرك النفس ؟

ويجيب (كارل ماركس) : ان المحرك الاول ، في الانسان ، هو العامل الاقتصادي ! .

وفي الحقيقة ان الاقتصاد ، له مكانة كبيرة ، ومؤثرة على الفـــــرد والمجتمع ، ولكن ليس هو كل شيء ، في اعماق النفس .. فهناك مواطن اخرى ، في الداخل ، ولكل واحد منها ، ابعاده ، واثاره الايجابية ، والسلبية على الانسان ، والتي تنعكس على السلوك ، والمعاملة ، هذا بالاضافة الى وجود الارادة ، التي تتعالى على كل الاتجاهات النفسية .. على ان الاسلام، لا ينكر ، دور الاقتصاد ، في الحياة ، والسعادة ، والاستقرار ، فقد ركـز الاسلام ، في مناهجه الاقتصادية ، على توفير الامن والطعام ، قبل كـــل شيء .. وقد شن الاسلام ، حملة ، عنيفة ، ضد الفقر ، والجوع ، حتـى قال : « عجبت لمن لا يجد قوت يومه ، كيف لا يخرج على الناس ، شاهرا سيفه » .. وايضا يقول : « من لا معاش له لا معاد له » و « ان مــن الذنوب ذنوبا ، لا يكفرها ، الا الهموم في طلب المعيشة .. » .. ولكـــن

ذلك لا يعني ــ بالضرورة ــ ان الاقتصاد ، هو كل شيء في حياة الفرد ..

هذا ، وقد شرع الاسلام ، اروع نظام للاقتصاد ، بحيث ما عــــرف البشر ، له مثيلا في تاريخه ، الطويل ، ويوما بعد يوم اخــــذ الاقتصــــاد الاسلامي ، يثبت بأنه جدير بقيادة العالم ، دون غيره ، من النظام الاقتصادي، خصوصا ، بعدما فشل الاقتصاد الراسمالي وكذلك فشل الاقتصــــاد الشيوعي في حل مشاكل العالم الاقتصادية .. فكانت النتيجة ، لهذا النظام المادي البغيض ، ان تموت الملايين من البشر جوعا في الوقت الذي تبقــى فيه ، ملايين (الفدانات) من الارض الصالحة للزراعة ، يابســــة .. هامدة .. بلا زرع ، ولا ضرع !.. والفقر يطارد النفوس اللاهثة !..

وقفة مع فرويد :

وعندما نطرح نفس السؤال على فرويد ، « من يحرك النفســــس ؟ » يجيب فرويد ، ان الغريزة الجنسية ، هي وحدها التي تحرك الفرد ، ثــم يستطرد قائلا : ان في داخل الفرد ، غريزتين فقط ، وهما : غريزة الجنس.. وغريزة حب الذات .. وتتفرع كافة الغرائز ، من هاتين الغريزتين !!.

ومن باب المثال ــ والكلام ما زال لفرويد ــ ! من غريزة حب الذات، تتفرع سلسلة الغرائز التالية : العطش ، الجوع ، الخوف ، الحرص ، النوم ، حب المال ، حب البقاء ، الحسد ، الطمع ، الى اخر القائمة !..

ومن غريزة الجنس ، يتفرع : حب الاولاد .. العلاقة الاجتماعية .. لذة المناظر الطبيعية .. الاحلام في النوم .. والى اخر خبطات فرويد !..

والغلطة التي وقع فيها فرويد ــ علميا ــ هي : انه جعل من الجنس

محرابا يسجد فيه الانسان .. وفرويد يقرأ الجنس في براءة الطفولة ، وفي زقزقة العصافير .. ويسمع خرير الجنس مع خرير المياه ، وحفيفه مع حفيف الشجر ، وهو يرى : ان الطفل يدفعه الجوع الجنسي ، الى صدر أمه ، ثم تنشأ عنده (عقدة أوديب) بفعل وجود الاب .. وكذلك البنت ، تحاول ان تلتصق بأبيها ، وبفعل وجود الام ، تنشأ عندها نفس العقدة !.

وأيضا ، فرويد ، يقرأ الجنس في عيون المصابين ، بالامراض النفسية ، بحيث يرد كل الامراض النفسية ، الى الجنس .. ولذلك استجابت اوربا لنداءه ، يوم قال : « اقضوا على الامراض النفسية ، باطلاق حرية الجنس .. واباحته الكاملة للشباب ، حتى يتمتعوا بلذة الجنس من أجل القضاء الكامل ، على الامراض النفسية ، على حد زعمه .

وماذا كانت النتيجة ؟!..

لا شيء سوى الانحلال الخلقي ، والسقوط المعنوي ، ومزيد من الانتحارات ، ضمن موجة الضياع اضافة الى موجات الشذوذ الجنسي الرخيص ، الذي يجتاح الغرب ، والشرق ، والذي ادى بدوره ، الى مزيد من الامراض الجسدية ، ومضاعفة الامراض النفسية !.

ومرة أخرى ، سقط فرويد في التيه ، عندما فسر الحوادث المادية ، تفسيرا جنسيا محضا ، ومنها تفسيره للمنام على اساس الجنس .. وهذا يدل على تطرفه الشديد الحاد ، في هذا المجال .. علما بأن الحقائق والارقام العلمية ، اثبت ان المنام ، لا علاقة له ، بالجنس على الاطلاق .. اضافة الى ان القرآن الكريم كان قد اشار الى هذه الحقيقة ، قبل العلم الحديث ، وذلك من خلال قصة يوسف — عليه السلام — !.. زد على ذلك ما قال العلماء المسلمون في هذا المضمار ، من قبيل ابن سيرين .. وابن سينا .. والطوسي ، والنبد ، وغيرهم ، مما يؤكد فشل النظرية الجنسية ، في هذا الجانب بالذات .

على ان هناك ، قسما من اراء فرويد ، تتمشى مع الفكر الاسلامي ، ولا تخالفه ، وسنطلع عليها قريبا ، باذن الله .

الجنس بين الاباحية والرهبانية :

وفي الواقع ، ان الغريزة الجنسية — في الغرب — ارتطمت بصخرتين شرستين همـا :

الاباحة .

والرهبانية .

وكلاهما يؤديان الى الفساد ، فالاباحة الجنسية تؤدي الى تفكك المجتمع ، وتمزيق الامة ، حيث الامراض الجنسية المرعبة ، تقضي على قوة الشباب ، وروحهم الانسانية ... اما الرهبانية ، فانها تؤدي الى الكبت، والحرمان ، وتخلق دمامل العقد في النفس ، وحينئذ تنشأ الامراض النفسية القاتلة نتيجة الكبت ، وعدم الزواج ..

اذن : فالاباحة تنتهي الى الامراض الجسدية ، بينما الرهبانية تنتهي الى الامراض النفسية ، وأخيرا الى محطة الجنون .

وهذا لا يعني بالضرورة ، ان فرويد ، كان على حق يوم ارجع سبب الامراض النفسية ، الى الجنس .. فهناك مدرستان تخالفان فرويد : مدرسة علم النفس الحديث ، والمدرسة الماركسية ..

فعلم النفس يقول : ليس صحيحا ، ان الامراض النفسية كلها ناشئة، من عمق الجنس ، بل الصحيح ان قسما من هذه الامراض مرده الى

غريزة الجنس وليس كل الامراض .. فهناك موكب الغرائز الهائل ، في داخل الفرد ، مثل غريزة حب الذات ، وحب المال ، والتفوق ، وغريزة الاجتماع ، وما شاكل ذلك .. وهذه كلها لها الاثر الفعال ، في انبات الامراض وزرعها في النفس ..

أما المدرسة المادية ، التي يمثلها الماركسيون الشيوعيون ، فهي تقف ضد فرويد ، من البداية .. وذلك لان الفكرة المادية لا تؤمن بالنفس ، ولا بالاحلام ، وانما هي ترى الغرائز من خلال النظرة المادية البحتة .. وتعتقد الشيوعية ، بأن الامراض ، ناشئة من الضغوط الاقتصادية ، والحرمان والفقر ... — كما مر علينا راي ماركس في الاقتصاد — .

والخلاصة ، ان نصف نظريات فرويد مقبولة لدى الجميع ، أما النصف الاخر وهو ٥٠٪ فمرفوض في الشكل والتفصيل ، من قبل كافة المحافل العلمية والجامعات في العالم !.

دقيقة واحدة مع فرويد :

في أيام الطفولة ، تكون الشفاه ، موضع الاثارة الجنسية ، والمركز الاكثر حساسية ، لدى الاطفال ولذلك ، فالطفل يأخذ الثدي ، بدافع جنسي محض ! . ثم تسري سخونة الجنس ، في أوصال ايام الطفولة ، حتى يصل الطفل الربيع السادس من العمر — حينئذ تجمد الغريزة الجنسية ، نشاطها بالكامل .. قرابة سبع سنوات حتى يصل الى السنة الثانية عشرة. وذلك لاعطاء العقل فرصة البناء ، والنمو ، والتكامل .. لان العقل يبدأ نشاطه في مطلع السنة السادسة — كما هو ثابت في العلم — الى نهاية السنة الثانية عشر .. وقد اكد العلم الحديث ، ان الافراط في الجنس ، يؤثر على النشاط العقلي .. حتى يبدو ، وكأن الجوع الجنسي يعطي العقل

قدرة على الابداع ، والتكامل . للمزيد من المعلومات راجع كتاب الانسان ذلك المجهول .

والحقيقة ، ان النتيجة الاخيرة التي بلغها فرويد هنا ، هي صحيحة مئة بالمئة ، وتتمشى مع الاسلام جنبا الى جنب ..

فالاحاديث الواردة ، عن اهل البيت — عليهم السلام — تؤكد ان اللذة الجنسية تتوقف لسبع سنوات عند الاطفال . من اجل ان يعيش الطفل بلا هوس ، ولا انحراف ، لكي يصل البناء البيلوجي الجسدي ، الى مرحلة الرشد ، وعندئذ تصير القوة الماسكة على اشدها فيأخذ هرمون البلوغ في الترشح ، والافراز وتبدأ صفارات الانذار عند الشباب ، تطالب بالزواج واشباع الغريزة الجنسية .. وصفارات الانذار هذه ، هي علامات البلوغ ، عند البنت ، والولد ..

يقو ل الاسلام : اذا بلغ الاطفال ست سنوات اعزلوا منامهم .. فقد ورد عن الامام الصادق — عليه السلام — : «مروا اولادكم على الصلاة ، وهم ابناء سبع سنين ، وفرقوا بنيهم في المضاجع » .

وذلك لان الانحراف الجنسي ، تتشكل بذوره في هذه الفترة بالذات ، اي من السنة ٦—١٢ .

والواقع ان الاسلام ، بمناهجه التربوية الحكيمة ، يخلق جوا تربويا للطفل ، من أروع ما يكون .. انه يحذر الاباء والامهات من مغبة السقوط في الغضب ، والعراك المستمر في البيت .. فان ذلك يقتل مواهب الطفل ، ويحرق طاقاته بلهيب الصياح ، والعربدة داخل الاسرة .. وقد اثبت العلم الحديث ، ان العراك الذي ينشب بين الازواج داخل البيت ، يؤدي — بالقطع — الى اضعاف رشد الاطفال ، ونقص وعيهم !.

هذا من ناحية ، اما من ناحية اخرى ، فالاسلام يركز في مناهجه ، تركيزا عميقا ، على عدم اثارة مكامن الجنس لدى الاطفال في هذا الدور بالذات ، بغية الحفاظ على مستواهم العقلي ، والرشدي ، وقد بلغ من حرص الاسلام على ذلك ، ان ذكره في القران الكريم .

« يا أيها الذين امنوا ليستئذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ، ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ، ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين لكم الايات ، والله عليم حكيم .. واذا بلغ الاطفال منكم الحلم ، فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم اياته والله عليم حكيم » . (سورة النور اية ٥٨ — ٥٩) .

والاسلام هنا ، يشرع قانونا تربويا يقضي بمنع الاطفال من الدخول ، الى غرفة النوم الزوجية ، في ثلاثة اوقات .. من قبل صلاة الفجر .. وهو وقت — في الاغلب — يكون فيه الزوج والزوجة ، في حالة عميقة من الحب ، واللقاء الجنسي .. ونفس الشيء بالنسبة لوقت الظهيرة ، وبعد صلاة العشاء .. فهذه اوقات ثلاثة لا يسمح فيها بدخول الاطفال والصبيان ، في المخدع الزوجي .

وهذا يدل على حرص الاسلا مالشديد ، على عد ماثارة الشهوة لدى الاطفال ، خلال هذه الفترة بالذات .

وفي التاريخ الصحيح ، ان الامام الرضا — عليه السلام — كان في مجلسه ، جماعة من المسلمين ، عندما دخل رجل وبصحبته طفلة جميلة في سن السادسة من العمر ..

ويبدو انها استقطبت الانظار ، وشدت القلوب نحوها ، بحيث

قام احد الحاضرين ، وطبع قبلة ساخنة على خدها !!..

وما كاد الامام الرضا ، ينظر اليه ، حتى انفجر غاضبا ، ومنعه من تقبيلها ، قائلا له : ولماذا قبلتها ؟ .. ليس من حقك ان تقبل بنتا في مثل سنها ! » .

على ان الامام — هنا — انما اراد ان يقول :

لا توقظ شهوتها ، لانها ، في مرحلة الاعداد العقلي ، والتكامل الرشدي !..

القسم الرابع
في تسليط الضوء
على نظرية دارون

دارون ، والتطور :

في نظرية التطور ، يقول دارون : ان الكائنات الحية ، تفرعت من اصل واحد ، وتناسلت من خلية واحدة ... فالهيكل العظمي ، هو نفسه في اغلب الحيوانات الفقرية ... اليد في القرد ، هي الجناح في الطائر ، وفي الخفاش نفس العظام ، مع تحورات طفيفة ، طرات عليه ، بسبب البيئة ... ونفس الفقرات السبع التي في رقبة الانسان ، موجودة في رقبة الفيل ، والقنفذ ، وكذلك فهي ، في رقبة النملة ، والزرافة !.. ثم نجد القلب بغرفه الاربعة ، في الانسان ، وفي القرد ، وايضا في الارنب ، والحصان .. ونفس الخطة في تفرع الشرايين والاوردة ، ويقال في هذا ، يقال في بقية الاجهزة داخل الجسم ..

وفي كتاب اصل الانواع ، ان دارون حين لاحظ هذه الصورة الموحدة في الاحياء — خلال رحلته المعروفة ، في السفينة « بيجل » — اعلن نظريته التي تعتمد في الاساس على قفزات التطور .. ظانا ان المخلوقات بدات من خلية واحدة عبرت الى الارض ، فتفاعلت ، وتفاعلت ، حتى تفتقت واعطت هذا التنوع في الكائنات الحية ، وفق متطلبات البيئة ، وحسب قانون بقاء الاصلح .. وبمرور الايام حدث ان انفجر الوضع بين الكائنات ، فوقعت حرب دامية ، استطاعت خلالها الكائنات الاكثر قوة ، وصلابة ، ان تفرض وجودها بفعل الناب والمخلب ، في حين انهزمت فيه الكائنات الضعيفة الاخرى !.. وهكذا انتهت المعركة ، بانتصار الحيوانات القوية ، واحتلالها الارض ، حيث سكنت في الغابات .. بينما انقسمت الحيوانات الضعيفة الى شطرين ، احدهما : القى بنفسه الى احضان الماء ، وراح يمارس السباحة — قهرا — حتى تكونت له اعضاء توافق المناخ المائي — اما الشطر الثاني ، فقد طفر في الهواء — خوفا من السباع — وراح يمارس الطيران ، حتى تكونت له اجنحة !.. وبهذه الطريقة توزعت الكائنات ، على

ثلاث جبهات : جبهة الماء ، وجبهة الهواء وجبهة الارض !.

ويضيف دارون قائلا : ثم الا تقص علينا ، طبقات الصخور : بـأن الحيوانات التي عاشت في الماضي — وما زالت — انما بدات من الخلية ، الى الكائن ذي الخلايا المتعددة ، حتى وصلت الى القرد (جـد الانسان الاول !) . وجاء الانسان من سلالة القرود ، والخيل ، والكلاب والضفادع.

ولكن كيف تحول القرد ، الى انسان مفكـــر ، عاقل يتمتع بالارادة الحـــرة ؟!.

يجيب دارون على هذا السؤال ، من خلال قصـــة خرافية خياليـــة يقـــول فيهـــا :

ان الانسـان الاول ظهر في افريقيا ، وذلك قبل حوالي عشرين مليـــون سنة ، كان هناك شعب من القردة في كينيا ، يعيش في بحبوحة ويسر .. ثم جاء وقت ، توقفت فيه السماء عن المطر بالمرة ، وعم الجفـــاف المنطقة، وحل فيها القحط طوال ١٢ مليون سنة ، مما ادى الى ابادة معظم القردة ، وبعد انقضاء المحنة الطويلة هذه ،كانت القردة التي ظهرت ، قـد توقفت عن المشي ، على اربع ، واخذت تمشي على رجلين فقط !.

والسؤال المطروح هو :

لاي سبب مشت القردة ، على رجلين بدلا من الاربع ؟!.

يقـــول دارون :

ان القردة ، كانت تتعرض للمطاردة من جانـــب الحيوانات المفترسة الاخرى .. وبفعل ذلك ، اضطرت ان تسير على رجلين اثنين فقط ، لكي

تصبح اكثر قدرة على العدو ، والركض السريع !..

ويقول العالم الامريكي — روبرت اردري — : « لقد تعلمنا ان نقف مستقيمين ، على قدمين اثنين ، لان الضرورة — ضرورة الصيد والمطاردة المزعومة — احوجتنا الى ذلك .. الا ان هذا الكلام ، مجرد ادعاء فارغ من الحقيقة ، وعار من المحتوى .. اذ كيف يمكن ان نصدق ذلك .. ونحن نعرف — باليقين — ان الحيوان يستطيع ان يركض اسرع ، بواسطة قوائمه الاربع فقط ، لا عن طريق قدمين اثنين ، كما يقول دارون .. فالحقيقة ان الحيوانات ، ليس في مقدورها ، ان تركض بسرعة فائقة ، دون ان تستخدم ارجلها الاربع .. » !.

اما عالم الاجناس (ديمسوند موريس) فيرد على هذا الزعم بقوله « لا يمكن لا للقرد الحالي ، ولا للقرد الماضي الذي يقول دارون : انه جدنا !. ان يسير على قدمين الا لمسافة قصيرة جدا ، وبعدها ، يرجع الى فطرته الاولى التي فطره الله عليها ، وهي المشي على اربع » .

ونسأل انفسنا :

لماذا اراد (دارون) ان يصور اصل الانسان ، بهذه الصورة البشعة، التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ؟.

والجواب معروف سلفا .. ولكن قبل الدخول في تفاصيل الجواب .. يجب علينا ان نسلط الاضواء على نظرية دارون ، المتهافتة ، الهرمة ، حتى نعرف الخلفيات التي تقف وراء هذه النظرية ، ونلمس الاصابع التي تتحرك في الظلام ، لنشرها ، وترويجها ثم زرعها بين صفوف الشباب ، بغية القضاء على الدين . .وابتغاء هدم الاخلاق في النفوس !..

والواقع ان دارون ، اخطأ ووقع في التيه ، مرتين : مرة حين حاول ان يفسر عملية التطور ، والنشوء والارتقاء .. ومرة حين كتب في هوية

الانسـان ، انه من عائلة القرود والضفادع !.

كان تفسير دارون .. انه يتم بالعوامل المادية التلقائية وحدها ، من دون سبب اخر ، فالحيوانات تتقاتل فيما بينها ، من اجل الحصول علـى الحياة ، والفوز بالقوة ، وهكذا ينتصر الحيوان القوي ، على الضعيف ، لان الاول ، اصلح للحياة ، من الثاني ، وبفعل شدة القتال ، تتفـــرق الحيوانات الضعيفة .. فقسم منها يطير في الجو .. بينما القسم الثاني ، يسبح في الماء ، في حين ان القسم الثالث يحتمي بقشرة الارض .. وبالتالي يكون البقاء دائما ، للاصلح ، وليس لغيره !.

واول مأخذ علمي ، على هذه النظرية ، هو : انها لم تفسر لنا ، بقاء الاجمل ، والانفع ، وايضا بقاء الاضعف الى جانب الاقوى .. فالنملــة باقية الى جانب الفيل ، والحصان .. والفراشة باقية الى جانـب الصقر ، والعقـــاب!.

ان المناخ المنقوش ، لا يمتاز بأي صلاحيات مادية ، تجعله اقوى من الجناح غير المنقوش ، وليس اكفأ منه في الطيران .. هذا بالاضافة الى ان الفراشة التي تملك اجنحة مستقيمة النقوش ، ملائكية اللون ، تتمتع بقدرة على الطيران والتحليق ، اكثر من الطاووس ومالك الحزين وبقية الطيـور ، التي تسمى : طيور الحب ، مثلا !..

فلو كان البقاء للاصلح ، والاقوى ، فلماذا — اذن — جناح الفراشة ، اكثر فعالية ، من جناح الطاووس !.. واذا دخل بقاء الاجمل في الحساب ، فان النظرية تنهار من الاساس ، اذ تظل عاجزة عن اعطاء اي تفسير لمـا يحدث في اعماق الوجود .

« واخطأ دارون مرة اخرى حينما قال ، بطفرات التطور .. والطفرات

هذه — كما يقول دارون — : هي الصفات الجديدة التي تأتي علـــى حين غفلة ، وبصورة فجائية دون الاخذ بعين الاعتبار ، عملية التزاوج والتلاقح ، بين خلية الذكر ، وخلية الانثى .. ودون ان تأخذ في الحساب ، عنـــاق (الكروموسومات) فيفراش الرحم ، لتحديد الصفات الوراثية ، وهـــذه اعمق هوة ، سقط فيها دارون ، اما مالارقام العلمية (١) » .

وايضا يقـــول :

« ان هذه الطفرات ، قد تأتي بصفات ضارة ، غير مفيدة ، مثـــل التشويه ، وغيره واحيانا تأتي بصفات مفيدة ، للبيئة التي ينزل فيهـــا الحيوان .. كأن تظهر للحيوان الذي ينزل في الماء ، ارجل مبططة ، فتكون صفة جديدة مشجعة ، وذلك لان الارجل المبططة ، انسب للسباحة فتشجع الطبيعة هذه الصفة ، في حين تقضي على الصفة القديمة ، صفة الارجـــل غير المبططة ، لعدم صلاحيتها في الماء ، وبذلك يحدث الارتقاء ، ويتم التطور ، فتتطور الارجل العادية ، الى ارجل غشائية .. وخطأ هذه النظرية انهـــا قامت على اساس الخبطة العشوائية ، واسقطت النظام ، والابداع مـــن حسابها تماما ! .. (٢) » .

على ان النظام الرائع الذي يلف الكون في دقـــة متناهية ، وعدالة تستولي على القلوب .. يكذب النظرية بشدة ... اذ كيف يمكـــن ان يحدث ذلك نتيجة ، خبطات عشوائية ، وصدفة عمياء ؟!.

والشق الفاضح في نظرية دارون ، هو الرقم العلمي الجديد .. فالعلم

---

(١) للاطلاع راجع كتاب لغز الحياة لمصطفى محمود .
(٢) للتوسع راجع نفس المصدر .

الحديث ، اكتشف الخريطة « الكروموسومية » او خريطة الجينــات .. ولا شك ، انه اكتشاف يفتح جرحا عميقا ، في النظرية لا يندمل ابدا .. وذلك لان الرقم العلمي هذا ، يؤكد بالقطع انه : من المستحيل ان ينحدر نوع من الحيوان ، من صلب نوع اخر ليس منفصيلته .. وذلك بسبب اختــلاف الخريطة الكروموسومية !.. هذا بالنسبة للحيوان ، فما بالكم بالانسان الذي انحدر من اصلاب القرود ــ على حد زعم دارون طبعا ــ ؟!.

والسؤال هــو :

اذا كان الانسان منحدرا من اصلاب القرود ، فكيف يرتقي الفــرع ، ويبقى الاصل في حيوانية طبيعية لم تتأثر منذ آلاف السنين ؟!.. واين هذا الانسان الذي تدعونه ، بانسان الغاب ، الذي لا وجود له الا في مخيلة دارون نفســه ..؟!..

ولماذا توقف هذا التطور .. اذا كـــان هناك تطور بالمعنى الحرفي للكلمــــة ؟!.

والمنعطف الحاد الذي جنحت فيه النظرية هو : اذا كان اصل الانسان ، تابعا من القرد ، فكيف ــ اذن ــ تمكن الفرع ، وهو الانسان، ان يتغلب على الطبيعة ، فيغزو الفضاء ، ويغازل الكواكب ، ويغتصب النجوم ، ثم يعود الى الارض ، ليفلق الذرة ويقطع اوصال الخلية ، وبالتالي يتفوق ، على بقية الكائنات الحية ..! في حين ان الاصل ــ وهو القرد ــ يبقــى قابعا في الظلام ، لا يعرف حتى جغرافية الغابة التي يسكنها !.

فكيف امكن للانسان الفرع ، ان يتعالى علوا كبيرا في المجال الحضاري .. بينما يظل القرد الاصل غارقا في الجمود ، والغباء ، والحيوانية ؟!.

انه مجرد سؤال .. ولكنه يدلنا على التهافــت البغيض ، في نظرية

دارون !.

على ان الارقام العلمية ، ترفض بشدة ان يكون الانسان ، قد انحدر من اصلاب الضفادع ، والقرود — كما تقول الداروينية — !.

ومن باب المثال : يوم اجرى العلماء تجارب عديدة على دماغ الانسان ، ودماغ القرد ، ظهر لهم : ان خلايا الدماغ لدى الانسان تسبح في الامواج الفكرية ، وتعطي طاقة كهربائية محملة بالفكر والفطنة ، بينما لم يكن في دماغ القرد اي أثر لهذه الامواج ، على الاطلاق !.

هذا ، وقد اكد العلم ، ان القرد يفقد في دماغه مركز النطق ، ولذلك ، فهو لا يتمكن من النطق رغم المحاولات اليائسة التي بذلت في هذا المجال ..

وفي امتحان سريع ، اجري على مخ الانسان ومخ القرد ، ظهر واضحا ، ان القرد ليس في امكانه ان يتحكم في خلايا الدماغ بالمرة ، على العكس تماما ، من الانسان الذي في امكانه التحكم الكامل والسيطرة التامة ، على خلايا الدماغ ، كما هو ثابت لدى المحافل العلمية !.

وتلك حقيقة ، ليس عليها غبار ، فالانسان عاقل مفكر واعي ، في حين ان القرد ، حيوان غرائزي ، يعيش في بعد واحد ، منذ ملايين السنين ، والى قيام الساعة .. بالاضافة الى ان الجامعات العلمية ، رفضت نظرية دارون ، رفضا قاطعا ، كما جاء ذلك في (مجلة عالم الفكر الكويتية ، في العدد الرابع من المجلد الثالث) ان دارون قال : ان موقفي حول نظرية التطور — اي اصل الانسان — هو موقف اللاادري .. وذلك لانني ، لا استطيع ان القي بصيصا على مثل هذه المسائل العميقة .. » .

وقد ذكرت الارقام ، العديد من اقوال العلماء ، في نقض النظرية الداروينية .. من قبيل الدكتور الامريكي (باستون) و (ليزلي وايت)

و (دارت) و (يلير هكسلي) وكثيرين غيرهم (١) » .

وقد استبدل علماء الغرب ، النص الخاص بنظرية دارون ، مكـــان نص جديـــد يقول :

« ان نظرية دارون افتراضية ، وليست حقيقية .. » كما قرر المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا ، في اميركا .. ان تشير جميع ، الكتب المدرسية للعلوم ، الى ان نظرية الارتقاء الداروينية ، بأنها نظرية افتراضية ، وليست حقيقية فقد اثبتت الارقام العلمية ، ان نظرية النشوء والارتقـــاء ، والتطور ، لا واقع لها من الصحة ، على الاطلاق ، وقد اوردت هذا الخبر ، مجلة (الايكونوميست) الاسبوعية البريطانية في عددها الصادر في ١٠ مارس ١٩٧٣ (٢) » .

ثم جاء العالم الالماني (كوهلر) مؤكدا بتجاربـــه ودراساته ، خطـأ دارون ، وتبعه العالم الاميركي (شلر) الذي عاش بين القردة ، والشمبانزي ليؤكد عدم التشابه ، والانحدار ، والرقي الذي ذهب اليه دارون .. ثـــم جاءت اليوم ، عالمة امريكية تسمى (الين مورغان) تدافع عن بنات جنسها ، ضد نظرية دارون ، نافية بشدة ، ما ذهب اليه في الحاقها بغابة القردة ، وذلك ضمن كتاب اصدرته بهذا الصدد ، يسمى (اصل المراة) وقد احدث الكتاب ضجة في الاوساط العلمية ، وسجل ارقاما قياسية في البيـــع ، لما فيه من الادلة العلمية ، الصارخة التي تؤكد عدم انتماء الانسان ، الـى القرد ، لا من قريب ، ولا من بعيد ، وبالتالي بطلان النظرية ، واستحقارها!. قالت العالمة الين مورغان في كتابها (اصل المراة) :

---

(١) مجلة تراث الانسانية العدد (١) المجلد ٩ سنة ١٩٧١ .
(٢) من جريدة الاخبار المصرية في ٢٣ ــ ٣ ــ ١٩٧٣ .

« ونقا لما جاء في الكتب السماوية ، فان الله سبحانه ، هو خالق كل شيء ، وهو الـذي خلـق الانسـان ، في أحسن تقويم ، واعطـاه الجمال والعقل ، والفكر ، وافاض عليه من الخيرات وسخر له السموات والارض ، واكرمه واجله .. فليس الانسان حفيد القرد ، كما يقول داروين ، فقـد اكدت البحوث العلمية ، فشل النظرية الداروينية ، وعدم صحتها ـــ مئـة بالمئة ـــ فانه من المستحيل ان يتحول القرد الاعجمي ، الى انسان عبقري ، مفكر ، مبدع .. (١) » .

القرد الصامت :

وايضا ، فقد اثبت العلم ، استحالة تعويد القرد وتدريبه على الكلام ، لعدم سيطرته على خلايا النطق في الدماغ !.

ثلاث سنوات من التحضير ، والعمل ضاعت في مختبرات العلماء ، دون جدوى ، فقد اعلن البروفسور الالمانـــي (يلوج) من معهد ماكس لعلم الكائنات الحية فيميونيخ ، ان التجارب التي اجراها ، المعهد المذكـور ، في ميدان تعويد القرود ، على الكلام ، برهنت بشكل قاطع ، على استحالة تمكن القرد ، من الكلام ، والنطق وبهذا فقد العلماء ، والخبراء الالمان ، نهائيا في امكانية تعليم القردة على النطق ، حتى بكلمات قليلة ، وتلخصت هذه التجارب بجلب ، قرد من نوع بريمات ، من جنوب امريكا ، بعـد ولادته مباشرة ، ووضعه في غرفة خاصة ، تحيط بهـا الاشجار في مدينة ميونيخ بعيدا عن اي حيوان اخر ، ولا يلتقي هذا القرد ، الا بالانسان فقط .. ونظم المعهد المذكور برنامجا خاصا لهذا القرد ، استخدمـت فيه اجهزة تسجيل الصوت والاشارات ، وغيرها ، وهكذا بدأ القرد يتلقى تعليمه المنتظم مـن

---

١ - ملحق جريدة الراي العام الكويتية في ٢٢ـــ٥ـــ١٩٧٧ .

الانسان ، كما لو كان طفلا عاديا ، واستمر هذا البرنامج اكثر من حولين كاملين ، بمعدل ست ساعات يوميا ، وبعد ذلك ، ظهر للعلماء ، والخبراء المختصين ان القرد ، تعلم جميع العادات ، والحركات التي يقوم بها الانسان، في حياته اليومية ، ولكنه لم يستطع أن يتعلم نطق كلمة واحدة ، واثناء فحص مناطق الكلام في الدماغ ، بدا واضحا انه بمجرد اثارة هذه الخلايا ، بفعل الموجات الكهربائية ، يبدأ القرد باخراج خليط من الاصوات التي لا اول لها ، ولا اخر .. وذلك لان المناطق هذه ليست مزروعة في الدماغ ، من أجل الكلام وانما من اجل وظائف اخرى ، يدل على ذلك العجز الواضح ، في القرد عن الكلام وعن الفكر (١) » .

الحليب يكشف الحقيقة :

ولعل أروع التجارب التي جرت في هذا المجال ، هي التجربة التالية :

قام لفيف من العلماء في حقل الكيمياء ، باجراء امتحان دقيق على الحيوانات ، ولكن التجربة هذه المرة عن طريق الحليب وليس عن طريق المخ ، فقد اخذوا حفنة من حليب الانسان ، وايضا اخذوا من كل حيوان حفنة من الحليب ، وذلك في محاولة جادة ، لمعرفة اقرب أنواع الحليب ، الى الانسان .. وكانت التجربة دقيقة للغاية ، حيث امتحنوا كل انواع الحليب كيماويا ، وفي النهاية طلعت النتيجة المذهلة ، وذلك لان تسلسل الارقام اثبت ان حليب القرد ، هو ابعد انواع الحليب عن الانسان !.. والخارطة تبدأ بحليب الانسان ثم تستمر ، لتنتهي بحليب القرد !. وهي كالتالي :

---

(١) جريدة الراي العام الكويتية في ١٠ = ٤ = ١٩٧٧ .

١ ــ حليب الانسان .

٢ ــ حليب الحمير .

٣ ــ حليب البقر .

٤ ــ حليب الغنم .

٥ ــ حليب الابل .

٦ ــ حليب القطط .

وهكذا ستمر القائمة ، الى اكثر من مائة نوع من الحليب ، حتى يأتي حليب القرد بعد الرقم المئة ، في النهاية !. وبهذا تكون نظرية دارون ، قد فقدت قدرتها على المقاومة ، امام جبروت العلم ، فسقطت تتمرغ بأوحال الهراء التافه ..

والان ، بعد هذه الجولة السريعة ، نرجع الى طرح السؤال من جديد ، وهو :

لماذا اراد دارون ان يصور اصل الانسان ،بهذه الصورة البشعة ، التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ؟!..

بصراحة : الجواب يكمن في معرفة نشاط اليهود ، في العالم ، ولكي تأتي الصورة واضحة ، فلا بد من عرض النص اليهودي بهذا الشأن . وذلك من خلال بروتوكولالات حكماء صهيون ، الكتاب الشهير !.

جاء في البروتوكول الثاني :

« لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا ان نجاح دارون ، وماركس ، ونيتشه قد رتبناه من قبل ، وان الاثر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الاممي سيكون واضحا لنا على التأكيد .. ان دارون ليس يهوديا ، ولكننا عرفنا كيف ننشر اراؤه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الديـــن (١) » .

وهنا يبدو واضحا ان الذي يقف وراء انتشار نظرية دارون ، وافكار فرويد ، ومذهب سارتر الالحادي الخليع ، هذه كلها يقف وراءها اليهود ، وتحركها اصابع الصهيونية ، بغية تحطيم الدين ، واسقاط اعمدة الاخلاق ، في المجتمعات الاسلامية !..

نقطتـــــان :

وبالتالي : فان نظرة خاطفة ، يلقيها الواحد منا ، على ما يدور حـــول نظرية دارون ، من خلفيات ، وتصريحات تكفي للكشف عن نقطتين هامتين :

الاولى : النظرية ، وما يترتب عليها من مضاعفات خطيرة تشكل ضربة نجلاء لكرامة الانسان .. وذلك لان ارجاع الانسان الـــى حظيرة القرود ، والفهود ، والضفادع ، يجعله في مستوى الحشرات ، وهل للحشرات قيمة ؟

لا . بالطبـــــع ..

اذن : فالانسان لا قيمة له ، شأنه في ذلك شأن سائر الحشرات !. وبعد ذلك فلا غرابة ان نسمع (لينين) يصرح : بأن قيمة الانسان لا تساوي

---

(١) التطور والثبات صفحة ٣٣ .

أكثر من قيمة الاملاح التي يتكون منها البدن .. وقيمتها لا تساوي النصف دينـــار فقط .

وايضا ، فليس غريبا ، ادخال الملايين من الناس ، في غياهب السجون تحت العن انواع التعذيب ، في كل بقاع العالم ، دون ان يرفع احد اصبع الاحتجاج ، لا في الغرب ، ولا في الشرق على الرغم من الانين الموجع ، الذي ينطلق من السجون المزروعة تحـــت الارض .. انين النازفين .. انين المحرومين .. انين المعذبين .. انين الطفولة البريئة .. انين الشيخوخة الهرمة .. انين المراة المعذبة انين الظهور الملتهبة تحت السياط !.

فالعالم يسمع انين الشعوب ، لكنه لا يدافع عنها !.. لان الحضارة المادية ، لا تتعامل مع الانسان ، الا من خلال تعاملها مع الحيوان !. يدل على ذلك ، ما يجري في العالم ــ في آسيا .. وامريكــا .. وافريقيا .. واوروبا ــ حيث يتم القضاء على الناس ، بنفس الطريقة التي يتم فيهـــا القضاء على الذباب ، والحشرات التائهة !.. ففي افريقيا ــ مثلا ــ يرشون الناس بالرصاص ، ويمطروهم بالنار على طريقة الخلاص من الذباب ، والبعـــوض !..

وما جرى في ايران ــ ايــــام الشاه ــ وما يجري في افغانستان ، وباكستان ، وارتيريا ، وفلسطين .. وجنوب لبنان الجريح .. وايضا مــا يجري في دول اخرى ، عربية واسلامية ، خير دليل واكبر حجة علـــى مـــا نقـــول !..

وحين نسمع اليهود ، في تصريحاتهم يؤكـــدون : انهم عرفوا كيـــف يستفيدون من وراء نظرية دارون ، ونظرية فرويد ، وماركس ونيتشه .. فان القضية لا تحتمل اللعب واللف ، والدوران ، وانما هي تستحق وتستأهل الجد ، والصدق ، في التحري عن المأساة واخذ ناحيتها .

واخيرا : الم اقل لكم ان النظريات الهدامـــة هذه ، تستهدف ضرب الاسلام ، وضرب القرآن والاخلاق ، حتى يسهل بعد ذلك ، كل شيء ، من المزايدة على الشعوب ، الىسحقها بالارهاب !. في الوقت الذي يصرح فيه القرآن الكريم : « من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارلاض ، فكأنمـــا قتل الناس جميعا ، ومن احياها ، فكأنما احيا الناس جميعا » المائدة ٣٢ .

من هنا نعرف ، ان قيمة الانسان في نظر الاسلام ، تساوي العالم ، وليس الانسان حيوانا يساق الى الذبح امام الاشهاد .

هذا ، كان بالنسبة للنقطة الاولى .. اما النقطة الثانية ، فهي عندما اتخذت اليهود من نظرية دارون ارضية صلبة ، تقف عليها نظريات ، فرويد ، وماركس ،ودركايم .. كانت المؤامرة على الدين ، تأخذ حجمها الحقيقي.

وهكذا اخذ السباق يشتد في الحلبة اكثر ، فأكثر ، حول مـــن يحـــرك الانســـان ؟!.

ــ : الغريزة الجنسيـــة ؟!.

ــ : الاقتصاد ، وحـــب المال ؟!.

ــ : الالحاد ، في حـــب الذات ؟!.

ومن كل فرع انتشرت فروع ، تلتها فروع اخرى .. فالعالم النفسي فرويد ، عندما رأى نظرية دارون ، تؤكد على ان الانسان انحدر من اصلاب القرود ، والحيوانات ، وجدها فرصة سانحة ، فراح ــ هو الاخـــر ــ يركز على حيوانية الانسان ، وانه من حق الواحد منا ان يتمتع في الحياة ، ويأكل ، كما تأكل الانعام ، لان الانسان ــ والكلام ما زال لفرويد ــ شأنه شأن سائر الحيوانات ، جاء الى الحياة من اجل ان يأكـــل ، ويضاجع،

ويمارس الجنس !.

وانتشرت هذه النظرية، في المجتمعات المادية، انتشار النـــار، في الحطـب الهشيـــم !.

والذي زاد في الخطر اكثر، هو : ان فرويد، ركز في نظريته، على ان الامراض النفسية .. مردها الى الجنس .. فهي نشأت بسبب الكبت والحرمان، والجوع الى الجنس !.

واطلق ــ فرويد ــ صرخته التي دوت في قلب العالم الخاوي مـــن الايمان، مطالبا باطلاق حرية الجنس الى اقصى الحدود، حتى يتم القضاء على الامراض النفسية ــ على حد زعمه ــ .

وفي الحال، استجابت اوروبا المادية، لنداء فرويد، فأخذت نوادي العراة تنتشر في العالم، كما ينتشر القرع في الصحراء ايام الخريف !.

وراحت موجة الجنس، تشتد يوما بعد يوم، فتلف البلاد، وتغـــرق العباد، مصحوبة بسيل جارف، من موجات العنف، والاغتصاب والسرقة، والاختطاف، والجريمة، بأبشع صورها . هذا بالاضافة الى التحطم الكامل الذي ضرب العائلة، فكسر اعمدتها .. زد على ذلك التحلل الخلقي البغيض، الذي خلفته موجة الجنس هذه، وكنتيجة طبيعية لهذا الانفلات الحيواني، فان موجة الامراض الجنسية الخبيثة، نزلت تعصف بالشباب كما يعصف الاعصار بالربيع !.

ويظل السؤال يلح علينا :

هل استطاع فرويد ان يقضي على الامراض النفسية، او حتى ان يخفف من حدتها ؟!.

بالطبـــع .. لا ..

فالامراض النفسية في ازدياد مروع !.. ثم اعقـب الخطب ، خطب اخر . اكثر فداحة حيث طلع علينا الاستاذ الملحد الخليع (سارتر) .

وهذه المرة ، طلع علينا سارتر ، بنظرية تقطر الحادا ، وكفرا ، وتفوح منها رائحة الجنس العفن !.

وايضا ــ كما هي العادة عند اليهود ــ يتخذ سارتر من نظرية دارون ، وفرويد ، مطية ذلولا ، لنشر افكار اليهود في العالم ، ومن ثم ضرب الاسلام في الصميـم .

وما يقال في شأن دارون ، وفرويد ، وسارتر يقال ايضا ، في شأن كارل ماركس ، وانجلز ،ودركايم ، ونيتشه ، وغيرهم من العلماء اليهود ، الذين جعلوا من نظرية دارون معولا هداما لضرب الدين ، وتفكيك المجتمع المسلـــم !.

القسم الخامس

في أسئلة الشباب

بنـــاء المجتمع الاسلامي

هذه حفنة من الاسئلة ، التي جـرت بيني ، وبـين بعض الشباب المؤمن ، خلال ايا محرم ، في الكويت واتماما للفائدة ، احببت ان اسكبها في نهاية الكتاب والله من وراء القصد .

بسم الله الرحمـن الرحيم

السؤا لرقم (١) :

ما هي الاعمدة الرئيسية ، التي يقوم عليها ، بناء المجتمع الاسلامي ؟.

الجـــواب :

يقوم المجتمع الاسلامي ، على ثلاثة اعمدة رئيسية !..

وهي كالتالـــي :

١ ــ الايمان باللــه .

٢ ــ الاستقامـــة .

٣ ــ الحريـــة .

واي مجتمع يفقد واحدا ، من هذه الاعمدة ، لا بد ان يسقط في التيه ، والتمزق .. فقد اثبت علم الاجتماع ، على اختلاف مذاهبه وفروعه ، ان الايمان ، والاستقامة ، والحرية ، هي ثلاثة منابع ، تشكـل ثلاثة ضروع سمان ، يرتضع المجتمع ، منها بقاءه ، وعطاءه ، فهي للمجتمع ، كالثـدي

للطفل .

وذلك لان الايمان بالله ، يعطي الاستقامة في الحياة .. والاستقامة – بدورها – تؤدي الى استيعاب المجتمع للحرية ، والحفاظ عليها من التلف والضياع .. بالاضافة الى ان هناك الثقة التي يزرعها الاسلام ، بين الحاكم والشعب ، وهذه وحدها ، تكفي لشد المجتمع برباط المودة ، والرحمة .

والذي تجدر الاشارة اليه ، هو ان الامام عليا – عليه السلام – كان قد ركز على اهمية هذا الرباط ، واشار الى دوره العميق في وفاء الشعب للحاكم ، واخلاص الحاكم للشعب وذلك من خلال كتابه لمالك الاشتر النخعي ، حين قلده مصر :

يقول الامام : « .. واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم ، فانهم صنفان : اما اخ لك في الدين ، او نظير لك في الخلق ، يفرط (يسبق) منهم الزلل (الخطأ) وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على ايديهم في العمد ، والخطأ ، فاعطهم من عفوك ، وصفحك مثل الذي تحب وترضى ان يعطيك الله ، من عفوه ، وصفحه ، فانك فوقهم ، ووالي الامر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك .. وقد استكفاك امرهم (اي اطلب منك كفاية امرك ، والقيام بتدبير مصالحهم) وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله (١) » .

اراد بحرب الله ، مخالفة شريعته ، بالظلم والجور .

وفي مكان اخر ، نسمع الامام عليا ، يوصي الحاكم الاسلامي ، – عن

---

(١) نهج البلاغة صفحة ٤٢٧ .

طريق محمد بن ابي بكر — كيف يعامل الشعب :

« .. فاخفض لهم جناحك ، والن لهم جانبك ، وابسط لهم وجهك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة (آس : امر اسى — بمد الهمزة — اي سوى، يريد ، اجعل بعضهم اسوة بعض اي مستوين) حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم (اي ظلمك لاجلهم) ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم ، فان الله تعالى يسائلكم ، معشر عباده ، عن الصغيرة من اعمالكم ، والكبيرة ، والظاهرة ، والمستورة ، فان يعذب ، فأنتم اظلم ، وان يعف فهو اكرم (١)».

وتحت شعار : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » تذوب الجنسيات ، وتختفي الفوارق ، وتموت القوميات ، فيعيش الناس في حرية وسعادة ، فلا تميز عنصري ، ولا عصبية قبلية ، ولا اعتقال تعسفي ، ولا طبقة فقيرة محرومة ، واخرى غنية مترفة وانما الكل يتمتع في ظل الاسلام ، بالعيش الكريم ، والحقوق الانسانية ، حسب الموازين الاجتماعية المقررة في الفقه الاسلامي ..

السؤال رقم (٢) :

هل في استطاعة قانون العقوبات — وحده — ان يحمي المجتمع من التصدع ، والانهيار ؟.

الجواب :

في الحقيقة .. ليس في استطاعة قانون العقوبات ، وحده ان يحفظ المجتمع من الانزلاق في الهاوية . وذلك لسبب بسيط ، وهو : ان الاسلام

---

(١) نهج البلاغة صفحة ٣٨٣ رقم العهد ٢٧ .

لا يطير بجناح مكسور .. ودائما . نصف الشيء ، لا يعطي حقيقة الشيء كاملـــة .

يقول القران الكريم : « افتأمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا .. » .

نعم .. يستطيع قانون العقوبات ، ان يصنع مجتمعا راقيا ، من الطراز الرفيع .. اذا كان المجتمع يعيش في ظل الاسلام لا في ظل الغرب ، والشـــرق ...

السؤال رقــم (٣) :

كيف يقضي الاسلام ، على الجريمة ، وينظف المجتمع من الظلـــم ، والفســـاد ؟.

الجـــواب :

لو اخذنا ملفات الجريمة في القضاء ، ودرسناها دراسة واعيـــة ، ودقيقة ، لظهرت لنا حقيقة ملفتة للنظر وهي : ان كل الجرائم . انمـــا تنبع من شيئين اثنين لا غير ، وهما : الظلم ، والفقر !. .

وبالفعل ، فقد اثبت علم الجناية ، الذي هو فرع من علم الاجتماع ، والنفس ، اثبت : ان الجرائم كافة ، تنشأ بسبب الظلم ، والفقر !.

(ومن اراد المزيد من التوسع ، في هذا المجال ، فليراجع مصادر كتب علم الاجتماع ، والنفس ــ في المكتبة العامة ــ التي تبحـــث في اسباب الجريمة ، وانتشارها في المجتمع ..) .

واذا عرفنا ذلك ، ادركنا عمق الاسلام ، في مناهجه الاجتماعية ، عندما يقضي على الظلم ، والفقر ، بتوفير الامن ، والطعام !.. يقول القرآن الكريم : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .. » .

اذن : فأول خطوة ، قام بها الاسلام ، في طريق بناء المجتمع ، كانت في محاربة الظلم ، والفقر ، عن طريق زرع الامن في المجتمع ، وتوفير الطعام في البيوت .

اما زرع الامن في المجتمع ، فأوجده الاسلام ، برفع الظلم عن صدر الناس ، وذلك من خلال خلق الحاكم الاسلامي العادل ، المحسن ، الذي اذا عاش مع الناس حنوا اليه واذا فارقهم بكوا عليه ..

وبالمثل : كان عمار بن ياسر ، واليا على الكوفة من قبل عمر بن الخطاب ، ويوم ارتحل عنهم ، بكوا عليه ، وقالوا : ما راينا مثلك حاكما عادلا ، علمتنا الكتاب والسنة واقمت بيننا بالعدل ..

وليس ادل على ذلك ، من اسلوب الامام علي — عليه السلام — في الحكم .. فقد امتد نور الاسلام — في ايامه — على جسد الكرة الارضية ، حتى اضاء قرابة خمسين دولة في العالم ، اخذا من آسيا ، وافريقيا ، واوروبا وبلاد الفرس ، والروم — باستثناء الشام وضواحيها ، التي سقطت بيدي معاوية — !.

وفي الحقيقة ، كان الظلم ، والفقر ، قد اختفيا بالمرة ، من الساحة ، في غضون حكومة الامام علي .. تدل على ذلك ، الصور الرائعة التي ما زال التاريخ يحتويها لحد الان !..

ويكفي للتدليل على ذلك ، ان تعرف ، بأن امراة من اهل البصرة ،

جاءت الى الكوفة ، لتشكو الى الامام علي ، واليه على البصرة ، بسبب ظلمه الذي كان يمارسه على المجتمع .

فما كان من الامام علي — عليه السلام — الا ان بكى ، ورفع طرفه الى السماء قائلا : اللهم انك تعلم اني ما ارسلت اليهم ولاة يظلمونهم .. ثم اخرج من جيبه ورقة ، وكتب فيها عزل الوالي !.. فرجعت المراة (سويدة) تحمل كتاب عزل الحاكم معها !..

وهل هناك ، اروع من هذه الصورة في العالم ، اليوم ؟ .. كلا .. بالطبع ..

اوليس الامام علي ، هو القائل : « ولو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة — ولعل بالحجاز ، او اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع — او ابيت مبطانا وحولي بطون غرثى ، واكباد حرى ، او اكون كما قال القائل :

« وحسبك داءا ان تبيت ببطنة

وحولك اكباد تحن الى القد »

اقنع من نفسي بأن يقال : هذا امير المؤمنين ، ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، او اكون اسوة لهم في جشوبة ، العيش ، فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة ، همها علفها (١) » .

....

(١) نهج البلاغة صفحة ٤١٦ رقم الكتاب ٤٥ .

هذا من جانب اقامة العدل ، وزرع الامن ، واعطاء الحرية ، برفع الظلم عن المجتمع .. اما من جانب محو الفقر ، والقضاء علـــى وجوده في المجتمع الاسلامي .. فيكفي دليلا على ذلك ، الرخـــاء الاقتصادي ، الذي عم الوطن الاسلامي الكبير ، في حكومة الامام علي — عليه السلام — .

والشيء الملفت للنظر ، هو اختفاء مظاهر الفقر من البلاد الاسلامية بالكامل .. بحيث لم يحفظ التاريخ — لنا — سوى حادثة واحدة ، وقعـت في الكوفة ، عندما كان الامام علي ، ماشيا مع عبد بن ابي رافع ، كاتـب بيت المال (وزير المالية والاقتصاد) اذا راى شيخا كبيرا ، قد هدمت الايام قوته ، فوقف على قارعة الطريق يستعطي من الناس !..

حقا انه غريب جدا ، ان تقع مثل هذه الحادثة ، في زمان يقود فيه علي، العالم الاسلامي كافة !..

وهنا ، احس الامام بموجة الالم تجري في اوصاله ، بحيث توقف عن المشي ، والتفت الى عبد الله بن ابي رافع يسأله في حيرة :

مـــا هـــذا ؟!..

انظروا ، جيدا . صيغة السؤال (ما هذا) .

ان الامام ، لم يقل من هذا ، بل قال ، ما هذا ، والفارق واضح بين الصيغتين ، وذلك لان اهمية السؤال ، لا تنصـب عـلى اسم الشخـص المستجدي ، ورقم هويته ، وانما هدف السؤال ينصب على ظاهرة الفقر ، هذه التي برزت ، فجأة في المجتمع الاسلامي ... حقا انها ظاهرة مزعجة ، تثير الترف في النفس ، واي ظاهرة منفرة ، تلـــك التي يبيع الانسان فيها كرامته ، مقابل دراهم معدودة ، يلتقطها من الاكف !..

ولهذا ،جاء سؤال الامام بهذه الصيغة :

مـــا هـــــذا ؟

اجابه الكاتب : يا سيدي يا امير المؤمنين ، انه رجل مسيحي يستعطي المارة !.. واشتد غضب الامام اكثر ــ هذه المرة ــ (الغضب ، هنا من اجل الله ، وحقوق الانسان طبعا) .

والتفت الامام الى عبد الله قائلا :

« اشغلتموه حتى اذا كبر ، وتعب ، تركتموه بتكفف الناس .. خــذه وافرض له عطاء من بيت المال » ولا يتكــرر هذا المنظر امــام عينــي فــي المستقبـــل !..

وحادثة اخــرى مماثلة :

جاء رجل يطلب من الامام علي ، المال لاهله ، وعياله ، فقال الامام ، لخازن بيت المال : اعطه مائتين .. ولان الامام لم يقل : اعطه مائتي دينار، او درهم فلذلك اراد عبد الله ، ان يستوضح المسألة اكثر ، مــن الامام ، فقــال لــه :

سيدي ، هل ادفع له دينارا ، او درهما ، (يقصد مائتي دينار ، او درهم) فأجابه الامام قائلا : « يا عبد الله ، اعطه اكثرهما نفعا لــــه ، فكلاهما عندي حجر » .

وهذا يدل على فهم الاسلام ، للحياة ، فهما دقيقا ، وعميقـــا !..
والخلاصة : ان المجتمع الاسلامي ، في عهد حكومة الامام علي كان يتقلب

في أحضان الامن ، وموائد النعيم ، وتلك حقيقة ثابتة يستطيع كل واحد منا ان يلمسها بسهولة في التاريخ الاسلامي الصحيح .

هذا من ناحية الفقر ، والظلم ، اللذان يساعدان على انتشار الجريمة في المجتمع .

أما من ناحية الجوانب الاخرى ، فقد وضع الاسلام مناهجا في التربية الاجتماعية ، تتكفل بتنظيف المجتمع من الظلم ، والفساد ، والجريمة ، بشكل منقطع النظير !..

ولكي تكون الصورة واضحة ، لا بد من طرح السؤال بالشكل التالي :

كيف يستطيع الاسلام ، ان يقضي على الجريمة في المجتمع ؟

الجواب :

هناك طريقة منهجية ، يسير عليها الاسلام ، في بناء المجتمع ، وانقاذه من مخالب الجريمة .

والطريقة تأخذ بعدين ، من الانسان ، وهما :

البعد الداخلي .. والبعد الخارجي ..

ففي داخل الانسان ، يقوم الاسلام ، بتعميق الايمان في النفس ، وتجذير التقوى في القلب ، من خلال نشر التوعية الاسلامية ، والثقافة الاخلاقية ، في اوساط المجتمع المسلم ، فضلا عن المناهج التربوية

الاخرى ، الكفيلة بصنع الشباب ، صناعة مناقبية ، على أساس الايمان ، والتقوى ... ولا ننس الاثر الفعال ، الذي يتركه الايمان بالله في الفـرد ، وسلوكه ، فهو (اي الايمان) يخلق ملكة في داخل البشر ، وظيفتها مراقبة الاعمال ، وتوجيه الانسان نحو الخير ، والصلاح .. في الوقت الذي يتجنب فيه المؤمن كل غلطة ، وشائبة ، ويترفع عن كل سقطـــة ، وكبوة ... باعتبار ان الله عز وجل ، يسمع كلامه ، ويرى افعاله ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهو اقرب اليه من حبل الوريد !..

هذه الخطوة الاولى ، اما الخطوة الثانية التي يقوم بها الاسلام فـي تطهير المجتمع ، من الظلم ، والفساد ، والجريمة ، فهي تتمثل ، في الحظـر الشامل ، الذي يفرضه الاسلام ، على مواطـــن الفساد ، والتحلل .. فالاسلام — مثلا — لا يسمح بفتح حانات الخمور ، والملاهي الليلية ، وايضا، فهو لا يتساهل في فتح المسابح المختلطة ، ويمنع الرقص المختلط الرخيص، ويحارب مظاهر التهتك ، والسفور الخليعة ..

وبكلمة : فالاسلام يمنع كل موجة داعرة يغذيها اليهود ، مـن اجل السيطرة ، والاستغلال .

ولا شك ان هذه الاشياء ، تساعد ، على انتشار الجريمة ، وخلق الفوضى في المجتمع .

فالخمرة — مثلا — تؤدي الى توسيع دائرة الجرائم ، من القتـل ، والنهب ، والاعتداء على الاعراض ، وما شابه ذلك .

والتحلل الخلقي ، يسوق المجتمع الى الهاوية ... والسفور يـؤدي الى زيادة موجة الاختطاف ، والاغتصاب ، وشيوع الزنا .. وما يقال فـي هذه ، يقال في بقية المحرمات ، والذنوب .

اضف الى ذلك ، ان الاسلام ، يعطي حاجات الناس جميعا ، ويحرص على اشباع الغرائز بالشكل المعقول الذي يوافق الفطرة ، ويتناسب مع كرامة الانسان ..

ومن باب المثال : عندما يحل الاسلام ، مشكلة الجنس ، عن طريق الزواج المبكر ، والقضاء على العراقيل ، والاحجار ، والاشواك المنتصبة في طريقه ، اقول عندما يفعل الاسلام ذلك ، فان جريمة الزنا تختفي من المجتمع بالمرة .

فالاسلام ، يرى ان اكبر مأساة ، واكبر مشكلة في المجتمع هي مشكلة الفتاة ، في مرحلتين هما :

مرحلة عدم زواج الفتاة .. ومرحلة سقوطها في احضان الشيطان ... ومن اجل هذا ، ركز الاسلام تركيزا عميقا على تسهيل الزواج ، ودفع قطاره بسرعة ..

فحتى الذي لا يجد المال الكافي للزواج ، يعطيه الاسلام ، كل نفقات الزواج ، من بيت المال ... فقد ذكر التاريخ ، انه : جيء للامام علي ، بشاب اعزب ، كان قد استمنى — اي انه مارس العادة السرية — فضربه الامام علي ، حتى احمرت يده ، ثم زوجه من بيت المال — كما جاء ذلك في كتاب الحدود ، في الفقه الاسلامي — فاذا سار قطار الزواج ، مات الزنا تحت عجلاته الثقيلة ، وذلك لان اغلب الذين يزنون ، لا يملكون زوجة تعصمهم من الزنا .. ومن هنا كان العزاب يشكلون خطرا ، على سلامة المجتمع .. يقول الرسول : « شرار امتي عزابها .. » .

وفي النهاية ، تأتي الرقابة الاجتماعية ، المتمثلة في قانون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو قانون يضمن مسح الجريمة من اذيال المجتمع وقد ركز القرآن الكريم على اهمية هذا الجانب بالذات حتى

جعل السعادة والخير ، نابعين من الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر !

يقول القران : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون ، بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

ويقول الامام علي :

« لا تتركوا الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم فلا يستجاب لكم » .

وهذا قانون يقع على عاتق الرجل ، والمرأة ، على السواء .

اذن : فالاسلام ينظف المجتمع ، اولا من الظلم ، والفقر ، بأن يوفر الامن ، من خلال الحاكم الاسلامي العادل ، والانظمة الاسلامية الاجتماعية العادلة ، وثانيا ، يوفر الطعام ، عن طريق حرية العمل ، والضمان الاجتماعي — المذكور في الاقتصاد الاسلامي .. حتى ان الفقهاء ، ذكروا ، ان العامل الذي لا يستطيع ان يسد قوت يومه ، من خلال عمله ، له الحق في أخذ بقية ما يحتاج من مال ، وطعام وغيره من بيت المال .

هذا ، وان الشريعة الاسلامية ، اذا نزلت الى المجتمع ، خلقت جوا من الايمان ، والاستقامة ، والحرية ، يستحيل معه أن يوجد اي نوع من انواع الفقر ، والظلم ، والجريمة ..
واخيرا : كما قلت : اولا ، ان حكومة الامام علي ، عليه السلام — هي اروع صورة للحاكم الاسلامي العادل ، في المجتمع الاسلامي المرفه ..

السؤال رقم (٤) :

هل في الاسلام نظام للسجون ؟

الجواب :

بالطبع .. لا ..

ليس في الاسلام ، نظام للسجون ، بالمعنى المعاصر .. ابدا .. وانما هناك فقط اربعة من الافراد الذين يسجنون ، لايام معدودة فقط ، ومدد تتراوح ، بين الشهر ، والمؤبد ، كما هو مذكور في كتب الفقه ..

اما نظام السجون السائد في العالم اليوم ، فيرفضه الاسلام ، رفضا قاطعا ، بالشكل ، والتفصيل ..

والسبب واضح جدا .. وهو لماذا يسجن المجرمون ؟ وهل في السجن رادع لهم عن الجريمة ؟!

ابدا ، ليس في السجن رادع ، يدل على ذلك الواقع الذي نلمسه بأيدينا ، ونراه باعيننا ، وهو كلما زادت السجون ، ازدادت الجرائم كثرة ووحشية .

فلا مكان للسجن في الاسلام .. لان السارق تقطع يده ، والزاني يجلد ، والقاتل يقتل .. فلا مجال هناك للتساهل مع المجرمين .. ان النظام الاسلامي وحده الذي يستطيع ان يقضي على كل ذيول الجريمة في المجتمع .

على ان الاسلام يرفض فكرة السجون ، للاسباب التالية : وهي :

اولا : الضرر الاقتصادي ، ويتمثل في ان السجين كان عنصرا منتجا

في المجتمع ، فتحول الى عنصر مستهلك في السجن .. فاذا كان السجين عاملا ، يستطيع توفير خمسة دنانير ، له ولعائلته ، يصبح في السجن عاطلا عن العمل ، وهذا يعني اننا ساهمنا في تصدع الاقتصاد الوطني ، بخمسة دنانير يوميا ، بالاضافة الى ان الدولة تنفق عليه ما لا يقل عن خمسة دنانير يوميا ، بين الاكل والكهرباء والماء ، والحراسة .. فيصير المجموع عشرة دنانير .. اي ان سجن واحد من الافراد ، كلف عشر دنانير يوميا ، خزينة الدولة .

وثانيا : التحطم الذي سيصيب عائلة السجين ، بسبب غيابه عنهم.. ولنفترض انه متزوج ، وله اربعة اطفال ... فمن اين ينفقون على انفسهم .. ثم هل في امكان الزوجة ان توفر للاولاد ما يحتاجونه من كسوة ومعاش ودفع اجار البيت ، ودفع اقساط المدرسة ؟

بالتأكيد . لا ..

واذا كان الامر كذلك ، فلا بد للزوجة من احد طريقين : اما ان تتزوج وتترك الاطفال ، واما ان تنزلق في طريق الشيطان ، من اجل توفير لقمة العيش ..

والنتيجة واحدة .. فهي اذا تزوجت تركت الاطفال يسيرون في المنعطفات الحادة في المجتمع ، وهي ايضا . اذا تدحرجت في منحدر الرذيلة تحولت الى عنصر فساد في المجتمع ، اضافة الى الاطفال الذين سيتحولون بدورهم الى مجرمين محترفين،ينشرون الفوضى ، والذعر بين صفوف الناس.

ثالثا : ان السجن ، يغذي الفرد ، بالجريمة ، فيتحول الى اكثر اجراما ، يوما بعد يوم ..

وتصوروا ان سارقا ، لم يمارس السرقة في حياته ، ولظروف خاصة،

وقع في السرقة .. انه عندما يدخل السجن ، يعيش مع مجموعة كبيرة من اللصوص والسراق ، وهؤلاء ، لا شاغل لهم ، خلال الليل ، والنهار ، الا الحديث عن السرقة ، وطرقها ، واتقان فنها .. فكل يوم يجلس السجين فيه مع السجناء ، يستمع الى اكثر من عشر محاضرات في السرقة ، واساليبها ومقومات النجاح فيها . وهذا يعني ـ ببساطة ـ ان السارق الذي دخل السجن وهو لا يعرف اي شيء من فنون السرقة ، سوف يتخرج من السجن (دكتوراه بالسرقة) .. ولذلك لم يكن نظام السجون رادعا للجريمة ، ولم يستطع ان يخفف من موجتها ابدا .. حتى قال مدير سجون لبنان السابق :

« ان السجون اصبحت مدارس للاجرام بالمجان .. » .

ورابعا : يتعود السجين ، على البطالة ، وعدم الحركة ، وهذا اكبر خطأ في قانون السجون .

اما في الاسلام ، فقانون العقوبات كفيل بمحو الجرائم من المجتمع، خصوصا اذا طبق هذا القانون ضمن القوانين الاسلامية الاخرى .

السؤال رقم (٥) :
هل هناك اية في القرآن تدل على تحريم الخمر ؟
الجواب : نعم .. هناك اكثر من آية ، تدل على التحريم القطعي للخمور ! ..

وفي الحقيقة ، ان القران الكريم ، كعادته في معالجة ، المشاكل الاجتماعية ، يتبع طرقا للعلاج ، تتمشى مع نفس الفرد ، وتتناسب مع حالة المجتمع .. اخذا بالاعتبار العادات ، والتقاليد ، المترسبة في أعماق المجتمع .. ولذلك ، فهو (اي القران) لا يبدأ راسا ، بتحريم الاشياء المحرمة ، وانما يتدرج في سلم التحريم تدرجا خفيفا ، حتى يصل الى غايته ، باقصر الطرق ، واسهلها ، وهذا ، هو سر عظمة القران ، وسر

اعجازه في كل زمان ، ومكان ..

وواضح ان الخمرة كانت تدار في المجتمعات الجاهلية ، قبل الاسلام — كما تدار علب السجاير ، في مجتمعاتنا الحاضرة ، ولذلك كان من الصعب، تحريمها في مرة واحدة ، دون مسبقات ، وانما كان التحريم يحتاج الى خطوات تمهيدية ، حتى تسهل فيما بعد . فكرة التحريم ، وتلقى القبول من الناس اجمعين .. وهذا ما حدث بالفعل !.. والان تعالوا معي ، نقرأ الايات المباركة ، على التوالي :

يقول القران الكريم :

« ومن ثمرات النخيل والاعناب ، تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان في ذلك لاية لقوم يعقلون » (سورة النحل اية ٦٧) .

هذه اول اية ، نزلت لاشعار الناس ، بتحريم الخمر ، ولكن بطريقة سايكلوجية عميقة ، تفوق التصور .. لانها عندما ذكرت ثمرات النخيل والاعناب ، قالت : « تتخذون منه سكرا ، ورزقا حسنا » !!.. فذكرت السكر .. وفي المقابل ذكرت الرزق الحسن .. وهل السكر رزق حسن ؟.. كلا . بالطبع .. اذن .. فالخمر رزق غير حسن ، ومن هنا جاء التحريم .. اضف الى هذا ، ان الاية المباركة ختمت قولها بعبارة : « ان في ذلك لاية لقوم يعقلون » ! وهل يستطيع الانسان ، ان يستفيد من عقله اذا كان سكرانا ؟.. كلا ، ثم كلا .. اذن : فالاية حين تقول : « .. لقوم يعقلون » فانها تشير الى اهمية العقل ودوره في علاقة الانسان بالله عز وجل .. ولان الخمر تعطل العقل عن العمل ، فهي محرمة ، حرمة غليظة ..

فالاية المباركة ، فيها اشعار بتحريم الخمر ، بوصف قسيمها بالحسن (ورزقا حسنا) كالتمر والزبيب ، والدبس ، والخل ، فلا تكون هي حسنة،

فليست بحلال ، وهي بعد ذلك ، جامعة بين المنة والعتاب .!..

وجاءت الاية التالية ، تؤكد الحرمة اكثر :

« يا أيها الذين امنوا ، لا تقربوا الصلاة ، وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. » (سورة النساء اية ٤٣) .

واذا كانت الصلاة خمسة اوقات في اليوم .. فمعنى ذلك ، انه ليس في الامكان الجمع بين الصلاة وبين شرب الخمر والا فكيف يستطيع شارب الخمر ، ان يقوم الى الصلاة وهو في كامل الوعي ، والانتباه ؟.. انه عمل من الصعب القيام به ، اذا لم يكن من المستحيل ... ومن هنا ، كان تحريم الخمر في هذه الاية ، قد نزل بطريقة مهذبة ، وفنية !..

وفي اية ثالثة ، ورابعة ، يأتي التحريم — هذه المرة — بصورة اكثر شدة ، واكثر وضوحا :

يقول القران الكريم :

« يا أيها الذين امنوا ، انما الخمر والميسر ، والانصاب ، (الميسر القمار ، والانصاب(اي الاصنام التي تنصب للعبادة) .. والازلام (القداح التي يستقسمون بها في لعب القمار) رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .. انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة ، والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة فهل انتم منتهون » (المائدة — ٩٠ — ٩١) .

وهنا ، نحن امام حرمة غليظة صريحة ، لا تعرف التسامح ابدا .. فالاية ربطت الخمرة بالقمار ، والاصنام ، وحصرت الجميع في نفق التحريم، وذلك لان الحصر ، جاء من بداية الاية المباركة ، حيث قالت : « انما الخمر

والميسر والانصاب والازلام) ومعروف ان (انما) هذه اداة للحصر ، فحصرت الخمر بالاصنام والقمار .. وهذا يعني ان حرمة الاصنام تسري على الخمر — ومن هنا جاء الحديث الشريف يفسر هذا المعنى بقوله : (شارب الخمر كعابد الوثن (اي الصنم) ! .

هذا من جانب ، ومن جانب اخر قوله تعالى : ان الخمر والميسر «رجس من عمل الشيطان ، والرجس معناه كل شيء خبيث قذر وهو محرم ، بنص القران ايضا ، في قوله تعالى : « .. ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث .. » (الاعراف اية ١٥٧) ثم تقول الاية ، انه : رجس من عمل الشيطان .. وهل عمل الشيطان حلال ؟!.

لا .. بالطبع ..

ولان عمل الشيطان محرم ، فهذا دليل ثالث في الاية على تحريم الخمر .. اما الدليل الرابع ، الذي هو اشد ، واغلظ في الحرمة ، فقوله تعالى : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون .. » .

وهناك فرق بين ان يقول لك ، هذا حرام ، فلا تشربه ، وبين ان يقول لك اجتنبه ، ولا تقرب منه !.

ان الاجتناب اشد حرمة ، من التحريم نفسه ، وذلك لان القران الكريم ، لو قال : الخمر حرام فلا تشربوها .. لكان من الممكن ان يجلس الانسان على مائدة الخمر ، دون ان يشرب .. مثلها في ذلك مثل لحم الخنزير .. فالله سبحانه ، قال حرم عليكم لحم الخنزير .. فالواحد منا يستطيع ان يجلس على مائدة الطعام ، وفيها لحم الخنزير ، ولكن دون ان يأكل من لحم الخنزير ، وانما يأكل لحم الغنم — مثلا — في حين ان المسألة تختلف تماما ، بالنسبة للخمر ، لان المطلوب ليس فقط الامتناع عن شربها، وانما المطلوب اجتنابها بالكامل ، وعدم القرب منها — ولهذا جاء في الحديث

الشريف : لعن الله شاربها وبايعها ، ومشتريها ، وحاملها » اذا عرفنا ذلك ، عرفنا الهدف العميق، الذي تريده الاية بقولها : « .. فاجتنبوه لعلكم تفلحون .. » .

من هنا ، كان مجرد الجلوس على مائدة فيها خمر ، جريمة كبيرة .. خصوصا اذا كانت هناك حفلة تدار فيها الكؤوس ، فان اشتراكك في الحفلة ، حتى ولو لم تشرب من الخمر ، يعتبر محرما ، في الشريعة الاسلامية .

وكما في هذه الاية ، كذلك في الاية التي تلتها ، حيث ركزت على ان الشيطان ، يتخذ من الخمر نافذة يتسلل عبرها الى عقل الانسان ، وقلب الانسان ، فيزرع العداوة والبغضاء ، ويصد الناس عن ذكر الله ، وعن الصلاة .

وهناك ايتان في الخمر ايضا وهما :

« يسئلونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ، ومنافع للناس، واثمهما اكبر من نفعهما .. » (سورة البقرة اية ٢١٩) .

اجل .. انه اثم كبير يؤدي الى ارتكاب ساير المحرمات ، وترك الواجبات ، ومنافع للناس من كسب المال واللذة ، والطرب .. ولكن عاقبة شرب الخمر ، مخيفة ومروعة ، لان فيها عذاب الاخرة ، وتحويل الحياة الى جحيم لا يطاق .. وكم من البيوت التي تحطمت من وراء السكر والعربدة ؟ وكم من حوادث الطلاق التي راح ضحيتها الاولاد ، في الضياع، والتشرد ، وراحت الزوجة في الحرمان والقلق ، بسبب شرب الخمر والقمار ..

ان الخمر تقتل المسؤولية ، لدى الانسان فلم يعد الفرد يشعر

بالمسؤولية ، ولذلك تراه يهجر زوجته واطفاله ، دون قوت ودون مـداراة حتى تصل القضية الى اعتاب المحاكم ، حيث ارقام الطلاق تزداد في خبال، وحيث التشرد والضياع !..

انها المأساه ، والمرارة .

ولذلك قال الله عز وجل : واثمهما اكبر من نفعهما — ويقال : ان هذه الاية ، هي أول اية نزلت في تحريم الخمرة ، ثم اعقبتها الايات التي مـرت علينـا ..

وفي قوله تعالى : « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم .. » (١) يبدو التحريم واضحا وذلك ، لان الاثم ، هو احد اسماء الخمر ، يدل على ذلك قول امريء القيس :

شربـت الاثم حتـى زال عقلـي

كذاك الاثـم تذهـب بالعقـول

وقد اثبت العلم الحديث ، ان الخمرة افة تحطم الجسم تحطيما كاملا، بحيث لا تسلم خلية واحدة ، من شر الخمر واثارها السيئة ، على الكبـد ، والقلب ، وبقية الاجهزة داخل البدن ..

هذا وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي محمد — صلى الله عليه واله وسلم — وعن اهل البيت — عليهم السلام — حول اضرار الخمر ، وتنصحنا بالابتعاد عنها — تجنبا للخطر الذي سيحيق بشارب الخمر .

---

(١) سورة الاعراف اية ٣٣ .

— تم الكتاب —


فهرست



